

محمد سعيد الزعيم



رجل الاقتصاد والأدب

بقلم ابنته :

أمية الزعيم

١٩٠٥ - ١٩٦٣

الى السيد
نبيل رهناء وطاج
مع محنتي وتقديرى
حبيب ١٥-٩-١٩٩٦

محمد بن عبد العزيز

رجل الاقتصاد والأدب

١٩٠٥ - ١٩٦٣

بقلم ابنته :
أميرة الزعيم

هَذَا الْبِنَاءُ الَّذِي قُرَّتْ دَعَائِمُهُ
فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهُ لَهُوَ حَجَرٌ

عمر بن عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

لله هدى

إلى روح والدي التي ما زالت
تؤنسني، تقود خطواتي، تحميّني
وتعينني على مصاعب الزمن

أقدم هذا الكتاب

والى أحفادي أميرة ونور وفواز
لآلئي الثلاث.

«أميت»

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٠٠٠/٩/١٩٩٦

مطابع ألف باء - الأديب - دمشق

رجع الذكريات

بقلم خالد سعيد الزعيم

كثير هم المحبون والأصدقاء الذين ماقتوا يلحون علينا بالسؤال :
لماذا لانعيد طباعة ماكتبه الوالد المرحوم محمد سعيد الزعيم ، وأن نزيد عليها
قطوفاً من نشاطاته الاقتصادية والأدبية والاجتماعية ، وقد مضى على ارتحاله إلى
جوار ربه نيف وثلاثون عاماً؟ والأعوام الثلاثة والعشرون التي عشتها مع المرحوم
والذي من ميلادي إلى حين وفاته ، لم أكن فيها أراه إلا مسافراً داخل القطر أو إلى
خارجه ساعياً لحضور اجتماعات الشركات الصناعية المساهمة التي كان عضواً أو
أحد مؤسسيها ، أو مشاركاً عضواً أو رئيساً لوفد بلده في مؤتمرات الغرف السورية
والعربية أينما عقدت في رحاب الوطن العربي الكبير .

وآخر رحلاته كانت إلى مؤتمر الغرف العربية . بتونس الخضراء عام ١٩٦٣
وتلاها ترؤسه للوفد السوري في مؤتمر الغرف العربية الإسبانية في مدريد بإسبانيا .
وكان يعد العدة لاجتماعات البنك العربي في عمان في ١٤/٣/١٩٦٣ بطائرة
صديقه المرحوم اميل البستاني .

وما كان ذلك ليمنعه أو يؤخره عن القيام بواجب عيادة صديق له أو للمشاركة
بالعزاء ورتاء رفاق له أينما حلَّ بهم لأجل المحتوم .

هذا الوطن الغالي وهؤلاء الزملاء والأصدقاء الذين أحبهم المرحوم والذي ،
عبروا عن خالص محبتهم وصادق مشاعرهم عندما شاركونا العزاء بفقده

سواء من داخل القطر أو من خارجه، حضوراً أو إيفاقاً، أو نعيّاً له بالصحف. كيف لا وقد مثّل غرفة تجارة حلب (أثيرته) لأول مرة عام ١٩٢٨، في أول مؤتمر انتدب له في بيروت، وظل يمثلها حتى توفاه الأجل المحتوم في ١٢/آذار/١٩٦٣ رئيساً لها. ترى هل كان رحمة الله عليه عالماً بموعده الأخير مع القدر حين استصدرت الغرفة له كتاباً تشهد فيه بأن محمد سعيد الزعيم منذ أن مثّلها وأصبح عضواً في مكتبها حتى انتهى به المطاف في جهادهما معاً رئيساً لها، لم يتقاضَ قرشاً سورياً واحداً لا من خلال تمثيلها ولا في المؤتمرات التي كان يحضرها ولا في المآدب والدعوات التي كان يقيمها باسمها ولا أثناء عمله فيها؟

لم يتخلف المرحوم الوالد عن حضور أي اجتماع للغرف السورية أو العربية إلا نادراً ولأسباب قاهرة خرجت عن إرادته. وفي النشرة التي أصدرتها غرفة تجارة حلب وهي تنعيه وتؤبّنه إثر وفاته كتبت تقول: أنه كان أحد ثلاثة فرسان والآخران هما علي شكري خميس مدير عام غرفة تجارة الاسكندرية، وعبد الرحمن السحراني رئيس غرفة تجارة بيروت، الذين عملوا أو نهضوا بوضع أول دراسة لاتحاد الغرف العربية كانت اللجنة الأولى التي أقرها واعتمدها الدستور الدائم لاتحاد غرف التجارة والصناعة والزراعة العرب في منتصف الأربعينات. وقد اعتمدت هذه الدراسة ووثقت في الدستور الدائم للجامعة العربية.

وقيل انعقاد أي مؤتمر للغرف العربية كان رحمه الله يجري اتصالات مع زملائه في كل الوطن العربي وعلى الأخص إخوانه ممثلي الغرف اللبنانية وأذكر منهم المرحومين: كمال جبر رئيس غرفة تجارة بيروت والحاج نجيب المنلا رئيس غرفة تجارة طرابلس والحاج علي الزعتري رئيس غرفة تجارة وصناعة وزراعة صيدا والفرد سكاف رئيس غرفة تجارة وصناعة وزراعة زحلة، كي يكون التنسيق كاملاً وموحداً.

وأثناء توليه وزارة المال كان يجري اتصالات واجتماعات دورية في مدينة شتورا مع زميله اللبناني جورج حكيم . وبعمده في الوزارة برزت للوجود مؤسسة إصدار النقد السوري وهي بمثابة البنك المركزي اليوم . وقد زار سورية في تلك الحقبة من الزمن مدير البنك الدولي السيد يوجين بلاك فأجرى المرحوم معه اجتماعات ومباحثات عديدة ومطولة .

ويتذكر من عاش الخمسينات قدوم الخبير المالي العالمي الدكتور شاخات الألماني الجنسية الذي دعاه المرحوم الوالد من موقعه كوزير للمال لتقييم اقتصاد البلد والتأكد من ملاءة نقده . فكان أن خلص ذلك الخبير العالمي إلى شهادة باستقامة وقوة الاقتصاد السوري . وأثناء تحاورهما في واحد من تلك اللقاءات سأل الدكتور شاخات إن كان المرحوم الوالد يحمل شهادة الدكتوراه وعن اسم الجامعة التي درس وتخرج منها فأجابه على الفور ، وكان حاضراً ذاك اللقاء الدكتور عزة الطرابلسي أمين عام الوزارة حينذاك : «هي دكتوراه خان الحرير السوق التجارية العريقة بحلب والتي مرّ فيها وشهد لها طريق الحرير القديم . وقد دخلتها وأنا شاب لم أحصل العشرين ، وتربيت وترعرعت وكبرت فيها» .

وعلى ذكر طريق الحرير . فقد كان المرحوم الوالد ولوعاً بالأسفار محباً للتجوال يرى فيها فوائد معرفة واطلاع ووسيلة اتصال وقد جال العالم كله سوى أميركا الجنوبية . وقد دعت حكومتها الصينية الشعبية عام ١٩٦٠ لزيارتها وقد أعجب أيما إعجاب بكفاح ونهضة وثبات ذلك المارد العملاق شعباً وحكومة .

وزار كلاً من الاتحاد السوفيتي وأوروبا شرقها وغربها وجنوب شرق آسيا واليابان وأميركا الشمالية وكندا . وكان في عداد الوفد السوري إلى الهند والباكستان بمعية المرحوم الرئيس شكري القوتلي وقد زار والذي في معمله بحلب بعد الاستقلال وكان ذلك عام ١٩٤٦ وقد ألبسنا المرحوم الوالد أنا وأخوتي ونحن

صغار ألبسة من صنعه جاءت لتمثل ألوان العلم السوري ابتهاجاً واحتفاءً بمقدم رئيس الجمهورية آنذاك.

كانت للمرحوم الوالد آراءً تميز بها ففي سؤال لإحدى الصحف عن رأيه بالأنظمة العالمية أجابها: بأن العالم لم يجمع على أن الشيوعية أو الرأسمالية هي النظام الأجدى والأنفع، بل هو نظام مزيج من هذه ومن تلك تستنبطه كل دولة بما يتوافق وطبيعة بلدها حيث يلبي احتياجات وطموحات شعبها نحو الأفضل.

ويعود شريط الذكريات إلى أواخر الخمسينات عندما تجرأت واقترحت على المرحوم الوالد أن يفتح له عملاً خارج سورية، أسوة بمن درج على ذلك في تلك الحقبة من الزمن تخوفاً من فقد ما حصله وبناءه. فانتهرني بزجرة كلها ثقة وتعلق بهذا الوطن الغالي قائلاً:

إنني خلقت في هذا الوطن وسجنت من أجله زمن الانتداب الفرنسي. وقد سبقني في هذا الشرف جدك أبي حين نفي إلى الآستانة أيام الاحتلال التركي للأرض العربية وسورية. أو تريدني أن أقضي خارج هذا الوطن وأنا غريب لا يعرفني أحد؟ أنا الذي جنيت وبنيت وأنا على استعداد تام لإعادة الكرة اثر أخرى وسأموت وأدفن هنا!

وكان ذلك درساً في هوى هذا البلد الغالي وطريقاً تقيدت بها وأمسكت بأهدابها.

وان أنسَ لأنسى يوماً ودعنا فيه المرحوم الوالد في سفرة لأحد مؤتمرات الغرف كتلك التي دأب عليها وكان ذلك عام ١٩٦١، وبينما أنا في محاضرة بكلية الحقوق إذ برسول يستدعيني لمكتب العميد لأسمع صوت والدي على الهاتف يأمرني بأن أذهب للترحيب بسفير الجزائر في سورية الأستاذ محمد الغسيري ودعوته وصحبه إلى مأدبة كبرى، بعد أن حطت طائرته بمطار حلب لعطل طارئ وكان في

طريقه إلى مدينة دير الزور لإلقاء محاضرة عن ثورة الجزائر البطلة، وكان رحمه الله يعتبر ذلك واجباً ملزماً للضيافة لاسيما وأنه كان رئيساً للجنة جمع التبرعات لثورة المليون شهيد.

هذا الحماس العروبي الذي كان يتأجج في صدر المرحوم والذي ماكان حديث عهد فيه، حيث سبق له أن كان عام ١٩٣٨ أمين سر لجنة الدفاع عن فلسطين، وفي عام ١٩٥٦ حين انطلق في أسبوع التسليح للجيش الوطني السوري المغوار داعياً للموازنة والمشاركة من خلال منابر غرفة التجارة ودار الكتب الوطنية.

كل ذلك النشاط الدائم الذي لا يهدأ ماكان ليثنيه أو يشغله عن متابعة إصدار (كتابه) المفضل الدائم التأليف وأعني به إصدارات مجموعات الغرفة التجارية بحلب باللغتين العربية ومن ثم بالإنكليزية، وكانت تلك المجموعات خير عون ومرجع لكل الدارسين والمهتمين بتطور الاقتصاد السوري والعربي لما حوته بين دفتها من إحصائيات ودراسات وقوانين، حيث لا كومبيوتر ولا بنك معلومات كانت سائدة آنئذ.

أما في مجال عمله الخاص فكانت صناعاته النسيجية تُصدّر على تعدد أنواعها وهي الساتان والماروكان والدوشيز والتفتة والكريب درا إلى مختلف البلاد العربية مثل العراق والأردن والصفة الغربية والسعودية وبالدخل تحت اسم منسوجات الزعيم الحريية الممتازة.

وفي مهرجان القطن عام ١٩٥٨ بحلب احتل إنتاجه من القطن المركز الثاني في مضمار مسابقات الإنتاج.

وكان رحمه الله يولي الرياضة اهتماماً خاصاً ويشجع الشباب على الرياضة وقد تجلّى ذلك من خلال استحداث ناد للطيران الشراعي لأول مرة بحلب في مطار النيرب وكان رئيساً لمجلس إدارته. أما مؤسسة الهلال الأحمر في حلب

فقد توج ترؤسه لها بإرساء أول بناء للهلال الأحمر يقع فيه مطعم وانيس
الشهير اليوم وهو مستثمر بكامله مع ما يضم من مرافق لصالح المؤسسة تلك .
فإذا تحدثت عن شغفه بالأدب وحب له وللشعر ، فله معهما حكايات وقد توثق
كل ذلك بصداقات حميمة لحمتها الود وسداها الوفاء ويأتي في مقدمتها صلته
بالشاعر الكبير بشارة الخوري الأخطل الصغير الذي دعاه المرحوم الوالد لزيارة
حلب في خريف عام ١٩٣٥ ، فألقى قصيدة غراء عصماء خلد فيها مدينة الشهباء .
وفي الكتاب نجد صورة كاملة عنها . ويجود الأخطل الصغير تكرماً بإهداء والذي
المرحوم أبياتاً من الشعر عند مولدي قال فيها :

تأريخ لميلاد الأمل الحبيب خالد الزعيم ابن الصديق محمد سعيد :

يامالي البيت زهواً بالضحك والتغريد
لقد طلعت عليه بكل حسن جديد
في كل شمة خد ورد لا كالورود
وكل موقع طرف عليك غرة عيد
أبوك فخر القوافي وأنت بيت القصيد
تخيرته المعالي لكل شأو بعيد
بشري التواريخ تروي ياخالد بن سعيد

١٩٣٩/١١/٣

ومن الشعراء والأدباء الذين صادقهم المرحوم أذكر منهم (ولا أستطيع الحصر)
الشاعر الكبير عمر أبو ريشة صديق والذي الحميم الذي ذكر في مقابلة للتلفزيون
العربي السوري أنه كان قد قصد انكلترا للتخصص في صناعة الغزل فانهى به المقام
متخصصاً في فنون الغزل . وقد ساعد صديقه المرحوم محمد سعيد الزعيم عند
إقامته لمصنع النسيج الآلي الخاص به عام ١٩٣٨ .

ومن الصداقات الوطيدة التي أذكرها للمرحوم والذي صداقاته مع الشاعر والأديب عادل الغضبان والأديب موسى كريم صاحب مجلة الشرق بالبرازيل وسعيد فريحة مؤسس دار الصياد وقد جاء على ذكره في جعبة الصياد. وكامل مروه مؤسس جريدة الحياة والأديب العربي المهجري نظير زيتون الذي واصلت صداقته للمرحوم بصداقتي معه. ولأديب الشهباء سامي الكيالي مكانة خاصة لدى المرحوم الوالد، ولم يفته أيضاً تكريم صديقه أمير الكمان سامي الشوا حينما دعاه وكرمه في داره.

وقبل انتقاله الوالد إلى رحمة ربه بأربع سنوات انكب على دراسة اللغة الانكليزية على يد أستاذ خاص. وكان يلم باللغة الفرنسية شأنه في ذلك شأن أكثر من درس وعاش زمن الانتداب.

وكان المرحوم الوالد خطيباً مفوهاً يرتجل الكلام ارتجالاً ولساعات منذ حدوثه، وأول سابقة له بدأت وله من العمر تسعة عشر ربيعاً عندما انبرى ورفاقه من الشباب الوطني يقنصون المارة اقتناصاً للاستماع إلى خطبة للزعيم الوطني سعد الله الجابري في إحدى صالات السينما المستأجرة بحلب منذ أيام الانتداب الفرنسي وكان الناس يترددون في المشاركة رهبة من بطش المستعمر آنذاك.

وقبل أن أنهى شريط الذكريات هذا لا بد من كلمة حق أقولها وهي أن المرحوم الوالد كان نعم الابن البار بالديه. فقد أقام من الصداقات الجارية على روحيهما ما هو قائم حتى اليوم في العديد من دور البر والجمعيات الخيرية وكان يدأب على زيارة ضريحيهما في كل يوم جمعة. أنا لا أتذكر الكثير عن المرحوم جدي الذي توفي عام ١٩٤٧، ولكنني أذكر وأتذكر أن الذي أدمى قلب والدي فراق جدتي والدته عام ١٩٦٢، عندما انكب على قدميها يشبعهما تقيلاً ويمطرهما بسخي من دموع حرى غاليات، بعد أن علم أنها طلبته هاتفياً

لتودعه الوداع الأخير وكان ساعتها في اجتماع مع وفد وزاري بغرفة التجارة .
وأخيراً إذا كان القول السائد : أن وراء كل عظيم امرأة فهذا يتدرج ويصدق على
والدتي ابنة عمه ، شفاها المولى وسلمها لنا بركةً وذخراً فقد والله حفظت له عهداً
وصانت له حقوقاً فتبادلاً حباً بحب ووفاء بوفاء . فجزى الله والديّ عنا كل ما في
علمه تعالى من ثواب وأجر الدارين .

ولا بدّ في الختام من أن أتوجه بأصدق وأوفى ما قيل في واجب الشكر والامتنان
والعرفان جزاءً وفاقاً لكل من تجند لجعل هذه الذكريات تبصر النور وتصبح حقيقة
والى الأعمام الكبار الذين وشحوا هذه الذكريات بنبل أحاسيسهم وصادق مودتهم
وأخص بالذكر العم الكبير الأستاذ عبد المجيد شومان رئيس مجلس إدارة البنك
العربي ومديره العام الإبن الأكبر لمؤسس هذا الصرح العربي العظيم المغفور له الحاج
عبد الحميد شومان المثل والقودة .

حلب في ١٠/٤/١٩٩٦

خالد سعيد الزعيم

عبد المجيد شومان - المدير العام للبنك العربي

يتحدث عن محمد سعيد الزعيم

لقد عرفت المرحوم محمد سعيد الزعيم منذ أوائل الأربعينات عندما كنت أزور فروع البنك العربي في سوريا وبالأخص مدينة حلب الشهباء، ثم انضم المرحوم محمد سعيد الزعيم فيما بعد إلى عضوية مجلس إدارة البنك العربي لحقبة طويلة امتدت ما بين الأعوام ١٩٤٧ إلى ١٩٦٢..

إن المرحوم محمد سعيد الزعيم هو من الرجال الذين خدموا أمتهم بكل تفان وإخلاص، وأصبح وزيراً للمالية لسوريا في الخمسينات حيث كان له الباع الطويل في الاقتصاد الوطني في سوريا، كما كان رئيساً لغرفة التجارة في مدينة حلب. وقد قاوم المرحوم الاستعمار الفرنسي وعذب في سبيل وطنه العربي مثل باقي الشخصيات السورية والعربية التي قاومت الاستعمار. وكان من الذين يدعون إلى التعاون العربي والوحدة العربية.

لقد كان المرحوم لطيف المعشر حلو الحديث وفوق ذلك كله محباً للخير والإنسانية.

عبد المجيد شومان

١٩٩٦/٤/٦

أبو خالد محمد سعيد الزعيم مهندس حقيقي للحياة الاقتصادية السورية

بقلم بدر الدين الشلاح

جمعتني بالمغفور له محمد سعيد الزعيم روابط عديدة ولسنوات مديدة، وكان إعجابي به يتزايد مع الزمان لما كان يتحلى به من صفات نَدَّرَ أن اجتمعت في مسؤول عن الحياة الاقتصادية.

- كان التاجر المرموق الذي يعرف أن التجارة أشرف الأعمال وقد كان رسولنا العظيم من روادها في شبابه؛
وأن التجارة هي الصلة الضرورية والنافعة التي تعود بخيرها على المنتج والمستهلك فتوفر للأول رواج محصوله وللثاني لوازم حياته؛
ثم هي الصلة التي لا تقوم إلا على التساوي الدقيق في المكاسب لأن ميزانها هو الذي يعطيها شرفها وتميزها من سائر الفعاليات الاقتصادية.

- وكان الصناعي الذي فتح منذ الاستقلال باب الإنتاج الواسع في النسيج والاسمنت والسكر وغيرها من الصناعات التحويلية، فكان من الرواد الذين وضعوا الإنتاج: في طريق حماية الوطن من الاعتماد على البضائع المستوردة، وفي طريق تأمين العمل والكسب لمئات الألوف من العمال المهرة الذين اشتهر بهم وطننا في كل تاريخه الطويل.

- وكان المنظر الذي أدرك أنه لاسبيل لاقتصاد سليم معافى دون أن يكون للبلد قانون مستقر للنقد وفعالية مصرفيه ومؤسسات تقوم بالتأمين وإعادة التأمين . ولما أدرك المسؤولون مدى ما يتمتع به محمد سعيد الزعيم من قدرات أوكلوا إليه في مطالع عهد البناء الاستقلالي العمل على تنظيم النقد والمصرف المركزي .

- وكان الرجل الذي يدرك أنه بلا سوق عربية فإن اقتصاد كل جزء من أجزاء الوطن العربي يكون ضعيفاً ومعرضاً للهزات ، وكنا معاً ومع عدد من الاقتصاديين الكبار كالسيد علي شكري خميس من مصر وعبد الحميد شومان من الأردن وغيرهما من المسؤولين ، نعمل على وضع أسس هذه السوق العربية المشتركة ، وما تزال هدفنا .

ولكن القدر لم يمهل هذا النابغة فأخذه من وطنه وشعبه وأهله وهو مازال في شرح الرجولة والعطاء ، ولكن بعد أن ترك إراثاً لا يمكن تجاوزه بالنسيان . فالرحمة عليه ، والذكر الباقي لأثاره في حياة الوطن ، والشكر لأبنائه الذين كانوا صورة الوفاء له وللمصلحة الوطنية فأصدروا هذا الكتاب الذي يديم المثال الحسن وينشره على أوسع نطاق .

والرحمة لروحه المستقرة في أعلى عليين ، جزاء العاملين الطيبين .

دمشق في نيسان ١٩٩٦

بدر الدين الشلاح

الخير في الاقتصاد المعروف عالمياً: الدكتور عصام الزعيم

يتحدث عن صاحب السيرة في هذا الكتاب

محمد سعيد الزعيم

حديث لاتنقصه الصراحة ولا الدقة، مع اختلاف المشارب والنظريات

في قديم الزمان كانت الشهادة على السيرة التي يقدمها أحد الناس، سواء أكانت لواحد من فلاسفة اليونان أو لفقيه من فقهاء المسلمين، يشترط في مقدمها أن يكون لازم المشهود له ملازمة كاملة، ويعرف حياته وأعماله وأفكاره... فإذا توفرت فيه هذه الشروط حققت له الشهادة.

أما أنا فأعترف بأنني مالازمت عمي الراحل محمد سعيد الزعيم، ولكنني عرفتني طفلاً وبافعاً، ثم احتككت به وأنا شاب متمرد أستقلُّ عنه بالقيم والرأي، وفكري يباري روحه تمرداً. ورغم هذا فأرى أن الشهادة له حقَّت عليّ.

فعندما كنت صغيراً، وربما كانت تلك أبعد الذكريات، فاجأني عمي أبو خالد بانتقادي أمام والدتي على بدائيتي في تناولتي للطعام. كنت آنذاك في الخامسة والسادسة من العمر، ولكن هذه الحادثة ظلت سنوات طويلة، بل عقوداً، وهي لاتبرح ذهني، والآن أراها أنها تستحق العرفان. كانت صورة أولى ولكن أثرها كان كبيراً.

أذكر منذ صغري أن عمي محمد سعيد الزعيم كان، وهو الشقيق الأكبر لوالدي، قائداً للعائلة الزعيمية، ورأسماً مبادراً، وموجهاً مفوهاً، ولكن نزعتي

الاشتراكية وروحي المتمردة جعلتني أحلّه في خانة الرأسماليين . ومع ذلك ولأنه كان يحبني ويقدرني ويتوسم فيّ خيراً، قد أراد أن أدخل المدرسة الإنكليزية في برمانا في لبنان لأنضم إلى ابنه خالد فنكون نديمين ورفيقين . وذهب إلى أبعد من هذا قبل أسابيع قليلة من مغادرتي حلب بعد نيلي الشهادة الثانوية واستعدادي للسفر إلى أوروبا لمتابعة تعليمي، فدعاني إلى مقابلته . ولما قصدت إليه وجالسته فاجأني بأن اقترح عليّ مشاركته في الأعمال ويزوجني من إحدى كريماته التي استطاعت فيما بعد أن تشق لنفسها درياً من الأداء الثقافي المرموق . كان هذا العرض من عمي صادقاً وكريماً إذ عبّر عن ثقة بي واحترام، فقال لي أن أبك غني ذو ثراء (آنذاك) ولست بحاجة مادية إلى مصاهرتي، ولكنني أعرض عليك الأمر تقديراً لك . ولكنني أحببت بنات عمي وأحببني حب الأخ لأخواته كما أنني قد حزمت أمري على مغادرة حلب والدراسة العالية والابتعاد عن العمل التجاري والصناعي في الإطار العائلي .

إذن فقد كانت لي علاقة خاصة ومتميزة بعمي محمد سعيد الزعيم . كان رأس العائلة الزعيمية منذ أن توفى الله والده الشيخ خالد، رجل الدين والعلم والأخلاق ورجل التجارة والاستثمار والأخلاق!

فقد انتقل الشيخ خالد من التجارة الإقليمية الراسخة التي وطّد أجداده مجالها الإقليمية الممتد من الجزيرة العربية إلى العراق وتركيا (وبذلك كان أعمام محمد سعيد يرتبطون بأواصر الود والصداقة بالملك عبد العزيز آل سعود وأنجاله الأمراء في نجد والحجاز...) إلى التجارة المتوسطة وتصدير الحاصلات الزراعية إلى أوروبا عبر لبنان .

وإلى جانب ذلك كان هناك توسع في اتجاه الاستثمار العقاري من حمص إلى حماه ثم بالأهمية إلي حلب . فقد امتلك والده الشيخ المثقف صاحب الرسالة

ورجل الأعمال، خانات خاصة به وبأولاده في هذه المدن السورية الثلاث مما أتاح له ولهم تأجير مافيهما من المكاتب التجارية لرجال الأعمال في (خانات الزعيم) ومنها اثنان في حلب أحدهما مقابل المسجد الأموي الكبير والثاني في حي الجديدة العريق. وكان هناك خان في حمص وعقارات في حماه.

كان الشيخ خالد الزعيم قد رسم ونفذ استراتيجية وإرساء للعمل التجاري بالاستناد إلى عمل استثماري عقاري واسع غالباً ماخفيت أهميته عن أعيننا وانتباهنا، وتضمن مشاركة بين الشيخ خالد سليل الأسرة التجارية الإقليمية الزعيمية والأسرة السلطانية التي تزوج منها وكانت هذه الأخيرة قد وصلت في تجارتها الدولية إلى الصين واليابان شرقاً، ومنها استورد الخزف النفيس، وإلى أوروبا الغربية تصدير الصوف إلى مرسيليا والخيول العربية الكريمة إلى انكلترا. ويحكى أن الحاج أحمد سلطان عميد آل سلطان وجد المحامي الكبير أحمد سلطان كان من أدخل في الأسرة تقاليد استعمال السكاكين والشوكات قبل أن تنهار تجارته بغرق باخرة محملة بالصوف في ميناء مرسيللا خلال الحرب العالمية الأولى.

لئن كان ذلك، وكان زواج الشيخ خالد من الآنسة فاطمة ابنة الشيخ محمود بن رجل الأعمال الكبير أحمد سلطان، لحظة كبرى بل وحاسمة في مستقبل هذا الشاب الزعيم، فقد كان لحظة واعدة بالنسبة لابنهما البكر محمد سعيد الزعيم. فقد تدرب الشاب خالد عند أهل زوجته آل سلطان قادة التجارة المتميزة مع الشرق الأقصى والمغرب الأوروبي، وهذا مهد لإنجازات الشيخ خالد اللاحقة الباهرة، ثم مهدت هذه الإنجازات بدورها لإنجازات أخرى أوسع وأعظم للشباب الصاعد - وأكاد أقول: المعجزة ! - ابنه البكر محمد سعيد في ميادين الاستثمار الصناعي في فروع الاسمنت والسكر والزجاج لتلبية الطلب الوطني، وفي حلب الأقطان، فضلاً عن تصنيع الحرير لأغراض التصدير، والتأمين وإعادة التأمين،

والصيرفة على المستوى العربي أو ليس أمراً بالغ الدلالة أن أول صناعة تحويلية قام محمد سعيد الزعيم بتطويرها بنجاعة كانت مصنعاً حديثاً لإنتاج أفضل أنواع النسيج وتصديره بكفاءة إلى الأسواق العريقة الفرنسية الإيطالية والأوروبية الأخرى؟

قلت أنني كنت أنطلق في عالم القيم والرأي وأنا في ميعة الشباب، في حين كان عمي محمد سعيد يخوض معارك مريرة غير متوقعة بعد عقود من العمل الخلاق والتأسيس والتنمية والتطوير والعطاء والازدهار. وبقدر ما قاربَت صلة القربى ووقائع العائلة بيني وبينه، فإن توجهاتي الفكرية ومناخي النفسي جعلتنا في موقع التضاد. وبينما قادته دوافع القربى والرحم وقناعات الثقة والأمل إلى دعوتي للعمل ومصاهرته، فإنني حين وقعت في شبك المحاسبة الأمنية وطولبت بالتوقيع على بيان لامعنى له كشرط للسماح لي بالعودة إلى مقر دراستي في باريس، فإن عمي محمد سعيد خذلني مع أنه كانت له اليد الطولى في حمايتي باعتباره رئيساً للجنة الفعاليات الاقتصادية في حلب، ورفض التدخل لمساعدتي لاستيائه من اعتناقني الأفكار الاشتراكية، وألمه من مجاهرتي بها.

غير أن الأمانة تقتضي أن أنوه بأن أبوته العائلية وزعامته (الزعيمية) كانا بفضل رفعة منطقته وحكمة موقفه وواقعية قراره أداةً استخدمها ليعلن انتمائي إلى العائلة، وانتماء زوجتي معي رغم أصولها غير الإسلامية وزواجي بها على نحو مخالف للرأي والتقليد. وحتى ييسر على أبي - أخيه الأصغر - مسألة المصالحة معي والترحيب بي وبزوجتي دون أن يشعر بالعجز والإذلال (وفق سلم معاييرهِ) - فإن عمي محمد سعيد قاد قافلة من أكثر من عشرين سيارة ضمت أقاربي كافة خرجت لاستقبالي من حلب، وعند أروم الصغرى قرب حلب رحّب بي وبزوجتي لدى قدومنا لأول مرة بعد أن غادرت حلب للتحصيل العالي، ثم تتالى

من بعده المرحبون المصافحون، ومن هناك اتجهنا جميعاً إلى داره حيث أولم لنا وليمة كبرى على شرفنا أنا وزوجتي ضمت العائلة بصغارها وكبارها. وبعبارة أخرى اعتبر عمي أن خروجي عن فكر العائلة وزواجي من امرأة مسيحية لا يستوجبان - وقد صاراً أمراً واقعاً - أن أبقى بعيداً عن العائلة ومستبعداً، وعلى العكس من ذلك، فإنهما مسألتان قابلتان للاحتواء العائلي. وكان ذلك عام ١٩٦٢.

كان عمي ذا شخصية قوية مستقلة ومحاطاً بهالة من المهابة، قويّ الحضور لدى والديه، مستقلاً بالرأي والحركة والتعبير حتى عن والده الشيخ خالد الزعيم، وعلاقته بوالدته السيدة فاطمة سلطان حميمة إلى حد أنني أجازف فأقول: أترى الحبل السري الذي يربط الطفل بأمه مازال قائماً لم يقطع؟

وقد حدثتني جدتي فاطمة سلطان عن اعتقال زوجها الشيخ خالد أيام الأتراك وسوقه سجيناً إلى استامبول للحكم عليه بالإعدام لاتخاذ موقفاً علنياً مناصراً للسلطان عبد الحميد في أيام خصومه، وبقائه تحت تهديد الموت في حين كان جدتي تحتضن ابنها البكر الصغير محمد سعيد. قالت لي أنها عانت من غيابه على نحو جعلها كأنها حين عاد زوجها وبعلمها بعد تدخل وجيه حماء وعضو مجلس المبعوثان العثماني خالد آغا البرازي كأنما لم تكتحل عينها برؤيته.

إن البعد الفكري السياسي التمرد في شخصية جدي الشيخ خالد، أبي سعيد، الذي وصل به إلى حد المجاهرة بالرأي الذي قد يقوده إلى الموت، يعكس تربية دينية وعصرية متينة خلقاً ومستنيرة كانت موجودة في حماء، بدأت بالشيخ صالح سلطان وآخرين ممن جاء عمي محمد سعيد على ذكرهم في كتابه عن ثورة حماء، وهم الذين هبوا يطالبون بالاستقلال. ولذلك فلا يمكن فهم الصعود العارم لمحمد سعيد الزعيم دون التوقف عند الإنجاز التأسيسي الذي حققه من قبله - ثم معه - والده الشيخ خالد بن محمود الزعيم.

وكان الشيخ خالد كما ذكرت آنفاً سليل أسرة تجارية عريقة يمتد قوسها من نجد والحجاز وأطراف الجزيرة إلى العراق وتركيا والمدن السورية، ولها محطات اتصال وتبادل هنا وهناك ولا سيما مع القادم من نجد عبد العزيز آل سعود وربعه من الأعمام والأشقاء وذلك قبل أن يقيم مملكته، ولكن الشيخ خالد قد حقق نقلة نوعية أخرى من نشاطه الاقتصادي بعد اقترانه بجذتي أم سعيد سليل آل سلطان، ونشأ من هذا الزواج تحالف عائلي ومعنوي بين آل الزعيم (بفرعهم الخالدي) وآل سلطان، وهذا التحالف حمل إلى الشيخ خالد سليل الأسرة التجارية الإقليمية التقليدية العريقة روحاً جديدة وطموحاً وقابلية مرموقين.

عصامية في الريادة الفكرية واستثمارية وتأسيس السياسات والمؤسسات المالية الوطنية

عرّف محمد سعيد الزعيم بأنه رجل الاقتصاد تارة، وبأنه (الاقتصادي) تارة أخرى، مع أنه لم يتح له أن يذهب بتعليمه إلى الجامعة، فلا درس الاقتصاد ولا أي علم آخر دراسة أكاديمية. إنما تمكن بعصامية طماحة للعلم والمعرفة والعمل والتطبيق من أن يستوعب مبادئ العمل الاقتصادي ويدرس مناحيه ومظاهره ويدون المعطيات الإحصائية ويقوم بتشريحها وتفسيرها، ويهتم بالسياسات المالية والتجارية والنقدية. وتحديدًا برزت ريادة محمد سعيد الزعيم في ثلاثة مجالات حيوية ومتميزة:

أولها التعرف على فرص الاستثمار الجديدة والمشاركة في اقتناصها في قطاعات وفروع من الاقتصاد جديدة على البلاد، كالصناعات التحويلية من الاسمنت إلى

الأصبغة الكيميائية إلى النسيج وإلى تكرير السكر، وكخدمات التأمين وإعادة التأمين، وتأسيس البنوك كفروع البنك العربي.

وثانيها صنع القرار السياسي في المستوى الوزاري لتأسيس مصرف مركزي، وتنظيم وزارة المالية، ورسم السياسات المالية، وذلك لدى تسنم الزعيم وزارتي المالية والاقتصاد بالوكالة، وبمساعدة من الخبير الألماني المخضرم الدكتور شاخنت بما زود به الدولة الفتية والاقتصاد الوطني من مؤسسات وأدوات أساسية لأداء النشاط العام الحكومي والنشاط الخاص في القطاع الاقتصادي معاً.

أما ثالثهما فكان القيام بجهد ريادي شخصي ومؤسسي النوعية، موسوعي الاتساع لرصد التطورات العامة السنوية في الاقتصاد السوري وتحليلها وتقويمها والتوصية بشأنها، وذلك في الإطار المؤسسي لغرفة تجارة حلب وبصفة تقرير سنوي عن الاقتصاد السوري كان عن بنات أفكار الزعيم وثمره جهده المتفاني في وقت عزّت فيه الكتابات وندر فيه الباحثون. وكان ذلك تحديداً خلال سنوات الخمسين وحتى مطلع الستين، وهكذا نجد مثلاً أن أطروحات للدكتوراه في الاقتصاد أعدت في تلك الحقبة في الجامعات الأميركية والأوروبية من قبل طلاب دكتوراه سوريين قد اعتمدت اعتماداً صريحاً وكبيراً على تقارير الزعيم الشخصية والصادرة عن غرفة تجارة حلب. كرسالة بوغوصيان عن طفرة القطن في محافظة الجزيرة. ان رجل التجارة والاستثمار يبرز هنا باحثاً ومقيماً رفيع الأداء في التقويم الاقتصادي النقدي الدوري، قبل أن تتوفر للدولة أجهزة الإحصاء والتخطيط.

أما منصب الزعيم نائباً لرئيس غرفة تجارة حلب على امتداد سبع وعشرين سنة فيشهد بثبات قدمه وتسامق رصيده وتواصل مكانته لدى الطبقة البورجوازية المحلية وقيادتها المهنية الرسمية. غير أنه يجدر التصريح هنا بأن السنّة المعتمدة في تقاسم

الوظائف بين الجناحين المسيحي (المفرنس عموماً آنذاك) من البورجوازية، والإسلامي، اعتمدت على تسنم الجناح الأول المواقع الأولى، وأخذ ممثلي الجناح الثاني المواقع الثانية أي مواقع الإنابة. فضلاً عما تقدم فإن احتفاظ الزعيم بمنصبه المذكور في قيادة غرفة التجارة اقترن بتصدّيه الناجع للعقبة المتمثلة في أصوله الحموية، أي بافتقاده الانتماء الحلبي الأصيل في مجتمع تتخذ فيه الأنساب والأصول المدنية أهمية بارزة. وهكذا كان منصبه الرفيع شاهداً على قبول البورجوازية الحلبية إجمالاً (والمسيحية منها خصوصاً) بسعيد الزعيم وإقرارها بدوره حيث أنه كان في الواقع يضطلع بدور القيادة والريادة في غرفة تجارة حلب رغم منصبه كنائب الرئيس.

ثم إن دور سعيد الزعيم على رأس وزارة المالية وإدارته لها (ولو وزارة الاقتصاد بالوكالة) واستخدامه خبرة فنية دولية لتطوير مؤسسات البنك المركزي والسياسات المالية، يجسّد دوره كرجل دولة وتأسيس وتنظيم، كما أن دوره المرموق في غرفة تجارة حلب يشهد بريادته وقيادته للطبقة التجارية والصناعية الحلبية ذائعة الصيت نحو الاستثمارات والخيارات الصناعية الجديدة، ونحو التأمين وإعادة التأمين والبنوك حيث سيكون الزعيم أحد مروجي الاستثمار الخاص الجديد في عدد من الصناعات التحويلية كإنشاء شركة الشهاب لصنع الأسمت ومواد البناء بالتعاون مع الصناعي العصامي الحاج عبد القادر شبارق، وفي قطاع التأمين وإعادة التأمين يصبح الزعيم وكيل شركة التأمين العربية المحدودة. أما في القطاع البنكي فيدخل عضواً في مجلس إدارة البنك العربي وهو بنك رائد ومتعدد الجنسية تملكه بالأصل أسرة عبد الحميد شومان، ويفتح الزعيم أو يشجع على فتح فروع للبنك العربي المذكور في المدن السورية واللبنانية والمصرية والأردنية خاصة.

حقق الزعيم التوسع القطاعي والتنويع الاستثماري في قطاع الصناعة التحويلية بموازاة توسع في نشاط التجارة الخارجية والتصدير أساساً بالدخول في مشاركة مع التاجر الدولي والصناعي سعيد بوبس وشريكه سعدي كباب بحلب.

كان هذان التوسعان في الاستثمار والتجارة: أفقياً بولوج صناعات جديدة متعددة الغايات الإنتاجية، ورأسياً بتوسيع النشاط الصناعي في قطاع النسيج والنشاط التجاري التي امتدت من تهاوي نظام فيشي الموالي للنازية الألمانية أي حوالي منتصف العقد الرابع حتى قيام الوحدة السورية المصرية وصدر قرارات تأميم الصناعة كما في الزراعة.

هكذا شكل إنجاز سعيد الزعيم الصناعي مواصلةً وتثميراً للاستثمار العقاري في قطاع البنية الارتكازية للاقتصاد السوري كما حققه والده الشيخ خالد الزعيم خاصة بعد انتقاله وأسرته من حماه إلى حلب سنة ١٩٢٧ للميلاد، وحتى وفاة الشيخ المباغثة سنة ١٩٤٧ بينما كان يتأهب لركوب سيارته والالتحاق بأسرته في أحد المصايف اللبنانية.

لم يواصل عمي الزعيم نشاطه السياسي بعد الحرب العالمية الثانية واستقلال سورية الناجز في أعقابها. لقد جلا المستعمرون الفرنسيون منهم والبريطانيون عن أرض الوطن بفعل صراع الطرفين المتبادل واستخدام الاتحاد السوفياتي حق الفيتو أي قرار النقض لصالح الجلاء الأجنبي الجماعي عن أراضي سورية، وبينما كان والذي يرفع الأنوار فوق خاننا خان الزعيم في خان الحرير بحلب احتفاءً بالاستقلال والجلاء، في حين كان كل من جدي الحاج خالد وعمي الأكبر محمد سعيد قد زجا عام ١٩٢٥ في السجن وخضعا للاضطهاد والتعذيب من قبل جلاوزة الانتداب الفرنسي. وهكذا فبعد الجلاء استراح الزعيم المحارب من العمل السياسي وتفرغ

للعمل الاقتصادي محافظاً على ولاء مستمر وضمني (أي غير مجاهر به) للحزب الوطني باعتباره الوريث الشرعي للكتلة الوطنية، ومستبعداً أية صلات تنظيمية أو انضباطية بالحزب المذكور، ولكن كان مصنفاً في حلب في صف الحزب الوطني وضد حزب الشعب. أو بتعبير أدق كان بعيداً كل البعد عن حزب الشعب الذي تشكل بانشقاق حلبي تحديداً عن الكتلة الوطنية، وفي اعتقادي أن بقاء عمي سعيد الزعيم وفاءً وتعاطفاً على صلة مع الحزب الوطني الذي قاده سعد الله الجابري ثم عبد الرحمن الكيالي بحلب، قد مكّن عمي من التواصل مع أقطاب الاقتصاد والسياسة بدمشق حيث كان النفوذ لقوى أخرى منها الحزب الوطني ومنها المستقلون كخالد العظم، مما أبعده (أي أبعد عمي) عن النزوع إلى العصية الحلبية التي ميزت معظم رجال حزب الشعب في حلب.

من جهة أخرى وبما يفسر موقف محمد سعيد الزعيم المستقل من الأحزاب بما فيها الحزب الوطني اتخاذ قراره الشخصي بقبول ولاية وزارة المالية في عهد الديكتاتور أديب الشيشكلي (ولم تكن أصول عمي الحموية غريبة عن اختيار الشيشكلي له، وهو أيضاً من حماه، للمشاركة في وزارته) فما يلفت النظر هو استقالة عمي وخروجه من الوزارة منذ عام ١٩٥٣ أي مع بدء الاصطفاف السياسي المعارض لحكم الشيشكلي باتفاق الأحزاب السورية ضده وعملها المشترك لإسقاط حكمه.

الزعيم رجل الدولة

كان عمي رجل دولة أيضاً. فقد اهتم بعلاقات سورية الخارجية وشارك (ربما سنة ١٩٥٧) في الوفد السوري الرسمي الذي توجه إلى الهند في زيارة رسمية لإقامة حوار مع الهانديت جواهر لال نهرو، وبلاستاد إلى تبني سورية سياسة الحياد الإيجابي مثلما فعلت الهند، وإلى حوار البلدين قبلاً في مؤتمر باندونغ التاريخي سنة ١٩٥٥، وللتعبير عن مكانة مطلوبة للاقتصاد السوري في العلاقات الخارجية.

وحمل محمد سعيد الزعيم من جهة أخرى همأً ووعياً بالتعاون الاقتصادي العربي ويتوحد صفوف رجال الأعمال العرب، فقد اضطلع بدور رئيس مباشر في تأسيس الاتحاد العام لغرف التجارة والصناعة والزراعة في البلاد العربية، ومثلما اهتم بنقل الملحق التجاري الشاب موفق العلاف من وزارة الاقتصاد حيث كان التعيين فيها إلى وزارة الخارجية ليعمل ملحقاً تجارياً في سفارات سورية، اختار الشاب الفلسطيني الواعد برهان الدجاني ودفع به إلى موقع الأمين العام لاتحاد العربي عند تأسيسه سنة ١٩٥٤م، وقد أثبتت الأيام صحة نبوءة سعيد الزعيم وتقديره لإمكانات كل من الرجلين فضلاً عن وطنيتهما. أستند في شهادتي هنا إلى مأكده كل من الدكتور الدجاني والأستاذ العلاف لي مباشرة خلال اتصالاتي بهما في السنوات الماضية.

علاقة عمي بوالده

لأملك من المعطيات مايسمح لي بتحليل العلاقة بين جدي الشيخ خالد الزعيم وابنه البكر عمي محمد سعيد. كان هناك تباين أكيد في شخصيتهما، فالجد خالد كان عُمرياً في ديمقراطيته (نسبة إلى عمر بن الخطاب) وتعامله مع صحبه ومعاونيه.

وكان عمرياً (نسبة إلى عمر بن عبد العزيز) في زهده في الطعام . كان الشيخ خالد يحمل صينية الطعام بيديه ويصعد سلالم خانه ليقدم الطعام لسائقه أو حارسه إذا أصابه مرض ، وكان ثابتاً على اكتفائه بالأكل من صنف واحد لاثاني له عندما يجلس إلى مائدة الطعام مهما تعددت الأطباق وتنوعت الملابس . وكان الجد أيضاً قارئاً نهماً وجاداً ومثقفاً تقليدياً وعصرياً معاً ، ضمت مكتبته كتب التراث بجانب التشريعات العثمانية وتشريعات إبراهيم باشا وكتابات أصحاب مدارس التنوير الإسلامي منها والغربي . وما زلت أذكر كيف كان جدي يعتكف في غرفة خاصة هي مكتبه ويسد الباب ليتفرغ للقراءة والمطالعة حتى إذا وقفت أمام نافذته وأنا صغير أراقبه مشدوهاً باستغراقه في العمل ورأيت نظاراته مدلاة فوق أنفه ، التفت إليّ بعد حين ودسّ في يدي قطعة من السكر أنصرف بعدها عنه . أما ابنه البكر عمي سعيد فقد كان مظهره ومخبره ينمّان عن عزيمة قيد الصياغة وهيبة غامضة ونزوع للريادة والقيادة وعرضة للعصية الحادة المختبئة . كان الابن محمد سعيد محترفاً في تعاطيه مع الكتب والكتابة ، إذ كان يجمع المجلدات ويجلدها ، وكان قارئاً ممتازاً وكاتباً موهوباً ، وحريصاً على التوثيق وتدوين المذكرات حرصه على صياغة المقترحات ووضع المذكرات بشأن المسائل الكبرى .

وفي حقبة كنت أنا الطالب الفتى متمسكاً وبعض أصدقائي كالهيشم الكواكبي باستخدام اللغة الفصحى في الكلام بفضل أساتذتنا الرواد علي رضا مجوز فالدكتور (لاحقاً) عبد الكريم الأشتر ، فضلاً عن الشاعر الكبير سليمان العيسى ، وكنت ألاحظ بإعجاب ضمنى حرص عمي رجل الأعمال على التكلم بعربية فصحة نقية وبليغة ، بما ثمّ عن تملكه المرموق ناصية لغة الضاد ، وما زالت ترن في أذني صرخته الاحتجاجية أمام جدتي ووالدي وأمامي على ماسمع وأسمع عني إذ قال :

«كنت في مجلس من علية القوم وإذ بأحدهم يقول موجهاً الكلام لي :
أتظنون أن الأفكار الاشتراكية المتطرفة تتسلل إلى أبناء الفقراء وحدهم وتمس
عقولهم؟ كلا ! إنها تتسلل إلى أبناء الأسر الكريمة الميسورة وتأخذ بعقولهم،
فتمنيت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني . . . » هكذا كان تعليقه المرير على ماسمع
عن ابن أخيه كاتب هذه السطور من أخذه بأفكار الاشتراكية، وهكذا عبر بلغة
فصحى حتى أمام والدته وأخيه، إذ كانت بلاغته جزءاً من حضوره المتسامق.

والواقع أن علاقتي الشخصية بعمي محمد سعيد كانت صعبة ومثيرة لانزعاج
المرحوم والدي . كان موقع عمي في عائلتنا ومنذ وفاة جدي الشيخ خالد موقعاً
طاغياً . كان ربان السفينة وشيخها الحكيم معاً . إخوته وخاصة عمي عبد المعين
ووالدي عبد المجيد (عليهما الرحمة) يقبلان يدي أخيهما الأكبر مثلما يقبلان
يدي أمهما .

وكنت أثير عمي محمد سعيد أيضاً بعملي التطوعي في الصحافة وبنشاطي في
أوساط لم يكن يعتبرها لائقة باهتمامي، لكن اتخاذي موقفاً اشتراكياً كان أشد
ماساءة، وفي تلك السنين كنت فجّ الاحكام ولا بد أنني لم تخف علي الصفة
الإيجابية البناءة لدور عمي الاقتصادي، غير أنني كنت شديد الاهتمام بل مبالغاً في
تقويم الصراع بين الصناعيين وعمالهم في حلب تقوياً أخلاقياً بالدرجة الأولى .

فحوى علاقتي بعمي

لكن علاقتي الشخصية بعمي لم تكن محكومة بالتنافر السياسي (على اختلاف
موقع عمي البارز وموقعي المتواضع كشاب صغير) والخلاف الفكري وحدهما،
وإنما حكمتها في الوقت نفسه عاطفة كريمة ونبيلة وصادقة من العم تجاه ابن أخيه .
بل إن عمي كان يحب في جدي المدرسي ويأمل خيراً في مستقبلي واثقاً باستقامتي .

كان محمد سعيد الزعيم صديقاً وراعياً لرجال الصحافة والإعلام في حلب وكان صديقاً كريماً سخياً ونداً لكبار الأدباء والمثقفين العرب، وقد رصد المال لدعوة نخبة من أكابر الشعراء العرب للمحاضرة في دار الكتب الوطنية بحلب ومنهم الأخطل الصغير الذي خلد زيارته إلى حلب ومحاضرته في مكتبتها الوطنية ومؤازرة محمد سعيد الزعيم للزيارة، في قصيدة عصماء تتغنى بالأدب والحسب والنسب لمدينة حلب الفذة. والحق أن اهتمام الزعيم بالصحافيين يؤكد وعيه بدور الإعلام وإدراكه أهمية الحوار بين ممثلي رأس المال الإنتاجي ورجال الإعلام.

أما اهتمامه بالأدباء والشعراء فيعكس وعيه لأهمية الأدب والفكر والثقافة واحترامه لعطاء الشعراء والأدباء مثل احترامه من جهة أخرى لإنجاز الصناعيين ورجال الأعمال، وكل هذا يشهد بشخصية مؤسسية ميّزت محمد سعيد الزعيم في وقت لم تكن فيه المؤسسات قد قامت واكتملت تشكلاً وأداءً.

وبعد فقد كان محمد سعيد الزعيم ناضج الرأي والحكم في وقت علت فيه المزايدات الحمقاء المؤلمة، ففي العام ١٩٦٢م عندما أعلن بعض النواب المتشددون في مجلس النواب زمن الانفصال بأن المشتقة مصير من يطالب بالعودة إلى التأميم، سئل محمد سعيد الزعيم رأيه بوصفه رئيس لجنة الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية لمدينة حلب في مسألة التأميم فأجاب: أرى أن يبقى مائماً مؤمماً وأن نتحدد بالمقابل مبادئ عمل القطاع الخاص ومجالات حريته في الاستثمار تحديداً قانونياً واضحاً.

لكم هي قضية معاصرة، بل آنية الأهمية، قضية تحديد حيز مشروع وسليم لنشاط القطاع الخاص نشاطاً بناءً وإنتاجياً لصالح التنمية والعدالة في سورية !

وفاة أمه

أذكر أن حالة من الاكتئاب المقترن بقلق وجودي كانت ترتسم على محيا عمي بل ومحيا والدي أحياناً على أثر وفاة والدتهما المرحومة فاطمة سلطان . يعلم الله وحده مافي الصدور لكن فقدان عمي أمه بضعة أشهر قبل وفاته المباغثة هو في آذار - مارس ١٩٦٣ كان ضربة مفجعة لسويدائه وصفاء روحه وحرماناً من أم ولا كالنساء وظفت ذكاءها الفذ وخلقها الرفيع وعقلها الراجح لتلهم ابنها مبادئ الابتكار والإنجاز والعطاء والكرم والسخاء .

كانت له نجمة الشمال !

المقدمة

بقلم أمية الزعيم

الأعوام تنساب، تمسك يداً بيد. تلتقط الشهور والأسابيع والأيام التي ترفض الانصياع. تقبض على الساعات والثواني، تريد الهروب بسرعة فما بقي في جعبة الزمان سوى سنوات أربع ندخل بعدها بوابة القرن الحادي والعشرين.

نقطة التحول الهامة لن تكون يوم نعبّر هذه البوابة. فمنذ الآن بدأ العالم يأخذ صورة مختلفة عن كل ماضى: فهذه دول عظمى يتفكك بنيانها ويتدحرج كأنما زلزلت بها الأرض، وتلك دول أخرى تغطي حتى تغطيها السيطرة. وفي نصف الدنيا شعوب تجمع. تصحّر آخذ بالزحف والانتشار، وحروب غير ماعرفته البشرية، تعدّ كالألعاب الأطفال التي تصيب الهدف من بعيد. كأنما نحن في سيرك يطلق عبوات غريبة لتتحرك أجراس...

الأنهار والمياه تغدو الهاجس أكثر من البترول، والمهاجرون بمئات الألوف يجتاحون الحدود ويحملون الفقر والأمراض والانهدام.

وسط هذا الخضمّ العجيب لا يبقى نقياً بسيطاً، مفهوماً ومقبولاً ومحبباً، سوى ماضينا الجميل. ومن هذا الماضي المحبب على قلبي صورة رب أسرتنا الذي احتضنتنا وهياً لنا أسباب الحياة الكريمة، وكان العيش في كنفه دروساً في الاستقامة واللباقة واللفظ والانضباط والإحساس بروح الجماعة:

محمد سعيد الزعيم

ستقولون: كل فتاة بأبيها معجبة، وأوافقكم. ولكن حين أحكي حكاية هذا الأب بتفاصيلها ترون أنه يكاد يكون نسيج وحده، والصورة المثلى التي نحلم بها. ألسنا جميعاً نرتد الآن إلى فكرة تجعل الأخلاق الرحبة الصارمة والسلوك الأمثل الطيب، أساس نهضتنا؟ فنحن إذن في حاجة إلى أن نبحث عن الذين أنتجهم هذا الشعب العظيم مستفيداً من دينه وثقافته وعراقته وعيونه المفتوحة على المستقبل، فما وجدناه عندنا وحولنا كان الأولى بأن يتبع. والذين ذهبوا من هذا العالم، مكرّمين مأسوفاً عليهم، ربما كانوا مئآت ملايين، ولكن النخبة ونخبة النخبة هي حصة التاريخ من كل هذه المجموع.

وهذا الأب - أبي محمد سعيد الزعيم - كان من نخبة النخبة، كما تقول لكم شهادات قدمتها غرفة تجارة حلب ومجموعة من كبار الاقتصاديين فيها، وأوردت نماذج منها خشية التطويل.

أما في داره وفي معاملته لنا فقد كان انساناً استثنائياً حتى أتمنى لو يكون الآباء كلهم على نهجه ليسعد الأولاد ويتربوا أفضل تربية.

ولعلي أستطيع أن أعطي من ذكرياتي صورة حميمة عنه وعن رقيه.

ثم ان الحكايات التي جمعتها من طفولتي في بيتنا العتيق، من العالم الغني بالمشاعر الذي تنفست فيه وأنا أرى الصباح يستفيق على أحجار بلدتي؛ والقصص التي نظمتها عقداً ملوناً فيه مفارقات كثيرة تفرح وتخزن. هذه الحكايات، كبرت أنا وكبرت الحكايات معي، وأنا أعيش في مدينتي الفضلى حلب. وإذا كان الرحيل مقدراً على الناس جميعاً فما أدوّنه يصلح أن يكون اختلاصاً من هنيهات الزمن الغدّار، وتسجيلاً لما يحبه التاريخ من صور الحياة الغنية، بما فيها من أتراح وأفراح

ومعان عميقة وذكريات فيها الأحزان نفسها حكمة. ولي أن أقول في هذا: أنني لم أعتب على الزمان أبداً، وكيف أفعل وقد كان أستاذي الأكبر؟
ثم إنني قد لأكون صاحبة الموقع الأرجح للكتابة عن والدي، فلي أشقاء وشقيقات وكلهم محب له وقادر على الوفاء بحقه، لاسيما وأنني أكاد أكون الأخيرة في القدوم بين أولاده لولا أن لحقت بي أخت اسمها (منى) كانت آخر العنقود. ولكنني وقد تعلقت بأبي على نحو خاص، أحببت أن أخذ هذه المبادرة، فوافقتوني عليها وربما لأنني الآن بحكم العمل والاستمرار أقربهم إلى عالم الكتب الذي كان أبي من رجاله المميزين.

. ولا بأس بكلمات عن أسرة محمد سعيد الزعيم. فأخوأي خالد وعمر ماهر يعملان في التجارة التي تآلق الوالد فيها، وأخواتي سعاد وفاطمة و (المرحومة) سلوى ومنى وكلهن تزوجن وأنجن أولاداً، قدمن لي كل تشجيع وعون. وقد أعطتني فطمة صوراً عن رسائل الوالد إليها، وما كان وجود الرسائل الموجهة لها تمييزاً لها عن الباقيات، ولكن لأنها تلقتها وحفظتها وقت أن كانت مع زوجها وابنتها في ألمانيا، والوالد المرحوم شديد العناية بالمراسلة لأنها صورة المودة وواجب التوجيه ومسرة الحوار الذي يحبه لأنه أديب قبل كل شيء.

هذا أولاً. ولو سئلت عن والدي وكيف أخصه في ملامح سريعة وضرابات قلم ترسم الخطوط الكبرى، لقلت انظروا إلى الصورة المعبرة التي رسمها له الفنان المهندس المرحوم عبد اللطيف الضاشوالي، تروا رجلاً بالغ الأناقة - وهذا أول مايلفت النظر في الرجال عادة منذ الهولة الأولى - يقف وقفة لائقة واللياقة كانت هاجسه الأكبر في المبنى والمعنى، في المظهر والمخبر. جميل جمال الرجولة المكتملة. والأهم من كل ذلك أنه يحمل القلم أو الريشة التي ترمز إلى الكتابة، على أذنه.

هذه الريشة هل هي رمز دقة الحساب والتسجيل؟ إنها كذلك وهذه من صفات
التاجر، ولكنها أيضاً - وربما أكثر - علامة المثقف.



محمد سعيد الزعيم
Said Al Zaim

بريشة المهندس
عبد اللطيف الضاحوالي
من كتابه (مرايا)

فلا يمكن لاعتبارات تتعلق باتجاهي الأدبي والفني الغالب، أن أتغاضى عن أن محمد سعيد الزعيم كان تاجراً أمثل، مادام عمل في التجارة مع أبيه منذ نعومة أظفاره، في حماه وحلب ثم في الاسكندرية، حتى بلغ به مستواه إلى أن أصبح نقيب تجار حلب، ووزيراً للمال في وطنه، وعنصراً مؤثراً فاعلاً ومبتكراً في أمور الصناعة والإنتاج والتبادل. فهذه كلها شهادات الزمن والناس فيه، وما من سبيل إلى تجاوزها. ولكن (الريشة) على أذنه، التي تدل على الالتصاق بالعقل المبدع، تشير إلى مثقف كبير، له لغة عربية في مستوى الإتقان الذي يبلغه كبار أساتذتها وهي تبدو لعين الفاحص الخبير حتى في رسائله لبناته وهي عادة تأتي عفواً الخاطر. ثم إنها تشير - هذه الريشة التي صورها الضاشوي بالهام وتدقيق أنيقة رشيقة - إلى كاتب متين العبارة، يرسلها كمن يرسل سهماً فيأتي في قلب الدائرة من الهدف فلا تحيد ولا تجاوز ولا تطف عن المقصود. لعلني أتمثل بيتين حورت فيهما وبدلت حتى طابقتا ما أريد:

أُغَطِّي على عيونيَ أم أنت أرشق الناس معنى
وحدث يحبه السامعون كاللحن - ما أحبك لحننا

وليس أدبه كلاماً في (الأدب)، وإنما هو أناقة في حديث التاريخ كما سترون في وصفه لثورة مدينة أبي الفداء عام ١٩٢٥، فكان القارئ عاش مع الثائرين لحظات الخطر وأحس مثلهم رهبة الموت حامت على الرؤوس، وقسوة التعذيب حاقت بالجسوم، وصفاء التحليل ليعرف الناس ما وراء الأحداث من خطأ ومن صواب، في دقة المؤرخ الذي عاش وعانى ورأى وحدث لتكون العظة ماثلة في الزمان.

أبي ورعايته الأدب والأدباء

الأخطل الصغير وقصيدته في حلب

حكاية تذايع لأول مرة منذ ستين عاماً

فقد كان والدي محمد سعيد الزعيم من أكثر الناس تقديراً للأدب والأدباء، وقد صحبهم منذ كان يعيش في مدينة حماة في أوائل العشرينات كما ترون من كتابه عن مدينة أبي الفداء المنشور في هذه المجموعة. فقد كان منذ ذلك عضواً في (النادي الأدبي) الذي يضم كبار الأدباء من أمثال توفيق الشيشكلي وإبراهيم الشيشكلي ومحمد البارودي وعثمان الحوراني وعبد الحسيب الشيخ سعيد، وشارك في مسرحيات النادي التي تقدم بالفصحى في مواضيع قومية ثم صار عضواً في لجنة النادي المشرفة على أعماله ومفوضاً عنها في الأمور المالية ولا سيما جمع التبرعات لتجديد مدفن (أبي الفداء).

إذن فكان له باع طويل في اللغة العربية والأعمال الأدبية، وكان في صحبة طيبة مع كبار العلماء والأدباء ومنهم وأولهم والده الشيخ خالد الزعيم الذي تجددون سيرته في هذا الكتاب أيضاً، حتى ليصح القول إنه (أديب عمل في التجارة أيضاً) وليس تاجراً تفقه في اللغة.

وكانت مكتبته في الدار تشغل طابقاً تحت الأرضي مليئاً بالخزائن وأمهات الكتب يخلو إليها زمناً كل يوم في مطالعة ربما كانت أكثر الأشياء جذباً لاهتمامه. ولذلك كان يستقطب حوله كبار الأدباء الحليين وفي مقدمتهم الأستاذ عمر أبو ريشة من

كبار الشعراء وسامي الشوا من كبار الموسيقيين، كما عقدت صلات ود ومحبة مع الشاعرين بشاره الخوري (الأخطل الصغير) و (الشاعر القروي) رشيد سليم الخوري .

و كنت أعرف منذ صغري أن قصيدة الأخطل في حلب، وهي التي تزين جيد مدينتي المحبوبة، قد ألفت لأول مرة في دارنا، وفي دعوة أقامها والذي على شرف الأخطل الصغير جزءاً من تكريمه ودعوته المكررة إلى حلب، وأعرف أن فيها بيتاً يشير إلى اسم والذي، ولكن القصيدة التي كانت جزءاً من الشعور الطيب نحو حلب عاد الأستاذ بشاره الخوري فاخترل منها أبياتاً وألقاها بعد ذلك بفترة من الزمن في مهرجان المتنبي . ومن المسعد للذكرياتي أن تكون رائعة الأخطل الصغير في المتنبي قد شهدت النور لأول مرة في بيتنا في تشرين الأول عام ١٩٣٥ ورداً على تكريم والذي للشعر والشعراء . وقد سعت مع الأستاذ رياض عبد الله حلاق صاحب جريدة الضاد المحترم فقدم لي مخطوطة هذه القصيدة الأساسية التي حذف الأخطل منها نحو عشرين بيتاً وألقاها في مهرجان المتنبي لمناسبة ألف سنة على وفاته - وقد أقيم في الجامعة السورية في دمشق - ومن السبق الأدبي أن أنشر القصيدة الكاملة كما جادت بها قريحة الشاعر العظيم في مناسبتها الأولى فجاءت في ستة وسبعين بيتاً، وأهديها لروح والذي التي انتشت حين استدرجت الشاعر الكبير لنظم قصيدة باقية على مر الزمان . وهذه هي القصيدة :

نفيت عنك العلل والظرف والأدبا	- وإن خلقت لها - إن لم تزر حلبا
خذ الطريق الذي يرضي الفؤاد به	ولا تخف، فقد يمّا ماتت الرقبا
واسكب على راحتها روح عاشقها	ومص من شفيتها الشعر والعنبا
أفدي الشفاء التي شاع الرحيق بها	وهم بالكأس ساقها وما سكبها
كانها نجمة طال السّفارُ بها	عطشى، رأت وهي تمشي، منهلاً عذباً
توسدت شفيتها بعدما نهلت	وفارقت صاحبها: الليل والتعبا

ماللشفاه الكسالى لاتزودنا
بمهجتي شفةً منهن باخله
أهم بالنظرة العجلى وأمسكها
أنا الذي أتهمت عيناه قلبهما
أُمنعُ الشفة الدنيا؟ ولو طمحتُ
ويُمطر الغيمُ في أرضي وأشربه
ذَرِ اللبالي تُمعنُ في غوايتها
شهباء لو كانت الأحلامُ كأسَ طلا
أو كان لليل أن يختار حليته
لو أَلَفَ المجدُ سفراً عن مفاخره
لو أنصف العرب الأحرار نهضتهم
لكنْ خلقت لأمر ليس يدركه
تعرى البطولة إلا من عقيدتها
ملاعب الصدر من حمدان، مانسلوا
الخالعين على الأوطان بهجتها
حسامهم مانبا في وجه من ضربوا
ماجرّد الدهرُ سيفاً مثل سيفهم
ربُّ القوافي على الإطلاق شاعرهم
سيفان في قبضته الشهباء لأثلما
عُرسُ من الجن في الصحراء قد نصبوا
كانه تدمرُ الزهراءُ مارجةً
أو هضبةً من خرافات مُرّقةً

فقد حملنا على أفواهنا القربا
جاران، تحسبنا إن تلقنا غربا
إذا قرأتُ على الحاظها الغضبا
فرحتُ أخلقُ من نفسي لي الرّيا
نفسى إلى شفة الفردوس مانحجبا
وكنْتُ لأرتضي أن أشرب السّجبا
فقد حشدتُ لها الأخلاق والعربا
في راحة الفجر كنت الزهرَ والحبيا
وقد طلعت عليه، لأزدرى الشهباء
لراح يكتب في عنوانه «حبلى»
لشيدوا لك في ساحاتها النصباء
من يعشقُ الذلَّ أو من يعبد الرُّتبا
والجنُّ أكثرُ ماتلقاه مُتقبّبا
إلا الأهله والأشبال والقُصبا
والرافعين على أرماحها القصبا
ومُهرهم ماكبا في إثر من هربا
يُجري به الدم أو يُجري به الذهبا
الخلدُ والمجدُ في افاقه اصطحبا
قد شرفا العربُ بل قد شرفا الأدبا
له السَّرادقُ تحت الليل والقبيا
بمثل لُسن الأفاعي تقذفُ اللهبا
بأعين من لظى أو من رؤوس ظبى

تَخَاصَرَ الْجَنُّ فِيهَا بَعْدَمَا سَكُرُوا
فَأَفْزَعَ الرَّمْلَ مَا زَقُوا وَمَا عَزَفُوا

تكشف الصبحُ عن طفلٍ وماردةٍ
كانه الزئبقُ الرجراجُ في يدها
نادى أبوه - عظيمُ الجن - عثرته
ماذا تُسميه؟ قال البعضُ: صَاعِقَةٌ
فقام كالطود منهم ماردٌ لسنٍ
سنبعثُ الفتنة الكبرى على يده
ونجعلُ الشعرَ رباً يسجدون له
واختال غير قليلٍ، ثم قال لهمُ
وزلزلوا اليدَ حتى كاد سالكُها
يرى الشرابُ عباباً هاج زاحره

إيه أخا الوفرة السوداء كم ملك
غضبتَ للعقل أن يشقى فثرت له
هل النبوة إلا ثورةٌ عصفتُ
ماضراً موقدها والخذلُ منزله

طلبتُ بالشعر دون الشعر مرتبةً
إذن لأنكلتُ أم الشعر واحدها
لولا طماحُك ما غنيتُ قافية
قد يؤثرُ الدهرُ إنساناً فيحرمه

أبا الفتوحات لم تُزجِ الخميس لها
تأتي التخوم فتلقاها مهللة

وبعدما احتدمت أوتارهم صخبها
فطار يستنجد القيعان والكتبا

له على صدرها زارٌ إذا غضبا
أو خفقة البرق إما اهتز واضطربا
فأقبلوا ينظرون البدعة العجبا
فقال كلا... قالوا عاصفاً... فأبى
وقال: لم تنصفوه اسماً ولا لقباً
فنشغلُ الناسَ والأقلامَ والكتبا
فإن غَوَوْا فلقد نلنا به الأربا
سميته (المتنبى) فانتشوا طرباً
يهوي به الرَّحْلُ لا يدري له سيباً
والرمل يلتحفُ الأزهار والعُشبا

أعاضك التاج منها، لو بها اعتصبا
بمثل ما اندفع البركانُ واصطخبها
على التقاليد حتى تستحيل هبا
إذا رمى نفسه في نارها خطباً؟!

فشاء ريك ألا تُدرك الطلبا
وعُطِّلَ الوكرُ لاشدوا ولا زغباً
بواتها الشمسُ أو قلدتها الحقباً
من يمنع الشيء أحياناً فقد وهباً

ولا لبستَ إليها البيضَ واليلبا
مثل المريض أنه بالشفاء نبا

ما الفتحُ أهدي إليك الرّوض والسُّحبا
 ولو فتحت بحدّ السيف لانحطمت
 «خذ ما تراه ودَعْ شيئاً حلّمتَ به»
 قد يؤثّر الدهر إنساناً فيحرّمه
 يأمْلِس الحكمة الغرأ روعتها
 كأنّما هي أصداً يرددها
 قالوا استباح أرسطو حين أعجزهم
 مهلاً، فما الدهر إلا فيضُ فلسفة
 من علّم (ابن أبي سُلمى) حكيمته
 يا خالقاً جيله لولاك ما عرّفتُ
 أمنتُ بالشعر مذ أنشاك آيته
 أضمرت ثورتك الهوجاء فالتهمتُ
 وغال شعرك شعراً الكائدين له
 حتى رجعت وللأقلام هلهلة
 عفواً نبي القوافي . أي نابغة
 منعت عنهم ضياء الشمس فأنحجبوا
 لم ألّق كالشعر مظلوماً فقد حشدوا
 يُرمى بكل قبيح من مثالبهم
 مثل المسيح تغالوا في أذيتِه
 قالوا الجديدُ . فقلنا أنت حُجّتهُ
 أفكرة لم تكن فتّمت برعمها
 بعض الجديد الذي يدعونه أدبا

كالفتح جرّ عليك الويل والحربا
 تيجان قوم حشوها الظلم والرّها
 فربّ حلّم جميل أورث العطباً
 من يمنع الشيء أحياناً فقد وهباً
 حتى هتفنا: أوحياً قلت أم أدبا
 هذا إذا بُثّ أو هذا إذا عتباً
 وإنه استلّ من آياته النّخباً
 يعود بالدر منه كلُّ من دأباً
 و(قُسّ ساعة) الأمثال والخطباً؟
 له الأواخر لأرأساً ولا ذنباً
 وكان عرشاً من الأصنام فانقلباً
 من القريض الهشيم الغث والخشباً
 لأنفسهم حفرت أيديهم التُّرباً
 في كف أبلغ من غنى ومن طرباً
 لم يزرعوا حوله البهتان والكذباً
 فهل تلومهم إن مزقوا الحجباً
 لحربه حسد الحساد والنُّوباً
 ويرفعون له الأنصاب إن ذهباً
 وألّهوه، ولكن بعدما صلباً
 يا واهباً كلَّ عصر كلَّ ما خلباً
 وجدة لم تكن أمّاً لها وأباً
 يموتُ في يومه، هذا إذا وهباً

إن لم يكن لك حسنُ الوجه تعرضهُ	فقد ظلمتَ به أثوابك القُشْبُ
أُتْسَعِدُ الروضةَ الخضراءُ بلبَلْها	حتى يفِي الروضةَ (الشهباء) ماوجبا
أيقنت أن «سعيداً» أخذ بيدي	لما سما بي إلى أخوانه النجبا
أتيتهم فكسوني كلَّ سابعة	وكنْتُ البُسْها لا تبلغ الرُكبا
تيهاً عروسةً سورياً فقد حملتُ	لك القوافي على راياتها الغلْبَا

وقد ذكر هذه الحادثة الأديب الكبير الأستاذ عبد الله يوركي الحلاق صاحب مجلة الضاد الحلبية، في العدد (٨ - ٩ - ١٠) الصادر في عام ١٩٨٨ فقال:

«وكان الوطن العربي والمهجر الأميركي يحتفلان في ذلك الوقت بإحياء الذكرى الألفية لأبي الطيب المتنبي فنهضت حلب لإقامة حفلة يكرم فيها الأخطل الصغير الذي نظم في الشهباء والمتنبي قصيدة لم ينظم أجمل منها ولا أروع. وقام الأستاذ محمد سعيد الزعيم والحاج صايم الدهر بدعوة الشاعر إلى حلب، فلبى الدعوة وأقيمت الحفلة بعد ظهر الجمعة ١٨ تشرين الأول ١٩٣٥. وفي هذه الحفلة أتيح لي أن أعرفه عن كثب، ثم بدأت بينه وبينني صداقة كان اعتزازي بها كبيراً. ولم تظفر حلب بمثل ماظفرت به من قدر وفخر إلا يوم أنشدها بشاره الخوري قصيدته العصماء المشتملة على الوصف الصادق واللفظ الأنيق والخيال الوثاب والمعنى المبتكر. وأضاف وما زلت بعد نصف قرن أتمثل الأخطل الصغير بقامته النحيلة ووجهه المنمنم وعينه اللامعتين وراء نظارتيه، ينشد بصوت هادئ عذب وبلهجة مصرية صافية تلك القصيدة الوصفية الفخرية الخالدة التي أحسستنا ونحن نسمع أبياتها بنشوة سحرية نقلتنا على أجنحة الأدب والفن إلى عالم آخر، كله خير وبهاء. وأقل ما يقال في بشاره الخوري أنه... شاعر الهوى والشباب والأمل المنشود».

محمد سعيد الزعيم إذن، وأخصه للمتعجل: هو الزوج العطوف، والأب
الحنون، والإنسان المنتج في كل المجالات، ورجل الإحساس بالمسؤولية المتصدي
لها، والذي عاش ثواني عمره محباً رضيعاً ومستقيماً دقيق التعامل، وغنياً بالناس
لأنهم، وحين انطفأ وهو في أول الستينات، ذهب خطفاً بأزمة قلبية، ولعل
النهاية السريعة والحاسمة من بعض أخلاقه وسلوكياته.

وما يزال يذكره صحبه والناس الذين عرفوه بالإعجاب والرضا والتقدير،
ولكن الأجيال التي تلت وفاته - منذ ثلاث وثلاثين سنة - لها حق علينا نحن
الأقربين، ألا نترك حياته المؤنسة دون أن تبرز في إطارها الحقيقي، الإطار الجميل
الذي يضعها في صدر مواقع العمل والتأثير في مناحي الحياة جميعها.

ولكن حذار من أن يظن أحد أنني في محاولتي تأطير صورة هذا الإنسان الكبير
سأخرجه من عالم الناس الذين يتصرفون ببساطة وطيب ومحبة. لا، بل كان
مفرطاً في محبته وفي حنانه، ولكنه لم يكن يجعل المحبة والحنان تطمعان أولاده في
أن يخرجوا في التصرف عن الخط المرسوم، وهو خط حضاري. حبه لهم هو لتأكيد
التربية المثالية، ولكن أبداً لن يكون الحنان طريق الضعف. وسنرى.

واليكم الآن من خلال ذكرياتي الشخصية المناسبة عفو الخاطر، سيرة حياة
محمد سعيد الزعيم ومن قبله والده ومعلمه وقدوته الشيخ خالد الزعيم،
كما سجلها كبار الناس الذين عرفوه وتعاملوا معه وكرستها الهيئات الاقتصادية
الرسمية، وبعدها أحاديث مع الصحافة، ووصف لعدد من مجالات تفوقه في
الأدب والتاريخ. وأخيراً أنشر ثلاثة من كتبه التي نشرها في حياته، ولو مكثفة
بعض الشيء، حتى لا نثقل الكتاب فيصير مجموعة كتب. وسيكون معها ومهداً
لها حديث حميم عن طفولتي وشبابي الأول في ظله.

لذلك فإن هواياتي وأعمالي في مجالات الإدارة والاقتصاد، تنتمي كلها إلى مدرسة كبرى رشفت دروسها من أمي مع حليب الطفولة وعلمتني إياها رفقة السفر والعيش مع والدي، وتوخيت العمل بوحيتها وأنا في نضوج العمر وأنا أم ثم جدة، فلعلي أجعل منها كتاباً مستقلاً يصدر فيما بعد.

ولا بأس بكلمات شديدة الإيجاز عن حياتي الشخصية. فقد تزوجت من السيد فواز ابن الدكتور ناظم القدسي رئيس الجمهورية السابق وأنجبت له ثلاثة أولاد ذكور هم ناظم وهاشم وباسم، وعشنا في دولة الامارات العربية ثم قضت الظروف أن نختلف نحن الأبوين، فافترقنا باحترام دون ضجة. ولي أحفاد ثلاثة هم بالترتيب أميرة ونور وفواز القدسي.

وبعد فراقنا تقدمت فوراً لامتحان الشهادة الثانوية (البكالوريا) وحصلت عليها بعد ترك الدراسة فترة طويلة، ثم انتسبت إلى قسم الأدب الانكليزي في كلية الآداب بحلب وحصلت على شهادة الليسانس، وبذلك اجتمعت لي لغتان أجيدهما هما الفرنسية والانكليزية عدا العربية التي هي حبي وفخاري. وقد افتتحت مكتبة وصالة عرض فنية في حلب لسنوات باسم (دار أمية) ثم أصبحت أخيراً أشرف على مكتبات عدد من فنادق الشام وعلى صالات المعارض فيها، وأعيش في الجو الثقافي الذي يستهويني ويملأ حياتي بالنشاط والسعادة. وأرى أولادي وأولادهم وأتمتع بلقائهم كلما أمكن لوجود الجميع خارج سورية، وأنا راضية بهم وعنهم وفقهم الله جميعاً.

القسم الأول

محمد سعيد الزعيم وأسرته

الفصل الأول

الشيخ خالد الزعيم

لم أجد خيراً من هذه المقالة التي نشرها الأستاذ طاهر النعساني، من كبار أساتذة حماه وأدبائها، عن جدي المرحوم الشيخ خالد الزعيم. وكان نشرها أثر وفاة جدي في عام ١٩٤٨، وقد نقلتها لكم كما هي لأنها تلقي ضوءاً على حياة أبي وعلى حياة الجيل الأسبق، وعلى تاريخ حماه في آخر القرن الماضي وأول هذا القرن وعلى نوع الدراسة والثقافة فيه، وأيضاً لجمالها وأكثره جاء من الصدق في الوصف وفي العاطفة ثم تجدون في مكان آخر صورة جديّ لأبي وأمي في عين الحفيدة الطفلة. كتب الأستاذ النعساني بعنوان:

دوحة العلم والثقافة العاملة بتوفيق في التجارة

الشيخ خالد الزعيم

بقلم الأستاذ طاهر النعساني

في آخر شوال المنصرم عام ١٣٦٦ الموافق ١٤ ايلول ١٩٤٧ اختطف يد المنون رجلاً كبيراً من خيرة الرجال، وعالمأ أدبياً وتاجراً عبقرياً، استطاع بما عنده من جد ونشاط وخلق مستقيم أن يصل إلى الصف الأول بين التجار البارزين بفضل ماأوتيته من مؤهلات وبما امتاز به في إدراكاته العلمية والدينية وفي انتباهه لأسرار الحياة. وهو المرحوم الصديق الشيخ خالد الزعيم الحموي المولد والحلي الموطن فيما بعد. أجد من العقوق له وللتاريخ وللحقيقة - وقد كان نسيج وحده - ألاأتي على إلمامة في تاريخ حياته، فلقد كانت أمثولة يقتدى بها للرجولة والأخلاق والجد والتغلب على الصعاب، وسما صاحبها بنفسه بما فطر عليه من حب الخير والإنسانية والعمل. طيب الله ثراه.

نشأ الفقيد في حماء من بيت شريف معروف بين البيوتات القديمة. وفقيدنا هو بن الحاج محمود بن خالد آغا بن اسماعيل آغا الزعيم. ولد سنة ١٢٩٨ هجرية وتلقى علومه الأولية على الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الرحيم الحداد من كبار علماء حماء، ودرس عليه القواعد العربية والفقه وحفظ القرآن وهو في الثامنة عشرة. ودرس الفقه أيضاً على الأستاذ المرحوم الشيخ فارس الشقفة. وقد أورثته الدراسات الدينية تمسكاً شديداً بالعقيدة. وفي الخامسة والعشرين اتصل بالمدرسة النورية فدرس على شقيقي الأستاذ العلامة السيد محمد سعيد النعساني مفتي حماء اليوم. وكانت هذه المدرسة هي المدرسة المنتجة بحق

والتي تبث في الطلاب روح التسامح وحرية الرأي وأعمال الفكر لا الجمود عند قول المحشّين والحشوية، تنفي الخرافات والأوهام وتدرّب التلميذ على التمييز في الأحكام والأقوال بين الضعيف والصحيح والموضوع والمكذوب.

وعلم الفقيد أن هذه المدرسة كان يغشاها الأديب الكبير المرحوم السيد أنيس سلوم فزاده شوقاً إلى حضور مناقشاتها الأدبية واللغوية. وكانت حلقاتها ترمى بالوهابية لأن الطالب كما قلت يتحرر فيها من قيود الذين يأخذون الأشياء بغير دليل قاطع، ويدرس كتب ابن تيمية أحد المجددين في القرن السابع. ومن اتصل بهذه المدرسة انقلب تعصبه إلى تسامح كلي.

أذكر اتصالنا في هذه المدرسة وأنا فتى في السابعة عشرة، وأنا قرأنا معاً صحيح مسلم غير متقيدين بالخواشي والشروح التي تضيع على الطالب كثيراً من الوقت. وصدف أن وقع الانقلاب في العهد العثماني واستلم الحكم جماعة الاتحاد والترقي وأعلن الدستور. فلجأت الحكومة إلى اعتقال عدد كبير من رجال الجمعية المحمدية، هذه الجمعية التي تألفت عقب خلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد الخامس. وكان من أهدافها على ما بينتها المطالبة بجعل الأحكام قائمة على أساس الشريعة المحمدية الإسلامية. وقد تبعها خلق كثير في الأستانة وغيرها من البلاد العثمانية. وأيدها فريق من علماء الإمبراطورية التركية بدافع ديني لاسياسي. وكان بين المؤيدين لا المتسيين فقيداً كبيراً. فاعتقل أيضاً مع من اعتقل. وكان معه من حماه الأستاذ المرحوم الشيخ مصطفى الحداد قاضي حماه الأسبق والشيخ توفيق الصباغ مدير الكلية الشرعية الإسلامية السابق ومن كبار علماء مدينة أبي الفداء. وقد ارتجت حماه حين أخذ هؤلاء إلى الأستانة مخفوفين تحت المراقبة الشديدة، حيث ظلوا في معتقلاتها ما يقرب من شهرين، ووقفوا أمام المجلس العرفي أخيراً ولكنه برأ ساحتهم بعد أن ظهر له حسن نيتهم وأنهم ما كانوا مسوقين

بدافع سياسي . وكان الفضل في ذلك لنائب حماء في المجلس النيابي العثماني المرحوم الطيب الذكر خالد آغا البرازي والد معالي وزير داخلية سورية الحالي الأستاذ محسن البرازي . فقد كان لهم أكبر نصير وغمهم بسيل من أفضاله وكرمه ومساعدته مما تذكره له حماء إلى اليوم بالفخر والشكر . وقد عاد الفقيد مع رفيقه إلى حماء وكان يوم استقبالهما يوماً مشهوداً وفرح الحمويون كثيراً بعودتهما واستقبالا استقبالا منقطع النظير .

وهبط حماء قبيل الحرب العامة أستاذنا العلامة الكبير المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وحلّ ضيفاً في المدرسة النورية لدى الشقيق المفتي وكان طيب الله ثراه لا يغفل زيارته حماء من حين لآخر وهل المدرسة النورية إلا من آثاره؟ فاتصل به الفقيد الزعيم وأحبه أستاذنا حباً جماً وورثه طريقته ولما رأى فيه روحاً وثابة وإماماً بالتجارة حبيب إليه مزاولتها عملياً ورسمياً . وأذكر أنه حين زار حماء ثانية أهداه كتباً عدة في الاقتصاد والتجارة بعضها قديم والآخر حديث . وعندما لاحت تباشير الحرب الكبرى الأولى كان العلامة الجزائري في حماء وقد أعد عدته للسفر إلى مصر قبل أن تقطع السبل ، فأقام له الأستاذ الزعيم مأدبة كبرى في بستان (البشرية) بحماه أمام النواعير ذات المناظر الخلابة جمعت رهطاً كبيراً من أجباء الأستاذ ومريديه . فكانت نهاية مجتمعات العلامة الجزائري في الوادي .

وانكب الفقيد الزعيم عقب الحرب الأولى على التجارة . وكان والده وعائلته يآلفونها ولكنهم كانوا مشهورين أكثر بعلاقاتهم مع الأعراب والبدو . وكان له من مصاهرته لآل سلطان واقتترانه بكريمة المرحوم (الحاج أحمد سلطان) من كبار تجار حماء قبل الحرب العالمية الأولى أكبر مشجع له في الميل للميدان التجاري . إلا أن هذا كله لم يمنعه أن يظل عضواً عاملاً في جمعية البر الإسلامية التي أسسها فضيلة المفتي أمد الله بحياته ، وأن يبقى عضداً له في كل الأعمال المباركة التي باشرتها

الجمعية . وقد ذكر لي أخي أن فقيدنا خالد الزعيم رحمه الله كان يشغل ليل نهار في تأسيس مدرستي أبي الفداء والبارزي ، وأنه عمل بيده في سبيل قيام مدرسة جامع العزى فحوّل خراباتها إلى ديار عامرة .

وكان لما غرسه المفتي الرئيس في نفوس تلامذته وإخوانه وفي طليعتهم الفقيه بارز الأثر في الدعاية والحض بين طبقات الشعب على ارتياد مناهل العلم ومحاربة الجهالة والتعصب ثم السعي لنشر لواء الأخلاق والسمو بالروح والنفس عن الجمود والكسل ومضيعة الوقت والإقلاع عن الخيال والأوهام وشهوات النفس . حتى أن الشيخ كان في كل حلقات دروسه قبل الحرب الكبرى الأولى وفي غضوناتها وفي اجتماعاته مبشراً بحب الجِد والإقدام والاعتماد على النفس والعمل المثمر ، داعياً دوماً للعمل بالحكمة الخالدة : «اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» . وكانت صلاته برجال العلم الحديث أمثال المرحوم فقيه حماة الأكبر الطيب صالح قنباز وإخوانه ، وصداقته للمرحوم الشيخ حسن رزق صاحب مجلة (الإنسانية) وشغفه بمطالعة كبريات المجالات العربية كالمقتطف والهلال ، مما حجب إليه الانعتاق من برزخ الماضي الضيق إلى أفق التطور الفكري . حيث يحكم العقل والفكر بالمرء لا القيل والقال عن فلان وفلان ، وكثرة السؤال .

وعندما كانت البلاد غارقة في آلام الحرب الأولى كان رحمه الله مع رجالات حماه يعملون للخير وغوث الضعفاء . وكان رجال جمعية أعمال البر يواسون مهاجري غزة الذين نزلوا حماة وكذا منكوبي الأرمن . لا يمنعهم عن بذل الإحسان وعمل الخير فارق ديني . فكنت ترى أخي الشقيق والفقيه الزعيم وأخوانهما ، والأوبئة تفتك في الوادي ، ينتقلون من مكان لآخر يواسون وينقذون وكان بيته دوماً مجتمعاً لرجال الفكر والخير . وفي زيارة مدرستي الإتحاد والعلمية الحمصيتين

لحماة إبان الحرب الأولى وعلى رأسهما المربي الكبير الأستاذ عبد الحميد الحراكي كان بيت الفقيد هو المكان الذي كرمت فيه مدرسة (برهان الترقى) الوافدين مما أطلق لسان المفتش التركي للمعارف إذ ذاك قائلاً: (يعيش زعيم الكرم).

وتنتهي الحرب ويزاول الفقيد التجارة رسمياً وينقطع إليها. ولا تمضي ثلاث سنين إلا ومحلّه التجاري في مقدمة المحلات التجارية بحماه قبل أن تصيبها النكسة الاقتصادية العامة. ويقبل عليه التجار في داخل البلاد وساحلها لما اتصف به من استقامة ودأب على العمل ولأن شعاره كان دوماً (إلى الأمام)، أما المستحيل فلم يكن يجد إلى قلبه وفكره وعمله سبيلاً.

وتجارته هذه لم تقطع بينه وبين المجتمع الإنساني. فلقد أقام عام ١٩٢٢ حفلة شائقة في بيته احتفاءً بعيد مولد الرسول الأعظم. لبأها أوجه المسلمين والمسيحيين، وخطب بها المرحوم الطبيب قنبار والطبيب الحموي المولد الدمشقي الإقامة اليوم السيد توفيق سلوم، شاكرين للداعي سمو تفكيره، ولا أزال أذكر ما شيد به الأستاذ سلوم من فضل العرب والإسلام على العالم ومكانة الرسول محمد الدينية والإنسانية.

ويتمشى الفقيد في معارج التجارة وتزدهر أعماله ويرتفع مركزه المادي، فلا يتغير خلقه الفكري ولا تتبدل صوفيته التقية. ولا تنقلب عاداته وطرأز معيشتة. فلم يُطغه الغنى الكثير، وللغنى طغيان، فبقي مثالياً هادئاً في أعماله المنتجة شغوراً بالمطالعة والدراسة لوحده، أليف مؤلفات الريحاني وصروف وديوان المتنبي ونثرات طه حسين وآثار المعري وجرجي زيدان والكثير من كتب التاريخ والفلسفة وأدب العرب.

وتتوسع آفاق التجارة أمام فقيدنا، فيرحل إلى حلب في تشرين أول عام ١٩٢٤ ويؤسس بها محلاً تجارياً. ويبقى ولده الأكبر الأستاذ محمد سعيد الزعيم في حماه

يزاول عمل محله وتقع الثورة السورية وحركة حماه بقيادة الفواقجي في تشرين الأول ١٩٢٥ ويقبض على (محمد سعيد) بتهمة أن للنادي الأدبي الذي يرأسه الفقيد العظيم المرحوم الدكتور شيشكلي يدأ في الثورة وكان (محمد سعيد) عضواً في لجنة النادي الإدارية، ويزج في السجن. ويهرع الوالد لإنقاذ ولده فيتهمه الأفرنسيون بمدّ الثورة بالمال. ويريدون محاسبته على رحلة له قام بها عام ١٩٢٠ إلى تلكلخ يوم لبي داعي الحكومة العربية للتشويق على قتال المستعمر والدفاع عن حكومة ساكن الجنان فيصل الأول، فيزج في السجن أيضاً. ويكون نصيبني أنا أيضاً الاعتقال والسجن ونلقى جميعاً من الشدائد والهول والضرر ما لله به عليم. وشهدت الفقيد خالد الزعيم يتحمل الأذى بصبر وجلد، فكان لنا جميعاً مشجعاً وداعية للأمل. وعندما خرج من السجن وخرج من بعده ولده عول على ترك حماه نهائياً والإقامة في حلب وسائر عائلته. واشتد بها ساعده ووفق التوفيق كله.

وقد حج البيت الحرام مرتين الأولى قبل أن ينشأ الخط الحجازي، والثانية عام ١٩٣٨ قام بها عن طريق كربلاء وحائل - حيث كان يتشوق لزيارة الجزيرة العربية في شطرها الآخر. ولما حلّ بحائل وعلم به أميرها استدعاه إليه وأكرم وفادته لما بينه وبين آل الزعيم من صداقة قديمة موروثه ترجع إلى تجارة الإبل التي اختصت بها أكثر عشائر نجد واشتهر بها بعض إخوان الفقيد. وعقب عودته من الحجاز زار الآستانة مستعيداً ذكرياته الأولى بها يوم زارها معتقلاً سجيناً.

وانقطع بعد ذلك عن التجارة. وعاش منعزلاً، صارفاً وقته في المطالعة ورقابة أملاكه في حمص وحماه. وأني لأذكر دعوته يوماً لي للركوب معه من حماه إلى حلب في أوائل السنة الماضية فلقد كانت بيننا مساجلة أدبية صرف في رحلتنا هذه لعلقة لها بغيرها، وكأنه منقطع عن العالم والمادة إلى الروح والفكر فقط. وإذ بي أجده على ذكرى من المعلقات كلها يحفظها ولا يزال اتصاله بالبحث والاستقراء

وكان انقطاعه مدة ١٨ عاماً للتجارة لم ينسه دراساته العلمية والأدبية؛ بل أنه أصاب شوطاً كبيراً في البحث العلمي والتطور العلمي.

وكان من حسن تدبيره أن عمد إلى توزيع ثروته على أولاده في حال حياته. وقسمها بينهم هذا التقسيم الذي دل على عقلية راجحة قلّ من يظن لها من أرباب الثراء حرصاً على وحدة أولاده من أن يدب إليها النزاع من بعده. ولما اعتزل التجارة كما قلت. لم يقعد عاطلاً وقد خلق دؤوباً عاملاً نشيطاً وإنما كان يعمل متنقلاً بين المدن مفضلاً الحركة على الجمود. مستطلعاً باحثاً راعياً أملاكه ومتفقداً رحمه وأقاربه والجمعيات الخيرية والمحتاجين من مواطنيه. تطرقت في البحث معه مرة إلى التجارة والتجار فضرب لي الأمثال أن الثروة التجارية إذا مُني صاحبها بالسقوط وزاول المادة فقلما تعود إليه، لذلك يجب أن يكون التاجر يقظاً جداً. قلت أن الفقيد عبقرى ولم أكن الوحيد في إعطائه هذا اللقب، فقد قال لي أحد تجار بيروت الذين لمع نجمهم في التجارة في صدر القرن العشرين حتى امتلك الموقف وشع حتى ملأ الأفق وهو الحاج رثيف أفندي المشنوق والد الأستاذ عبد الله المشنوق صاحب (بيروت المساء) قال: لم تقع عيني على تاجر مثل الشيخ خالد الزعيم في جده ودأبه المتواصل وتفكيره العالي.

اختطف المتون الموما إليه اختطافاً، فبينما كان حاملاً حقيبته الصغيرة يريد امتطاء السيارة للسفر إذ سقط في باب الفرج على أثر نوبة قلبية وهي التي تنتاب كثيراً رجال الفكر والجهد والعمل فأدركه ولده السيد معين واستفاق بعض الإفاقة، وفي إفاقة هذه أشار إلى جيبه في تلك الدقيقة الرهيبة حيث كانت مفكرته ووصيته، ولم يلبث أن أته النوبة الثانية بين يدي الطبيب في المستشفى الذي نقل إليه وأسلم الروح.

أطلعت على وصيته فإذا به يوصي أهله ألا يجزعوا للموت فتلك سبيل ليس فيها بأوحد . وألا يبكوا فكل من عليها فان . وأنه يلاقي وجه ربه مرتاح الضمير . وغاية رجائه من أولاده أن يكونوا بعيدي النظر في المستقبل وأن يتناصحوا فيما بينهم وبين الناس على اختلاف مذاهبهم وأن يكونوا معتدلين في معاشهم لإسراف ولا تقتير . ويدعوهم في سيرهم إلى الأمام إلى بذل كل مرتخص وغال في سبيل إسعاد وطنهم وتثقيف أبنائهم ، وإلى ترك كل ما يضر بالنفس والصحة والجسم . وبالإجمال فقد كانت وصيته رحمه الله اجتماعية وأخلاقية ووطنية ومالية فقد أنفق على روحه مبلغ ثلاثين ألف ليرة سورية وزعت على أيتام حلب وحماه وحمص وجمعياتها الخيرية ومدارسها . وعلى المحتاجين والعائلات المستورة من العلماء ذوي الأرحام والفقراء ويوتاتها .

وهكذا انطوت صحيفة من صحائف العمل والإقدام والإنتاج والاعتماد على النفس والوطنية الصادقة . انطوت هذه الصحيفة وفيها مثال الرجل الأبرّ برحمه وإخوانه وبالمحتاجين الذين تصل مبراته إلى ظلمات بيوتهم ، تصل من غدر به الزمن وتشجع من يستطيع العمل . ما عرف الكبرياء والمرح إلى قلبه سبيلا . رحل عن هذه الدار الفانية وقد أبقى ذكراً عاطراً سيقى خالداً ماكر الجديدان .

حلب في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٨

طاهر النعساني

الفصل الثاني

الوالد كما وصفه زملاؤه بعد الوفاة

وأنتقل بعد هذا لأتم صورة والدي المرحوم
محمد سعيد الزعيم كما رسمتها غرفة تجارة
حلب، ومعروف أن من عوائد التجار أن يزنوا
كل شيء بميزان دقيق، فلا ينقصوا ولا يزيدوا.

- أمية -

فقيه الاقتصاد العربي

المرحوم محمد سعيد الزعيم

رئيس غرفة تجارة حلب

حمد النشاط، وهدأت الحركة، وتلاشت الحيوية، ساعة جمد الدم في عروق
من كان كتلة من النشاط والحركة والحيوية المأسوف عليه رئيس غرفتنا المرحوم
محمد سعيد الزعيم، الذي لبي دعوة ربه مساء يوم الثلاثاء الواقع في الثاني عشر
من شهر آذار ١٩٦٣، بعد مرض لم يطل أكثر من ستة أيام وعلى أثر نوبة قلبية حادة
وقف الطب أمامها حائراً عاجزاً.

ريبب الجهاد ورفيق المناضلين في سبيل الاستقلال

ولد في أواخر ذي الحجة من عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٥م) في مدينة حماه (١) وقبل أن يزور المدرسة زار السجن حيث كان يقيم والده المرحوم الشيخ خالد الزعيم الذي كان معتقلاً لاشتراكه في تأسيس جمعية دينية أنتمها الأتراك بأنها كانت - تحت ستار الدين - تسعى لإعادة عبد الحميد إلى عرش الخلافة وخلع أخيه السلطان محمد رشاد

وما دخل طور الشباب حتى انتخب (٤ - ١٢ - ١٩٢٤) عضواً في اللجنة الإدارية للنادي الأدبي في حماه الذي كان يتستر بالأدب ليدكي في الحمويين روح الوطنية وينظم مقاومة الفرنسيين ومحاربة الانتداب .

وفي ١٩٢٥ انتسب لأول مرة إلى حزب سياسي هو حزب الشعب الذي أسسه جميل مردم بك وحسن الحكيم .

وفي ٦ تشرين الأول من العام نفسه، وبعد القضاء على ثورة حماه، ألقي القبض عليه وأودع السجن مع الأحرار والمجاهدين وذاق ألوان العذاب، كما يجده القارئ مفصلاً في كتابه (مع ثورة حماه) .

في حلب

وفي العشرين من سنه - أي في عام ١٩٢٥ - جاء إلى حلب برفقة والده الذي أسس محلاً تجارياً في حلب محتفظاً بمحله التجاري في حماه، وكان الشاب محمد سعيد يتنقل بين المدينتين مهتماً بشؤون المحليين .

وبعد مدة استقل بالعمل وأنشأ معملًا للنسيج الحريري، ولم يصرفه العمل التجاري الصناعي عن الحقل الوطني والميدان السياسي، فكان من أركان الكتلة

(١) انظر كتابه مع ثورة حماه وفي غياهب سجونها، طبع في حلب ١٩٦٢ .

الوطنية في الشهباء ومن الأعضاء البارزين في الحزب الوطني، وإذا كان قد انصرف عن السياسة بعد انتخابات ١٩٤٧ فإنه لم ينقطع عن العمل الوطني والسعي لرفعة البلاد وإعلاء شأنها دون أن ينتمي إلى أحد الأحزاب.

في الميدان الاقتصادي

له في الميدان الاقتصادي جولات تذكرها حلب وسورية ودنيا العرب .
خلال السنين الثلاث الأخيرة لم يعقد اجتماع اقتصادي في سورية كما أنه لم يعقد مؤتمر اقتصادي عربي إلا كان المرحوم محمد سعيد الزعيم أحد أركانه أو الداعين إليه، وكثيراً ما انتخب مقررأ أو رئيساً لهذه الاجتماعات والمؤتمرات .
وغداً متى تنادى رجال الاقتصاد إلى عقد مجتمع عام أو مؤتمر اقتصادي عربي سيفتقده إخوانه وزملاؤه ويقولون كلهم بصوت واحد: أين محمد سعيد الزعيم، أين أبو خالد؟! !

ابتدأ نشاطه العملي في خدمة الاقتصاد في عام ١٩٢٨ ولم يخف نشاطه خلال ثلث قرن كامل بل تلاشى هذا النشاط ساعة استدعاه ربه إلى جواره .
تأسست بحلب نقابة تجارية عام ١٩٢٨ وكان من أعضائها المؤسسين، وانتخب في العام نفسه أميناً لسر جمعية الاتحاد الاقتصادي وهو أصغر الأعضاء سناً في هذه الجمعية وفي تلك النقابة .

وانتدبته حلب وغرفة تجارتها - قبل أن يكون عضواً في مجلس إدارتها - لحضور المؤتمر الصناعي الاقتصادي الذي عقد في دمشق عام ١٩٢٩، وقد انتخب أميناً لسر المؤتمر ومقررأ للجنة التنفيذية .

وان في الخطاب الذي تلي باسم غرفة تجارة حلب في الحفلة التكريمية التي أقامتها له هذه الغرفة في ٧ تموز ١٩٥٢ وفي الكلمة التي ودعت بها هذه الغرفة

رئيسها في ١٣ آذار ١٩٦٣ استعراضاً لمعظم المؤتمرات التي مثل فيها الفقيد حلب وسورية وكان لسان حالها فيها (٢).

ومن الإنصاف أن نذكر هنا أن مؤتمر غرف التجارة والصناعة والزراعة للبلاد العربية ومجلس اتحاد هذه الغرف ماكانا ليصبرا النور ويصبحا واقعاً وحقيقة بعد أن كانا حلماً وأملاً يراودان تفكير المخلصين لو لم يتجند لإقامتهما ثلاثة فرسان عرفهم الميدان الاقتصادي العربي وهم: محمد سعيد الزعيم، وعبد الرحمن السحمراني رئيس غرفة التجارة والصناعة في بيروت، ومحمد علي شكري خميس مدير غرفة التجارة في الاسكندرية. وفي سبيل عقد المؤتمر وإقامة مجلس الاتحاد بذل الفقيد كل ما في وسعه من نشاط واندفاع وتضحية وإخلاص ولم يبخل بوقت ولم يشك تعباً ولا مللاً: فإذا ماتوقنا غداً إلى إنشاء السوق العربية المشتركة أو أقمنا وحدة اقتصادية عربية. فلنذكر أن المؤتمر كان أول داعٍ إلى ذلك وكان محمد سعيد الزعيم في مقدمة الداعين.

رحلاته

ورغبة منه في توسيع آفاق معلوماته الاقتصادية واقتباس الجديد في التصميم الاقتصادي الذي سبقتنا إليه الأمم كان يقوم برحلات إلى البلدان الأجنبية تستغرق أسابيع وأشهرًا، فزار أوروبا الغربية والشرقية أكثر من مرة، كما زار أميركا الشمالية والبلاد الأفريقية وقام برحلتين إلى شرقي آسيا، وكان يعلل النفس بزيارة أميركا الجنوبية وأستراليا، حتى إذا ما أتم زيارة دول العالم جميعها انصرف إلى تدوين مذكراته متضمناً إياها ملاحظاته وتوجيهاته المبنية على الدراسة والدقة والاستنتاج.

(٢) انظر نص الخطبتين في مكان آخر من هذا العدد

ولكن القدر لم يمهله لاستكمال هذه الرحلات فدعاه إلى رحلة أكبر، فحرمنا من جهده وجهاده وإخلاصه وتفانيه، كما حرم الاقتصاد العربي من نشاطه واندفاعه ففقدناه وكلنا ينشد:

يعزُّ عليَّ حين أدير عيني أفتش في مكانك لأراك

الأديب المحاضر، المؤلف

قد يكون فقيدنا التاجر الصناعي الوحيد بحلب الذي أنشأ في منزله مكتبة كبرى خاصة تضم ألوف المجلدات من الكتب المنتخبة، لأنه مع انصرافه إلى المشاكل والقضايا العامة كان يجد لذة في القراءة والمطالعة والدراسات، وكان يودع الصحف والمجلات ماتخطه يراعيه من الدراسات الاقتصادية والمقالات الوطنية والاجتماعية، وقد عرفته منابر حلب كلها خطيباً ومحاضراً، وكثيراً ما كان يدعى إلى الكلام فيرجل خطبة يخيل للسامع أنه أعدها مسبقاً وحفظها، كما كان يلقي المحاضرة التي يُعدها يوم إلقائها وكأنه قضى الأيام في تحضيرها ولو جمعت مقالاته وخطبه ومحاضراته لبلغت مجلدات.

أما مؤلفاته التي ظهرت في كتب مستقلة فهي ثلاثة:

١ - تاريخ حلب الاقتصادي، أمس واليوم وغداً، نشرته غرفة تجارة حلب باللغتين العربية والإنكليزية عام ١٩٥٠ بمناسبة زيارة المغتربين لسورية وإقامة المعرض الزراعي الصناعي في مدينة حلب.

٢ - رحلته إلى الشمال الإفريقي ووقفه على أطلال الأندلس، وكان قد ألقى حديثاً في دار الكتب الوطنية بحلب في ١٩/٢/١٩٥٨.

٣ - مع ثورة حماه وفي غياهب سجونها، وهو سجل تاريخي لثورة مدينة أبي الفداء عام ١٩٢٥ مع استعراض شامل للحركة الفكرية والقومية في حماه في نهاية الربع الأول من القرن العشرين (طبع في حلب في شهر آذار ١٩٦٣).

في غرفة تجارة حلب

مثلها في المؤتمر الصناعي الاقتصادي بدمشق قبل أن يكون أحد أعضائها .
وفي عام ١٩٣١ انتخب لأول مرة عضواً في مجلس إدارة الغرفة وأصبح أمين سرها العام ، وفي صيف ١٩٥٠ انتخب نائباً لرئيسها ، وفي نيسان ١٩٦٢ أصبح رئيساً لهذه الغرفة التي تابع خدماته لها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

أوسمته

من الأوسمة التي نالها :

- ١ - الوشاح الأكبر من نيشان النيل (٢٦ ربيع الأول عام ١٣٧٢) .
 - ٢ - وسام الكوكب الأردني من الدرجة الأولى (١٤ أيار ١٩٥٣) .
 - ٣ - الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة (٢٧ حزيران ١٩٥٣) .
 - ٤ - ضابط أكبر من وسام الأرز اللبناني (٤ حزيران ١٩٥٦) .
- وحمل معه أكبر وسام من وفاء إخوانه يوم افتتحوا أول جلسة لمجلس إدارة الغرفة عقدوها بعد وفاته بالوقوف صامتين مدة خمس دقائق ، وإقرارهم وضع صورته في قاعة الاستقبال الكبرى اعترافاً منهم وتقديراً للجهد الذي بذله الرئيس الراحل في سبيل هذه الغرفة وفي سبيل تجار حلب وفي سبيل الاقتصاد السوري العربي .

وقراء هذه المجموعة الذين تتبعوا خطواتها منذ نشأتها يذكرون مقالاته ودراساته وجولاته الاقتصادية التي تتلمذ عليها كثير من طلاب الدراسات الاقتصادية الذين كانوا يطلبون أعدادها ليستندوا إليها في تحضير دراساتهم وأطروحاتهم الاقتصادية ، وعبثاً يفتشون بعد اليوم عن مقال أو دراسة مذيلة بتوقيع محمد سعيد الزعيم ، وسيبحثون كثيراً ليهتدوا إلى مرشد اقتصادي يعلم ويفيد ويوجه .

إننا نستكبر المصاب بالرئيس محمد سعيد الزعيم وهو مصاب كبير فادح،
ونستعظم فقدته في الوقت الذي تحتاج فيه سورية والاقتصاد العربي إلى أمثاله،
ولكننا في الوقت نفسه نستسلم لإرادة الله استسلام المؤمن بعدالته ومشيتته ونسال
الله أن يتغمده بفيض رحمته ويكافئه على أعماله ويسكنه فسيح الجنان.

هذا وليس الفقيد الرجل الأول أو الوحيد الذي يرحل عن بيئته وهي جدّ
محتاجة إليه. ففي كل يوم تطوي الأرض ألوفاً من أبنائها، لكن البشر لا يشعرون
بفقدهم جميعاً، فمن عاش لنفسه قضى غير مبكي عليه ومن عاش لعائلته أسفت
عليه وحدها، أما أولئك الذين يعيشون ويجاهدون في سبيل تحسين أوضاع وطنهم
ورقيه ونموه وازدهاره فعليهم يعم الحزن والأسى، وإلى هذه الفئة من الخلق كان
يتمي الفقيد فلا عجب أن بكته حلب والاقتصاديون في دنيا العرب.

نجد العزاء لنا ولن آلله وقع المصاب في أن فقيدنا انتصر على الموت بما أبقى بعد
من آثار ستبقى بيننا ذكره خالداً.

يذكرنا به أعماله وجهاده في غرفة تجارة حلب أمين سر ونائباً ورئيساً.
يذكرنا به ماترك من الدراسات والخطب والمحاضرات والمؤلفات.
يذكرنا به رجال الاقتصاد العربي كل مرة يجتمعون فيها للبحث والتدارس.
تذكرنا به أعماله في الجمعيات والأندية الأدبية والوطنية والاجتماعية وفي
مقدمتها جمعية الهلال الأحمر ونادي الروتاري ونادي الطيران الشراعي، وقد
كان من مؤسسي هذه الأندية الثلاثة ومن رؤسائها.
وفي هذه الذكرى نجد العزاء لنا ولذويه وللبلاد.
رحمه الله.

غرفة تجارة حلب

محمد سعيد الزعيم

جريدة الحياة - بيروت

نعينا أمس وجهاً سورياً كريماً، واقتصادياً عربياً كبيراً وركناً من أركان المال والسياسة والنضال في بناء سورية منذ نهاية الحرب الأولى هو المرحوم محمد سعيد الزعيم رئيس غرفة تجارة حلب.

رافق الفقيد النهضتين الاقتصادية والسياسية في مطلع شبابه في صف الرعيل الأول الذي كان يقوده في شمالي سورية الزعيمان المرحومان ابراهيم هنانو وهاشم الأتاسي. ولما خلفهما في القيادة المرحوم سعد الله الجابري انضم محمد سعيد الزعيم إلى الكتلة الوطنية في حلب وراح يغذيها إلى جانب آرائه السياسية، بصندوق مالي مستقل يشرف على تنظيمه وتوفير موارده حتى غدا فرع الكتلة الوطنية الشمالي في عهده من أنشط الفروع العاملة.

وعندما اندلعت شرارة الثورة السورية المشهورة على فرنسا في العام ١٩٢٥ وتولت الكتلة الوطنية المساهمة بها بين الأقضية والمناطق السورية، كان نصيب محمد سعيد الزعيم في حماه، فسهر على تموين الثائرين من رجال القبائل وشباب الشمال، وانخرط في أكثر من ميدان هناك حتى اكتسب ثقة الأقطاب الوطنيين وقربوه إلى صفهم وهو بعد في العقد الثاني من عمره. وأصدر عقب الثورة تاريخاً عنها، خص فيه ثورة حماه بالقسم الأكبر، فروى تفاصيلها بدقة في أسلوب أدبي رائع أظهر موهبته ككاتب وأديب مثلما هو رجل ثورة واقتصاد.

وقامت في سورية منذ ذلك العهد حركة الوحدة العربية، إلا أن حواجز السياسة الدولية كانت تقف دون انتشارها، فظهرت لمحمد سعيد الزعيم عهد ذاك أول دراسة اقتصادية شاملة تقول بتأسيس بناء الوحدة في أول الأمر على قاعدة اقتصادية، تندرج منها إلى القواعد السياسية والعسكرية.

فتبنت الكتلة الوطنية دراسته وبرنامجه غير أن مشاغلها المتوالية في سبيل الاستقلال حالت دون العمل في هذا السبيل المزدوج فأخذ الزعيم على عاتقه وراح يطوف العالم العربي داعياً إلى التكتل الاقتصادي وتوحيد أعمال الغرف التجارية والصناعية والزراعية.

ولما تأسست الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ كانت دراسته في مقدمة برامج أعمالها فأينعت دعوته مع إخوان له كثيرين وانبثق عنها أول مؤتمر تجاري واقتصادي عربي أصبحت له اليوم دورات سنوية، كان يساهم باجتماعاتها ومقدراتها حتى أيامه الأخيرة.

وكان الفقيد الكريم يجعل من بيروت محطة لإقامته في جولاته العربية وفي رحلات استجمامه، فأنشأ له علاقات سياسية مع كثيرين وأخصهم المرحوم رياض الصلح، وعلاقات تجارية واقتصادية مع عدد من المصارف والمؤسسات التجارية، ومع عدد من كبار الشعراء والأدباء، فكان يجالسهم ويستمتع بمنظوماتهم وفي مقدمتهم صديقه الأخطل الصغير.

وبعد الزعيم من كبار المساهمين ببعض المصارف وكان حتى الوقت الأخير عضواً بارزاً في مجلس إدارة البنك العربي.

دوره في سورية

واجهت سورية عقب ثورتها الاستقلالية في عامي ١٩٤٣ - ١٩٤٤ وضعاً اقتصادياً متعباً، وكان عليها أن تتكل على سواعد أبنائها وحكمة اقتصادييها فدعت الكتلة الوطنية المخلصين من أبناء البلاد للعمل المثمر بسرعة، فهبت فئة من الماليين والاقتصاديين تضع خبرتها وإمكاناتها بتصرف الدولة السورية المستقلة، وكان الزعيم على رأس هذه الفئة في شمالي سورية، فعقد مؤتمراً ضم رجالات التجارة والمال والاقتصاد الذين تجاوبوا مع زملائهم في الجنوب السوري، فما انقضت أشهر ثلاثة أو أربعة حتى استوى للدولة وضعها الاقتصادي الجديد، وكان مضرباً للمثل في نموه وحسن تنظيمه.

وفي عام ١٩٥٣، شن الزعيم في حلب حملة شديدة على النظم المالية المتبعة في البلاد، وأورد بالأرقام تدهور الوضع الاقتصادي، فكانت حملته تحدث رد فعل شديداً في الدوائر المركزية في دمشق نفسها، فدعي على الأثر إلى تسلم وزارة المال، وكان أول ماعمله إصدار قانون النقد، وتنظيم المصرف المركزي، وحصر استيراد الكماليات، وفتح الأسواق العربية للإنتاج السوري.

وفي الحقبة التي تلت الأحداث السورية في السنوات الست الأخيرة، انصرف محمد سعيد الزعيم إلى الاهتمام بالاقتصاد السوري في شمالي البلاد وخصوصاً الناحيتين التجارية والزراعية، مواصلاً نشاطه في ذات الوقت في مؤتمرات الغرف السورية والعربية. وكانت آخر خطوة له في هذا السبيل تنظيم العلاقات اللبنانية - السورية على أسس جديدة. ووافته المنية وهو في ريعان نشاطه عن عمر يناهز الستين، تاركاً ذكرى طيبة وأثراً حميداً في الميدانين السوري والعربي.

رحم الله محمد سعيد الزعيم بقدر ما أحسن لبلاده وأمتة.

الحياة - بيروت

١٥ آذار ١٩٦٣

حلب تحتفل بتعيين

محمد سعيد الزعيم

وزيراً للمالية

في عام ١٩٥٢ أسندت وزارة المالية إلى المرحوم الأستاذ
محمد سعيد الزعيم نائب رئيس غرفتنا آنذاك .

في مساء يوم الجمعة في ١١ تموز ١٩٥٢ أقامت غرفة تجارة حلب
مأدبة عشاء في حديقة نادي حلب تكريماً له حضرها جمهور
غفير يتقدمهم أركان الدولة وزعماء البلاد ونخبة كريمة من
الوجهاء والتجار .

وقد ألقى في هذه الحفلة خطبة موجزة باسم غرفة التجارة أجاب
عليها المحتفى به ، المرحوم الأستاذ الزعيم ، بخطاب تجلت فيه العاطفة
القوية والوطنية الحقة والرغبة الصامته في العمل المجدي ، فكان
خطابه قطعة رائعة من البيان والتفكير .

وننشر على الصفحات التالية نص الكلمة التي ألقى باسم
الغرفة :

كلمة غرفة التجارة

أيها السادة

ان غرفة تجارة حلب تستهدف من إقامة هذه الحفلة غايتين: تكريم الموهوبين العاملين في سبيل المجموع وتشجيع غيرهم على الاقتداء بهم.

إننا نقيم هذه الحفلة تكريماً لأحد أعضاء أسرة غرفة التجارة، وتقديراً منا لجولاته الموفقة في ميدان الاقتصاد الوطني، واعترافاً بفضلته على مشاريعنا الاقتصادية العامة، وقد كان لبعضها مؤسساً ولعظمها موجهاً ولجميعها مشجعاً، أملين واثقين من أن عهده في الحكم سيكون تنمة لماضيهِ الحافل بالأعمال الجليلة المفيدة.

إننا نستعرض تاريخ نهضتنا الاقتصادية خلال ربع قرن كامل، فلا نجد فيه اسماً لمؤتمر اقتصادي عربي أو لنهضة اقتصادية سورية إلا ونرى اسم محمد سعيد الزعيم بين العاملين لأجلها أو المدافعين عنها.

تأسست بحلب سنة ١٩٢٨ نقابة تجارية فكان المحتفى به أصغر أعضائها سنأً. وتأسست في العام نفسه جمعية الاتحاد الاقتصادي وانتخب أمين سرها. وفي عام ١٩٣٧ تأسست في بيروت غرفة تجارية رومانية سورية لبنانية، وكان من أعضائها المؤسسين.

وفي عام ١٩٣٩ تأسست في بيروت غرفة تجارية مصرية، سورية، لبنانية وانتخب رئيساً ثانياً لها.

وفي عام ١٩٤٥ تأسست أول نقابة لأصحاب معامل النسيج الميكانيكي بحلب وانتخب رئيسها الأول.

وقد كان - وما زال - من أقوى دعائم مؤتمر الغرف التجارية الصناعية الزراعية العربية، وقد رئس بعض جلساته في الاسكندرية وفي بيروت، فكان من أنشط الأعضاء وألع الرؤساء، كما كانت محاضراته في هذا المؤتمر دروساً توجيهية نالت إعجاب المؤتمرين والأوساط الاقتصادية.

وفي عام ١٩٣١ انتخب عضواً في غرفتنا ثم أصبح أمين سرها العام، وقام بهذه المهمة مدة عشرين سنة إلى أن انتخب نائباً لرئيسها في صيف ١٩٥٠.

وأن غرفة تجارة حلب تعلن أنها مدينة بقسم كبير من حيويتها ونشاطها وتنظيمها وإنتاجها للسيد محمد سعيد الزعيم.

وقد انتدبته حلب وغرفة تجارتها، كما انتدبته سورية لتمثيلها في مناسبات عدة وقد أحسن التمثيل.

مثل حلب لأول مرة في عام ١٩٢٩ في المؤتمر الصناعي الاقتصادي وكان أمين سره ومقرراً للجنة التنفيذية.

ومثل حلب والاسكندرون عام ١٩٣٣ في مؤتمر بيروت التجاري، وكان أمين سر المؤتمر وواضع قراره المشهور الذي حول وجهة نظر المفوضية الفرنسية في توجيه اقتصاديات سورية ولبنان.

ومثل حلب عام ١٩٣٨ في المؤتمر الاقتصادي الجامع في بيروت وانتخب أمين سر المؤتمر.

وفي العام نفسه مثل سورية رسمياً في مؤتمر اقتصادي لبحث المصالح المشتركة بين سورية ولبنان .

وفي السنة ذاتها عين عضواً في المجلس الاقتصادي السوري الأعلى .
وفي عام ١٩٤٠ مثل حلب في مؤتمر اقتصادي سوري دعت إليه الحكومة وانتخب رئيس القسم التجاري فيه .
وفي عام ١٩٤٣ أهدت إليه الحكومة وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى جزاء خدماته في سبيل بلاده .

هذا استعراض خاطف لبعض أعماله في خدمة البلاد الاقتصادية .

أما رئاسته لنادي الروتاري ولجمعية الهلال الأحمر السوري ولجمعية المؤاساة وغيرها من الجمعيات والأندية الاجتماعية الإنسانية ، وأما عمله في الحقلين الوطني والأدبي فمجال الكلام عليها واسع في غير هذه الحفلة .

وهكذا نرى أن السيد محمد سعيد الزعيم قد خدم بلاده في شبابه (وما زال شاباً) . خدمها اقتصادياً ووطنياً وأدبياً ، وما أعماله التي استعرضنا بعضها ، وما المقالات التي نشر ، والخطب والمحاضرات التي القى ، والنشرات التي أصدر ، والتقارير التي وضع ، إلا أدلة ساطعة على صحة ما نقول .

وكما خدم وطنه سورية كذلك خدم بلده حلب ، فكان المنادي باسمها والمطالب بحقوقها في كل زمن ومجتمع .

هذا هو الرجل الذي نكرم ونرى تكريمه واجباً ، وما إقبالكم المشكور على هذه الحفلة إلا دليل على مشاركتكم لنا في هذا الشعور .

يامعالي الوزير

خدمت بلادك وأنت غير مسؤول، وستحسن خدمتها وأنت في الحكم،
خصوصاً ونحن اليوم في زمن يحتاج فيه الوزير إلى أن يحارب على عشرات
الجبهات قبل أن يفكر في أعمال وزارته.

إن غرفة تجارة حلب، تتمنى لك ولإخوانك الوزراء التوفيق والنجاح ولسورية
العزيزة دوام العزة والازدهار والسلام

حلب في ١٩٥٢/٧/٧

غرفة تجارة حلب

الفصل الثالث

صورة محمد سعيد الزعيم في عين ابنته

كلمة من القلب.. وقبس من ماضي

غرفة تجارة حلب وحاضرها

نشرتها مجلة اقتصادية حلب التي تصدرها

غرفة تجارة حلب العدد الثالث لعام ١٩٩٣

بقلم أمية الزعيم

ثلاثون عاماً تفصلني عن آخر مرة رأيت فيها والدي يقطع الممر الفاصل بين غرفة نومه وباب الدار منطلقاً نحو عمله في خان الحرير كعادته في الصباح والمساء، وما زلت أراه في كل مكان يضج بالحياة والعمل الدؤوب والانتاج المثمر.

وكلما وقعت عيني على طربوش العم الكريم (أبو راتب) شيخ تجار سورية - أطال الله عمره - أتذكر طربوش والدي الأحمر الجميل، وأكاد أسمع وقع خطواته على أرض الخان وفي معمل النسيج في العرقوب وفي محلج القطن بعين التل، وعند محبوبته الغالية غرفة تجارة حلب، وأشم رائحة تبغ أرجيلته وأطرب لصوت فقايق الماء وهي تترغل فرحاً بأبي خالد رحمه الله.

وفي عام ١٩٨٦ حين دخلت بناء غرفة تجارة حلب الجديد، بغية التسجيل فيها، بعد أن افتتحت (دار أمية للآداب والفنون) وهي عبارة عن مكتبة وصالة لعرض اللوحات الفنية، تعثرت قدماي وشعرت بالارتباك ولفني حزن ناعم تغلغل فيّ حتى كدت أخطيء الدرجات ولا أدري أين أصعد وماذا أقصد؟ ومع أن والدي لم يكن يعرف هذا المكان فقد بني في النصف الثاني من الثمانينات، فقد أحسست أن روحه ترافقني في خطواتي، وشيئاً فشيئاً تبدل الحزن وتحول إلى أنس ومودة، حين عرفني بعض الموظفين ورحبوا بي أجمل ترحيب. وبعد إجراء المعاملات اللازمة حصلت على الدرجة الثالثة وكنت سعيدة بها.

ومن يومها أصبحت أزور غرفة تجارة حلب مرة في السنة لأدفع الرسوم المترتبة علي وأخذ بطاقة جديدة، إلى أن جاء عام ١٩٨٩. فقد قرأت في جريدة الجماهير المحلية إعلاناً عن تنظيم دورات لتعلم اللغة الفرنسية التجارية بالتعاون مع غرفة تجارة باريس، وما صدقت عيناى ولا عقلي أننا قد بدأنا حقاً عصرأ من الانفتاح. ويسرعة البرق اتصلت بالمسؤول في غرفة تجارة حلب وأخذت موعداً لأسجل نفسي وأكون ضمن المتسبين رغم أنني خريجة الراهبات الفرنسيكانيات منذ مدة طويلة وأحمل ليسانس في آداب اللغة الانكليزية من جامعة حلب، لكن اللغة التجارية شيء وما تعلمناه شيء آخر.

ولقد علمني والذي محمد سعيد الزعيم رئيس غرفة تجارة حلب في الخمسينات أن تعلم اللغات ضرورة لنا نحن العرب كي نتمكن من مواكبة التقدم الحضاري والاطلاع على مجريات الأمور في العالم كله.

وما زلت أذكر أن والذي رحمه الله كان يأخذ دروساً في تعلم الفرنسية من الأستاذ بشور وهو في العقد الخامس من العمر، وكان يكتب بعض الوظائف بعد انصراف الأستاذ ليتمرن جيداً على تصريف الأفعال الفرنسية، وكم مرة استمتعت

بمراقبته وهو منهمك في معركته مع تلك الأفعال الصعبة اللعينة، فأراه يحتار ويشرد ويتردد وكأنه طفل وقد أعيتته الحيلة.

وذاث يوم أشفقت على والدي وبدافع محبتي له وتقديري للعذاب الذي يلاقيه التلميذ حين تصعب الإجابة عليه أو يجهلها ولثلا يتعرض لعقاب أستاذه، مع أنه كان، أي الأستاذ، موظفاً بسيطاً في غرفة تجارة حلب، اقتربت منه وفي نيتي مساعدته وبمنظرة واحدة فهم قصدي (على الطائر) كما يقال وفهمت أنا بدوري أنه بحاجة للنجدة، لكنه ارتبك وتظاهر بالسعال المفتعل ورأيت حمرة خفيفة تعلق وجهه الجميل وكأنه أراد وقتها أن يدلني على مكان المأزق بالضبط ودون أن يتفوه بكلمة واحدة، وإنما اكتفى بتحريك القلم نحو المكان الفارغ المخصص للفعل الناقص، وتسلفت بهدوء ونعومة إلى جواره، وكدت أسمع صوت أنفاسه، ولا مست يداي سترته البيضاء وقد زادته بهاءً وقلت بصوت خافت (Nous fumes) وبشيطنة محببة كتبها والدي وتنفس الصعداء وكأنه قد قام لتوه من حل معضلة اقتصادية كبرى.

وأحييت لعبتي هذه ورحت ألفظ أسماء الأفعال الأخرى بصوت خافت وراح والدي يسجلها بدوره إلى أن علا صوته فجأة وهو خجل وقال: (ماهذا؟ إذا مارأى الأستاذ الوظيفة دون أخطاء فلسوف يدرك حتماً أنني قد غششت!).

وأعود إلى تعلم الفرنسية التجارية وقد بقيت أتابع الدروس إلا أنني شغلت بتحضير مكتبة وصالة بلاد الشام بفندق شهباء الشام بحلب، بعد أن قررت التعاون مع الشركة العربية السورية للمنشآت السياحية وقد أحسست أن خدمة السياحة واجب وطني ملح. وذاث يوم تأخر فيه الأستاذ، أخذني أحد الموظفين وفتح لي باب قاعة الاستقبال الكبرى، وهناك وقعت عيناى على صورة والدي معلقة على

الجدار إلى جانب الراحلين سليم جنبرت ومحمد سعيد الهندي وأدمون حمصي، رحمهم الله أجمعين، فتأثرت كثيراً وقرأت الفاتحة على أرواحهم وأحسست يومها أن محبوبة قلب والدي التي تفانى في خدمتها وصرف الجل الأكبر من حياته العملية على تنشيطها ورفع اسمها عالياً في المحافل الدولية مانسته قط .

ورغم كل ذكريات المؤتمرات الاقتصادية التي سعى والدي إلى إقامتها أو حضرها أو مثل الغرف التجارية عنها، فإن صورة واحدة تكفي لشرح ماوصلت إليه غرفة تجارة حلب في الماضي، وهذه الصورة معلقة فوق مكتبي في بيتي إلى جانب صور أخرى، وفيها يظهر رجل في الستين من العمر جالس على كرسي له مسند جميل من الخشب محفور عليه مايشبه التاج ويعلو باقي الكراسي بقليل، متوسطاً رجالاً على الجانبين والجميع بغاية الجدية والعزم وإلى يمينه والدي (أبو خالد) واقفاً يتحدث والبقية ينظرون إليه .

وقد كتب رحمه الله في أسفل الصورة: (في اجتماع اتحاد الصناعات في غرفة صناعة مدريد، الأستاذ محمد سعيد الزعيم يترأس الوفود العربية ويتكلم باسمها . .)

وهكذا فإن الشهباء كانت تحاور الاقتصاد الأوروبي قبل أكثر من ثلاثين عاماً . لذلك سررت سروراً عظيماً وأدهشني وأفرحني وجود العم الكريم (أبو راتب) وفريق كبير من تجار وصناعي سورية وقد حضروا جميعاً إلى حلب في الصيف الماضي للاشتراك بمؤتمر رجال الأعمال السعوديين والسوريين . يومها الملمت من شرفات بيتي المتواضعة باقة من الفل والياسمين وقدمتها لأبي راتب ولسان حاله يقول : (هذه هدية بسيطة من القلب ومن روح أبي خالد لكل انفتاح يعيد إلى الشهباء وجهها المنير العريق) .

وتساءلت متى أراك يامحبة والذي الغالية تنادين بضرورة قيام الوحدة الاقتصادية العربية وتحاورين الاقتصاد الأوروبي ! ! ولم لا ؟ ألم يقولوا قديماً أن (أعرج حلب وصل إلى الصين).

ومنذ حوالي الأسبوع تلقيت العدد الثاني من مجلة اقتصاديات حلب وأصبح فرحي فرحين وأحسست أن بواكير انفتاح حقيقي وشعور بالمسؤولية يواكب سير غرفة تجارة حلب وهذا مما دفعني بالعودة إلى الماضي وقطف باقة من ذكريات حلوة رافقت أيامي يوم كانت عباءة والذي تدفء أيامنا وتحليها وتقينا غدر الزمان .

ففي عام ١٩٥٩ على ما أذكر كنت بالطائرة مع والذي بين ميلانو وباريس وكان أبي كعادته يتصفح الجرائد والمجلات وفي كل دقيقة يهم بسحب القلم ، صديقه القريب إلى نفسه والساكن بمحاذاة قلبه - ولا أذكر أنني رأيت والذي يخرج من الدار دون قلم - ويومها لفتت انتباهه مقالة في جريدة الفيغارو الفرنسية - وهي يمينية متطرفة - عن البلاد العربية وأصبح قاب قوسين أو أدنى من فهم فحوى المقالة إلا أن بعض الكلمات الصعبة استعصت عليه (وهو الذي ماتعود البطء في الفهم) فطلب مني مساعدته .

فرحت وتضايقت في وقت واحد: فرحت لغرور الشباب أن الكبار بحاجة إلينا، وتضايقت لأنني كنت أسعد كثيراً بمراقبة حركة سير الطائرة وركابها المتعددي الجنسيات، إضافة إلى المضيئة الأنيقة .

لكنني احترمت رغبة والذي، وبدأت بمساعدته لترجمة المقال شفهيّاً على الأقل، لكنه وباللطامة الكبرى لم يكتف بذلك بل أخذ ورقة وأخرج صديقه القلم من جيب سترته وبدأ بالترجمة مباشرة .

ولم تكن لغة المقال بالسهلة أبداً، لذلك أخذت منا بعض الوقت ونسي والذي الغيوم الجميلة التي كانت تواكب الطائرة ونسي طعامه الساخن ولم نصل أرض

پاریس إلا وكانت الترجمة جاهزة وقد أرسلها بالفعل إلى الشهباء لتنشر في جريدة الوطن.

يومها تعلمت أن التاجر الحقيقي ليس الذي يعد النقود ولكنه من لا يترك شاردة أو واردة تحصل في العالم إلا ويتابعها ويفهم المغزى منها ويشرك الجميع باستيعابها بدافع نشر اليقظة والمعرفة. وقد كان رحمه الله بعيد النظر، غيوراً على الوطن يحمل معه همومه وهموم محبوبته غرفة تجارة حلب إلى كل مكان حتى ولو كان فوق السحاب.

وأضيف أن والدي كان، بنفس القلم الذي يوثق به الحركة الاقتصادية في الشمال، كان على كرمه العظيم يسجل أدق التفاصيل حتى باقة البقدونس التي يشتريها الموظفون لأم خالد، فالدقة عادة لاتفارقه. ولقد كان والذي يصرف جزءاً لا بأس به من الوقت في تدوين الأرقام والأحداث لتكون مرجعاً لتاريخ غرفة تجارة حلب خلال عقدين من الزمن بالإضافة إلى كتاب ألفه ونشره ووزعه على أصدقائه حول أحداث الندوة السورية ضد الفرنسيين.

وفي إحدى ذكرياته التي لأنساها أبداً، كتب يقول:

(كنت في حيفا ١٩٣١ وسعيت إلى لقاء سعيد العاص البيوزباشي في الجيش التركي والضابط العربي الفيضلي والقائد الثوري الذي أقض مضاجع الفرنسيين في أكروم والضنية ومشارف طرابلس، الشهيد العربي الذي أبى إلا الاستشهاد وفي أية معركة، فأكرمه الله بالشهادة في فلسطين في حربه مع الانكليز واليهود. وكنت لأعرفه إلا من صورته في الصحف، وان يكن قد كان يبادلني الكتابة من عمان لحلب بتوقيع (أبو سعاد).

وجاء إليّ ليلاً، وسلمنا وتبادلنا القبلات، وإذ بي أرى سعيد العاص ونحن في كانون الأول دون معطف وقميصه ممزق في العنق.

وراح معي إلى الفندق الذي حللت فيه يستعيد ذكرياته العذبة عن الشهباء ومغانيتها وأيامها وأمجادها، وحدثته عن نهضتها الصناعية التقليدية، وأن بها صناعة نسيج حريري طبيعي ممتازة، وقصدي أن أهدي إليه قميصاً دون أن تتأثر معنوياته وأريته القميص وهو من شغل (محفل)، جديداً يلمع وسألته ان كان يقبله ذكرى لحلب التي أحبها وقضى فيها أياماً في عهد الشباب، ولأنها موطن الزعيم هنانو سيد المجاهدين الأبرار، فأجاب بكل انشراح: ويستر صدري أيضاً! فجعلت القميص قميصين.

ولم يكن والدي يسافر إلا وزواده معه: علب خشبية مليئة بالحلوى الحلبية التي اشتهرت في مشارق الأرض ومغاربها، وفي كل مرة عند المساء عندما نههم بالصعود إلى غرفة النوم بالطابق العلوي، كنا حين نلمح أرتالاً من علب الحلوى، ندرك على الفور أن الوالد مسافر في الصباح الباكر إلى دمشق أو بيروت أو عمان أو بغداد. وكنت أظن أن هداياه لأقرانه من التجار العرب هي الحلوى إلى أن قرأت كتابته فعرفت فيما بعد أنه كان يوزع ما في حقيته أيضاً.

وهكذا تعلمت الحياة وآدابها على يد (شهيندر تجار حلب) أكثر بكثير مما تعلمت كبريات المدارس في العالم. وحين حضر الخبير المالي الكبير الدكتور شاخت لزيارة سورية وبعد اجتماعه مطولاً بالوالد بادره قائلاً:

من أي جامعة تخرجت ياسيد زعيم؟

فأجابه والدي بكل ثقة واعتزاز: من جامعة خان الحرير.

أمية الزعيم

الفصل الرابع

جدّاي: خالد الزعيم ومحمد الزعيم

في ذاكرة الحفيدة أمية

١ - الجّد خالد الزعيم

لو قلت أنني أعرف جدي معرفة عميقة إلى حد أنني أتجول في ثنايا عقله وتفكيره، رغم أنه فارق هذه الدنيا ولي من العمر أقل من خمس سنوات، ربما لم تصدقوني. ولكن هذا ما أشعر به ولعل هذا الشعور ناشيء عن أنه هو الذي كان يوحى بهذه الثقة، على سبيل الإيثار والتنشيط وبث القوة في نفسي. وقد حدث لي في يوم ما طر ممل أن قررت أن ألقى نظرة على كتب والدي رحمه الله وكانت كثيرة ومتنوعة المواضيع. كان والدي أبو خالد كما هي كنيته، يطلب من مكتبة (عجان الجديد) الموجودة حتى الآن في حلب في منطقة خان الحرير ومن غيرها من المكتبات في دمشق والقاهرة وبيروت أن يرسلوا له آخر ما يصل حلب من كتب حديثة وقديمة فتصل على الفور إلى مكتبه الكائن قرب الجامع الأموي الكبير فينتقي منها ما يريد - وهو الأكثر - ويعيد الباقي، ويدفع قيمتها بالثمن الغالي كما تدل قوائم حسابات المكتبات.

في ذلك اليوم الماطر، وقع نظري على أعداد من مجلة المقتطف مؤرخة في نهايات القرن الماضي، وقد كتب على الغلاف اسم خالد الزعيم وأولاده. وأتذكر انتبهت على صغر سني إلى أن جدي، هذا الإنسان العظيم هو الذي قام بتربية والدي وأخواته.

وقد حدثوني عنه قائلين أنه لم يكن يترك الطعام يملاً المعدة أبداً، وكان يحب الأسفار والتنقل بين المحافظات وأحب شيء إلى قلبه عمل الخير. فقد كان يعطف على الفقراء ويعينهم على الأيام السوداء ويحجود على المحتاج كما يحجود على الأهل والأقربين.

وحدثني أمي أنه كان يرأف بالحيوانات ولا يرضى أن يزيد بثقله عليها فينزل من الحتور حين يكون الطريق صاعداً أو صعباً ويأمر الخوذي بأخذ الحيوانات بالرحمة ويقول له: اشفق عليها في الطريق الصاعدة ولا تضربها يرحمك الله. كما علمت فيما بعد أن جدي قد أوصى بتوزيع وصيته من بعده على الفقراء من المسلمين والنصارى دون تفریق وكان ذلك في أواخر الأربعينات.

وكان جدي يحترم زوجته ويحبها فهي أم البنين وابنة أسرة كريمة هي آل سلطان، وابن أخيها الأول المحامي الأستاذ أحمد سلطان وزير العدل السابق وابن أخيها الآخر المهندس عبد القادر سلطان.

وأخيراً يمر شريط ضبابي بذاكرتي ونحن نسير ليلاً صامتين في ضهور الشوير في لبنان باتجاه دار الحاج سامي صائم الدهر رئيس غرفة صناعة حلب وصديق الوالد الشخصي. ليلتها أخذونا إلى بيتهم لأن العائلة كانت أمام مفاجأة مذهلة، إذ سقط جدي أمام محلات المست بباب الفرج، فبينما نزل الكبار كلهم إلى حلب بقينا نحن الصغار في دار آل صائم الدهر. أما جدتي لأبي فقد كانت الأثرة إلى قلبه

وكاتمة أسرارها والمستمعة الدائمة لشكواه من مصاعب الحياة وتنكر البعض لكل ما يقوم به من خدمات وإعانات، وهناك يوم في السنة لأنساه أبداً هو يوم الرابع عشر من شهر شعبان أي مساؤه ليلة منتصف شعبان، فقد كان الوالد يصبر على أن يكون في حلب حتى لا يكون بعيداً عن جدتي. وكانت العائلة كلها تلتقي عندها وصواني الحلوى من كرايبج وغريبة ومعمول الخ. . . تُنقل بحبة وفرح كبيرين إلى دارها، والصغار يدورون حول الجدة بانتظار أن تسمح لهم بالتلصص على ماتخبئه لهم تحت سريرها المعدني النحاسي العالي. فهناك أوعية كبيرة من الزجاج فيها أقراص من الفستق المحلى بالسكر والراحة والملبس والقضامة الملونة بالأزرق والأبيض، وكل واحد منا يحلم بهذه (الدكان) الساحرة التي قل أن يرى مثلها عند السمان أو السمانى من تجار هذه الأصناف. وكان لقطرميزات جدتي سحر مابعده سحر، ورغم كل ما حملت يدا والدي من حلويات دفع ثمنها مبالغ طائلة إلا أن ضيافة جدتي كانت هي منانا ومبتغانا. وكانت والدتي تجمعنا حولها قبل التوجه إلى دار جدتي لقراءة سورة يس ثلاث مرات ومن ثم الدعاء، وكنت أسمعها تقول: إنه في هذه الليلة بالذات تسقط أوراق من سيغادرون الحياة إلى الباريء الأعلى وكنت دائماً أتوجه إليه مبتهلة ألا يقرب منا ويدع لنا أبونا آمين. لكن دعائي لم يصل السماء في آخر ليلة نصف شعبان سبقت وفاة والدي وأخذ سبحانه وتعالى الأمانة الغالية من بيتنا، وتهدم كل شيء وما عاد لليلة النصف من شعبان ذاك الدفء الأسروي المليء بالحب والحنان. فقد غادر الربان المركب دون رجعة.

وظلت أُمي على عاداتها، لكن الأمور والحوادث تغيرت وما بقي شيء على حاله وهذه سنة الكون.

عطف الوالد على أفراد أسرته

وقد كان لوالدي أخ صغير يحبه كثيراً ويشعر بمسؤوليته عنه واسمه فؤاد درس الطب وتخصص في فرنسا بأمراض النساء والولادة وأسس مستشفى حلب الأهلي. كان عمي هذا يؤدي خدمة العلم وقد خصص والدي له غرفة في بيتنا في الطابق العلوي يبيت فيها حين يعود لقضاء إجازته معنا. وكان عمي جميلاً بقامته الطويلة الممشوقة وطلعته البهية والنجوم التي تزين كتفيه الشابتين. وظل عمي أطال الله في عمره مستقيماً طيلة حياته كاستقامة قامته، وتزوج فيما بعد من الأنسة أمل نبال ابنة المرحوم صبحي النبال وزير العدل السابق ورزق منها بأربعة شباب وبتين. وفرح والدي بالقادمين الجدد لم يكن يعادله فرح لشعور بأبوته لفؤاد وعائلته الصغيرة الحبيبة.

ومن الصور العائلية الحلوة التي تزيد منزلنا حلاوة وبهاء زيارات جدتي لأبي لنا، وكذلك جدتي لأمي وجدتي لأمي وكان الوالد يحبهما ويحترمهما احتراماً كبيراً. أما بنات عماته وخالاته فقد كُنَّ الأثيرات إلى قلبه وقلَّ أن فرغت منهن غرفة الجلوس الخاصة بهن. وبسبب صغر سني فقد صادف أن كنت قريبة منهن وربما بدافع حبي لاكتشاف هذه الشخصيات الغريبة القادمة دائماً من حماء.

أولاد وأحفاد وأسباط محمد سعيد الزعيم

أولاده : سعاد وفطمة وسلوى وخالد وأمىة ومنى وعمر ماهر .

أحفاده :

من خالد (محمد سعيد) المجاز في الأدب الانكليزي ، و(أنس) وهما يعملان في التجارة ، والانسة (هلا) وتدرس الحقوق . ويعيشون كلهم في حلب .

من سعاد : المهندس سهيل كيالي ويعمل في السعودية ، والمهندس سامر كيالي ويعمل في سورية ، والسيدة سها المجازة في التجارة والاقتصاد وتزوجت من عائلة ابراهيم باشا .

من فطمة : الدكتورة مها الزعيم المختصة في التاريخ القديم وتعيش مع زوجها وأولادها في الجزائر ، والسيدة نور الزعيم المجازة في الأدب الانكليزي وتعيش في حلب .
من المرحومة سلوى : الدكتور أنس حسني باشا وهو جراح يعيش في ألمانيا ، والمرحوم المحامي يحيى حسني باشا وتوفي في برلين ومحمد سعيد حسني باشا المجاز في إدارة الأعمال ويعيش في ألمانيا .

من أمية : ناظم القدسي وهاشم القدسي وكل منهما ماجستير في إدارة الأعمال ويعملان في جهاز أبو ظبي للاستثمار ، وباسم القدسي ويدرس بجامعة أوريغون بأميركا .

من منى : الدكتور توفيق عداس - طبيب أسنان ويعيش في حلب ، وليلي وسنا وأحمد توفيق الأنصاري ويعيشون في مدينة فلورنسا بإيطاليا .
من عمر ماهر : سعد ومازن وسمير الزعيم ويعيشون في حلب .

٢ - جدي لأمي محمد الزعيم

صورة حميمة من ذاكرة حفيدته الطفلة

كان جدي لأمي، وهو المرحوم محمد الزعيم، رجلاً تقياً ورعاً وله هيبته، ولكنه متى رأيته انطلق يداعبني ويمازحني ويظهر نفسه بمظهر الطفل الصغير الذي يجهل الكثير من الأمور، وكنت أنا أتخذ منه موقف المعلمة دون أن أدري أنه يعبت بي وأن تظاهره ماهو إلا لإدخال السرور على نفسي.

أسأله: جدو، قل لي: $4+4$ كم تساوي؟ يجيب بسذاجة: ٩. أتأفف أنا وأقول له يا الله يا جدو كم أنت ضعيف في الحساب! . الجواب الصحيح هو ٨. طيب قل لي: $2+2$ كم تساوي؟ فيجيبني: ٥ وأرد عليه: مامن فائدة معك يا جدو، يجب أن أعاقبك!

وذات يوم كنا وحدنا، وبعد أن استمعت إلى حكاياته التي استظرفتها ولكنه كان يكررها - فمن أين يأتي كل يوم بقصة جديدة؟ سألته: قل لي ماذا نفعل لتتسلى؟ قال لي: عندي فكرة. هل تعرفين أين تضع أمك مربى الشمس؟ دليني عليه. أخذته من يده وذهبنا إلى المطبخ ودللته على قطرميز مربى الشمس. انزله. قال لي الآن أين الجوز واللوز؟ قلت هنا. وأخذت كرسيّاً صعدت عليه كي أصل إلى الرفوف العليا وصرت أنتقل من خزانة إلى أخرى والجد يرقبني خوفاً من أن أنزلق فأقع. وصحت فجأة: هاك الجوز واللوز يا جدو.

فرح الجد وقال هيا إلى العمل.

وضع كمية من القطر على النار وألقى وسطها الجوز واللوز، وأخذ يحركه حتى حصل على عجينة محمرة طرية من المزيج اللذيذ. أطفأ النار بعد ذلك وقال هاتي

الشوكة فأعطيته إياها، غمسها بالخليط ولف بعضاً منه حولها وقدمها لي وهو ينفخ عليها حتى تبرد ولا تحرق لساني وقال: ذوقي الآن.

وضعت القليل منها في فمي الصغير وصحت آه ياجدو كم هي طيبة! سأعطيك عشرة على عشرة في الحساب. تبسم الجد طويلاً وقال: الله يرضى عليك. ثم سألته: ولكن ما اسم هذه الأكلة ياجدو؟

قال: ملاوق!

قلت: ولماذا لم تدلنا عليها طيلة هذه المدة؟

قال: أخشى أن تتضايق أمك من وجودي في المطبخ وخاصة لأنه لايفرغ دائماً من التحضير للولائم والدعوات وأنا أخجل يا صغيرتي من الخدم ومن كل أهل البيت، لكنني لا أخفيك سرّاً أنني أحلم بتلك الأكلة منذ زمن بعيد. وقد قلت لنفسني سأقوم بإعدادها ذات يوم مع صغيرتي التي ستدلني على المربى والمكسرات وسنقضي وقتاً لذيذاً، أليس كذلك ياجدو؟

رميت بنفسي بين ذراعيه وقلت: طبعاً ياجدو فانا أحبك لأنك الوحيد الذي يستمع إليّ.

ضمنني بشدة إليه وقال: وأنت الوحيدة أيتها الحبيبة التي أجزؤ أن أحكي لها عما أشتهيه.

حين أفكر بأولادي البعيدين الآن أتساءل إذا كان بإمكانني أن أجد أحد أحفادي إلى جانبي إذا ما أردتُ أن أقوم بما خطر على بال جدي قبل نحو من أربعين عاماً؟ هل تراهم يعطونني درساً في الكمبيوتر ثم يصنعون معي المامونية؟

علاقة الكبار بالصغار كانت وما زالت من أقوى العلاقات الإنسانية لأنها تجري ببساطة وعفوية الشيوخ والأطفال معاً! إن أكثر ما يحز في نفسي أن معظم المسنين من عائلتي رحلوا في أوقات متقاربة ولم يبق منهم أحد فقدت بذلك واحدة من أغنى الروابط الإنسانية وأكثرها حرارة.

متابعة للحديث الحميم عن الوالد

الوالد؟ ! ماسر هذا المخلوق العجيب الذي يسمونه الوالد؟ ولماذا كنا نحن أولاده لانراه كثيراً، هذا الإنسان الغريب محرك العائلة، ممولها وحاميها وصاحب القول الفصل؟

تلك كانت الأسئلة التي تدور في رأسي الصغير في بداية وعيي . وبعد أن كبرت واستمعت إلى الآخرين، عرفت لماذا كان أبي يختلف عن معظم آباء تلك الأيام وخاصة إذا كان أحدهم رجل أعمال كبيراً ! . بلى كان يختلف، وهل تشبه بصمة الإبهام بصمة أخرى؟ !

ان هذا الأب الذي أنهك جسده وروحه من أجل عائلته، وكى يَبْقَى (عُقْدَةً) من الملك لكل ولد ولكل بنت من بناته لتحميمهم من تقلبات الدهر عليهم وتعينهم على العيش بكرامة، كان بعيد النظر؛ وحين ذهب خطفاً في عام ١٩٦٣ كان ماتركه لكل ولد يمكنه من الانطلاق والعمل مستقلاً وما تركه لكل بنت يحميها من الحاجة إذا تقلبت بها الظروف .

إلا ان الإرث المادي لم يكن العامل الأكبر في حياتي بقدر الإرث المعنوي والإنساني . فقد ورثت عن والدي صفات ذات أهمية كبرى ساعدتني على تحديد شخصيتي المستقلة من انفتاح وثقافة وحب للعمل، وكل ذلك في إطار محبة كل الناس واحترامهم مهما اختلفت انتماءاتهم ومعتقداتهم وأوضاعهم المالية .
ولذلك فالحديث عن أبي فيه من الفرح بقدر مافيه من الحزن على الرحيل لرب الأسرة، وفيه من الذكريات الحلوة مثل مافيه من الحزن على ذهابه المبكر جداً .

لقد كان الإنسان، كان التاجر والأديب والرحالة، وكان بخاصة الأب لخمس بنات. كانت البنت الواحدة كفيلة بجلب الهم والغم لوالدها كما كان يقال، فكيف بخمس بنات دفعة واحدة؟ إلا أن أبي من حبه لنا وذوقه كان كثيراً ما ردد أنه يملك شجرة عليها خمس تفاحات ذهبية. وذات يوم سأله أحدهم وهل قطفت التفاحات جميعها؟ فقال: مازالت هناك اثنتان على الشجرة! صورة جميلة عميقة المعاني صور من خلالها الأب بناته. وكانت اللتان بقيتا على الشجرة أي لم تتزوجا في حياته أنا وأختي الصغرى، ولذلك عرفنا اليتيم باكراً بعد أن غابت النضارة والفيء وحلّ محلّهما أول صدام لنا مع الحياة والبشر برحيل والدنا المفاجيء إلى العالم الآخر.

كان أبي كثير الأسفار، يتنقل بين حلب وحمص ودمشق وبيروت وعمان بصورة متواصلة! ويسافر إلى أوروبا والبلاد العربية بين الحين والحين، وما عدا ذلك من الوقت كان يقضيه إما في محله التجاري أو في مصنعه للحرير وهو من أوائل المصانع التي أقيمت في مدينة حلب.

وكان من عادة والدي رحمه الله أنه على عطفه كان وقوراً لا يتكلم كثيراً كما كان قليل الابتسام، وإذا فعل حرك شفّيته لرسم ابتسامة دون أن تظهر أسنانه. وكان حين يهم بالدخول الدار يُطفأ المذياع لحضوره، ويقف الجميع احتراماً ولا يحرك أحداً ساكناً حتى يبادر بالتحية ويذهب إلى غرفته. وكثيراً ما خافت البنات أن يشم أبوهن رائحة (البزر) فيتوقفن عن الطقطقة ويخفينه ويغسلن أفواههن بسرعة. لقد كان يكره عادة أكل البزر لاعتقاده أنه يلهمي البنات عن أداء واجبهن ويعلمهن الكسل والتراخي.

وكان يوم الأحد هو اليوم الوحيد الذي تلتقي فيه العائلة بأكملها حول مائدة الطعام لأن المدارس التي كنا فيها تعطل في هذا اليوم إذ كان يحرص على أن يلتزم

شمل العائلة على الأقل مرة واحدة في الأسبوع وحين يحضر في حوالي الثانية بعد الظهر، فيكون كل شيء جاهزاً: المائدة والطعام والفاكهة المغسولة، وحتى إبرة المذياع تكون موجهة إلى إذاعة دمشق ليستمع إلى الأخبار! وكان الصمت يخيم على مائدة الطعام. ولئن كانت بعض رفيقاتنا في المدرسة القاديات من بعض المحافطات يحسدننا لأننا نأكل مع جميع أفراد عائلتنا من وقت إلى آخر، فقد كان هذا شأني أكثر الوقت، وكان يضايقني فحتى في قاعة الطعام الكبرى في المدرسة المسماة (المطعم) Réfectoire كانت أدوات الطعام هي التي تتحدث همساً دون الألسن وكان الطعام نوعاً من الطقوس الصامتة كأنه لوحة إيمائية.

ولذلك كان في نفسي منذ الطفولة حنين خفي إلى أن يكون على المائدة حديث يجعل الطعام أطيب، وأن يكون وقت الطعام مناسبة اجتماعية متأنية وأنيقة وتجمع الأحباء، وأن يعطى الوقت الكافي.

ولذلك أيضاً فإنني في كل حياتي اللاحقة - وحتى الآن - أعطي لجلسات المائدة مكانة متميزة، ووقتاً رحباً، وأناقة في الآنية، وأحرص قدر الإمكان على أن يكون الحوار مع الأذكياء رأس المشهيات والمقبلات...

الفصل الخامس

دراستي التي اختارها الوالد في مدرسة الراهبات الفرنسيات

وكان أبي قد وزع أولاده الذكور والإناث على مدارس تعلم اللغات الأجنبية المختلفة الموجودة في حلب. كانت رغبته هذه اتقاءً لما كان يسود في سورية من قلة الاهتمام باللغات الأجنبية، وكان هذا بالنسبة لتاجر وأديب وعالم يعتبر نقصاً فادحاً في بناء الشخصية الإنسانية. ولم نكن كلنا في عين المدرسة فحين قاربت السابعة من عمري قرر والدي إرسالني إلى مدرسة للراهبات الفرنسيات وكانت في تلك الأيام مقصد بنات العائلات المسيحية والأسر المسلمة الميسورة الأخرى.

في مدرسة الراهبات كانت اللغة الفرنسية هي السائدة مع حصص كافية للغة العربية. وحتى أثناء الفرض كان يحظر على الطالبات التحدث باللغة العربية، وحجة الراهبات في ذلك تقوية البنات وتعويدهن على التحدث بالفرنسية.

ولأجل هذه الغاية أوجدت الراهبات طريقة سمينها الـ SIGNAL (السينيال - وتعني العلامة) وهي عبارة عن أية أداة أو قطعة خشبية (تخطّ) في يد من فوجئت تتكلم العربية، وهذه بدورها تدور متنصّته حتى إذا سمعت واحدة

تتكلم بالعربية دفعت العلامة إليها، مخافة أن تبقى معها حتى نهاية الفرصة فتتال جزاءً على نطقها للغة الأم. إذن فكان عليها أن تحاول بسرعة إيجاد فتاة أخرى وقعت في نفس (الجرم) كي يبقى السينيال بين يديها هي الأخرى وهكذا دواليك، كان ينتقل من يد إلى أخرى حتى تنتهي فرصة الخمس عشرة دقيقة.

ولقد كان اختيار العائلات يقع على تلك المدارس لأنها علاوة على تعليم الفتاة اللغة الفرنسية منذ المرحلة الابتدائية واللغة الانكليزية في السنة النهائية الأخيرة، فإن الفتاة تنصاع بتهذيب لقواعد الاحترام واللباقة.

وقد انصاعت طفلة التي هي أنا، بدورها وبتهذيب، لقواعد الاحترام واللباقة ولكن حسب رؤيتها الخاصة ! فرغم قساوة الراهبات وإصرارهن على التقيد بقواعد الاحترام الصارمة حتى تحية (التقاصر) Révérence للأُم الرئيسة، إلا انني كنت مصممة في أعماقي ألا أركع لأحد مهما كان شأنه ففي الركوع عبودية، والعبودية لغير الله مذلة.

وكان النظام الدراسي في تلك المدارس يبدأ من الثامنة صباحاً ويتوقف في الثانية عشرة ظهراً لتناول الغداء ثم لتعود الطالبات فيما بعد الواحدة والنصف إلى الدراسة ثانية وحتى الرابعة من بعد الظهر. يلي ذلك نظام اختياري ويسمى étude أي (الدراسة) ويقضي بكتابة الوظائف في المدرسة ما بين الرابعة والنصف وحتى السابعة إلا ربع تقريباً قبل الذهاب إلى المنزل.

وكانت هذه الساعات تقضى في قاعات الامتحانات الكبرى حيث كانت تجلس مايقرب من ثلاثمئة فتاة لكتابة وظائفهن وفي مقدمة القاعة المراقبة الرئيسية، وفي منتصفها راهبة أخرى. ورغم كل هذا الحشد من الطالبات كان صوت الإبرة يسمع إذا ألقيت أرضاً. ترى هل كانت البنات يتنفسن حقاً؟

حين أسمع الآن أصوات الحديث العالية في زيارة نسائية لمن كُنَّ معي في المدرسة، أتساءل عما إذا كانت هؤلاء النسوة هن اللواتي عرفن كيف يبقين مدى ساعتين وربيع الساعة كل يوم دون أن تبدر منهن أية همسة أو حركة؟ أترأه الخوف أم التعود على النظام والصمت؟

وقد يكون الأمر مختلفاً أيضاً. فطول مدة الدوام الرسمي يعني أن الفتاة ترى الراهبات وتعيش معهن أكثر من أفراد عائلتها، لاسيما وأن العطل قليلة جداً. فحتى يوم الجمعة كان ير علينا ونحن جالسات على مقاعد الدراسة لأن عطلتنا كانت يوم الأحد، وبعد ظهر الخميس. ومن جراء ذلك لم يكن هناك مجال عندي وعند التلميذات لممارسة أية هواية، أو حتى أن نتقرب من الأهل وهذا يمكن أن يضعف الروابط العائلية. ولم يكن لدينا من زيادة على الدروس إلا نظام كشفي في المدرسة ولكن عدد المنتسبات إليه كان قليلاً جداً بالنسبة لعدد التلميذات الإجمالي. وكتيجة لهذا النظام (الدرسي) الصارم حدث كثيراً أن نالت مدرسة الراهبات مدالية من مديرية المعارف لارتفاع نسبة عدد الناجحات في الشهادة الابتدائية، وكثيراً ماوصلت إليه هذه النسبة إلى المئة بالمئة.

إن هذا هو الوجه الإيجابي لنظام مدرسة الراهبات، كما لاينكر أمر سيطرة اللغة الفرنسية على اللسان وحتى على العقل، وهنا - في التأثير الثقافي والعقلي - يمكن التساؤل عن أثره في تكوين أمهات الأجيال العربية القادمة، وعن وجوهه السلبية والإيجابية.

وما زالت الكثيرات من خريجات تلك المدارس بارعات متقنات اللغة الفرنسية وهن فيها أفضل مئة مرة منهن في اللغة العربية بل أعرف من لايسطعن تذوق أي كتاب باللغة العربية.

الفصل السادس

أسرتنا

كانت ولادتي في يوم من أيام آذار ١٩٤٣ . الشتاء يللملم أيامه الباردة الماطرة ويفتح الباب أمام الربيع القادم . وحين أحست أمي بآلام المخاض كانت واقفة أمام أبي كعادتها في الرعاية وهو يحلق صباحاً ويسوي شأنه تأهباً للخروج ، فلما انتهى وأخبرته أنها توشك أن تضع حملها ، ذهل من هذا الصبر على الألم ومن هذه الرعاية من زوجته الحبيبة إليه .

كانت النساء في تلك الأيام يحترمن أزواجهن كثيراً ، لكن هذه المرأة فاقتهن جميعاً في الحب والاحترام والرعاية ، وهذه شهادة حق لها . وكانت أمي الطيبة قد ولدت لأبي بعد ابنه البكر ، ثلاث بنات جئن تباعاً في أيام كان فيها الصبي وحده يلقي قدومه التهليل والتكبير .

في المجتمع كانت هذه الولادة لبنت رابعة تعتبر كارثة ، لكن أبي كان الرجل العاقل المتطور ، والإنسان الذي قلَّ مثله في زمانه فكان له رأي آخر . كان يعرف أن المرأة لاتأتي بالبنات - من بيت أبيها - كما يقول المتفهمون ، وأن الصبيان والبنات من بذار الأب ولا تبعة على زوجته فيهم . فلما جاء الصبي الثاني بعد ذلك استبشر الجميع ، وأحست أمي ككل أنثى في ذلك الزمان أنها نالت حظوة جديدة . فقد كانت قيمة المرأة بقدر ماتلد من صبيان ، وهي منذ أن تبدأ بفهم الدنيا تتعلم أن

الزوجة تدق مسماراً جديداً في أساس بيت زوجها مع مجيء كل صبي يولد، وبقدر ماتكثر المسامير تزداد المرأة وزناً وقيمة عند الأهل خاصة وفي المجتمع عامة. هذا والمرأة المسكينة لاحول لها ولا قوة في هذا كله، فإذا كانت ممن وصفن بأنهن لا يخلفن سوى البنات، تظل تعيش قلقاً لاتعرف الهناءة إلى أن يضحك القدر لها ويعطيها الأمان. ولكنني مع تقدم الزمن تعلمت أنه لا الصبيان ولا البنات يكفون لتأمين متانة الحياة الزوجية، وإنما تمسك كل من الزوجين بالآخر.

قلت أن والذي رحمه الله لم يكن يتمسك كثيراً بتلك الفكرة السائدة بسبب انفتاحه المبكر على العالم، وإذا كانت رواسب من تلك الاعتقادات كامنة في مؤخرة تفكيره، فإنه كان لا يظهرها مطلقاً بل يدحرها بعقلانية صبور. وكان فوق انفتاحه وحنانه يؤمن بالخير الذي تجلبه البنت معها، وقد رزقه الله بست بنات عاشت منهن خمس، ولما ماتت البنت التي جاءت بعدي أي أن رقمها كان الخامسة، بكأها بحرقه وألم، رغم مرضها الذي لازمها منذ الولادة. ففي الساعة التي عاد منها من عمله وأعلموه النبأ (مع أنه كان متوقفاً) لم يستطع أن يأكل لقمة واحدة، وما زلت أذكر صورته وهو يقلب صحنه على مائدة الطعام شارداً واجماً دافع العين متأثراً على فراق الحبيبة الصغيرة.

أعود فأقول أنه في ذلك اليوم، مع بداية الأربعينات وبعد آلام مخاض طبيعية وضعت والدتي البنت الرابعة وكنت أنا القادمة الجديدة. وقد حدثتني والدتي أن أبي أخذني بين ذراعيه وأذن لي على عادة القدامى، ولعلني لذلك السبب كلما سمعت الأذان أشعر بالخشوع وينشرح صدري. ولما كان ينبغي أن يوجدوا اسماً لي، فقد كان هناك من أراد تسميتي (رابعة) إذ جئت بعد ثلاث بنات. كانوا كذلك يفعلون قديماً لإيقاف مد البنات، بل قد يسمون القادمة الجديدة باسم (ختام) أو (تمام) أو (نهاية)، ولكن أبي وقد خالط وتعلم وأعطاه الغنى نظرة أوسع،

- والغنى يوسع الأفق - رفض هذه التسمية . كان يتمنى بالطبع أن يأتيه صبي ثان ، وتلك كانت أيضاً أمنية أمي التي أحاطت أخي البكر بكل الرعاية ولم تغفل عنه لحظة واحدة بعد تجربة مريرة فقدت خلالها صبيها الأول ، لكن رغم ذلك رضي أبي بقدومي وبعد أن كان يحلم باسم (معاوية) سمي قادمته الجديدة (أمية) .

كان هذا الإسم أصلاً للرجال فمن تراه أول من أسمى به البنات ؟
لعلني أضحك الآن لأنني رغم حضوري (الكريم) غير المتوقع والذي زاد من قلق والدتي ونساء العائلة ، فقد حصلت على اسم ذكر فيه كل عزة القبائل العربية .
وهذا الإسم أعطاني دفعاً نحو السمو . اسم الإنسان يرافقه ويوحى إليه ، ولو أنه قد يخلق مفارقة فيكون السعيد شقياً والنبيلاً درویشاً والكريم بخيلاً .

في الدقائق الأولى للولادة تتجلى أعمق صورة للحياة ، إذ يبكي الطفل في صراعه من أجل البقاء . وقد كان على الطفلة المولودة آنذاك - ككل مولود آخر - أن تبكي طالبة الدفء الذي اعتادته في رحم أمها ، وأن تصرخ لتحصل على ثدي أمها ، وألا تهدأ لتسرق الاهتمام من الصبي وعن سبقنها من اخواتها . وإنني أضحك الآن حين أرى نفسي وقد غدوت امرأة وأماً وجدّة ، وما زال عليّ أن أتحرّك وأنشط فلا أهدأ وأستكين حتى أتمكن من أخذ حقي ودوري في الحياة . بل أصبح عليّ أن أكتب عن ظلم المجتمع والتقاليد القديمة لأعيد ولو ذرة من الإنصاف لبنات جنسي . والإنسان يظل في صراع منذ الولادة حتى الممات ، فما بالنا لانتصاره من أجل إزالة غبار وصدأ باليين مترسبين ، لنأخذ مكاننا حقاً وبجدارة تحت الشمس ؟ !

إن عادة استقبال البنات بالوجوم عند ولادتهن ماهي إلا نتيجة للمكانة المتخلفة التي كانت - وما تزال - نصيب المرأة في المجتمع . والمثل الشعبي يوضح هذا الموقف حين يقول : همّ البنات للممات . وكذلك حين يسكت الناس في مجتمع ويسودهم الصمت فيقول أحدهم : ما بالكم سكتم كأنما ولدت بنت ؟

إذن فهذا موقف أبي العاقل يوم ولادتي ولا أقول أن قلبه امتلاً غبطة لثلاً أغالي،
ولأنه من البشر، لكنه إذ كان لم يحزن لمجيء ابنته الرابعة، فذلك لا ينطبق على
سواه من رجال بلادنا. ولعل مردّ ذلك إلى أن القرص التي أتيحت له بالانفتاح على
العالم والخروج من شرنقة التعصب والجهل لم تُفتح لكثير غيره من الرجال.

ولذلك فحين يرحل شبح الفقر عن الإنسان تنهياً له أسباب الرفاهية التي تتجلى
بالقراءة وتذوق الفن والسفر والانطلاق نحو عوالم حضارية جديدة، حيث يبدأ من
خلالها بتكوين رؤى وأبعاد معاصرة في الحياة غير التي ورثها عن الأقدمين.
فالتنمرّد لا يعني السوء دائماً، ورفض الأفكار البالية ليس بالجحود، وفهم الدين
بشكل صحيح ليس بالكفر.

والمرأة حين تنمرّد على هذه الفكرة السائدة حول مسؤوليتها عن جنس الجنين
فذلك لا يعني أنها سيئة؛ والرجل حين يرفض أن يطلق زوجته أو أن يتزوج بثانية
لأن الأولى عاقر، ليس بالإنسان الجاحد بحق أبويه؛ والطفلة حين تفهم أن صدقتها
مع نفسها أهم من الحجاب فذلك لا يعني أنها فاسقة.

ولذلك فبمجرد أن تولد بنت في مثل هذا الجو وبعد عدة بنات يضعها أمام
التحفز والقوة والمدافعة تحت طائلة الاندحار وهذا من أسباب القوة الكامنة.

إذن فالطفلة الصغيرة - التي هي أنا - رأت النور وسط هذه العائلة التي تنعم
بأب أتاح له كفاحه ودأبه المتواصل في سبيل عيش أفضل أن يُطل على نافذة الحياة
فيدخلها من أوسع أبوابها. وترعرعتُ على أيدي الجميع. أجل فقد شارك الجميع
في تربيته وكانهم مشتاقون لقادم جديد، وكانت أُمّي انتظرت أكثر من أربع سنوات
قبل أن تحمل بي وغايتها من ذلك تكريس حياتها لصبيها الوحيد. ولعل من ملامح
تكوينه أنه كان عليّ في أولى حلقات صراعي مع الحياة أن أسرق الأضواء عن
سبقوني مخافة أن أعيش في عزلة عنهم فلا ألحق بهم. وربما كانت هذه إحدى

مزايا الطفل الذي يجيء وسط أخوة وأخوات إذ لا بد له من أن يقلد ويحاكي كل واحد منهم ليتعلم وينهل المعرفة مبكراً.

في صورة تذكارية للعائلة كان الأولاد والأحفاد جميعاً جالسين على الأرض في الصف الأول وعند أقدام أمهاتهم اللواتي يتربعن على مقاعد في الصف الثاني تتوسطهن الحماة، ثم يبدو الآباء في الصف التالي إلى جانب الجد. استثناء واحد في الصورة التي ضمت أبويّ وجدي وأعمامهم وزوجاتهم، وهو استثناء كثيراً ما أضحك أفراد العائلة وخاصة نساءها، فقد كنت الوحيدة المحمولة على كتفي أبي القويتين بينما بدا هو مبتسماً شامخاً كعادته. وكان الجميع كلما أعادوا النظر إلى تلك الصورة القديمة ضحكوا وتندروا وقالوا يا الله كم يبدو أبو خالد - وهي كنية أبي - سعيداً مزهواً وكأنه يحمل خليفته وولي عهده الذي جاء بعد عشر بنات.

كنت أنا الخليفة وولي العهد بكل بساطة وقد كنت مزهوة أنا الأخرى بكوني أبدو (فوق)؛ بين رجالات العائلة. أترأه بداية التمرد الجميل؟ ! فإذا أضفنا ذلك إلى كوني استقبلت بحرارة وحماسة بعد بنات عديدات، فقد خلق هذا عندي شعور التحفز والمدافعة حتى أشق الصف وأخذ مكاناً محترماً فيه بين الأولاد الكثيرين والناس جميعاً من بعد.

وتمر الأيام في هذا البيت الذي كانت تسود فيه التقاليد والطقوس. احترام الأب وإجلاله يأتي في المرتبة الأولى. فالمليداع يُطفأ حين يهجم بدخول الدار.

رأيت النور في حارة الجميلية، ولكنني لا أذكر منها شيئاً سوى أن أخواتي الكبيرات كن يقمن بإطعامي قبل حضور الوالد. كانت هناك نافذة أمامها قطعة حجر تقعدني أختي الكبرى عليها وتسد جوعي بوجبة الغداء، وطبيعي أن الوجبة

كانت تقتصر على صحن فيه أرز وقليل من الخضار المطبوخة باللحم وربما بعض اللبن. إلا أنني كنت أتضايق وأكل قسراً، فلماذا لأجلس معهم على الطاولة وأتناول وجبتي بهدوء مثلهم وأسمع أحاديث الوالد، وأأمله حتى حين يثور ويغضب؟

وهذا المخلوق الغريب العجيب الذي لأراه كثيراً إذ كان كالضيف وكنت أشتاق لرؤية طربوشه وإلى رائحة الكولونيا التي يضعها في الصباح بعد الحلاقة، لماذا يحجبوني عنه؟ ولماذا لا يجربونني ولو مرة واحدة؟ وسأكون عندئذ مطيعة طيعة أكل بهذيب وأدب متناهين، بل أنني أعد بأن أكل كل ما يقدم لي من طعام بما في ذلك اللحم المسلوق الذي أمقته. لكن أحلامي هذه وآمالي وطموحاتي لم تكن تلقى أذنًا صاغية، وبقيت أكل عند النافذة قبل حضوره ولو أنني كنت أشاكس أحياناً وأهدأ أحياناً أخرى.

بعد حي الجميلية اختار لنا والدي حي العزيزية مكاناً للسكن، وهناك قضيت أياماً حلوة من العمر. بيتنا كان قرب المركز الثقافي العربي حالياً وقد كان قبل ذلك مركزاً ثقافياً فرنسياً. وما زلت أذكر يوم أضرمت فيه النار وشاهدت مديره الفرنسي يهرب فوق الأسطحة خوفاً من النيران. كان ذلك أيام الاعتداء الثلاثي على مصر. وفي حلب كلها لم يكن هناك مركز مشابه سوى المكتبة الوطنية. كان هذا المركز كل ما يملكه الحلبيون من منارات إشعاع وعلم.

وكان بيتنا في الطابق الثالث من بناء عتيق تزينه الأكشاك الجميلة المعروفة في حلب آنذاك. وقد بنى لنا والدي طابقاً آخر فوقه خاصاً بغرف النوم فكان مجموع الغرف حوالي الأربع عشرة غرفة في الطابقين معاً.

في البناء تسكن عائلة من (آل مكربنة). ففي الطابق الأول الست (عفو) رحمها الله، وفي الطابق الثاني عائلة المرحوم جوزيف. وكان منزلنا صورة مصغرة عن

لوحة الموزاييك المميزة للشعب السوري والقائمة على التعددية والتفاهم والتسامح. فالمربية من أصل تركي، والطباخ سرياني، والسائق أرمني، والبنّت قادمة من الجبال، وأستاذ اللغة العربية من أحياء حلب القديمة جداً، ونحن الأولاد نتبادل التحية بأدب وتهذيب مع أولاد الجيران الأحياء ومنهم بولص وفريد مكربنة. وقد عشنا جميعاً بمحبة ووثام وكانت السيدة أديل مكربنة التي كنا نسميها (الست أدله) وهي جدة بولص والدكتور فريد حالياً، تفخر بجارها (أبو خالد) وكان يبادلها فخرها احتراماً لا مثيل له.

في حي العزيزية كانت مدارس الراهبات أكثر من واحدة، وقد اختار لي والدي مدرسة القديس يوسف كي أتم صفوف الابتدائية وأخذ - شهادة السرتفيكا فيها، أي الشهادة الابتدائية وكانت في ذلك الوقت تعطى في نهاية السنة الخامسة وقد ألغيت هذه القاعدة في أنظمة التعليم الحديث وأصبح الصف الخامس مجرد سنة انتقالية إلى السادسة.

غرفة الاستديو

في الطابق الأول كانت غرفة قرب باب الدار، شبه منفصلة عن باقي غرف السكن وهي التي كان الوالد يسميها بالاستديو، وكانت للدراسة واستقبال الأساتذة المدرسين حين يحضرون لمساعدتنا وسأخصص فصلاً عنهم إذ كان لهم الفضل عليّ وعلى أخوتي وأخواتي بإتقان اللغة العربية نوعاً ما أو قياساً بما هو عليه جيل اليوم. أما الغرفة التي كانت تستحوذ على اهتمامي فقد كانت غرفة الجلوس الجانبية وفيها سرير معدني عال تنام عليه وبصورة دائمة إحدى الزائرات من قريبات الوالد، من بنات عماته أو خالاته العزيزات، وكم كنت أسعد بلقائهن وتأمل وجوههن الغريبة عما اعتادت عيني رأيتها. وكنت كلما أضاعوني في البيت كانت أمي تجدني هناك.

في صدر الغرفة أرائك تعلوها نوافذ تطل على الشارع من خلال الكشك. وهذا الكشك الحبيب كان صندوق الدنيا أو تلفاز الخمسينات. فمنه يحلو لي أن أراقب حركة سير الشارع وكأن لسان حالي يسبق الزمان فيقول: المدرسة هنا: بالاختلاط بالناس والنظر إليهم ومعرفتهم واختبارهم وليس دائماً بين أسطر الكتب.

وهذه حقيقة واقعة أحب أن أؤكد عليها. ورغم محبتي الكبيرة لوالدي التي لا يوازيها شيء في الحياة، إلا أنني أعتب عليه لأنه لم يعطنا الفرصة للاختلاط بالناس وأقصد بسطاء الناس. وربما كان ذلك هو العرف السائد آنذاك وخاصة بالنسبة للبنات، ولكنني أصر على اعتقادي. فأنا ما تعلمت الاندماج بالحياة العملية إلا وأنا كبيرة، وما كانت الكتب والراهبات ورفيقات الصف كل شيء. جميل أن

ينفتح الطفل على العالم منذ الصغر، يعرف حقه وما له وما عليه، بل ان مجرد مرافقة الأهل حين يقومون بالمشتريات تعلم الطفل كثيراً.

إذن من نافذة الكشك كنت أتأمل العالم وأحاول فك ألغاز ما يدور في الشارع، وإذا ماضاق صدري من الملاحظات والتأنيبات التي توجه إليّ لطول مقامي أمام النافذة، كنت أقصد السطح لأكون لوحدي هناك، ومنه أشاهد أكبر عدد ممكن من الأبنية والأسطحة باحثة عن التنوع والامتداد في حي العزيزية. كنت أبحث عن البعيد البعيد وكان هذا شيئاً يترسخ في أعماقي كحاجة ومتعة. أنظر إلى أبعد من مدرسة القديس يوسف، وأبعد من كنائس التلل ودكاكينها، وأبعد أبعد من ساعة باب الفرج.

أحلى الأوقات كنت أقضيها على السطح وأنا أنظر بزاوية عيني إلى كل الخضار المجففة الملقاة على الأسطحة تحت الشمس استعداداً لأيام الشتاء. أقول (بزاوية عيني) لأنني كنت أرفق بحال أمي التي لاتعرف الراحة وهي تتقل من تحضير مؤونة إلى أخرى رغم وجود العديد ممن يساعدونها، وبالتالي أشفق على اللواتي - مثلها - كنّ يكدحن في هذه التحضيرات الشتوية.

ذكريات في غرفة الاستديو

كانت هذه الغرفة في دارنا جانبية معزولة تقريباً عن الصالون الكبير وغرف الضيوف والطعام، ولها نافذة وشرفة. وهذه الغرفة التي هيات أنساها كان يحلو لأبي أن يسميها غرفة الاستديو، وربما كان ذلك لأنها مهيئة للدراسة واستقبال الأساتذة الذين يلقون علينا الدروس الخصوصية.

في هذه البقعة الصغيرة تعلمت ألف باء اللغتين العربية والفرنسية، وفيها بكيت مرات لعدم فهمي لبعض المواد الفرنسية إذ لم يكن في الدار من يجيدها أو على

الأقل يفهمها، فأخواتي الكبيرات تعلمن الانكليزية، وأنا كنت الأولى التي اختار لها الوالد أن تتعلمها. وأضيف أن صديقتي في العائلات المسيحية الكبيرة كان معظمهن يُجِدْنَ هذه اللغة، والأكثر أن أمهاتهن كنّ من قبل طالبات في المدارس التبشيرية التي تعلمها. أما أنا فكان عليّ أن أضطر إلى تعلمها دون أية مساعدة منزلية، وكان هذا تحدياً لي، ولذلك ورغم بكائي وضيقني من هذا الانفراد أمام صعوبات لايسهل حلها، فقد تفهمت اللغة وتقدمت فيها وخلال ستة أشهر من السنة الثالثة صار ترتيبي الثانية في الصف في اللغتين الفرنسية والعربية معاً.

وكانت دراستي في مدرسة راهبات القديس يوسف التي لاتبعد عن بيتنا بأكثر من خمس دقائق سيراً على الأقدام، ومع ذلك سجلني الوالد بياض المدرسة حتى لأمشي وحدي في الشوارع!

في غرفة الاستديو هذه كنت أكتب وظائفني وأتلقى أيضاً دروساً خاصة في اللغة العربية، ذلك أن والدي أصرّ على تقويتنا باللغة الأم مخافة ألا يكون مانلقاه في المدرسة كافياً. وهنا أذكر - ولا يمكن أن أنسى - أن أحد الأساتذة الذين علموني أنا وأخوتي وأخواتي كان المعلم القدير الأستاذ عبد الرحمن (ب) وهو إنسان جادّ حتى القسوة، لايعرف الضحك ولا حتى الابتسام، يصبوب نظراته إلى من يعلمه فتأتي ثاقبة وقوية، ويضيف إلى معالم وجهه أنه يرفع أحد حاجبيه على نحو درامي يزيد من قسوة الملامح. وكان عمله، رغم كثرة الوظائف التي تعطي لنا في المدرسة من قبل الراهبات والمدرسات، أن يعطينا وظائف إنشاء وإعراب. وبنتيجة كل الساعات المتواصلة من الدراسة وكتابة الوظائف لم يكن يبقى لي من يومي كله ساعة ألعب فيها أو أعرف الفرح. ولذلك كنت أخاف هذا الأستاذ القاسي القلب مع أنني في كل ماعدا هذا الخوف كنت أحب الحياة وأريد فهمها وخوض غمارها حتى الأعماق

منذ الصغر، وأقول في نفسي: لماذا أقضي جزءاً من حياتي في (إعراب ماقاله الأعراب ذات يوم)؟

وفي يوم من الأيام الماطرة الحزينة، وقفت أمام شباك غرفة الاستديو أرقب قدوم هذا الأستاذ في موعده. وكان الشارع ينغمر تحت رذاذ المطر فيتراكض الناس وثيابهم تبتل وأحذيتهم تحمل الأوحال، والشرفات فارغة ليس لها لون، وخلف النوافذ لا أثر لضوء أو حياة، ولم يكن في الطريق حتى الأولاد الذين يملؤونه عادة بالضجيج والصياح. وحتى تكمل الصورة كانت هناك عائلة توفي رجلها في آخر الشارع، ومن نافذة غرفتي ألمح أناساً كالأشباح السوداء تدخل إلى بيت العزاء صامته حزينة.

كل هذا، وأنا غير معنية بقلقي واضطرابي لأنني لم أكن في ذلك اليوم قد كتبت وظيفة الأستاذ، وهاهو قد حان موعد قدومه ومعه التعنيف وشكواه مني لأبي. وأغمضت عيني وأذكر الآن بوضوح أنني تمنيت لو أنه الأستاذ وقع له حادث فلم يأت. ببساطة الطفلة لم يكن عندي حل أتصوره لهذا المأزق سوى أن يصاب الأستاذ بأذى يعوقه عن المجيء.

وحتى الآن لست أخجل من هذه الفكرة، لأنها فكرة ولدت صادقة في قلب طفلة خائفة من أستاذ سيأتي فيثور ويتهدد، ولم يكن عندها مخرج آخر. ولكنني الآن أتصور المخرج بطريقة أخرى، هي أن يكون التعليم أخف ظلاً على الأطفال ويعطيهم شعور الفرح بالزيادة الآتية في موكب المعرفة بدلاً من الشعور بالتقصير، وهو ظالم للطفل الذي لا يستطيع التحكم بوقته ونزعاته الصغيرة.

ولكن معلمي جاء. ورأيته يتلفت يمناً ويسرة ليتأكد من خلو الطريق من السيارات، ودخل البيت، ورفع حاجبه حين عرف أنني لم أكتب الوظيفة، ولكنه تغاضى ومرت القضية بسلام.

عندما أذكر موقفه هذا، فقط ، أشعر الآن أن الطفولة قد تبدو ظالمة للكبار في بعض المواقف ، وأن هذا الرجل الكبير العالم يتعب ويتحمل البرد والمشاق ليعلم طفلة لا يعرف هل ستستفيد من علمه ذات يوم ، أم يذهب الاعراب والنصب والرفع والجر إلى دار زوج لايهمه سوى سفرة ملأى وزوجة تعرف كيف تروق له ! . . .

وهذه الذكرى تجرني إلى أستاذ آخر اسمه عبد الرحمن أيضاً ولكنه من عائلة أخرى . وكان يعتمد أسلوب الفكاهة فإذا تجادلنا في أمر يراهنني والخاسر يأتي بكيلو غرام شوكلاته لمن يربح .

والآن كلما ذكرت القصة أشعر بالفرح لهذه (الخسارات) التي كنت أمني بها ، وتجعل طعم اللغة (حلواً) كالرهان على الجواب .

وقصة هذه الرهان وصلت إلى والذي عن طريق الأستاذ نفسه، إذ خرج ذات يوم بعد أن أعطاني الدرس وهو يضحك وأسايره تتم عن ذلك ، فصادف والذي عند الباب يهم بالذهاب إلى عمله المسائي ، وعرض عليه والذي أن يوصله ثم سأله عن سبب حبوره الكبير ، فأجابه بكل ثقة : لقد غلبت أمية وغنمت كيلو من الشوكلاته نتيجة إصرارها على خطأ ارتكبته في اللغة العربية . وضحك والذي ووجد فيه صفات المعلم النموذجي ، وزاد بذلك من احترام أبي للمعلم القدير . بهذه الطريقة المحبة قواني في اللغة ، وكان صوته يسمع إلى خارج غرفة الاستديو فيعلم جميع من في الدار أن المناقشة قائمة برعاية سيويه . ولم يكن هذا الأستاذ جميل الصورة ، وحين يتكلم يفتح فمه الكبير فيظهر سقف حلقه ، ومع ذلك كان أسلوبه هو الذي يحب به ، والإنسان هو الأسلوب .

وذات يوم تضايق حين لم أعرف كيف أعرب بيتاً من الشعر فقال لي : اسمعي ، سأشرح لك أمراً أفهميه ولا تنسيه مطلقاً . حين تحاول المرأة إصلاح الحمرة (الروح) على فمها تأخذ قلم الحمرة وتبدأ بتمريره من زاوية الفم إلى الزاوية الأخرى . أليس

كذلك؟ قلت له وأنا لم أفهم العلاقة بالموضوع: ربما. صاح بي: شو ربما؟ هذا هو الأمر الصحيح. قلت له: وماذا بعد؟ قال حين لاتعرفين موقع الكلمة من الجملة تعودين إلى البداية وتؤكدين من العبارة، دون أن تقفي جامدة عند الكلمة نفسها لساعات وساعات. مرري ذهنك على الجملة كلها لاعلى الكلمة وحدها!

وضحكت يومها من الأعماق لأنني تساءلت: كيف لهذا الختیار العزيز أن يعرف شؤون (الحمرة) على شفاه النساء؟ ولكنها الطريقة الذكية اللبقة وبخاصة مع فتاة تحلم بوضع (الروج) على الشفتين، والدرس العميق وهو أنه يجب العودة إلى البداية كلما ضعننا وعندئذ نجد الطريق!

ثورة في السلوك !

في نفس الشارع الذي كنا نسكنه وفي الجهة المقابلة، كانت توجد دكان حلاق نسائي اسمه (ادوار)، وكانت تعمل عنده السيدة ماري التي غدت فيما بعد من أشهر (الكوافيرات) في حلب وهي مازالت في مكانها في شارع بارون تعمل بصمت وتهذيب بالغين والكل يحبها ويحترمها.

ذات يوم تضايقت كثيراً من شعري الطويل الأجدد الذي يضطرنني للانتظار حتى يأتي دوري بترتيبه من قبل اخواتي الكبيرات، فتساءلت: لمَ لأكون كغيري من البنات؟ فيكفيني أن أغسل وجهي وأرتدي ثيابي وأذهب مباشرة إلى المدرسة، ولماذا هذا العناء والتعب والانتظار في تمشيط الشعر الذي لا موجب له؟

وبقرار ذاتي مني بدون استشارة أحد، نزلتُ إلى الشارع وقرعتُ باب السيد ادوار بأدب، ووقفت صامتة. قال مابك هل تريدين أخذ موعد لأحد أفراد العائلة؟ ولم أنطق بكلمة واحدة. وأمعت النظر فيه وكأنني أقوي ذاتي على ذاتي أولاً، ومن ثم عليه، لأطلق المفاجأة الكبرى! وبانت على وجهه علامات الاستفهام وهمَّ بأن يقول: ماذا تريدين يا صغيرتي؟ ولكنني سارعت وسبقته إلى النطق وقلت له بكل ثقة رغم الخوف الذي يعتريني: أريد أن أقص شعري قصيراً جداً كالنسريحة الدارجة (رأس الخروف) - tête de mouton - ودُهل السيد ادوار وقال: هكذا وبكل بساطة تريدين أن تتقلبي من شكلك الحالي إلى رأس الخروف؟ قلت له نعم! وأخذني من يدي فساعدني بالجلوس على كرسي الحلاقة، ثم تدارك نفسه وتوقف فجأة ليقول: ولكن هل أبلغت أهلِكَ بذلك؟ قلت: نعم. نعم. نعم. لقد فعلت.

والحقيقة أنني كنت أكذب لكن دون أن أعني ذلك حقاً. ففي داخلي كنت أقول
مالهم ومالي؟ هذا رأسي ومن حقي أنا وحدي اختيار الشكل المناسب له. ولعلني
منذ ذلك اليوم البعيد كنت قررت التصرف برأسي الصغير وما بداخله لوحدي ولا
سيما في منعطفات الحياة الهامة جداً. ولم أندم مرة واحدة على تجربة قمت بها،
لأنها محطات إنسانية قربتني من (أتون) الحياة أكثر وخرجت منها بنتائج حلوة
- إيجابية كانت أم سلبية - والأمور لا يمكن أن تكون مطلقة أبداً.

يومها لا أذكر أن والدي أنبني لفعلتي هذه، وقد كان المرجع الأكبر في البيت
وسيده. ربما فوجيء الجميع بمظهري الجديد لكن القيامة لم تقم والحمد لله. ولكن
والدي لمح في ذلك مرة ثانية بواحد تمرد لطيف غض الطرف عنه وسأحكي عن ذلك
فيما بعد.

أعود إلى مدرستي فأقول أن موضوع انتسابي إلى مدرسة تعلم الفرنسية بالدرجة
الأولى كان لي بمثابة الامتحان الأكثر صعوبة في سنوات عمري العشر الأولى.
فلقد أتممت أختائي الكبيرتان تعليمهما في الكلية الأمريكية، وكذلك لحق بهما
أخي الأكبر، حتى أختي سلوى رحمها الله كانت تتعلم الإنكليزية إلى جانب
العربية في ثانوية معاوية للبنات. وبهذا أكون الأولى في درب لم يكن بالسهل
مطلقاً. فمن تراه سيساعدني على إتمام وظائفني وفروضي اليومية باللغة الفرنسية؟
ومن سيسشرح لي معاني الكلمات الصعبة؟.

ولعل هذه اللحظة هي الأنسب للحديث عن تجربة الدراسة في مدرسة تعلم بلغة
أجنبية من جهة، وفي مدرسة للراهبات بوجه خاص، إذا كانت الطفلة الصغيرة
بنت الست سنوات قد نشأت وترعرعت في وسط مسلم لا يعرف اللغة الجديدة
ولا التقاليد العامة للمدرسة وللراهبات المعلمات.

اللغة الفرنسية

كنت حقاً أمام وضع صعب . فمعظم رفيقاتي من كبار أسر النصارى يتحدثن اللغة الفرنسية في البيت ، والأخريات من الأسر الإسلامية الراقية كان أحد الأبوين فيها ، على الأقل ، تلميذاً في مدرسة (الفرير ماريست) أو الراهبات التابعة لها . أما أنا فإن أُمِّي لاتعرف سوى لغتها العربية رغم نجاحها بتفوق إلى السنة الرابعة الابتدائية كما تُحدثنا هي بذلك متباهية ! لكنها أخرجت من المدرسة نظراً للجو المتزمت في مدينة حماه آنذاك . ووالدي كان يعرف بضع كلمات بالفرنسية فقط . ورغم معاناتي الكبيرة ولعل أهلي سيفاجؤون إذا ما عرفوا الآن وبعد مضي أكثر من أربعين عاماً أنني كثيراً ما بكيت بصمت لعدم تمكّني من حفظ دروسي بسهولة وفهم مدلولات الكلمات . وأنا الآن أجيد الفرنسية وأتكلم بها بطلاقة وكان أُمِّي علمتني إياها مع قطرات الحليب الأولى .

وكذلك الأمر كان بالنسبة للغة الوطنية ، فبذور حب اللغة العربية كنت تعلمتها في البيت وكانت أوامر السيد الوالد أن نأخذ دروساً خصوصية خلال أيام الأسبوع ليكون أولاده جميعهم جديرين بحمل جنسيتهم العربية السورية . وقد تمّ ذلك ورويت لكم حديث دروسي في اللغة العربية .

إلا أن عادة التحدث بالفرنسية غدت شبه امتياز وأصبح البعض يعتبر أمر الكلام بالعربية من التصرفات غير الراقية ، وكثيراً ما استهجنوا الكلمات الصعبة بالعربية الفصحى وأعربوا عن اشمئزازهم منها . وأعود وأكرر أن كل ذلك يعود إلى البيت .

وهنا لا بد لي أن أبادر فأقول : رحم الله أبانا تعلمنا منه أبجدية حب الوطن والاعتزاز به مع أبجدية اللغة العربية ، وأحسن الله إلى أم أمرتنا بالتمسك بالدين الخفيف منذ نعومة أظفارنا لأنه رغم وجودي طيلة أكثر من عقد كامل بين الراهبات

الفرنسيات وضمن حلقة صديقات نصرانيات، مع كل حبي واحترامي لهن، إلا أنني بقيت على ماتعلمته في المنزل من الإيمان الإسلامي.

فلقد تربينا على المحبة والإلفة واحترام الأديان ومعتقدات الغير. وإذا كانت السيدة ماري معمار باشي (ماري سورا حالياً) من خلال كتابها (غربان حلب) قد صرحت عن تمييز طبقي وعنصري في بيت أهلها كانت تصرّ والدتها وتأمرها بتطبيقه في المدرسة فحمداً لله أنني ما عرفت هذه الأمور قط. وكم كنا نكتب وظائفنا متعاونات أنا وسيمون مظلوم ابنة القانوني الكبير المرحوم جان مظلوم وكذلك نويل ابنة ألفريد خوري وزوجة السيد بستاني حالياً، ونضحك ونفرح معاً وكذلك أنا قازاريان ابنة صديقة العائلة الطيب الذكر المرحوم الدكتور هاكوب قازاريان.

أعود إلى البيت العتيق فأتذكر عبارة (تعمير المدافئ). فقد كانت أمي تصدر أوامرها عند المغيب إلى من يعاونوننا في خدمة المنزل بتعمير المدافئ في الطابق الأعلى كي تكون غرف النوم دافئة حين يحين موعد نوم الأولاد (لم تكن التدفئة المركزية قد انتشرت بعد). وكم كان يحلو لي أن أنفج عليهم فالحق بهن وأراقب عملية إشعال الحطب. مازالت رائحة الحطب تذكي أنفي وتنقلني إلى تلك الأمسيات الجميلة حيث نتظاهر بالنوم وإطفاء الأنوار أمام والدتي، وما أن نتأكد من ولوجها غرفة الوالد حتى نقفز من فراشنا ونلتف حول الموقد ونرجو المربية أن تشوي لنا الكستناء ونحكي لنا بعض الحكايات بلغتها العربية المكسرة، إلى أن يداهمها النعاس فتصرخ بصوت خافت: «هيا إلى الفراش. الآن تأني أم هالد (خالد) وتشكونا إلى أبو هالد».

أمي كانت تساهر زوجها وقد لا يتحدثان كثيراً نظراً لانشغاله بقراءة الصحف اليومية من الأهرام إلى أخبار اليوم - الحياة وغيرها. ثم يقلّب موجة المدياع بين

محطات الإذاعات العربية. كانت أمي تعرف أن مجرد وجودها إلى جانبه يشعره بدفء العائلة وينسيه متاعب النهار.

في بيت حي العزيزة الذي انتقلنا إليه أصبح مسموحاً لي بتناول وجبة الغداء مع أفراد الأسرة والوالدي بصورة خاصة. إلا أن الزمن يتغير ويتبدل. فوالدي أصبح كثير السفر والتنقل ما بين حلب ودمشق وحمص وعمان وبيروت وبغداد وخلال عامين كان كثير الغياب عنا بسبب توليه وزارة المالية في دمشق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت مواعيد وجودنا في البيت تتضارب مع برامج بسبب الدوام المدرسي الكامل في فترتين ماقبل الظهر وبعده، وجرس المدرسة يقرع حوالي الواحدة والنصف. لذلك بقيت على شوقي لوالدي وهو كذلك، إذ لم نكن نلتقي كثيراً، فإذا ماجادت الدنيا واجتمعنا أيام الأحد أو الجمعة فقد كنت أفرح كثيراً وأتناول طعامي صامته وأنا أتأمل وجهه وطريقة تناوله الطعام وانقطاعه عنه من وقت لآخر بسبب هواتف العمل الضرورية.

وشاءت الظروف أن يتضاعف شوقي لوالدي من جهة وفضولي لاكتشاف شخصيته من جهة أخرى. فلقد كان يمثل أشياء كثيرة لي فهو ليس الأب فقط، وإنما الرجل الذي نسمع عنه بالحكايات، ووجود أخي الذي يكبرني بسنين أربع لم يشبع فضولي لأنه شاب صغير أما أبي فقد كان رجلاً بكل معنى الكلمة، ثم هو مثال حي للنجاح وتحمل المسؤولية ولقد أردت تعلم كل ذلك ومنه شخصياً، ومن سوء حظي أن العائلة بأكملها انتقلت إلى دمشق لتكون إلى جانب والدي أثناء وجوده هناك وبقيت أنا عند أختي المتزوجة حديثاً بسبب المدرسة لأن والدي لم يشأ أن أتعرض لتغيرات جديدة في حياتي.

أبي والموكب

وفي ذات يوم جاء رئيس البلاد وأعضاء حكومته ليقوموا بجولة في المنطقة الشمالية، وصدر الأمر لنا في المدرسة بتجهيز أنفسنا لليوم التالي وارتداء الثوب المخصص لأيام الاحتفالات والتهيؤ لتكون في استقبال الموكب الرئاسي. وجاء باص المدرسة فنقلنا إلى الشارع القديم لسكة الترام وأنزلنا عند جامع الصديق في الجميلية وصفونا واحدة إلى جانب الأخرى وفي أيدينا أعلام سورية من الورق الملون نلوح بها عند مرور رئيس البلاد. كنا جميعاً متشابهات. فتيات صغيرات متوسطات القامة على رؤوسهن قبعات مدرسية أنيقة، وفي أيديهن كفوف بيضاء نظيفة، ويتماشى الحذاء الأسود اللامع والجراب الأبيض مع وقار وحشمة ثوب (الكوستوم) الكحلي وقبته البيضاء التي تكاد تخفقنا. وكانت على وجوهنا فرحة لاتعادلها فرحة فهذه مناسبة للهروب من تصريف الأفعال الفرنسية الصعبة جداً ولمشاهدة رئيس البلاد ومعاونيه عن كثب.

ومن بعيد أطل رتل السيارات يتقدمهم الرئيس وصفق الجميع ولوحنا نحن بالأعلام الصغيرة بصمت ودون أن نفتح أفواهنا بكلمة واحدة ولمحت سيارة كحلية قادمة فيها شكل إنسان أحبه ويهواه قلبي رغم فزعي منه أحياناً. إنه أبي في المقعد الخلفي وإلى اليمين مستنداً إلى النافذة دون أن يظهر عليه أي تعبير. لاشك أنه كان يفكر بمصنعه وعماله وحسابات محله في خان الحرير وأعمال البناء في محلجه في عين التل وجمعياته التي تبدأ ولا تنتهي أبداً. مشغول بالتفكير بشركة السكر في حمص، في أعماله في الأردن، بالمطحنة القادمة في بيروت. إنه مشغول بكل شيء ماعدانا نحن وأنا بصورة خاصة.

وفجأة أصبح الطربوش الأحمر الجميل على قاب قوسين مني وتدلّت طرته على اليمين لتزيد من وقار وجمال وجه والدي، ودق قلبي بسرعة وشعرت بتيار

كهربائي قوي يشدني إليه ، إلى هيكل سيارته ، إلى عجلاتها ، وودت بأعمامي لو أن السائق لايسرع بل يطيل الوقوف . هتفت به في سري : أرجوك ! ولم أشأ مراقبة بداية الموكب للإطمئنان لثلا يغيب طيف والدي عين عيني . تسارع دقات قلبي وأمنية أن يبطيء الموكب لتتشابك نظراتنا أنا وهو فيراني بأناقتي المدرسية ، وبرغبة طفولية بريئة تصورت بداية الموكب واقفة لسبب ما ، لأي سبب ولم أشأ الاختيار والتعيين مخافة إضاعة الوقت . . . أي مانع كي تتسمر عجلات سيارة أبي - وكم هي عزيزة إذ تحمل أغلى إنسان على قلبي ؟ وتجمدت في مكاني لأنه لم يلحظني . تُرى لِمَ لأشدّ انتباهه وهل أنا رقم فقط ضمن أولاده ! وتسمر العلم في يدي وعيناي تلاحقان طربوشه الحبيب ، حتى غدا نقطة حمراء غارقة في البعد . وهناك فقط رأيته يغير قعدته ويقترب من النافذة أكثر باحثاً بين الوجوه الفتية الصغيرة عن ابنته التي طال غيابه عنها . كم تمنيت حينذاك لو أن مكاني كان هناك حيث تنظر مقلته . يا الله لِمَ زرعوني هنا ؟ أنا الوحيدة بين رفيقاتي التي يستقل أبوها إحدى هذه العربات ! فلماذا وكيف ومن أعطاهم الحق بتخصيص هذا المكان لي ؟ ألا يكفي ماألاقي من بعد ووحشة وأنا بعيدة عنه ! وأنا ليس غيري أهلل من قلبي لأنه واجب قومي أولاً وشعور عاطفي صادق ثانياً . وقطع علي تفكيري وإبحاري في عوالم بعيدة صوت المدرسة وهي تأمرنا بالانضباط في صف مستقيم لنستقل باص المدرسة عائداً إلى قواعدا وقواعد اللغة الفرنسية الظالمة .

لقد كان هذا اليوم مغامرة شخصية عزيزة على قلبي فرغم الحشود الكبيرة المنتظمة ومشاغله التي تثقل كاهله فلقد تذكروني وحاول البحث عني بين الوجوه وتمنى لو أنه رأي . إذن لم أكن مجرد رقم بين أولاده . بل أنا من يشاق إليها ! شكرأ لك ياأبي ، فقد أعطيتني شعوراً كبيراً بوجودي ، وبفردتي بك وحدك ! .

أبي حين يسافر

في الدار، أمام الباب الخارجي، كنا كلما هممنا بالصعود إلى الطابق الأعلى للنوم، نجد كوماً من علب الحلوى القادمة من محلات (المست) الشهيرة. وكانت تلك العلب من الخشب الرقيق البياضوي الشكل، مليئة بالحلوى العربية التي تفوح منها رائحة السمن الحديدي. هذه الصورة كانت تعني لنا الكثير، وأول ماتعنيه أن الوالد مسافر من فوره إلى عاصمة عربية إذ هو يأخذ معه دائماً هدايا الحلوى الحلبية للأصدقاء وحتى للمفاجآت.

ما يبقى من النظام في غيابه

ثم كان سفره يعني أنه باستطاعتنا أخذ حريتنا في أثناء غيابه أكثر من المعتاد ولو بقليل. وكانت تلك الحرية التي تناح لنا من حين لآخر تتجسد بذهابنا إلى الفراش متأخرين قليلاً، ويترك صوت المذياع عالياً طيلة وجودنا في المنزل، وبالاستماع إلى اسطوانات أخواتي الكيبرات من التانغو إلى أغنية نهر السين سروراً بالمطرب الشهير تينو روسي. وقد بدأت بتذوق أغاني عبد الوهاب القديمة متأخرة بعض الشيء، بعد أن أحضر والدي مجموعة كاملة منها أثناء إحدى سفراته إلى مصر. ومن أجمل هذه الأغاني فيما أذكر (ياوردة الحب الصافي)!

أما ما بقي من تلك الحرية التي كنا نظير من الفرح لحصولنا عليها من وقت لآخر؛ فإنه كان باستطاعتنا الذهاب إلى السينما أكثر من مرة رغم أن أفلام العروض الصباحية وخاصة يوم الأحد كانت للنساء فقط. وربما أكل القليل من البزر بحرية أكبر ودون القلق من النتائج والتوبيخات. حتى أنه كان من حقنا قراءة جرائد مصر ولبنان بسلام وأمان دون أن تؤنبنا أمي قائلة: إياكم وتمزيقها أو توسيخها لأن أباكم سيعود من نادي حلب لقراءتها مساءً. وأهم من ذلك كله فقد كان لنا حق في

السيارة الأخرى المخصصة أصلاً للوالد، وهل للسائق أن يخالف رغباتنا؟ ما كان له أن يفعل لأنه يحبنا جميعاً ويعرف كم هي القوانين صارمة في البيت العتيق .

وقد حدثت أصدقاء لي ذات يوم قائلةً أن تلك العواصم العربية التي كان يؤمها الوالد مرة في الشهر على الأقل ما شعرت قط أنها تأخذه مني بل كان إحساسي أن ميدان العمل عند أبي ليس فقط في حلب . ومن هنا لازمتني روح الانتماء إلى هذه الربوع الحبيبة العربية الأخرى طيلة حياتي . وفي كل مرة كانت إحدى العواصم أو المدن العربية تنن لمصيبة حلّت بها كنت أشعر بجرح عميق في داخلي لأنها مدينتي و(مربط خيل) والدي وجددي، وأهلها أهلي . وسأحبس الكلمات في فمي لأنه حديث ذو شجون يدمي القلب ولا يداويه .

العاقل المتسامح

في أيام الجمعة النادرة التي كان الوالد فيها يبتنا كنا نذهب معه بالسيارة في جولة حول البلد أو الـ Tour de ville كما كان يحلو لنا أن نسميها. طبعي أننا لم نكن لنذهب جميعاً بالسيارة، وقد كان يتخلف البعض بسبب دروس خصوصية أو ارتباط بالمدرسة إلى ما هنالك. أذكر أنني كنت معهم في معظم الأحيان. وصادف ذات يوم أن مررنا بشارع فيصل وقد كان شارعاً بعيداً ومتزواً بعض الشيء وما أن هممنا بدخوله حتى صحت بأعلى صوت ودون أن أنتبه لذلك قائلة: «ياي هذا شارع الغرام»! واستدار أبي وقد حرك زاوية فمه إلى اليمين أو اليسار ماعدت أدري، إنما كانت هذه حركة لا إرادية تعني أنه متحفز للغضب والثورة أو النقد أو لضحكة ساخرة. استدار وقال ماذا قلت يا (مقروفة الرقبة)؟ أجبت ولساني لا يقوى على النطق وأنا أتلعثم: شارع الغرام. واستعاد جلسته العادية وهز رأسه وتحركت شراية طربوشه الأحمر وفهمت أنه مستاء لهذه التربية ولهذا التحرر الذي لا مبرر له. وإحدى أخواتي قرصتني من يدي وقالت لي بصوت يشبه الهمس جزاؤك في البيت.

وطبعي أنني تعلمت هذه العبارة من أخواتي الكبيرات لأنهن يسمعن ما يقال في المدينة أكثر مني بكثير ولقد رددت ما قيل بكل أمانة وإخلاص. بالطبع خفت كثيراً لما سيحصل لي في البيت وكان أخي الأكبر رغم مشاجراتنا الدائمة مع بعضنا بعضاً يحبني ويحن عليّ من وقت لآخر. ولقد احتميت به ومرت الليلة على خير وسلام.

ومرت أسابيع كان الوالد فيها غائبا عنا . ثم صاح بأمي ذات يوم وقال يأم خالد
هيتوا أنفسكم سنذهب في نزهة بالسيارة وبعدها نزور محلجة القطن في عين التل .
وفرحت فرحاً مابعد فرح ووقفت على قدمي في المقعد الخلفي وأنا أتكىء على
المقعد الأمامي مابين الوالد والسائق ، وكنت أغني بداخلي أغنيات مختلفة وبعد
مرورنا بشوارع عديدة كان فيها الوالد يلاحظ بعض التبدلات ويسجل في رأسه
ملاحظات لا بد منها ، حتى دلفت بنا السيارة في أول شارع فيصل وقد توسطته
أشجار الصنوبر الخضراء الجميلة . وفجأة استدار الوالد نحوي وقال لي : أميه
(شو اسمه هالشارع)؟ وبسرعة مذهلة وكصاروخ عابر للقارات انطلقت الكلمات
من فمي وقلت (شارع الغرام بابا) ثم تذكرت التائب وضغطت بأسناني على شفتي
السفلى خائفة واجمة . لكنه تبسم لأقول نصف ابتسامة بل ربعها أو أقل بقليل
واستقام بجلسته مرة أخرى يتابع إصدار أوامره إلى السائق بالتوجه إلى هنا وهناك .
وكم كانت فرحتي عظيمة أنه مامن أحد قرصني ذلك اليوم ولا هددوني بما
ستؤول إليه حالتي في المساء .

وقد أصبحت عادة أبي المحيبة بأن يبادر إلى سؤالي عين السؤال كلما مررنا
بشارع فيصل . والمشكلة تنحصر في كلمة (غرام) فمن يتجرأ على التلفظ بها
وخاصة أنني بنت صغيرة؟ لكنني فعلتها وقد احتار أبي فيّ ، فهل يعاقبني أم يسمعي
أتلفظ بها مرة ثانية وثالثة ويضحك؟ وعلى ما يظهر أن جانبه الإنساني وعقله تغلبا
على كل دواعي التشدد في التربية وقرر أن يتمتع بطفولتي وكان ماكان .

أبتاه هل تسمح لي بأن أهمس في أذنك كلمة صغيرة؟ أني مازلت مغرمة بك .
وبعد أشهر قليلة يمضي على رحيلك ثلاثة وثلاثون حولاً بالتمام والكمال ، وأنا
مازلت على ماأنا عليه . أذكرك وأتمتع بذكراك ولا أبكيك أبداً لأنك بيننا دائماً
وأبداً .

رسالة من عبد الناصر لأمية الزعيم !

وأيام الاعتداء الثلاثي على مصر الحبيبة كنا نشحن كل يوم بألف طاقة وطنية، وأصوات مذياعي «صوت العرب» تهيج مشاعرنا وتثير فينا الحماسة، وأنا لم أكن لأختلف عن غيري من الذكور والإناث، ورغم قساوة التقاليد في العائلة وأحكامها المغالية بالتعصب على البنات في بعض الأحيان إلا أنني قررت أن أدلي بدلوي وأعبر عن اعتزازي وفخري بما يجري هناك في أرض الكنانة، ولم يكن عمري جاوز الثلاث عشرة.

في يوم صيفي حار حضر والدي في موعده المحدد لتناول طعام الغداء والاستراحة قليلاً، ونادى على أمي منذ أن وطئت قدماه أرض الدار. وهرعت أمي لملاقاته فبادرها بالسؤال عني فاضطربت المسكينة وارتجفت وهي لا تعلم ما المصيبة. ونادت من فورها عليّ، وركضت أنا نحوها مستجيبة، وإذ بأبي يمد يده إلى جيبه ويسحب مغلفاً لونه أزرق سماوي غريب الشكل يناولني إياه قائلاً: هذه رسالة لك من مصر. ولم أصدق عيني ولا أذني. تناولت الرسالة مع ذلك وهربت بها نحو غرفتي وأنا أتساءل ما القضية؟!

في الغرفة أخرجت الرسالة من الظرف المفتوح وكان الوالد قرأها بالطبع، وإذ بها جواب من السيد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على رسالة كنت كتبتها مبدية إعجابي بشخصه ومعلنة مؤازرتي لمصر الحبيبة. والحقيقة أنني كنت قد نسيت الرسالة كما لم أتوقع من باب أولى أن أتلقي أي رد عليها. ومن أكون أنا حتى يرد عليّ أو يكتب إليّ رئيس جمهورية كبرى البلاد العربية؟

تناولنا طعام الغداء بهدوء وصمت وأنا أتوقع توبيخاً من أبي رحمه الله أو تعنيفاً وتهديداً بحرمانني من أمور كثيرة، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بل لم يأت أبي على ذكر الرسالة من حيث هي . وفرحت فرحتين . أولاهما أن الوالد لم يغضب وثانيهما أن كل الظنون التي لازمت العائلة بالنتائج السيئة لفعلي هذه خابت وبكل بساطة أنا كنت على حق وكانوا هم المخطئين .

مرت أيام وربما أسابيع وإذ بالوالد يعود من خان الحرير كعادته ويناديني منذ قدومه الدار ويقول لي بلغة فيها نقد طريف وتلميح ناعم إلى ما أقوم به، ولكن دون أن يبدي أي علامة من علائم الغضب أو الثورة، وأعطاني رداً جديداً وقال : « شو هيتك معجزتيهم بمكاتيك » .

أخذت الرسالة وطرت نحو غرفتي كالمرّة السابقة وكان الجواب من المشير عبد الحكيم عامر هذه المرة، ومع الرسالة صورة له أثناء عرض عسكري أقيم في القاهرة . وكنت قد طلبتها شخصياً، وواضح أن الصورة سحبت عن أخرى أصلية بناءً على الرغبة الملكية السامية الأموية (أي نسبة لي أنا أمية ! !)

لقد مضى على الحادثة مايقرب من أربعين عاماً وأنا لاأصدق أن والدي لم يؤنبني على فعلي هذه بل التزم الصمت . عوامل عديدة كانت ضدي آنذاك . فأنا بنت صغيرة ومنذ متى تراسل البنات الرجال والرؤساء خاصة؟ والأنكى من ذلك أن عبد الناصر كان يمثل التوجه الثوري أولاً والاشتراكي ثانياً، وأنا بكل بساطة أعلن على الملأ أنني معجبة بمبادئه وشعاراته ولا أخجل منها أبداً .

ألف رحمة عليك ياأبا خالد لقد كان ذلك درسي الأول في ضرورة التعبير عن الأحاسيس الشخصية دون خوف ولا وجل ومهما كانت النتائج المتأتية عنها . وحرية التعبير أمر مقدس لايجوز إخفاؤه تحت أي ضغط كان . ربما قال الوالد يومها في ذاته : هل وصل المدّ الثوري إلى بيتي؟ لكنه لم ينطق ببنت شفة . هذا الموقف

الحضاري الرائع أذكره بمحبة وإجلال وأسجل للوالد الكريم أنه رغم ظواهر التعصب التي كان يديها من وقت لآخر على البنات خاصة، أقول أنه (أبو الحرية!) هذا ولن أنسى أبداً مواقف الإنسانية إزاء زواج بعض شباب العائلة من أجنبيات أو سيدات من دين مختلف. فقد تصادف أن تزوج عدد لا بأس به من شبان العائلات بمواطنات أجنبيات ورغم إصرار أبي وتمسكه بضرورة انتقاء أم عربية لأحفادنا القادمين إلا أنه كان يحترم الحرية الشخصية وكثيراً ما رحب بهؤلاء الزوجات وفرض احترامهن على العائلة بأكملها.

كذلك الحال مع ابن عم لي أحبه وأعزه كثيراً هو الدكتور عصام الزعيم الذي تزوج برفيقة صباه. يومها قامت قيامة العائلة وثار الجميع عليه لاختلاف الدين وحصلت زوبعة كبيرة لم تهدأ إلى أن سافر الوالد وتعرف على الكنة وأثنى على تضامنها وإخلاصها لعصام ابن العائلة التي كثيراً ما علقت عليه الآمال بعد أن لمست فيه بذور عبقرية مبكرة اكتشفها الجميع عنده وقد حُورب في البداية لكنه ظل الشاب الذكي المندفِع الذي قلَّ أن يأتي الزمان بمثله.

ولقد دعا الوالد عصام لزيارة حلب متأبطاً ذراع زوجته وهما آتيان من فرنسا وما زلت أذكر احتفالات العائلة بأجمعها بهما يومذاك.

والدكتور عصام عمل في منظمة الأونيدو العالمية ثم هو الآن مستشار في اليمن وهو خبير بالسياسة والاقتصاد ومرجع كبير فيهما. فكم كان تأثير والدي فعالاً وذكياً وبارعاً في كسر شوكة المعارضة العائلية في هذا الأمر الشخصي؟! رحمه الله ما أوسع.

وبالمناسبة فانا حين أذكر أولاد عمي بمحبة وإعزاز فذلك مرده إلى الروح التي تربيها عليها. فلم أرَ طيلة حياتي إنساناً باراً بوالديه وإخوته كما كان أبي.

مواقف انسانية وعقلانية

تربية الشعور الوطني

في أوائل الخمسينات تقلد والدي منصب وزير المال واضطرت العائلة أن ترافق الوالد لفترة إلى دمشق بينما بقيت أنا في حلب في بيت أختي المتزوجة لتمسك الوالد بعد تغيير مدرستي، وكنت أسافر لقضاء أيام العطل إلى جانب أبي وأمي وأخواتي هناك.

ذات يوم ونحن نسير أنا وأخي البكر خالد في أحد شوارع دمشق، وربما كان ذلك في حي المهاجرين، كانت المدينة مزدانة بالأعلام احتفالاً بذكرى عيد الجلاء القومي. أبصر أخي أحد الأعلام الذي مال بسبب الهواء القوي وكاد أن يلمس الأرض. فتركتني لحظة وأخذ يحاول جاهداً رفع العلم وإعادته إلى وضعه الطبيعي نحو الأعلى ليرفرف خففاً. يومها كان عمري حوالي العشر سنوات إلا أن تلك الصورة مازالت مطبوعة في ذاكرتي وأخي يبذل أقصى جهده وما في يده شيء يساعده على ذلك والأرض رطبة من بعض أمطار نيسان وأخته الصغيرة تراقب صامتة فيما يبدو لكنها تتعلم درساً آخر في قدسية احترام العلم الذي هو رمز الوطن.

وحين بلغ ابني البكر ناظم في عيد من أعياد الجلاء بعد نحو ثلاثين سنة من تلك الحادثة كانت شاشات تلفزيونات العالم تنقل حفل توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وكنت أنا جالسة وحدي في الغرفة أراقب بصمت قاتل هذه الحادثة التاريخية المؤلمة.

كان ابني البكر منزوياً في غرفته والأخيران هاشم وباسم يلعبان في الحديقة والأب خارج البيت يراقب الاحتفال على شاشة التلفزيون مع بعض كبار المسؤولين، بينما أنا أكنم ألمي وأسكت الدمعة وجمرها في المأقي.

فُتح الباب عليّ فجأة، واقترب مني ابني ناظم صارخاً معاتباً: أماء كيف تستطيعين أن تشاهدي هذه المناظر المؤلمة بعينيك؟ قلت له: وما الفارق بيني وبينك، وأنا متأكدة أنك تستمع إليها بواسطة جهاز الراديو؟ ما الفارق؟ أنت تستمع بأذنك وأنا أرى بعيني. قال: الصورة تبقى في ذاكرتك يا أمي فلا تسمح لي لها بذلك. أما الصوت فيمكن أن ينسى على عكس الصورة.

إلا أن الصورة والصوت بقيا معي وخاصة حين عزفت الموسيقى في حديقة البيت الأبيض لتعلو على أصوات العرب الواقفين عند السور مستنكرين لما يجري هناك وما زالت الأصدااء في أذنيّ والصورة في عينيّ تؤلمني وتقض على مضجع ولدي وأمثاله لأن العار التصق بنا شتناً أم أبيتنا.

ثم علمت بعد ذلك أن أب أولادي تفرقت في عينيهِ دمعة ساخنة حارقة مارآها أحد نظراً لانشغال الجميع بالتطلع إلى جهاز التلفاز حين كان يراقب المنظر في دولة الامارات، ودمعة الرجل الصامته أعمق من كل كلمة.

في سن الرابعة عشرة أو أقل، كان الشعور الوطني على أشده بسبب أحداث تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر العربية، وكان الشباب العربي في حالة غليان، فمصر من جهة وأخبار المجاهدين الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي من جهة أخرى، خلقت نوعاً من الثورة داخل النفوس الشابة الغضة ضاربة عرض الحائط بالتقاليد القديمة البالية.

وفي هذه المرحلة الانتقالية كانت الفتاة تشدها التقاليد من جهة والتفتح والحرية من جهة أخرى ولم يكن بالأمر السهل أن تتطلع ابنة العائلة الميسورة إلى افاق جديدة

غير تلك المرسومة والمفروضة عليها، وترسل رسالة إلى الرئيس عبد الناصر كما سبق الذكر فالتقليد يقضي بأن تبدأ بتعلم الحياكة والتطريز وتعلم الطبخ وربما إتقان إحدى اللغات الأجنبية والاستعداد الذهني للدخول إلى عالم الزوجية . أما أن توجه نظرها إلى آفاق سياسية وفكرية فذلك أمر مرفوض أو على الأقل غير مرغوب فيه . وأنا لم أعتد العيش على هامش الحياة، فكان إن مسّت شفاف قلبي التعابير الجديدة عن القومية العربية وأخذت تتعمق وتنمو لتخلق مني إنسانة ملأى بإحساسها القومي . فرغم أننا في كل يوم وعلى صفحات الكتب الفرنسية كنا نسبح في أنهار السين واللوار ، فأنا كنت أنغمس بأفكاري في مياه بردى والنيل ودجلة والفرات .

الاستقلال في الرأي والاعتماد على النفس

ذات يوم دُعيت العائلة لحضور حفل استقبال بمناسبة ثورة أكتوبر في القنصلية الروسية فذهب أبي وبقيت أنا مع الصغار صامتة وفي أعماقي استياء إذ كيف يطلب مني حضور واستماع وترجمة أمور لم تكن تهمني كثيراً ثم أترك في زاوية المنزل حين يكون هناك احتفال؟ ولم يطل حزني طويلاً فسرعان ما جاء أخي قائلاً: تفضلني ارتدي ثيابك بسرعة وتعالني معي. فقلت إلى أين؟ فقال إلى القنصلية الروسية بالطبع. فظاهرت بعدم الرغبة وقلت له: لا وقت لدي وعليّ كتابة بعض الوظائف ولكنني كنت في أعماقي أكاد أطيّر فرحاً بعد أن حزنت بعض الشيء وتساءلت لماذا يذهب أخي ولا أذهب أنا؟ فقط لأنني بنت وذلك معيب ظهوري في المجتمع؟ !

وذهبت مع أخي لأرى الحشد الكبير من كبار الموظفين ووجهاء وأعيان المدينة. وبسرعة أقبل نحوي القنصل وزوجته وسلّما بحرارة بالغلة لفتت انتباه الجميع وقدماً لي كأس الفودكا ! ودون أن ألتفت ناحية الوالد رفعت الكأس إلى فمي متظاهرة بالشرب مع أنني لم أذق قطرة واحدة منه، وكعادة أبي الراقية لم يلفت انتباهي أبداً أو يسألني عما إذا كنت قد شربت أم لا إنما تركني أنصرف لوحدي واثقاً مني.

أعتقد الآن أنه لو منعني ربما أدى ذلك إلى تمنّي تذوق الفودكا، ولو أنه سمح لي لكان ذلك إيذاناً منه بالسماح بتعاطي المشروبات الروحية.

تلك هي شعرة معاوية التي كان الوالد يؤمن بها إنما مطبقة حول موضوع اجتماعي تربوي آخر وتقع بين التحريم والسماح.

تقوية الشخصية وروح المبادرة

ذات يوم كنا في مدينة روما وكانت الدليلة السياحية تشرح لنا عن عدد القطع النقدية التي يمكن رميها ببركة تريفيس . فالفطعة الواحدة تعني العودة إلى روما والإثنتان الزواج في روما والثلاثة الطلاق في روما، وربما العكس لم أعد أذكر جيداً، إنما كلمة والدي مازالت ترن في أذني : أمية لاترمي بالقطع الثلاث ..

إذن فإن إعداد الفتاة بشكل قوي كريم يساعد على تقوية شخصيتها وقيام عائلة قوية وكريمة، وشتان بين ماكان يؤمن به والدي وبين مايرى في ذلك البعض الآخر من تحرر يدع المرأة تعيش فيه على (هواها) أو كيفها بالتعبير الأدق ! أجل فكثير ممن حصلوا على الشهادات العالية وبعد مخالطة للشعب الأوروبي يعتقدون أن تحرر المرأة يعني شيئاً واحداً هو عدم إمكان ضبطها أدبياً وكم من امرأة لا يظهر أي تحرر على حياتها تقوم بالخفاء بكل مايحلو لها من أمور تخالف الدين والأخلاق ولكنها تبقى محترمة لأنها تحافظ على المظاهر المطلوبة في مجتمعنا .

أعود إلى حادثة أخرى حين كنت في رحلة استجمام مع الوالد والوالدة والجدة وأخي في مدينة اكس لي بان الفرنسية وهي عبارة عن مقر للمعالجة من أمراض الروماتيزم بواسطة مياهها المعدنية الصحية . (وبالمناسبة ففي تلك المدينة ماتزال شجرة السنديان العتيقة حيث كان الشاعر الفرنسي الكبير لامارتين يتقيأ بها ويكتب قصيدته الرائعة (البحيرة) لمحبيته (إلفير) ELVIRE وهناك كذلك كان بيته الذي يأوي إليه للاستجمام والاستحمام . وأتساءل : أين تُرى هي المتاحف الخاصة لأدبائنا وكتابنا المشاهير؟)

قلت أن مقر معالجة الوالد كان في مكان غير تلك المدينة فنصحوه بالذهاب إلى مدينة فيشي الخاصة بمعالجة أمراض الكبد والجهاز الهضمي ، فكان أن نظمنا أمور الجدة والوالدة بعد الفحص والعافية وحصلتا على جدول يومي للذهاب إلى الحمامات المعدنية وإجراء المعالجة هناك . ثم ارتأى والدي أن يبقى أخي إلى جانبهما وأخذني معه إلى فيشي لأساعده هناك في تنظيم المعالجة كما فعلنا تماماً مع والدة والجدة والعودة بعد ذلك إليهما بعد الاطمئنان على الوالد . يومها كنت في الخامسة عشرة من عمري وحين سمعت جدتي بالأمر لم توافق بالطبع ولفتت انتباه الوالد إلى خطورة عودتي وحيدة من مدينة فرنسية إلى مدينة أخرى والمسافة لم تكن بسيطة ولكن والدي لم ير أي مانع من ذلك قائلاً: أمية (سبعة) وهي تجيد الفرنسية فلا تخافي عليها !

كانت كلمة أبي لاتناقش أبداً، ورضي الجميع على مضض بما قرره وبالفعل سافرت مع الوالد بواسطة القطار وربما كان رحمه الله يتفقد سير الرحلة بدقة وهو يفكر في حين أعود وحيدة إذ كان لابد من التوقف في مدينة ليون لتغيير القطار .

بقيت في مدينة فيشي حوالي ثلاثة أيام اصطحب الوالد إلى الطبيب ومركز الحمامات وكان الوالد يفخر بأن ابنته تجيد الفرنسية وتتصرف دون أي حرج أو اعتباط وحين عاد من أول جلسة للتدليك حكى لي عن طريقة التدليك العصرية جداً التي تحدثوا كثيراً عنها ويات بشوق للتعرف عليها، وإذ بها تشبه كيس التفريك الأسود الذي نعرفه في بلادنا وحماماتنا منذ زمن طويل .

وحين استقرت أمور الوالد وما عاد بحاجة لوجودي كان علي العودة لمرافقة جدتي وأمي .

وعدت وحيدة من مدينة فيشي إلى (اكس لي بان)، وقد رافقني الوالد إلى المحطة وبقي مدة طويلة يشرح لي كيفية تغيير القطار والانتباه بدقة إلى الموعد خوفاً

من أن أفقد مواعده فأضطر إلى انتظار قطار آخر في وقت متأخر جداً. كانت هذه الرحلة هي الأكثر أثراً في حياتي كما ذكرت، لأن الانطلاق دون مراقبة أحد، وتحمل المسؤولية في سن مبكرة يقوي من عود الإنسان وخاصة الفتاة. وحين التقينا الوالد بعد اسبوعين ابتسم شبه ابتسامة وقال لي كعادته: لقد سألت الجميع عنك في فيشي واستفسروا عن موعد قدومك. ولم يزد بكلمة واحدة وهذا طبعه رحمه الله. فالكلمات التي يتفوه بها كانت (ماقلّ ودلّ) والابتسامة لاتعني القهقهة بل هي شبه نادرة.

صورة الأب الجديدة

هذه صورة الأب قبل أربعين عاماً. كم تغيرت الحال وصارت إلى نوع من الصداقة بين الأب وابنته وزالت كل الحواجز والحجب، تماماً كما تغير الحال بين الزوجين، فأين هي الزوجة المطابقة لصورة أمي التي تهاب وتجلّ وتقدس بعد الله مخلوقاً اسمه الزوج؟ الآن وفي الزواج الصحيح السليم أصبحت تطبق قواعد المودة والألفة والرحمة. ومع ذلك أعتقد أن الرحمة التي تحدث عنها القرآن الكريم كانت وما تزال مفقودة بعض الشيء في بعض العائلات مع أن فيها المعاني الكبيرة العميقة: فالرحمة هنا لاتعني الشفقة بل الإنسانية والشيخوخة القائمة على تعاطف كل من الزوجين تجاه الآخر. ولا أريد أن أنتقص من قيمة الزوج إذا ماقلت أنه لم يعد ملك الأسرة وإلهها.

فالمرأة حالياً وبعد تعلمها وانخراطها بالعمل غدت أكثر حرية في تقرير مصيرها، ولم يعد الزواج كما كان في الماضي بمثابة غاية وعمل ومصير ثم مقبرة. لاتستغربوا فكثيراً ماردد الأقدمون عبارة: «بيتك قبرك»!

هذه المرأة تفتحت، وبدلاً من أن ترتضي في بداية صباها بالحلي والثياب وفي منتصف عمرها ونهايته بالثرثرة والبحث عن المتاعب والمشاكل في حياة زوجها

وحياة أبنائها وبناتها الخاصة، أصبحت تطلب مشاركة زوجها مشاركة فعلية في كل قرارات الحياة ولم تعد تلك (الحرمة) التي لا حول لها ولا قوة.

وأنا شخصياً قد لألوم بعض الرجال الذين يسيئون معاملة زوجاتهم ويشعرونهن أنهن خلقن للمحافظة على النسل ولزيادته فقط، لأن نظرة سريعة إلى طفولتهم ترينا كم عانوا هم أنفسهم وهم يرون أمهاتهم ذليلات مهانات صامتات باكيات دائماً، والرجل يرى أمه مثلاً أعلى في حياته. فإذا كان حصيفاً ومتحضراً قلب الآية وانتقم لظلم أمه بإسعاد شريكة حياته وإعطائها حقها بالفرح والعيش دون ضغط ولا قهر، وإن كان على العكس ما يزال يرزح تحت أفكار الماضي المؤلمة أعاد السلوك نفسه مع زوجته. وكم من رجل خجل من انتقاد الأهل له إذا كان يعامل زوجته باحترام ورقي. فلا يكاد الرجال يروونه يفعل هذا حتى ينهالوا عليه نقداً وتجريماً مع أن واحدهم قد يرتجف خوفاً أمام زوجته. هذا هو واقعنا، فالرجولة عند بعض الناس (مرجلة) على المرأة فقط. وكم من مرة التقيت أناساً يتعاملون مع الآخرين وكأن هؤلاء الآخرين لوح بلّور يخافون عليه أن ينكسر، أي ببالغ الرقة والحذر، بينما يتعاملون الزوجة في البيت وكأنها أسيرة حرب من واجبها تحمل كل شيء! وإذا كان واحدهم أفضل بقليل عاملها معاملة حسنة. ولكن مقابل حرمانها أمور كثيرة حتى عدم الخروج من البيت والامتناع عن طرح أي سؤال يتعلق بغياب الزوج عن البيت خارج أوقات عمله.

أنا لأريد أن أتوسع في هذه النقطة فربما كان ذلك عمل علماء الاجتماع. وأكرر أنني أفهم كل إنسان مهما كان شأنه لأن كل مواقفه وأعماله ربما كانت ردود فعل ناشئة عن طفولة لسنا ندري كيف كانت وهل كانت سعيدة أم مؤلمة، ولا دخل للمال هنا. صحيح أنه يفترض وجود الحد الأدنى من لقمة العيش ولكن تبقى نفسية الوالدين أهم بكثير. وكم من أب غني كان جاهلاً جاحداً بحق أولاده، وكم من

آخر فقير هيا لهم كل أسباب الراحة والطمأنينة والاستقرار. لقد تقرر مصير الأجيال الماضية، فقد صار مرسوماً محدداً وبات من المعجزة حقاً تغيير أفكارهم ونظرتهم إلى الحياة، ولكنني ربما أتكلم هنا عن الجيل المعاصر والآتي والذي نريده أن يكون أمل الأمة.

وفي أثناء هذه المرحلة الانتقالية الصعبة تفككت كثير من الروابط الأسرية وانتهت إلى الطلاق بسبب قفزة المرأة السريعة وبطء تقدم الرجل في ميدان العلم والعمل.

وأذكر أنه في عائلتنا وحدها يوجد مهندسة وصيدلانية وثلاث مجازات في الحقوق ومهندستان زراعتان، وثلاث مجازات في الأدب الانكليزي ومجازة في الأدب الفرنسي وواحدة تحضر أطروحة دكتوراه في اللغات السامية القديمة. أي أن كل بنت في العائلة تقريباً تابعت دراستها الجامعية وعملت بينما تابع القليل من الذكور دراستهم الجامعية.

من قصص الرحلات أيضاً وحددي في ساحة سان ماركو

في عام ١٩٥٩ سافرت مع أهلي إلى أوروبا في أول رحلة لي خارج سوريا ولبنان. وفي السفر كل شيء محسوب عند الوالد بدءاً بالحقيبة وزيارة المتحف وقراءة الصحف والانتباه لأدق التفاصيل.

ولقد تعلمت منه أن أجهز الحقيبة ليلة السفر قبل النوم بل يجب إغلاقها بإحكام وكتابة الاسم والعنوان عليها، وكم كان يتضايق رحمه الله إذا ماتأخرنا دقيقة واحدة عن الموعد المحدد.

وفي يوم صيفي حار وبينما نحن نهم بدخول فندق Gabrielli في مدينة البندقية الساحرة، قدم موظف الاستقبال إلى الوالد رسالة من شركة CIT السياحية التي نظمت لنا رحلتنا جميعاً، ومحتواها أنه علينا مراجعة مكتبها في ساحة سان ماركو الشهيرة. ولقد كنا متعبين من المشي والوقوف طويلاً بانتظار دورنا أمام المتاحف وقصور الدوتشي فما كان منه إلا أن بادرني بالقول:

اذهبي يأمية واسألني عن مكان الشركة وحاولي أن تعرفي ماالقضية. ثم أردف قائلاً: انه في ساحة سان ماركو. تأكدي فقط من المكان بدقة.

وهذه كانت أول تجربة لي مع العالم الخارجي فلقد كنت دائماً مرفقة بالوالد أو أخواتي الكبيرات لكن في هذا الصيف كانت أخواتي سعاد وفاطمة وسلوى رحمهما الله كلهن في بيوتهن وقد انتقلن من تحت سقف أبي خالد إلى عالم الزوجية والأسرة والأولاد، وبقيت أنا وحيدة.

ولا أدري مالذي دفع الوالد إلى هذا التصرف الجريء في هذا الوقت .
أترك بحسك الداخلي يأبى وبحاسة سادسة كنت تجهلها، دفعتني إلى اكتساب
الحياة مبكرة لأنه قدرى وبدون أن تدري؟ !رحمك الله يا أحب إنسان إلى قلبي .
وابتعدت عن أعين الوالدين وذبت بين جماهير سان ماركو وتحت لهيب شمس
البندقية غابت البنت الصغيرة وصغر لون تنورتها الحمراء وما بقي منه شيء سوى
نقطة حمراء هاربة، لكنني كنت أقوى آنذاك وأتشبث بقوة بهذه الحياة وأدق قدمي
بصلابة أكبر على هذه الأرض .

وبدأت مهمتي بفرح مشوب ببعض الخوف فما تراه يريد المسؤول هناك؟
وهل ستسعفني معرفتي المحدودة آنذاك باللغة الفرنسية في حل إشكالات السفر؟ !
ونسيت واجهات المحال التجارية الذائعة الصيت آنذاك وكم كنت أحلم بأن أعود
وأتفرج على صناع الزجاج المنفوخ، وهناك يصنعون منه أجمل العقود الملونة،
وإنه لمن المؤسف أن يأخذ الطليان صناعة عنا فيتقنوها أكثر منا ويتفنتوا بها وكأنهم
هم الذين أوجدوها .

لكنني تذكرت أنني أمام مهمة عليّ النجاح فيها أولاً وإثبات مقدرتي على فهم
اللغة الفرنسية ثانياً، وإلا فهل كانت ستذهب قروش الوالد سدى !
وهكذا قويت على ضعف يلزم الفتيات والسيدات عامة وهو حب التفرج على
واجهات المحال التجارية الأنيقة وجريت وراء تنفيذ أوامر الوالد وقمت بالمهمة على
أكمل وجه وقابلت المسؤول الذي طلب بعض الإيضاحات عن مواعيد سفرنا، وكم
كان مندهشاً حين حدثته بالفرنسية وهو يظن أننا قادمون من تحت الخيام .

وخرجت من مكتب السياحة والسفر المذكور لأعود من جديد إلى لهيب
سماء البندقية وأخذت أتأمل الجموع وهي تطعم حمامات سان ماركو الشهيرة،
وأخذت بالتباطؤ قليلاً بالمشي ورحت أردد بعض الأغنيات الإيطالية الشهيرة

آنذاك والمنبعثة من المقاهي هناك، وفجأة لمحت من بعيد شكلاً محبباً إلى قلبي غريباً
عن هذه الجموع:

كان والذي رحمه الله وبرفقته والدتي يراقبني من أول ساحة سان ماركو عند
الكاتدرائية الشهيرة. لأزال أذكر هذه اللحظة بعد حوالي أربعين عاماً، وهي دون
أدنى شك لحظة (تاريخية) في عمري البسيط، فلقد شق لي طريقاً مشيته لوحدي
لكن تحت رقابته الأبوية الخنون، فأكسبني ثقة بنفسية عميقة وقوية، وتعلمت منها
الدرس المفيد وهو أن للحرية حدوداً... وهذا أمر هام جداً في شرقنا العربي أن
نحافظ على التوازن المطلوب.

تجربة أخرى في فرنسا

وفي رحلة عام ١٩٥٩ ذاتها، رافقت والدتي وجدتي لأبي السيدة فاطمة سلطان
رحمها الله - التي لحقت بنا وانضمت إلينا في مدينة زوريخ، في رحلة نادرة. وقد
كانت جدتي في السبعين من عمرها ومع ذلك طارت من بيروت إلى سويسرا
متفردة وهي لا تعرف أن تكتب اسمها بلغة الضاد ولكنها تقرأ القرآن.

أقول أنني رافقت والدتي وجدتي إلى مدينة اكس لي بان Aix les bains
الفرنسية الواقعة على ضفاف بحيرة بورجه Lac du Bourget وذلك بناءً على
نصيحة من طبيب الروماتيزم بالاستفادة من مياهها المعدنية. ولقد كانت هذه
المدينة مقصد مرضى الروماتيزم من جميع أنحاء العالم، وأذكر أنني شاهدت فيها
الممثلة المصرية مديحة يسري، وحين تعرفت عليها وحييتها بادرتني قائلة: وماذا
تفعلن أنت هنا يا صغيرة؟

وأذكر كذلك أن والدي حين تركنا في هذه البلدة الصغيرة وسافر إلى مدينة
فيشي وهي المشهورة أيضاً بمياهها المعدنية المفيدة لجهاز الهضم بالذات، طلب
مني قبل مغادرته محاسبة الفندق وتجهيز بطاقات القطار بعد ذلك للسفر جميعاً

إلى مدينة هايد برغ الألمانية الجميلة، وهي المدينة الوحيدة التي لم تصبها نار الحرب بسبب وجود الأمريكان فيها آنذاك، ولقد ترك لي شيك من أجل ذلك.

وقضينا أياماً حلوة في فندق سفينه Seigné وزرنا جبال السافوي Savoie. وفي الموعد المحدد تمشيت في شوارع اكس لي بان الضيقة الصغيرة وقصدت المصرف وتوجهت نحو الموظف المسؤول وأذكر جيداً أن الوقت كان بعد الظهر وطلبت منه بأدب صرف الحوالة. أخذها بين يديه وتأملها جيداً ثم طلب جواز السفر، ولكن ياخيبة ألمي: كان الجواز مع الوالد فقد سجلنا جميعاً في فندق اكس لي بان وأخذ الجواز معه وسافر باتجاه فيشي كما ذكرت سابقاً.

فقلت له وبكل بساطة: جواز السفر ليس معي الآن.

قال: وكيف دخلت إلى هنا إذن؟

فشرحت له الأمر وأفهمته أن فيشي بعيدة ولن أستطيع إحضار الجواز خاصة وأن والدي سيصل غداً.

فضحك وقال: إذن يحضر والدك ويعطي رقم الجواز. ولكن كيف لي أن أشرح لهذا الإنسان البعيد كل البعد عما يدور في عقلي، فقد كان علي إثبات جداتي مرة أخرى كي أنجح في الامتحان وأحظى برضا الوالد ويقتنع مرة ثانية وثالثة اني لست أقل من الصبيان. ولكن ذلك كان غير ممكن على الإطلاق، وتوجب علي أن أجد الحل وبأي شكل كان.

وحين عدت أحاول معه تسهيل مهمتي دون جدوى، تذكرت فجأة خبراً لأدري إلى أي مدى يعلق في عقل مراهقة مثلي، ومفاده أن وزير مالية فرنسا آنذاك واسمه بينيه Mr Piney - وقد توفي في العام الماضي وتحديث عنه وسائل الإعلام الفرنسية طويلاً - تذكرت أن السيد الوزير الفرنسي موجود في المدينة الصغيرة، وربما كان تذكري لمجرد ترابط المهنة فقد كان والدي وزيراً سابقاً للمالية،

وقد رحبت به الصحيفة المحلية وذكرت اسمه من ضمن الشخصيات الهامة التي تؤم هذه المدينة. ولملت عيناى ورفعتُ حاجبي كعادتي ونظرت إليه بشيطة الائمة من نفسها وقلت له :

هل تعلم أن السيد (بينه) وزير المالية موجود في اكس لي بان؟

فقال : وما علاقة ذلك بمشكلتك؟

قلت : سأذهب (وأشكك) له

قال : وما يهه من أمرك يا صغيرة؟

أجبت : أن أبي زميل له وهو وزير مالية سابق في وطني سوريا. سأحكي له حكايتي وسيتأكد من استقبال الفندق عن جواز السفر ورقمه.

صمت وحدث في طويلاً وقال : لقد غلبتني يا صغيرتي . تعالي وأعطيني الشيك مرة ثانية.

وبذلك حصلت على المال واشترت بطاقات القطار وحاسبت الفندق وعلمت يومها أن العقل وحسن التصرف هما أهم شيء في هذه الحياة، ورب معلومة لانظنها هامة تُسعف في الأوقات الحرجة.

لاشك أن إصراري على عدم خذلان الوالد بثقته بي وبحسن تصرفي كان دافعاً قوياً لنجاح مهمتي.

لكن يبقى الموظف المسؤول الذي سمح لنفسه بتجاوز بسيط لاعتقاده أنه أمام حالة نادرة، هذا الموظف أدين له بجزء غير قليل من نجاحي، لأنه أكد على ثقتي بنفسي وأعطاني دفعاً قوياً بعدم الخوف ومحاولة حل العضلات غير المتوقعة بسياسة وحكمة. ومن يومها أعتبر أن المحاولة وعدم اليأس أفضل سبيل للتصرف في الأزمات.

شكراً لوالدي ولوظف المصرف الفرنسي الذي تصرف بكل حضارة وإنسانية.

طرائف من حياة الأسرة والأقارب بنات العمة أم سيفو والحاجة رقوش

من أطرف مامرّ بطفولتي تلك الأمسية الشتائية التي كانت فيها لدينا، زائرة، ابنة العمة الملقبة (أم سيفو). ففي ليلة كانونية باردة من ليالي بيت العزيزية كانت العائلة مدعوة على العشاء عند أحد أقاربنا، وتصادف وجود أم سيفو عندنا، ومن عادة أبي أنها إذا حضرت تمسك بها وأقسم عليها أن تبقى عندنا أياماً تستأنس بنا وتؤنسنا، وكنا نفرح بأقاربنا البعيدين الذين لا يزوروننا إلا في بعض أيام السنة. وقد كان من أقسى ما ألمني حين توفي والدي وتهدم الكيان الجميل أننا ماعدنا نأنس في الليالي الفضيلة قليلة النصف من شعبان حين نجتمع معاً على الحب والحنان، إذ غادر المركب ربّانه إلى غير رجعة.

في الليلة التي بدأت الحديث عنها لم تشأ العمة أم سيفو أن تذهب مع أهلي إلى السهرة وأصرت البقاء في الغرفة التي وصفتها، كما بقيت أنا نظراً لصغر سني وكانوا يتسلون بي. وكالعادة هربت من غرفتي ونزلت أساهر العمة أم سيفو. بدأت بأن صعدت إلى السرير الذي ستنام عليه، وهو سرير فاخر قديم كنا نتسابق إليه ونحلم بالنوم عليه، وقد صار أمثاله من التحف النادرة التي تساوي ثروة طائلة.

كانت أم سيفو قرب المدفأة وأنا على سريرها أغالب النوم وأرفضه لأنني مولعة بمراقبة الزائرات ووجوههن الجديدة عليّ. ولم يكن وجه أم سيفو أبيض أملس بل كانت سمراء وفي وجهها أخاديد وطرق عجيبية غريبة، كما كانت عيناها جامدتين

لاتعرفان الضحك ولا الابتسام، ولم يكن يسبح في ملامحها الخنان الذي يغمر وجه والدتي. وكنت أهدق فيها وأفتح عينيّ بأصابعي كلما أوشك النوم أن يطبقهما، ولمحتني أم سيفو فسألتنني لماذا لم تنامي حتى الآن؟ ضحكت طويلاً كمن يستفز الطرف الآخر ليؤذنه لعلني أسمع منها عبارات غريبة مثل وجهها الجامد. وبعد قليل أذكر أنني قلت لها:

أهلي خرجوا كلهم وما من أحد هنا يسليك فما يضيرك ان سهرت معك أنا؟ نظرت العمة إليّ نظرة صارمة وقطبت حاجبيها فازداد عدد الأخاديد، وقالت: بل يجب أن تنامي باكراً كما أصرّ أبوك.

وأجبتها: ولكنهما خرجا ولم يعودا هنا. ألم يودعاك هما وباقي أفراد العائلة؟ ألم تسمعي صوت السيارة؟ لقد ذهبوا - يعني راحوا... را... حوا. وكنت أمتد بيديّ وعينيّ ورأسي الصغير لأستطيع التأثير أكثر على العجوز.

وبحركة بطيئة ابتعدت أم سيفو عن المدفأة واقتربت من الصغيرة وهي تحملق بالعينين الصغيرتين اللتين تحملمان بأكثر من أمانة المرافقة ثم قالت وبكل ثقة: وإن يكن؟

وانفجرت ضاحكة وأخذت أقفز على الفراش وكادت العجوز تسمع صوت دقات قلبي، وصارت تتحرك يمنة ويسرة وهي تراقب (نظّاتي) وهي في حالة من الغضب والدهشة ثم صاحت:

قولي يامقروفة الرقة ماذا يضحكك وإلا قصفت عمرك.
أجبتها: لا لا! أرجوك. لاتفعلي. ماذا قلت قبل قليل ياعمة؟
قالت العجوز: وهي ماتزال تفكر بما يجول في خاطري: قلت أن أهلك خرجوا وأجبك «وإن يكن؟»

وارتميت على السرير مرة أخرى وأنا أطيّر من الضحك وكاد رأسي أن يرتطم
بالجدار لشدة إثارتني والعمة العجوز واقفة أمامي مدهوشة لما يجري ومستاءة.
فكيف تجرؤ بنت صغيرة على الضحك هكذا. ثم قالت:
ستقولين عن سر ضحكك أم أقرف رقبتك حقاً؟

ورفعت السبايتين وأنا خائفة محاولة إيقاف هيستيريا الضحك التي اعترتني،
وقلت: بل أقول شرط ألا تقتربي من رقبتني. ورغم خوفي المفاجيء ومحاولتي
التماسك إلا أن ضحكة بريئة أخرى أفلتت مني بشكل غير إرادي وقلت لها:
ضحكت من قولك «وإن يكن؟»

قالت العمة وما بها هذه أيضاً؟
أجبتها أنت لا تقرئين ولا تكتبين وتكلمت مثل معلم العربية. فكيف تنطقين بها
ولا أضحك؟!

انبرت العمة قائلة: سادق رقبتك عن حق وحقيق إذ تظنين أنني جاهلة! ألم
تسمعينني أقرأ القرآن يا شيطانة؟

قلت لها: أنت تحفظين غيباً ياعمة ولا تعرفين كيف تُعرب كان وأخواتها!
واقتربت العمة أكثر وقالت الآن فهمت. إذن أنت تراقبيني أيتها الملعونة! هيا
إلى النوم وإياك أن تعودتي إلى الضحك مرة ثانية. عيب! البنات لا يضحكن هكذا.
وأضافت يالفلعلتك يا أبو خالد. كيف ترسلها إلى المدارس الأجنبية هذه الصغيرة
وماذا تنوي أن تفعل بها؟ هذا ما كان ينقصنا في العائلة. شيطانة صغيرة تدعي أنني
أحفظ القرآن ولا أفك رموزه. يالأيام القادمة!

تركتني وذهبت قرب الموقد وأخذت برتقالة كي تغير من طعم فمها إثر إنزعاجها
من جيل البنات الساخرات. ولكنها حين همت بتقشيرها وجدتها باردة جداً فما
كان منها إلا أن وضعتها في الماء الساخن فوق الموقد، وتابعت تأنيبها لوالدي

للتيجة السيئة التي تأتت عن إرسالنا إلى المدارس الأجنبية . بعد قليل أخرجت
البرتقالة من الماء الساخن وهمت بتقشيرها وإذ بصوت ضحكي ينطلق من تحت
اللحاف . رفعت العمة رأسها من كل أخاديد البرتقالة واتجهت بنظرها ناحية السرير
فلمحت إحدى عيني تراقبها وضحكات مكبوتة في فمي الصغير تأبى الانحباس
فتخرج في رنات متقطعة رغم وضع كفي على فمي لئلا تسمع العمة ضحكاتي .
عادت العجوز صوبي وقالت : والآن ماذا يضحكك وأنا لم أفتح فمي بكلمة
واحدة تقولين أم . . .

وبسرعة قالت الصغيرة : لا ! لا ! سأقول .

قلت : لم أرَ أمي طيلة حياتي تسخن البرتقال أبداً فكيف لأضحك ؟ أمي تسخن
الطعام والخبز وليس البرتقال .

قالت العجوز : ماشاء الله وكم يبلغ عمرك هذا حتى تتوصلي إلى هذه النتائج ؟
ثم تركتني وعادت إلى مكانها وهي تقول : ربما كان خروجي معهم رغم البرد
الشديد أفضل من الجلوس معك يا شيطانة .

قلت لها : كيف يا عمة وأنت لاتحملين برودة البرتقالة ، كيف تتحملين الثلج
والبرد القارس ؟

قالت العجوز : هذا صحيح . تعالي إلى جانبي فأنت تسليتنني رغم شقاوتك .
تعالي واجلسي بقربي يا عين العمة . اهدئي وقولي لي الآن ماقصة كان وأخواتها
ومن هم ؟ احكي لي سيرتهم يا صغيرتي وخليها سرأ بيننا .

في صباح اليوم التالي دخل الوالد غرفة ابنة العمة أم سيفو ليصبح عليها ويشرب
فنجاناً من مغلي الزهورات معها ، أما أنا فقد كنت أتها للذهاب إلى المدرسة
وبادرها والذي السؤال :

كيف أصبحت يا ابنة عمتي العزيزة! هه أرى أمية في غرفتك هل قضت ليلتها في ضيافتك؟ أمل أن تكون قد قامت بخدمتك كما يجب؟

أجابت ابنة العمّة بكل ثقة واعتزاز كأحسن ممثلة بارعة، قالت:

الحمد لله قضينا أمسية لطيفة وسعدنا كثيراً وتباحثنا في أمور عديدة منها قصة (كان وأخواتها) وغمزتني بطرف عينها. وتابعت أجل! هذه الصغيرة تسليني لكن أقول الحقيقة أنها مطيعة وقد آوت إلى الفراش مبكرة دون أن أكرر عليها مرة واحدة، وكذلك أنا فالبرد شديد والنوم أفضل.

لأشك الآن أن ابنة عمّة الوالد كانت تغبطني في أعماقها لأنني أغادر المنزل كل يوم وأتعرّف على (كان) وعائلتها، وعلى (إن ولعل) بالعربية والفرنسية. ورغم محاولتها القيام بدور المربية العجوز إلا أن الفضول وحب المعرفة دفعها إلى مساهرتي والتعرف إلى ما أتعلمه بالمدارس. ومن ثم فقد ادعت أمام والدي أنني بنت صالحة رغم كل المشاهد الحلوة المليئة بالضحك في الليلة السابقة.

ابنة العمّة رقوش

وهناك ابنة عمّة أخرى ماتزال صورتها عالقة في خيالي. إنها الحاجة رقوش وكان اسمها رقية ونادوها رقوش ليدلعوها هي أيضاً.

رقوش هذه بقيت عزباء طول حياتها. وقد كانت رحمها الله سمراء داكنة طويلة القامة ذات صوت خشن ربما بسبب السجارة اللف التي لازمها كل حياتها. وقد كانت كالواحة الغناء التي يأنس الوالد بالرجوع إليها عند المساء بعد عناء يوم شاق طويل وإنني أسائل النفس عن بقائها هي بالذات بالبال رغم أنها تعيش معنا طويلاً! وفي أمسية رمضانبة هادئة سألت أمي هل كانت الحاجة رقوش ذكية ياترى؟ أجابت: «يا لطيف شو ذكية». ولكن هل مازلت تذكرينها يا ابنتي؟ أجبتها: أماء أراها الآن واقفة أمامي بيهيتها ووقارها، أرى المنديل الأبيض يتوج رأسها وينسدل

على كتفها بحنان ورقي، أرى الخال النافر عند أنفها، أسمع صوتها الخشن وضحكها التي كانت في أغلب الأحيان ضحكة سخرية من هذه الحياة دون أن تمس بشعور أي إنسان قريب أو بعيد منها.

أنا الآن أضحك بدوري من سخرية القدر فالحاجة رقوش لم تترك أولاداً يذكروننا بها ولا أحفاداً ولكنها قابعة في خلايا الذاكرة، لم تستطع السنون ولا الأيام محوها لأن مابداخلها أقوى، وطهرها المتمثل بالمنديل الأبيض كان أقوى بكثير من سواد بشرتها، ولن أرى في حياتي كلها أجمل من منديلها. ولقد بقيت في بالي مثلاً للمرأة القوية الوقور والذي كان كثيراً ما يطلب منها القدوم إلى حلب، وكم من مرة توقف أثناء عبوره في حماه ليزورها وبعض الأقارب ويصطحبها معه إلى دارنا.

إن مغامرتي مع الحاجة رقوش كانت مغامرة صامتة وكنت أسعد بتأمل قسمات وجهها وطولها الفارع وقوامه الجميل. وكم من مرة قارنت نفسي بها. فأنا بيضاء وهي سمراء، أنا لأرتدي إلا اللون الكحلي الغامق لأنه المفضل عند الراهبات وهي تتوشح بالأبيض الناصع. يا الله كم أتمنى أن أكون مثلها. ماهي قصة هذه المرأة التي يحار البعض بكيفية تقديم الاحترام والإجلال لها رغم أنها ليست لأماً ولا زوجة؟ ربما كان ذلك درسي الأول في قوة الشخصية وانبعاثها من الذات لامن الزوج ولا الأولاد. ألف رحمة عليك ياست النساء ياعمة رقوش الحبيبة.

الست مسيلة

أما الزائرة الأخرى المحببة إلى قلبي والتي كان الوالد يعزها ويجلّها كثيراً فقد كانت حماته الست مسيلة بارودي. جميلة آل بارودي ألف سلام عليك. فكم أنبت ابتك رغم يقينك أن الحق معها ولّمّتها لأنها قصرت بخدمة الوالد وهي التي ربما ما عرفت العائلة انسانية مخلصه مثلها ولم تعرف من الحياة سوى (أبو خالد).

مسيلة هذه ولسوف أتحدث عنها في فصل آخر بتفصيل أكثر - كانت طوبلة القامة خضراء العينين لها جديلة جميلة تتوسط قامتها وسيجارة اللف لاتفارق فمها وهي تضحك وتروي الأشعار الغزلية وقصص الحب والغرام . وكانت مندوبة الوالد في كثير من المناسبات وخاصة في زيارة أخواتي المتزوجات وأفراد العائلة . كانت تركب العربية الختور ومن بعدها ماشعرت بحرج أبدأ بالصعود إلي الباص الحكومي وتنقلت بواسطته بين بيوت أولاد العائلة وبناتها . هذه الجدة كانت من نوع آخر فهي (ابنة كيف) وكنا ندعوها دائماً للاستماع معنا إلى آخر الاسطوانات وتتظاهر هي بفهم الكلمات الفرنسية والانكليزية بينما تترنح طرباً، وإذا ما حضر الوالد فجأة ساعدتنا في ضرب الاسطوانات والتظاهر بأنها تساهرنا لئلا تمنع عنا الملل ونحن ندرس .

هذه هي النسوة اللواتي كنّ يحطن بوالديّ وبنّا . كانت كل واحدة منهن عالماً قائماً بذاته وكان الوالد يساير كل واحدة كما تحب وتهوى ويتفقدن جميعاً كما لا يحلو لهن وضع غطاء رؤوسهن أو (البرلين) إلا من بين أصابع عمال مصنع أبو خالد في حلب .

حليب أمي والعائلة الأرمنية

كانت أمي رغم زواجها المبكر وحملها المتواصل، ذات حليب مدرار لا ينقطع أبداً. لذلك لم تكن تحجب ثديها عن أي طفل جائع غير أطفالها. وقد أرضعت الوالدة الكثير من أطفال العائلة منهم ابنة عمي احسان الزعيم زوجة رجل الأعمال والاقتصادي الكبير حمدي الزعيم، وكذلك ابن عمي رياض الزعيم الذي يعيش في فرنسا وسواهما. وقد صادف وجود عائلة أرمنية تقوم بحراسة وخدمة الخان الذي كان مقر عمل وسكن العائلة، وذلك قبل أكثر من خمسين عاماً. وكان لتلك العائلة طفل صغير كثير البكاء لأن والدته السيدة مريم قلما تجد نقطة حليب في ثديها.

هذه العائلة كانت النموذج الحقيقي للعائلة الأرمنية الجادة في عملها وحياتها. الأبرار يعملان في الخان كي يطعما صغارهما، فالأب يحرس الخان ويمتلك ما يسمى هذه الأيام بالكافتيريا، إذ أنه المسؤول عن تقديم الشرب ساخناً كان أم بارداً للجميع، بينما تربي السيدة مريم وتخدم نساء عائلتنا وأولادها. وكان هذا التبادل بالأدوار يتم بمتهى الحب والوفاء. وحين تفر شمس المغيب ويبدأ المساء بالانتشار على المدينة والخان، تلم السيدة مريم أولادها تماماً كما تفعل نساء العائلة ليغلق الباب الكبير، ويبقى الباب الصغير جداً لدخول الوالد أو أحد أشقائه إذا ماتأخر أحدهم قليلاً خارج الخان.

هكذا تنام المدينة آمنة وينام الخان بسكانه العرب والأرمن وقد ضمتهم جدران الألفة والمحبة.

وكان بوغوص طفل السيدة مريم شديد البكاء لا يهدأ أبداً لأن أمه لم تكن تجد الحليب والوقت الكافي لإطعامه. وفي ذات يوم وقد علا صوت بكاء الطفل الصغير نزلت الوالدة إلى الطابق السفلي وقصدت سرير الصغير، وكان وحيداً بسبب انشغال أمه بعملها اليومي، فأخذته بين ذراعيها وضمته إلى صدرها، وابتسمت له وهي تمسح بيدها المباركة على رأسه وتسمي بالله ثم أغدقت حليبها دون حساب في فم الصغير.

إن شعور الأم أو المرضع بالحنان أمر ضروري وإلا لما نزلت قطرة حليب. وكم من مرة علّمت الأم بناتها في أول تجربتهن في الإرضاع قائلة: (حني على وليدك يا ابنتي ينعم الله عليه برزق وفير)!

لم تتوقف أمي عن إرضاع الطفل حتى شبع وارتوى ونام نوماً عميقاً من شدة الإعياء، لأن الطفل، هذا المخلوق الصغير، يقوم بمجهود كبيرة وهو يمتص حليبه من ثدي أمه. ثم إعادته إلى سريره بهدوء وغطته وأعادت الناموسية إلى مكانها فوق السرير خوفاً من الحشرات، وأطبقت الباب وهمت بالخروج وإذا بالسيدة مريم والدموع تملأ عينيها تهم بتقبيل يد الوالدة، ولكن الوالدة سحبت يدها بسرعة وضمت مريم إلى صدرها وقالت: أنت أختي يا مريم وأولادك أولادي، هيا استريح قليلاً الآن ونامي مادام الصغير قد شبع وغفا.

هكذا كانت العائلة تعيش بحب ووثام مع كل العاملين دون تمييز طبقي أو طائفي. كبر بوغوص أخونا بالرضاعة وتزوج، وربما صار الآن جَدّاً، وتوفيت السيدة مريم ولكنها ظلت حتى أواخر أيام حياتها تخجل ويصطبغ وجهها بالحمرة حين تكلم شخصاً غريباً وكأنها طفلة صغيرة. وما زالت جدران الخان العتيقة تردد أصدااء دعواتها بالصحة والخير والعافية للوالدة لقاء كل نقطة حليب أرضعتها لبوغوص. وفي كل ليلة يغلق فيها باب الخان الكبير، تزدهر الذكريات الحافلة

وتهمس فيما بينها عن سكانه الذين رحلوا وتفرقوا، وتتساءل عمّن بقي منهم
وتدعوهم إلى عودة لأيام الحب الماضية التي ذهبت ولم تعد.
إن ما يميز مدينة حلب عن باقي المحافظات السورية وجود هذه الطائفة من
الشعب الأرمني وبكثرة، الذين لجؤوا إلى الأرض العربية وفتحت لهم العائلات
السورية أبواب بيوتها واحتضنتهم وساد نوع من التآخي في حياة الجميع. وبادل
الشعب الأرمني اخوانه العرب الحب والإخلاص بتفان عظيم.
إن البيت هو أكبر مدرسة للطفل، وهناك تعلمت الاختلاط بكل أنواع البشر
وارتحت لصداقة العائلات الأرمنية لأنني تربيت معهم.
ولكن مما يلفت النظر أنه رغم مرور سنين طويلة على وجود الأرمن في حلب
مازالوا لا يميزون بين المذكر والمؤنث ويجدون صعوبة في ذكر بعض الأحرف كالعين
مثلاً فترى أحدهم يقول: آل راسي بدلاً من على رأسي!
لكن رؤوس شبابهم اليوم حفظت نطق العين تماماً كما حفظت نشيد (هايستات)
أي أرمينيا، ولم يعد التمييز واضحاً أبداً في الأجيال الشابة.

الخياطة انطوانيت

كانت للعائلة خياطة تعتمد عليها في كل مايتصل بكسوة الأم والبنات ومن هم حولهن. اسمها انطوانيت ومحلها يقع في الحي على خطوات من الدار. وكانت انطوانيت قد ظلت عازبة لانغماسها في عالم الخياطة، وانقضت سنوات عمرها بين المقص والإبرة، فلبست ماخاطته لي منذ كنت صغيرة حتى احتجت إلى ثياب الحمل، وتكفلت في بعض الأحيان بملبس البنات ثم الحفيدات.

ولكن الطرافة في موضوعها هي في طريقته الخاصة في تسجيل حسابها السنوي، إذ كانت لاتحاسب إلا مرة كل سنة تقريباً ليكون المبلغ قادراً على أن يشتري لها سواراً ذهبياً، وكانت تكره الدفعات الصغيرة التي سرعان ماتفر من بين الأصابع.

هذه الطريقة الخاصة هي في أنها لاتعرف الحركات كالضمة والكسرة، ولا تفترض وجودها، بل تكتب سعاد (سوعاد) وأمية في قائمتها تصبح (أوماية). وذات يوم جاءت انطوانيت بحسابها إلى الوالدة، وجلست تنتظر، فدخلت الوالدة به إلى الوالد وكان ممدداً في سريره يقرأ الصحف اليومية. ماهذا، سألها؟ قالت حساب انطوانيت الخياطة. وبدأت بفك اللفافة التي بلغ طولها بضعة أمتار، وسلمته طرفها الأول وكان طرفها الآخر قد (كرّ) حتى جاوز السرير إلى بساط الغرفة، والولد يلاحقه بنظرته المتعجبة. كان شبه طومار أو فرمان من مخلفات الماضي ولكن ضيق لاعريض.

سأل الوالد وهو يراه ملآن بالكتابة: لماذا كل هذه التفاصيل؟

أجابت الوالدة : لأن مصروف الفساتين غير أجرتها ، وانطوانيت تعلمنا عن كل شيء .

ضحك وقال : هل تتوقعين أن أمضي ساعة في قراءة هذه الطلاسم ؟ خذي هذه مثلاً : ماذا تعني بكلمة (كالون بخامس ليرات) ؟ قالت له هذا بعض مايوضع على الثياب ولفظت الكلمة GALON . قال لها وهو يتأمل في الطومار الذي لانهاية له : وماذا تعني سينكاليث ؟ قالت له كيف أشرح لك ياأبا خالد كل هذه التفاصيل ؟ هنا سألها : طيب ماهو الرقم الإجمالي ؟ قالت : عن التنانير والقمصان والبوليروهاث والجيليتات والتخاريج و

قبل أن تنهي الوالدة كلامها قاطعها وقال لها : أرجوك أن تقولي كم المبلغ ؟ أمسكت بآخر اللقافة وأرته إياها فقرأ (ياكون الحساب ٤٠٠ ليرة) . ضحك وقال : هذه أول مرة أقرأ فيها مثل هذه الكتابة . خذي من حافظة نقودي ٤٠٠ ليرة واعطيها لها ، وفي المرة القادمة اختصري الشرح حتى لاأتعلم كتابة المحروسة انطوانيت باللغة العربية فتفسد كتابتي !

العربية الحتور

لم تكن أمي تخرج إلا قليلاً للتسوق وأداء بعض الواجبات التي لا بد منها حفاظاً على حسن العلاقات الاجتماعية. وكانت السيارة الديسوتو الزرقاء من السيارات القليلة في حلب وتساعد الوالد في تنقلاته الكبرى، أما عربات الخيل (الحتور) فأخذت تندثر تدريجياً.

ولذلك كانت الوالدة تطلب من الطباخ أبو جورج أن يحضر لها عربية حتور في حال ذهابها إلى محطة بغداد مقر العائلة حيث جدتي لأبي وبيوت أعمامي الثلاثة أبو فاروق (والد المهندسة وداد الزعيم) وأبو عصام والحاج رثيف.

وكم كنت أسعد وأطير من الفرح لمجرد سماع هذا الخبر وأتوسل إلى أمي أن تسمح لي بمرافقتها لأنني أحب ركوب العربى كثيراً. وكانت العادة آنذاك تقتضى أن يُنزل الحوذي ظهر العربى فوق رؤوس السيدات لئلا يرى المارة وجوههن وتبرجهن. وفي يوم سعدت فيه مع أمي إلى العربى، توسلت إليها أن يظل الظهر مفتوحاً وقلت لها: أماه من سيرانا في هذه الساعة؟ فالوالد في عمله شأنه شأن باقي رجال المدينة ولا وجود في الشارع إلا للأولاد وأمهاتهم، ثم ان الطريق إلى حي بغداد طريق راقية لا يؤمها سوى أكابر البلد فلم لاندعيننا نتفرج على الدنيا ونترك الناس أيضاً يتفرجون علينا؟

غضبت أمي غضباً شديداً وقالت بلهفة صارمة وهل نحن أراجوز حتى نصير فرجة العالم؟ والخوف يا ابنتي من الله عز وجل وعقابه وليس من الوالد وسواه. ولم ترض أمي أن تفرح قلوبنا الغضة الصغيرة وكانت في أعماقها تخاف الوالد

وكلام الناس ولكنها ترفض الاعتراف بذلك . وبقيت أحلم بأن أدور في حلب وأنا في العربية الحثور ولم تتركني هذه الأمنية أبداً إلى أن جاء يوم غابت فيه أمي لسبب لم أعد أذكره فاتفقت أنا وأخي وبعض أولاد عمي على استئجار عربية والطواف بها في مدينة حلب . وهيانا أنفسنا وعمرنا قصوراً فوق الرمال ونحن نمشي النفس برحلة طويلة وكأننا ندور العالم بأكمله . رجوت أخي أن أجلس مكان أمي في الخلف بدلاً من المكان المخصص للصغار فرضي بذلك شرط أن ألبى له أنا أيضاً بعضاً من رغباته حين يحتاجني في الأزمات الصعبة . أليس فرخ تاجر يعرف بإتقان قوانين المعادلة؟! هرج ومرج . فرح طفولي لا يشبهه شيء في الدنيا . كيف لا ونحن قد أفلتتا من الرقابة والزجر والتأنيب؟!

ضحكت عيناى كما ضحكت شفتاي طويلاً وعبث الهواء بفساتيننا وشعورنا وأكلنا (الضاندورمة) قرب شرطة باب الفرج ، والبريوش من عند آرام في العزيزية ، وصرنا ندفع الربع ليرة تلو الأخرى حتى نفذ آخر قرش معنا . وشعرنا فجأة بوطأة الغياب وهممنا بالرجوع وإذ بأحد الموظفين الكبار السن العاملين في محل الوالد يرانا ونحن نسرح ونمرح وكأننا في بيتنا لا في شارع عام . ووصل الخبر إلى أذان والدي وأقام الدنيا وأقعدها وكل الذنب وقع على عاتق أخي لأنه لم يعرف كيف يحافظ على أخته . وبكى طويلاً وتآلم أخي لذلك وحنق عليّ والدي وأفلت من العقاب والزجر أولاد عمي . وبقيت أياماً حزينة خائفة .

هكذا كنا نعاقب على الفرح البريء لا لسبب إلا لأن الناس تحكي ولأن حلب لم تعود رؤية أبناء العائلات يرحون في الشوارع العامة . الآن أذكر الحكاية وأنا أبتسم لكن الألم الذي سببه لي والدي كان عميقاً وعميقاً جداً وصل أحياناً رلي حد التأفف من كونه كالسيف السلط فوق رؤوسنا . ترى لماذا ترافق سنوات عمرنا

اليافعة عبارة (عيب يابنت)؟ ومسكين أخي لما أصابه من هذه المسؤولية التي نكدت عليه عيشه .

ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي غضب فيها الوالد فكم من مرة عاتب أمي وابنها ونبهها لضرورة مراقبة البنات وعدم السهر عنهن لحظة واحدة؟! وحين أقارن الحادثة السابقة بحوادث أخرى كان أبي فيها مثال الإنسان المتحضر أفهم الآن فقط أنه كان يخاف علينا من الاحتكاك بالعالم الخارجي ويحسب حساباً لطويلي اللسان رغم ثقته بنا وبترية أمي الفاضلة لنا .

وبسبب ذلك كله كان أبي بالنسبة لي - أنا الطفلة - الإنسان الغريب الذي ما استطعت فك رموز عقله وتصرفاته ولا عرفت الطريقة الحقيقية إلى قلبه .

ومرة عند المساء حين حلا له كعادته أن يستلقي في فراشه والوالدة تلازمه كظله وصل إلى سمعه من بعيد صوت أم كلثوم وهي تصدح بإحدى أغانيها الخالدة فقال لأمي احضري أمية كي تجد المحطة التي تذيع أغنية أم كلثوم . كان واثقاً من أن صوتها يجيء من إحدى الإذاعات العربية فقد كانت آلات التسجيل نادرة الوجود والتلفاز لا وجود له على الإطلاق . وتوجهت أمي نحو غرفتنا وأمرتني بالذهاب إلى مخدع الوالد وبسرعة . ولكنني وبدافع من رفع الظلم عني أجبتها : لماذا يؤنبني في الصباح ويتهرني والآن تريدني مني أن أعثر له على محطة أم كلثوم؟ لا لن أقوم بذلك . وكاد الغضب يشل لسان أمي وقالت لي يامقروفة الرقبة كيف تتجرئين على قولك هذا؟ هذا أبوك ومن حقه أن يكسر رأسك . هيا!

ورفعت كتفي معارضة وقلت لها : لماذا تحيثون بنا إلى الدنيا لتكسروا رؤوسنا؟ لم لم تتركيني في بطنك يأماه؟ لن أقوم . واقتربت والدتي وهي تحترق غيظاً لكنها تماثلت نفسها وقالت لي :

هيا أنت الذكية السبعة وما من أحد سواك يعرف كيف يجد المحطات الإذاعية .

هيا برهني له على ذلك وسيفرح بك كثيراً. قومي لأجلي يا ابنتي فسينا دينني غاضباً
وهل تودين أن يثور علي؟
بالطبع ما كنت أرضى أن يرميها بوردة فهي أُمي الحنون وأنا أعلم كم كانت تتفانى
بخدمته وتصل عند المساء وهي لا تقوى على الوقوف من شدة التعب.
نهضت من فراشي واتجهت نحو غرفته فكان رحمه الله مستلقياً على فراشه
العريض ونظاراته السوداء وان على أذنيه يطالع مجلة الشرق التي تصدر بالبرازيل
لصاحبها الطيب الذكر موسى كريم، ويلمح البصر أدت المؤشر وحصلت على غاية
أُمي وأبي. وتهللت أسارير وجه أُمي الحبيبة، ورمقني أبي بطرف عينه إما بنظرة
إعجاب وإما نظرة تعجب، لا أدري. المهم أنني انتصرت وثارت لنفسني ولو لدقائق
حين تمنعت في البداية عن الذهاب إليه.

(القبول) في حلب

زيارات السيدات الدورية

كانت أمي تستقبل ضيوفها مرة واحدة ويتم ذلك يوم الأحد الثاني من الشهر وكان هذا لاستقبال يسمى بالقبول . كانت النسوة تحضر بعد الظهر وتنتهي الزيارة نحو الساعة مساءً إذ لم تكن المرأة الزائرة تتأخر عن بيتها وأولادها، وكنت أنا صغيرة أتفرج على المشجب وهو يمتلئ رويداً رويداً بالمعاطف المزدانة بالفراء أو على معاطف الفراء الأصلية أيام الشتاء الباردة ولم تكن الكثيرات من السيدات يملكن المعاطف الغالية الثمن هذه . وكانت بعضهن يضعن الحجاب والأكبر سنّاً منهن يضعن ما يسمى بالبرانييل وهو تحريف لكلمة pelerine الفرنسية . الآن وفي منتصف التسعينات لأقول تضاعف عشرات المرات بل ربما مئات المرات عدد مقتنيات معاطف الفراء فما الذي تراه تغير، أهو الجو أم امتلاء الجيب؟

ورغم توفر المال آنذاك كانت ضيافة الاستقبال تقتصر على كأس من عصير الفاكهة مع قطعة من الغريبة الاسطنبولية وهي الحلوى المشهورة جداً في حلب والتي يتوجب تقديمها طازجة .

يلي ذلك فنجان من القهوة مرفق بشوكولاته من النوع الفاخر و(الراحة) أو أحد النوعين . ولم تكن (الراحة) في أيامنا تلك تقدم بشكل دائم حتى دون وجود مناسبة رغم رخص ثمنها في تلك الأيام . وكان هناك تقليد يقضي باحترام وتقبل على ما يقدم للضيوف ، ولعلها لم تشاهد مرة واحدة سيدة تعيد فنجان قهوتها لأن السكر في القهوة زائد عن المعتاد ولأن من شأنه أن يخلل ميزان نظامها الغذائي .

وكانت القهوة تقدم بفناجين من النوع الفاخر مصفوفة على (صواني) من الفضة الخالصة المتميزة في حلب مع كأسين أو ثلاثة كؤوس من الماء معطرة بقطرات من ماء الزهر. كان الخدم يحرصون على أن تكون القهوة معتدلة الحلاوة لترضي الجميع. ولم يكن أمر تقديم السجائر بالأمر الشائع، فالنساء اللواتي يدخن قلة، باستثناء المتقدمات بالسن. وفي حال تواجد كنة تدخن مع حماتها، كانت تمتنع الأولى أدباً واحتراماً لوجود الحماة. كذلك الأمر في حال وجود الأم.

ولكن شفاه أمي لم تعرف السيجارة قط رغم ترعرعها في أحضان أم لم تفارقها لفافة التبغ أبداً. فليس من الضروري أن تدخن ابنة المدخنة عليه والعكس صحيح. هكذا كانت (قبولات) أيام زمان تقام مرة في الشهر فلا يدق أحد باب البيت خارج ذلك الموعد ماعدا الخاطبات، فتكرس الزوجة أوقاتها لرفيق عمرها وأولادها ولا يأخذ الاستقبال أكثر من ساعتين من وقت النساء. ولم تكن الضيافة ترهق الجيب وتفني أعصاب المرأة بسبب قلقها وشوقها لفستان جديد تظهر به، ولم تكن أمي تملك فساتين بقدر ماتملك الآن، ولم تكن تزور الحلاق أبداً، بل تحضر إلى البيت سيدة أرمنية ماهرة تقوم بترتيب الشعر وقصه وكل مايلزم.

سيدات المجتمع كن على هامش حياة أمي ولهن حصّة ضئيلة لاتذكر من برنامج حياتها. ولم أسمع أمي يوماً تشتكي من السمّة لأن أموراً أخرى أكثر أهمية كانت تشغل بالها. الآن تبارى سيداتنا بتقديم أنواع الضيافة الفاخرة التي تصل إلى حد حفلات الشاي والتبولة دون أي مناسبة ومن ثم يتباكين من زيادة الوزن وفقدان الرشاقة.

ضيافة الرجال

ورغم وجود طاقم من الخدم في البيت فقد كان الوالد يصبر على أن تقوم زوجته بنفسها ببعض الأعمال كإعداد المقبلات وأهمها السلطة والإشراف على أعمال المطبخ كلها.

البنات الكييرات كن يصغرن أمني بخمسة عشر عاماً أو ستة عشر، لذلك تعلمن مع أمني ترتيب المائدة وتنسيق الزهور وإعداد الصالونات. وكانت كلما تزوجت واحدة حلت محلها أختها التي تليها فملأت الفراغ. إذن كان هنا مختصون، ولكل واحد عمله. وفي الليلة التي تسبق إقامة الدعوة للرجال كان الأبوان يتشاوران فيما بينهما حول قائمة الطعام والأغراض اللازمة. وعند الصباح الباكر تدخل أمني إلى المطبخ لتكون على رأس شبكة العمل.

وكان الأب يحضر قبل ربع ساعة أو عشر دقائق من حضور مدعويه وكثيراً ما اصطحبهم بنفسه إذا كانوا ضيوفاً على المدينة ونادراً جداً أن يحضر الوالد دون أن يجد أن كل شيء جاهز. وكان تنظيم هذه الدعوات يتم بكل دقة وبمتهى الهدوء والصمت. فالمدعوون يتناولون وجبتهم بسرعة وذلك أمر طبيعي عند الرجال، وسرعان ما تبدل مائدة الغداء بأخرى مليئة بأنواع الفاكهة والحلوى. وبينما يشرب الجميع القهوة تكون ربة البيت وبناتها وخدامها قد أعدوا مائدة جديدة عامرة لسائقي سيارات الضيوف ومرافقيهم إذا وجد بعضهم. وكان الوالد يصبر على ألا تقل هذه المائدة الإضافية كمية وذوقاً عن السفرة التي سبقتها. وحين يهم الضيف بالانصراف يكون سائقه قد تناول طعامه ثم جلس إلى مقود سيارته يحمد الله

ويشكر رب البيت . بعد الحفلاتين السابقتين تحيء مرحلة ثالثة هي إرسال مطبعية طعام للحمة وأخرى للبنات المتزوجات ومن ثم إعطاء الخدم نصيب أولادهم من اللحم وخاصة الدجاج الذي لم يكن متوفراً بكميات كبيرة كأيامنا هذه .

بعد إنصراف الجميع كان أبي يكتفي بكلمة الله يعطيكم العافية ولم يكن ننتظر منه أكثر من ذلك لأن تلك الدعوات عمل روتيني دائم وقل أن يمر أسبوع دون دعوة أو دعوتين . وفي حال تأخر بعض الخدم يرسل الوالد السائق في إثرهم ليوصلهم إلى بيوتهم ويعطيهم إكرامية على أتعابهم .

وحين يكون اليوم انتهى بالنسبة للعاملين فإن ربة البيت لن تهدأ حتى تقوم بعد إعادة الأغراض والأدوات الفضية إلى مكانها . وكم من مدة أخطأت العد من شدة التعب فتعاود العد حتى تصل إلى إتمامه .

ولم تكن الأم المسكينة تحظى بمساعدة بناتها دائماً فغالباً ماكن مشغولات بالدراسة . لذلك كانت تصل إلى الفراش منهكة وكم من مرة استفاقت الإبنة على صوت أنين الأم من جراء التعب الذي لازمها طيلة حياتها .

وكان أكثر ما يضيق الأم اضطرابها لوضع شيء على رأسها بسبب وجود الطباخ الأرمني ، ولكن الأب يصر على وجوده خوفاً عليها من مرض مفاجيء ولعلمه المسبق أن دعواته لن تخف أبداً . كان إلى جانب الطباخ أو الطباخة - وكانا في معظم الأحيان من الطائفة الأرمنية - مربية تركية تهتم بالبنات وأخرى أو إحدى الفتيات الصغيرات للأعمال البسيطة الصغيرة والبقاء مع الأولاد .

وفي حديثي عن الوالد ومعاملته الخاصة سأعود فأحدث طويلاً عن علاقته بعماله سواء في المصنع أم المكتب أم البيت .

أما علاقة الأم بالحمة فكانت علاقة ود واحترام وخاصة بعد أن انفردت كل منهما ببيت خاص لها إضافة إلى كون الكنة ابنة عم وليست غريبة عن العائلة .

وكانت أُمي من النساء المدبرات والمقتصدات بشكل لا يوصف . وفي أمسية شتائية باردة صادف فيها وجود الوالد في البيت خطر بباله أن يشرب الشاي ، ولم تكن عادة شرب القهوة والشاي متبعة في البيت بل مغلي الأعشاب وأهمها البابونج في الشتاء والعيран والسوس في الصيف كان النظام السائد آنذاك إلى أن تغيرت العادات الآن فأصبح الجميع يشربون المنبهات رغم قلق العصر وضغط الحياة .

رغبة أبي باحتساء قدح من الشاي كانت محض صدفة ، كما تساءل عن وجود بعض المعجنات الخفيفة أو الحلويات ليختصر وجبة العشاء بذلك . فوجيء الأب بزوجته وهي تحضر صينية مرصوفة بأطيب أنواع المعمول والغريبة والبرازق التي كان يحضرها معه خلال أسفاره إلى دمشق وبيروت . قال لها :

من أين لك كل هذا يأم خالد؟

أجابت وهي مزهوة بحرصها ، لقد خبأتها منذ آخر سفرة لك إلى دمشق فأنت تعرف أنني لأضع كل شيء في متناول الأولاد لأنهم لا ييقنون على شيء .

بقي مشدوهاً للحظات قصيرة ثم قال :

وهل شبع الأولاد ، وأعطيت الخدم نصيبهم من الحلوى أيضاً؟

قالت : بالطبع ! إن الطفل يا ابن عمي يأكل عشر قطع إذا كانت في متناول يده ويأكل خمساً إذا أخفيت الباقي ودون أن يؤثر ذلك على جوعه أبداً !

ابتسم شبه ابتسامة وهو لا يصدق أن زوجته فاقتة في مجال (الاقتصاد) ولكنه لم يعلق رغم عدم رضاه عن الفكرة .

أبي يعود فيتعلم الفرنسية

في سن الخمسين عاد الوالد إلى تعلم اللغة الفرنسية نظراً لكونها المنتشرة عالمياً حتى أواخر الخمسينات حين تقلصت قليلاً لتعيش على بقاياها اللغة الإنكليزية وخاصة في سوريا ولبنان.

إذن عاد الوالد إلى اللغة الفرنسية لأنه كان يتضايق من عدم معرفتها ويجدها عشرة في طريقه رغم قد أهلاه نبوغه في حقل الاقتصاد بصورة خاصة وثقافته العربية والعامة لأن يتكلم باسم غرف التجارة العربية قاطبة في مؤتمرات الغرف العربية الأوروبية. وهو لا يحمل حتى شهادة الكفاءة. وإذا ماجاء اليوم الذي ترى السوق العربية المشتركة فيه النور فسأبكي فرحاً لأن ذلك كان حلماً من أحلام والذي الكبيرة ولأنها هذه من قواعد الوحدة العربية الأصيلة حين يتخصص كل واحد بمضماره في سبيل تحقيقها فتأتي مدروسة مبنية على أسس متينة لا يؤثر عليها شيء. وتحقيقاً لرغبته في تعلم الفرنسية كان أحد الأساتذة يحضر إلى البيت ليعطي الوالد دروساً خاصة فيها ولم يكن يتوانى عن إعطائه الوظائف البيتية ليقرن طريقة التعليم العملية بالنظرية. وكم كنا نضحك في أعماقنا ونحن نرى الوالد بعظمته وفخامته ووقاره لا يعرف بعض الإجابات حول تركيب الجمل أو إملاء المساحات الفارغة بالكلمات المناسبة، فيتضايق ولا يدري ماذا يفعل فيناديني أو ينادي أختي الكبرى لمساعدته.

وكان مايزيد في ضحكنا أنه لا يرضى بإجابات صحيحة تامة خوفاً من أن يفطن الأستاذ إلى أن ثمة من ساعده على ذلك فيترك عمداً بعض الأخطاء. ولكن هذا

الضحك يكون في الأعماق طبعاً حين نلتف في المساء عند إحدى المواقف نأكل الكستناء المشوية ونتنذر بحكايات الوالد، هذه الشخصية الكبيرة الأمرة. وما زلنا حتى الآن نتحدث عنه لأنه كان حقاً محور عائلة كبيرة وشاغلها بذكائه الخارق وحيويته وتفتحته على عوالم حضارية سابقة لأوانها، فقد كان رحمه الله الإنسان، والتاجر والأديب والرحالة والأب لخمس بنات فوق ذلك، مع أنه كانت بنت واحدة كفيلة بجلب الهم والغم لأي والد فكيف بخمس دفعة واحدة؟

هذا وإن تعلم والدي الفرنسية في سن متأخرة تكرر معي أنا فيما بعد حين انتسبت إلى الجامعة وأنا على أعتاب سن الأربعين فقد كان وجودي في الصف مع شباب صغار السن من الثامنة عشرة ودونها أحياناً، قد حملهم على تسميتي (العمة) بالانكليزية نظراً لنداء ابن أخي محمد سعيد الزعيم (الحفيد) لي هكذا. ولقد كانت ظاهرة غريبة وجود العمة وابن الأخ على مقاعد الجامعة معاً حيث درسنا وتخرجنا معاً ما بين ١٩٨٢ و ١٩٨٦. ولم أتضايق من هذه التسمية بل كنت أتصرف معهم كعمة حقيقية، لاسيما وأن معرفتي الوثيقة والقوية باللغة الفرنسية تسهل عليّ فهم الكلمات لاشتراك اللغتين في عدد كبير جداً من الكلمات مع اختلاف طفيف في كتابة الحروف والنطق. والكبير لا يستحق هذا الاسم حقاً إلا إذا تصرف كالتلميذ الصغير حين يتعلم شيئاً جديداً، وإذا كابر بقي على جهله.

رمضان والعيد

رمضان الخمسينات كان له طعم آخر. صحيح ان عبادة الصيام باقية على حالها منذ خمسة عشر قرناً، لكن الحياة أثناء هذا الشهر تأخذ شكلاً مختلفاً بحسب المكان الذي نعيش فيه أو الأناس الذين نساكنهم ونسكن إليهم والزمان الذي يتغير. واني لأتساءل كيف كانت أمي تفرح بقدومه رغم انشغالها طيلة الشهر ليلاً نهاراً بتأمين الطعام للأفواه الجائعة: من أفراد العائلة والعاملين في البيت، إلى دعوات الوالد التي تمتد وتطول وخاصة أنه كان رحمه الله يقسم دعواته على دفعات آخرها حفل افطار ليلة القدر الشهيرة؟!

وكان على أمي إيقاظ سبعة أولاد وبعض الخدم ليقوموا بتحضير السحور أو حضوره وتناوله، وكم من مرة عدنا إلى النوم مرة ثانية وثالثة رغم سعادتنا الكبرى بأننا لم نعد صغاراً وأن امتياز السحور وصل إلينا نحن أيضاً. وكم يبدو الوضع قاسياً على أمي فرغم اضطرارها إلى القسوة علينا لتقوم وبسرعة لثلا نضيع الوقت، فقد كانت في الوقت نفسه تحنو علينا وتأسف في أعماقها لأنها انتشلتنا من أحلامنا الجميلة.

أثناء تناول طعام السحور والذي كان يتألف في معظم الأحيان من أقراص نعتاع مع شريحة خبز وقليل من اللبن أو الحليب وحبّة فاكهة، أثناء هذه الوجبة السريعة كنا نتلصص على الصينية المهيأة عند الباب وهي في غاية الترتيب والنظافة وفيها أصناف بسيطة: كأس ماء معطر بقطرات الزهر، ومنشفة صغيرة مطوية ربما وضعت أمي فيها بعض الياسمين إذا كان الجو صيفاً. كنا ننظر إليها ونتساءل لم لا يأكل

الوالد معنا، فينزل من عليائه في الطابق العلوي؟ الجواب كان دائماً أنه رب الأسرة وسيدها يناله مايكفي من التعب أثناء النهار. ولا يجوز لنا مايجوز له، وأمي تحاول جاهدة إعطاء أكبر قدر من الاستمتاع بالنوم فلا توقظه إلا قبل موعد الإمساك بقليل.

ودعوات رمضان كما ذكرت كانت كثيرة جداً وغالباً ماتبدأ في النصف الثاني من الشهر. وكانت (سعدة) الفتاة الحلوة التي تعمل عندنا، تجلس معنا على مائدة الإفطار، وكان أبي يسكب لها طعامها بيده ويعيد الكرة مرات ومرات وكلما شكرته قائلة إنها شبت تابع وهو يضحك ويلمح إلى أنها فرصة، فالزمن رمضان وليس من حق أحد حتى ولا أم خالد إصدار أي أوامر. كان أبي يحاول مغازلة والدتي وهي ترى في ذلك استفزازاً لها ونحن نضحك في قلوبنا وعيوننا.

أما إفطار ليلة القدر فلقد كان عيداً حقيقياً. فمنذ الصباح الباكر تبدأ أمي بمساعدة (أبو جورج) و (أم جمول) بإعداد وجبة طعام لعمال مصنع الحرير. فلقد كان هذا التقليد السنوي من الأمور المحببة إلى قلب والدي ويعمل كل جهده لكي يكون موجوداً في هذا التاريخ في حلب كيلا يفوت الفرصة باجتماعه مع عماله ومشاركتهم طعام الإفطار.

وكانت أمي تمسك القدر الكبير وتبدأ بتحريك الطعام قائلة بسم الله الرحمن الرحيم ويردد أبو جورج ماقالته أمي وهو يحرك المهلبية فتنهره أم جمول مازحة بلكنتها الغريبة قائلة: إنتي كمان أم (عم) بتسمي بالرهمان (الرحمن)؟! ماشا الله! فتتدارك أمي وتقول: طبعاً. أو لسنا جميعاً نعبد إلهاً واحداً؟ هيا استغفري ربك وقومي بإحضار ألفية شراب البرتقال من القبو.

عملية إذابة شراب البرتقال تبدأ عند العصر ومن ثم يعبأ في ألياف كبيرة ويرص عند باب الدار مع أدوات الطعام وسحّارات الفاكهة والخبز الطازج الآتي لتوه من

الفرن . فقد بقينا حتى أواخر الخمسينات نستمتع بالخبز الصحي المعجون في البيت تزينه حبات البركة والمحلب وتباركه دعوات أمي والعاملين في البيت بدوام البركة وأبو خالد على رأس العائلة . وكان أبي يقول لأمي أكثر من اللحم لأنهم جماعة شغيلة يتعبون كثيراً وابتعدي قدر الإمكان عن الأصناف الخفيفة التي لا تشبع ولا تشد الأرجل . صدور الكنافة والبلورية كانت تصل قبل موعد آذان المغرب بحوالي الساعة تقريباً فبدأ النقلة ، ونهب نحن الأطفال بمساعدة الجميع لإنزال الطعام الاحتفالي إلى الشارع حيث سيارتنا (الديسوتو) و (الفوكسول) تنتظران . اقتربت مرة من أمي وقلت لها لماذا لا يأخذونني معهم؟ وما فرق خالد عني يصطحبه أبي معه إلى كل مكان ألت ابنته أيضاً؟ وعضت أمي على شفتها وقالت لأخواتي تعالوا خذوها من وجهي . تريد المدللة أن تأكل مع العمال . ماشاء الله ! وتنهري غاضبة وهي لا تدري أنني لأقصد إثارتها ، وكل غايتي ومناي أن أرى شكل هذه الوليمة التي نستعد لها منذ الصباح ليعودوا عند المساء بالقدر الفارغة والألفيات الظمأى وأدوات الطعام التي لا تعد ولا تحصى .

وفي المساء كانت جدتي لأمي تأخذني من يدي وتحكي قصصها الحلوة الخيالية عن قيس وليلى وعن عشاق العاصي وعن قلعة حلب إلى أن أهدأ وأنسى مطالبتي وأحلامي .

الآن وبعد أربعين عاماً من هذه الصورة الليلي رمضان وأوقات السحور تبادلنا الدور مع أمي ، ولكن هيهات أن أصل مهما حاولت إلى درجتها في التفاني والخدمة اللامتناهية . الآن أصبحت أحضر لها وجبة سحور خفيفة محورها كأس حليب وقطعة فاكهة مع مايتوفر في البراد من مأكولات . أما موعد السحور فأعرفه من أنني أربط منبه الساعة ليوقظها في الوقت المناسب لأنني لأحب أن أقطع نومي أبداً .

هذه هي الحياة إذن، فهي بكل بساطة تبادل أدوار، فالصغير يصير كبيراً ويخدم صغاره، حتى يصل ذات يوم إلى قمة الهرم. الشباب والعطاء يتزلان رويداً رويداً مع الأيام والسنين، ويفقد الإنسان في كل هبوط جزءاً من حيويته ونشاطه وعطائه، ويبدأ آنذاك دور الصغار في تعويض كل ما يأخذه الزمان من الكبار حتى يجعلوا هؤلاء الكبار يعيشون في عز وكرامة ولا يشعرون بوحشة العمر وقساوته.

المسحر - صورة بهرتني ثم صدمتني !

ولست أدري الآن لماذا لم أكن رأيت مسحر رمضان إلى أن بلغت العقد الرابع من العمر. فانا أسكن في حي قريب من أحد المساجد ومعظم سكان الحي مسلمون، وقد كنت في كل رمضان وأنا بعد طفلة صغيرة، أعلل النفس بمشاهدة المسحر على الطبيعة حين يمر، ولكنني كنت أتكاسل في القيام لدى مروره ويغلبني النوم العالق بجفوني، فأبقى في الفراش أستمع إلى قرعات طبلته الرتيبة المنغمة. ولعلها كانت هي التي تستأثر باهتمامي حتى لم أكن على حداثة سني، أبادر إلى القيام والتحرك للإطلاع على الشارع ورؤيته، وأقول لنفسي: غداً أراه! ويأتي الغد وبعده أيام وأيام أخرى، إلى أن أتى يوم جمعت فيه كل عزيمتي وقفزت من الفراش وقلت في نفسي: الليلة أراه. الليلة أحقق حلم الحياة فتتعم عيناى بمنظر المسحر، وبالفرحي حين أرى هذا المخلوق الغريب الذي كأنما يأتي إلينا من وراء حجب بعيدة مقتحماً سنين لاتعد ولا تحصى من التاريخ ومن الزمن الغابر، مطلقاً علينا من تحت قناطر الماضي وعلى رأسه واحدة من عمامات هارون الرشيد العتيقة، وعلى جسده سراويل سرقها خلصة من علاء الدين، وشارباه لو حطّ عليها أكبر صقر حام في سماء الجزيرة العربية لاحتملاه دون أن يرتعشا.

يومذاك قلت في نفسي : هذا الإنسان الأسطوري الرائع سألقاه اليوم، وأكشف سر هذه الهالة التي تحيط به . فالناس يتحدثون عنه كأنما هو عينه (رمضان) الذي يقدم إلينا - من حيث لاندري - مرة في كل أحد عشر شهراً . ثم هذا المسحر من أين أتى؟ هل ولد من أب وأم وله أولاد؟ لا تقولوا إنها تخرصات، ولكن ارجعوا بالذاكرة إلى يوم كنتم أطفالاً لم تروا بعد هذا الذي تسمعون نقراته آتية من بعيد، قرب المغرب وقبيل الفجر، ثم ماتزال تقترب وهي تدق برتابة ومعها صوته الأجنش يتكلم كلمات غير مفهومة لدى الطفل، حتى إذا جاور الصوت الدار عاد فابتعد بالتدرج والصغيرة تتساءل إلى أين يذهب؟ وهل له دار يودع فيها صوته ونقارتيه والطبله؟

وفي ذات ليلة قررت أن أراه، وغالبت من أجل ذلك النوم . فاقتربت من شرفة غرفة الطعام فرأيت وأحسست بما يشبه الصقيع من خيبة الأمل . كان انساناً قبيحاً، بلا عمامة، ولا لحية وشاريين، ويلبس ثياباً عادية (سافاري) صفراء عتيقة، وحذاء كالذي يلبسه الشباب، ويسير ببطء شديد . . . ذهبت الصورة الأسطورية التي كانت في خيالي، وهربت إلى الغرفة وأنا مذهولة من هذه الصورة القميئة . أين مصباح علاء الدين؟ أين خيالات ألف ليلة في بصرى وبغداد؟ وأعادني المسحر - الذي لم أراه من بعد في طقمه السافاري - إلى مدينتي وأيامنا، ولكن بلا خيال جميل .

في الليلة الأخيرة من رمضان كانت أمي لاتعرف طعماً للنوم إذ تقضي الليل بطوله ترتب الفاكهة والسكاكر وتنتظر قدوم صدور الحلوى العربية التي نادراً ماوصلتنا قبل منتصف الليل . نحن الصغار كنا نفرح بحمام العيد وخاصة أننا سنرتدي الثياب الجديدة الجميلة في صباح اليوم التالي . وكانت (أم جمول) المربية التركية تدخل لتفرك لنا ظهورنا وتهرأها من شدة الفك والنحت فنشتكي ونبكي

لكن دون مجيب . قد تنجدنا جدتي مسيلة فتضع البيلون بورد على رؤوسنا لتصير شعورنا لماعة طرية الملمس ذات رائحة ذكية . وإذا ما صادفت (أم جمول) أبي ماراً في البيت تبادر إلى تهنتته وهي تمسح وجهها الجميل الذي صار (كقطعة شوندر) بطرف منديلها وتقول له : «أبو هالد كل سنة وانتي سالمة . فركتو راس صغار كثير وجسمو صار متل شوندر» . فيضحك والذي وينده على أمي قائلاً : رفقا بالصغار ، فالعسكر الأتراك على وشك أن يذبيوا أولادك في الحمام يأأم خالدا !

في صباح العيد يأخذ أبي أشقاءه أعمامي وصبيان العائلة وينطلقون جميعاً لزيارة الموتى من الأهل والأقارب ، وحين يعود نقبل يديه الكريميتين وأيادي والدتي والجدات ويقبل بعضاً بعضاً ونحن في أبهى حلة وأجمل ثياب ننتظر العيدية وكانت آنذاك تكفي كسوة فصل كامل . وبينما نحن نستعد لاستقبال الأعمام وأولادهم الأحباء يتناهى إلى أسماعنا من بعيد قدوم فرقة الأيتام الإسلامية بكامل زيتها الجميل وأدواتهم الموسيقية النحاسية اللماعة ، فيقف أفرادها عند باب البناية الرئيسي ويعزفون الموسيقى الجميلة . وتبدأ أرتال المهنتين بالحضور إلى منزلنا يتقدمهم المشايخ وأصحاب الغبطة بطاركة النصارى ولا أذكر أنه مرَّ عيد علينا دون أن يكونوا جميعاً قد زارونا وتمنوا للوالد وعائلته والبلاد عيداً مباركاً سعيداً .

الوالدة والجدتان

والدتي زهرية الزعيم

كانت أُمي الطيبة وهي زهرية بنت المرحوم محمد الزعيم، قد ورثت حب التقوى والورع عن أبيها وحاولت أن تنقلها إلى أولادها، فكان أن علمتهم منذ الصغر على أداء الصلاة بأوقاتها الخمسة، وبعد سن التاسعة كانت تجبرهن عليها. صورة هذه الأم في ذهني تقترن دائماً بصورة المصحف الكريم وسجادة الصلاة وكتب الأدعية التي كانت تحب أن تقرأها في أوقات فراغ أو قبل ذهاب أولادها للامتحانات المدرسية. وقد بقيت على هذه الحالة حتى عهد قريب حين قرأت عدداً من قصار السور لابتنتها ثم دعت لها بالتوفيق في امتحانات السنة الجامعية الأخيرة. وأخذ الدعاء يكبر ويزداد مع ازدياد أفراد العائلة، فكل بنت أو صبي من أولادها أنجبا ثلاثة أولاد إلى أربعة، وكثير من هؤلاء الأحفاد موزعون في مختلف أصقاع الدنيا كما هي الحال لدى كثير من العائلات حالياً بل ينذر أن تستثنى عائلة من ذلك: فالهجرة أو الدراسة في الخارج أمر بلغ أقصى الاتساع ولم يعد حالة نادرة. ففي كل صباح وبعد أن تؤدي صلاة الفجر، كانت أُمي تدعو لأولادها فأحفادها بالتوفيق والحفظ من المكاره، ونظراً لأنهم منتشرون في بلاد مختلفة فإنها تنفث آخر الدعاء في الهواء وهي تحرك وجهها بشكل دائري نحو الجهات الأربع. إنها حركة بسيطة ورمزية ولكنها من شأنها أن تطمئن الأم إلى أنها أدت واجبها وأعطت كل واحد من أولادها وأولادهم نصيبه من الدعاء بالتوفيق والبركة.

الآن وقد ابتعدت أنا الأخرى عن أولادي وتفرقوا كذلك بعضهم عن بعض بسبب الدراسة، أرى نفسي كلما رأيت شمس الصباح الباكر ابتسم ابتسامة الرضا والشكر للعلي القدير الذي أنعم عليّ وعلى أولادي بنور نهار جديد (وربما بضياء قمر جديد على الولد الموجود في الطرف الآخر من الكرة الأرضية!) بل كلما رأيت أمّا محاطة بأولادها وزوجها في حالة شكوى دائمة لأتردد عن أن أقول لها بلطف ومحبة: لماذا لاتحاولين التمتع بهذه النعمة الكبرى حين يشرق عليك يوم جديد وهم أصحاباء وموجودون؟

وقد كانت أمي مثال الزوجة المطيعة المخلصة ولعل من الأسباب الأولى في نجاح أبي وجود هذه الزوجة التي كرسّت حياتها في سبيل خدمة رفيق عمرها. ولم تكن كفتنا المستوى الفكري متعادلين بين الزوجين لسبب بسيط جداً وهو أن أمي كباقي نساء عصرها بقيت في مكانها تحمل وتلد وتربي بينما كان أبي يتابع تيارات الحياة المختلفة عن قرب بسبب اختلاطه الدائم بالناس وحركة التطور، إضافة إلى أسفاره وكذلك الأولاد فقد كانوا ينتقلون مع عقارب الساعة من الحاضر إلى المستقبل والأم ما تزال على حالها تكتب كل صباح اللائحة اليومية للمشتريات من خضار ولحم وفاكهة وتعطيها للأب قبل خروجه من الدار ليوافقها بلوازم ذلك اليوم.

لاشك في أن رعاية البيت أمر مقدس بالنسبة للمرأة، ولكن تكريس الحياة كلها لأجل ذلك لابد أن يؤدي إلى وجود فارق كبير بين عقليتي الزوجين.

من مفارقات الحياة أن الصورة كانت معكوسة مع إحدى البنات فكان أن تابعت تلك البنت ثقافتها من خلال مطالعاتها اليومية لكافة الجرائد والمجلات وازدادت معرفة من خلال أسفارها ودأبها المتواصل في عالم المعرفة ولم يكن ذلك يرضي زوجها أبداً فكان دائم التأفف من انفتاحها الثقافي والفكري.

الحياة حافلة بالمتناقضات . فزوج يحلم بامرأة مثقفة منفتحة على الحياة وآخر
يصر على حجب المعرفة عن زوجته لأنها تعطيها الفرصة في العيش بشكل مواز له
وليس أقل منه .

وصورة أمي ليست بالمثل الشاذ فكل نساء عصرها كن يخرجن من مرحلة
الدراسة الابتدائية إلى يدي القاضي الشرعي ، ومن مراحل الحمل إلى عالم القابلة .
حياة المرأة لم تكن تتغير أبداً حتى في حال وفاة الزوج أو الانفصال عنه إذ كانت
المرأة تتبع - عملياً وبحكم الحب - أولادها وترهن نفسها لسعادتهم ، ولذلك ظلت
أمي معنا ترعانا ومنها نجد السعادة وفيها نجد العوض عن والدنا العظيم .

كانت أمي دائماً المرأة الطيبة الوقور ، خفيفة الظل ، راجحة العقل ، التي تحب
الجميع وتسعى إلى أن يظل الجميع ضمن الجادة الواسعة التي وضعهم فيها الوالد
الفقيد ، وتعطيهم الرضا بالعدل . وما سوى ذلك من تفاصيل رأيتموه في سياق
الحديث عن الوالد ، فقد كانت هي حياتهم المنزلية والتربوية والرفيقة التي كرس
نفسها لسعادتهم .

جدتي لأمي

وتعود بي الذاكرة إلى جدتي لأمي ، التي كان يحبها والدي ويحترمها كثيراً . وكم من مرة دعاها والدي إلى غرفته لحديث شخص جداً إذ كان يحب أن يشكو زوجته لأمها . كانت تجلس ورأسها مرفوع نحو الأعلى دائماً ، ظهرها مستقيم وفي عينيها ألف تعليق لأنها واثقة من تفاني ابتها في خدمة زوجها ، لكنها هي الأخرى كانت تبادل الاحترام باحترام أكثر ، فتلوذ بالصمت مهما طالّت مدة شكواه وانتقاداته .

طيلة عمري لم أسمع جدتي تغضب من أبي ولو مرة واحدة ، بل كانت (الحماة) تؤيد صهرها ولو ظاهرياً بصمتها واحترامها ، في الوقت الذي لم تكن تألو جهداً بنصح ابتها بالصبر وعدم التأفف أبداً .

إن أمي المسكينة التي كوت ذات يوم حوالي ستة عشر طقماً رجالياً بيد واحدة ، لأن يدها اليمنى كانت مصابة بكسر ، هذه المسكينة عليها أن تصبر أكثر كما تنصحها أمها . وكبر عدد الأطقم مرده إلى أعمامي الذين يسكنون نفس الدار وكانوا كالأخوة تماماً لأنهم أبناء عمومة الأم .

وأثناء أيام ولادات الحفيدات كانت جدتي لا تتركهن أبداً وخاصة حبيبتها الصغيرة أمية فتلازمها طيلة أسبوع كامل في ولادتها الأولى وكانت في مستشفى الدكتور قسيس الذي ولد معظم أبناء حلب ، رحمه الله ، إضافة إلى توليد الكثير من الأفراس الأصيلة لأنها هوايته المفضلة . ومن اللطيف أن أحكي لكم حكاية هذا المبدع في عالم الولادات . حين طلبته سيدة سورية من حلب تزوجت من أمير سعود ي إلى الرياض ليشرف على ولادتها فقبل الدعوة وسافر إلى طرفها .

وكانت أن تأخرت كثيراً عن الموعد المحدد الذي صرحت به فتضايق الدكتور قسيس وأعلن في بداية الأمر تبرمه من الوضع ثم مالبث أن صرح بذلك وشرح لهم كيف أنه هناك في اسطبله العزيز المليء بأجمل الجياد ربما تكون هناك فرس على وشك الولادة أيضاً، ولذلك غادر الرياض فعلاً دون أن ينتظر موعد ولادة زوجة الأمير ولم يهتم بما كان ينتظره من مال ومجوهرات .

في هذا المستشفى كان يحضر الدكتور قسيس فيدق الباب مستأذناً بالدخول نظراً لوجود الجدة التي قد تكون تؤدي الصلاة، وإذا مادخل قال لها: حجة بارودي بونجور .

وكان يبذل لها العناية الفائقة لأنه درس مع أخوة لها في الجامعة الأميركية في بيروت .

وذاث يوم وفي الوقت الذي كانت تحضر فيه الممرضة وليدي الحبيب لأرضعه فأسعد به وأهنأ قرابة الساعة، خطر لي أن ألقى نظرة على مكان الختان فكم فكرت بالألم الذي يسببه الجرح وتتصور مخيلتي صعوبة تحمله على الوليد وهو هش كالعود الرقيق . فقلت لجذتي: مارأيك يا جدة بأن نفك عنه القمط لإلقاء نظرة على الجرح؟

فقلت: أي جرح تتكلمين عنه؟

قلت: جرح الختان .

قالت: اهديني يا صغيرتي فوليدك لم يُختن بعد وأنت جديدة في هذا العالم وتجهلين الكثير من الأمور ، فعملية الختان لا تحدث هكذا دون ضجة وإعلام .

فقلت لها: لا ياجذتي أخشى أن تكوني أنت من يجهل مايجري في أيامنا هذه . فعملية الختان صارت تجري فور الولادة حتى دون إعلام الأبوين لأنها عمل روتيني لا يستحق كل هذه التظاهرات .

قالت جدتي : وهل يعقل يا ابنتي أن يحدث هذا ، وهل ابنك مقطوع من شجرة؟
فحتى الفقراء يحتفلون ويفرحون بهذه الحادثة . ولم تكن جدتي تدري أننا لكوننا
أبناء منتصف القرن العشرين ، حرمانا من كل هذه الأفراح إضافة إلى اعتماد كل
عائلة مبدأ التقيد في حصر النسل . فقد كانوا يلدون سبعة أو ثمانية أولاد في الماضي
فيقيمون الأفراح والليالي الملاح لكل واحد منهم يجري ختانه ، وغدونا نحن
ننجب ولدين أو ثلاثة بصمت لأن الاهتمام انتقل من التركيز على الجماعة إلى الفرد
أو الطفل ذاته .

هذه الجدة الحبيبة كانت تدور على بيوت حفيداتها ، أخواتي وأنا ، بعد أن تزوجنا
فتتفقد أحوالنا وتساعدنا في أمورنا البيتية حتى أنها كانت تزورنا أكثر من أمنا إذ
كانت الأم تكرر حياتها كلها لزوجها ولا وقت لديها لترك البيت بل كان على
البنات أن يحضرن دائماً إلى بيت أهلهن مصطحبين أزواجهن وأطفالهن .

ولكن جدتي الطيبة تعرف أن أمي كانت تخجل من زيارة بيت أي واحد من
أصهارها وخاصة إذا كان غريباً عن العائلة ، فكان ان أخذت هي تقوم بالنيابة عن
الوالدة برعاية البنات فكانت تترك الباص من أجل الانتقال إلى دور أصهارها دون
حرج ، وقوامها الرشيق الذي بقي على حاله حتى آخر أيامها ، يساعدها على الحركة
بسهولة ويسر .

و (بيت حما) هذه الجدة كانوا يتهمونها بالإسراف والتبذير ويقولون أنها لم تبق
قرشاً لزوجها فتتبري الحفيدة التي هي أنا للدفاع عنها قائلة : بل الأصح أنها تحب
الحياة وتعرف كيف تعيشها بكل أعماقها ، وكان أهل الجدة مشهورين بحب الحياة
حقاً بينما يتميز أهل زوجها بالجدية والتقوى والورع والمصروف المحدد .

تلك الجدة الحبيبة على قلبي ، فقدت بصرها في أيامها الأخيرة . وذات يوم كنت
عائدة من سفر بعيد فاقتربت منها وقلت لها : قولي لي وبصراحة ماذا ينقصك ،

والى أي شيء تتوق نفسك ، ماذا يحرمون عليك من مأكولات؟
فالتفتت الجدة يميناً وشمالاً خوفاً من أن يراها أو يسمعها أحد رغم أنها لاتبصر
وقالت لي بصوت خافت جداً: إنهم يمنعون عني السيكرة وأنا أشتاقها أكثر من أي
شيء آخر فأنت تعلمين يا صغيرتي أنها رفيقتي ورفيقة صباي فكيف يفرقون بيننا؟
تأثرت من كلام الجدة فضممتها إلى صدري بحنان وهي حزينة على انطفاء نور
عينها الخضراوين الذي ظل يضيء العائلة ويعطيها الفرح قرابة الثمانين عاماً.
أمسكتها من يدها وأخذتها إلى الحديقة. هناك وبين أحواض الفل والياسمين
كانت الأرجوحة القديمة مازالت مكانها تتفرج على تغيير الأدوار في العائلة!
فكم من مرة أحضرت الجدة صغار العائلة وأجلستهم عليها وهي تهزها بيد وتدخن
السيكرة بالأخرى وصوتها العذب يداعب مخيلة الأطفال بينما تغني وتدندن
مواديلها الحلوة. وناديت على أولادي كي يبقوا إلى جانب جدتهم الكبيرة ويهزوا
لها الأرجوحة بينما أعد لها القهوة المطعمة بحب الهال ، مع كأس معطر بقطرات من
ماء الزهر ، وسيكرة تدفئ روحها المملأ بالعدوبة والعذاب! ...
عادت البسمة إلى محيا الجدة وهي تنفث دخان السيكرة ، رفيقة عمرها ، رغم
أنها لم تكن من النوع اللف الذي تعودت عليه. إلا أن أي شيء كان يفرحها
وخاصة أنه لم يعد بإمكانها لف السيكرة كما كانت تفعل سابقاً.
لقد عرفت علبة التبغ المعدنية اليتيم بعد أصابع جدتي اللبقة ، وبكت طويلاً على
فراق هذه الأنامل الجميلة ، وانزوت في ركن مهمل من البيت بعد أن كانت دائماً
الالتصاق بصاحبها الدائمة الحركة.
بعد أن حققت لها هذه الأمنية الصغيرة لن أنسى ماحيت دعواتها لي بالتوفيق ،
فقد انطلقت من أعماق الجدة وظلام عينها يكاد أن يتحول نوراً من شدة انشراح
صدرها وفرحها بما حصلت عليه.

مساكين أهلونا الكبار، إنهم يفرحون بأقل شيء وظالمون نحن الصغار . إذ
نصدر بحقهم أوامر صارمة لانهاية لها وعذرنا الوحيد أن الغاية صحتهم!
وهل تكون الصحة بزيادة عدد الأيام ولو عاشها الكبير تحت ضغط وشعور
بالحرمان؟

كانت تلك الجدة اعتادت التدخين منذ أكثر من ستين سنة وذلك يعني أن
السيكارة لم تؤثر عليها وإلا لرحلت منذ زمن بعيد! فلماذا تمنع عنها ماتحب وما
اعتادت عليه منذ صباها؟

تغيرت الأيام كثيراً! هكذا كنت أفكر وأنا أهز لجذتي أرجوحتها في ذلك اليوم،
ولعل الأرجوحة كانت تفكر مثلي! فالتفتي كانت لولب العائلة أصبحت بحاجة إلى
أصغر طفل في العائلة ليدلها على الحمام.

آه كم تقسو الشيخوخة على الإنسان ثم يجيء الآخرون ليزيدوا من هذه القساوة
بالنظم الإنسانية! إن من حق الشيخوخة أن يقضوا ماتبقى لهم من أيام بحرية وسعادة،
ولرب أيام فرح قصيرة أفضل ألف مرة من سنين أو شهور يسودها القهر والشعور
بالحرمان! ...

جدتي لأبي

فاطمة سلطان

جدتي لأبي السيدة فاطمة سلطان ابنة الحاج أحمد سلطان أحد أكبر تجار حماه وأكثرهم استقامة وأفضلهم سمعة . وكانت رحمها الله من أذكى ما رأيت عيني ، قليلة الكلام ، لاتعرف ثروة النساء ، وكنت أحترمها كثيراً وكم من مرة جلست أحدثها عن أحداث تأميم قناة السويس والاعتداء الثلاثي على مصر الحبيبة وكانت تستمع إلي بانتباه عجيب وتدعو في نهاية حكاياتي أن ينصر الله العرب والمسلمين . لقد كانت علاقتي بجدتي تختلف حسب شخصية الجدة ، وجدتي لأبي كانت جدية إلى أبعد الحدود وشبه صامته ، تحب أولادها إلى درجة العشق وتحنو عليهم كثيراً ، وكانت الأثرة إلى قلبها ومفتاح سرها حفيدتها أختي فاطمة الزعيم .

ولقد زرعت في والدي حب البنات وكانت تحسه على الاهتمام بنا أكثر وأكثر وخاصة المتزوجات منا ، وكم من مرة حرمت أنا من إحدى هدايا الوالد من الأسفار البعيدة لتنعم بها إحدى أخواتي المتزوجات . فالقانون عند جدتي أن الأفضلية لمن لم تعد تعيش تحت سقف بيت أبو خالد رغم كل الإعانات المالية والخرجيات والهدايا لبناته المتزوجات ولأولادهن إلا أن ذلك لم يكن كافياً بنظر الجدة العظيمة الحنون .

أذكر أنها كانت تنام في غرفتي حين تحضر لزيارتنا نظراً لبعد غرفة المنامة الخاصة بالضيوف عن غرفتنا وعن الوالد خاصة ، وكنت أستمتع بتهيئة الغرفة لتليق بمقامها

فأقطف الياسمين والفل من على الشرفات وأرشها على الفراش النظيف . وعرفت فيما بعد أنها كانت تحكي لنساء العائلة وبناتها عني وعمّا أقوم به لإسعادها وإضفاء جو من العطر والشذى على حبيبة قلب أبي أبو خالد وقد كانت لها القداسة والحب الأعظم في قلب والدي .

وإذا ما صدف أن توترت العلاقة بين أبي وأحد أشقائه بسبب سوء تفاهم بسيط في العمل (رغم أنهم كانوا يحبونه حباً يشبه العبادة، وقد بكى عمي أبو عصام يوم وفاة والدي، وقال بالحرف الواحد: اليوم تيتمنّا يا أبو خالد!) كانت جدتي تقدر نظرة والدي ورؤيته الجدية وتحترمهما ولذا فقد كانت تلتزم الصمت ولا تتدخل أبداً رغم حنانها الكبير على أبنائها الصغار خاصة ولا ترضى أبداً أن يشدّ أحد عن تعليمات وأوامر بكرها الغالي أبو خالد .

ويوم وفاتها حاولت جدتي الاتصال هاتفياً بالوالد وكان في جلسة عمل في غرفة تجارة حلب فوعد بالاتصال فيما بعد، ولم يكن يعلم أنها تحاول أن تودعه بإحساسها وإيمانها السليمين، وكيف له أن يقدر ذلك وهي بصحة وعافية! . . . وقد بكى الوالد بحرقة والدته وارتدنا الثياب الكحلية لفترة من الزمن، وكانت هذه أول تجربة لي مع وفاة أحد أفراد العائلة ولم أكن أعلم أنها المقدمة للرحيل المفجع الكبير بفراق أحب الناس : الوالد . فقد نادته من وراء الغيب ودعته إليها بعد فترة قصيرة .

وبقي الوالد يردد عبارة «وأسفاه عليك» طيلة الأشهر التي فصلت بين وفاتها ورحيله عنا .

إلا أن الحادثة التي بقيت في بالي هي فقدان أبي لإناء زهور مدخل البيت . ففي البيت الجميل الأنيق في حي السبيل الذي كنا نقطنه كنت أضع إناءً من الكريستال عند مدخل الدار وأقطف الياسمين الصفراء لتعايش أياماً قليلة مع

المياه في هذا الإناء الجميل وإذ ينعكس المنظر على المرآة تعطي القادم إلى البيت شعوراً بالانشراح والسعادة، فكان الوالد يسعد لما أقوم به ويتفقدّه إذا ما غبتُ لسبب ما أو تأخرت بإعداده.

وحين وفاة جدتي ولشدة حزني على والدي وتقديري لمدي الآسى الذي كان يسيطر عليه أخذت إناء الزهور إلى المطبخ وقلت للخدم ألا يعيدوه ثانية قبل أن أسمح لهم بذلك.

وحزن الإناء وبكت اليا سميثة الصفراء مع آخر قطرات الماء التي انسكبت أخيراً، وفرغ المكان من الجمال، وعاد أبو خالد إلى البيت وذكره غياب الزهور بالراحلة العزيزة فدمعت عيناه ولكنه ناداني وأمرني بإعادة الزهور إلى مكانها.

لهذا السبب بكيت كثيراً وبحرقة حين أفرغوا المدخل والصالون الكبير من الزهور والتحف واللوحات عندما فوجئنا بوفاة الوالد، وذلك حداداً عليه. لأنني شخصياً أقرب إلى فكره وعقله وأعلم كم هو حضاري حتى في حزنه، حساس ورقيق، فلم يرض أن تفارق عينيه منظر الزهور الجميلة، بل على العكس ربما كان يرى أن هذه المخلوقات التي وهبنا إياها الله سبحانه وتعالى تخفف وطأة الحزن وتنشلنا إلى عوالم أكثر روحية فنقدّر أن الجسد فان ولا يبقى سوى الذكريات الحلوة والحضور الأنيس الذي لا ينسى ولا يروح مع غياب الجسد.

ألف رحمة عليك يا جدتي فاطمة ياست النساء، فقد أعطينا والوطن إنساناً عظيماً أحبنا وخدم بلاده بحب وإخلاص بدون أنانية وترك لنا تجربة إنسانية رائعة، وحصننا من غدر الزمان بالعقل وبما أمكنه من المال الحلال.

القسم الثاني

مؤلفات محمد سعيد الزعيم

أولاً - كتاب الاقتصاد

ثانياً - كتاب الرحلات

ثالثاً - كتاب مدينة أبي الفداء

ومساهمتها في ثورة ١٩٢٥

أولاً - كتاب الاقتصاد

محمد سعيد الزعيم - رجل الاقتصاد الكبير

تقرير عن الأحوال الاقتصادية العامة في سورية

كتيب دقيق التعبير عن الأحوال الاقتصادية في سورية
نشره حين كان نائب رئيس الغرفة التجارية في حلب وكان
له بالغ الأثر في رسم مناهج الاقتصاد السوري

ونلاحظ أن المرحوم محمد سعيد الزعيم نشر عدداً كبيراً
من المقالات في مجلة الغرفة التجارية في حلب وفي
مراجع اقتصادية أخرى ومجموعها يمثل عقيدة في بناء
الاقتصاد والتجارة على أسس سليمة.

تقرير عن الأحوال الاقتصادية العامة في سورية

بقلم المغفور له محمد سعيد الزعيم

نائب رئيس غرفة تجارة حلب

كُتِبَ ونُشِرَ في مجلة غرفة تجارة حلب في ١/١١/١٩٥٠

توطئة

لقد كانت السنين ١٩٤٧ - ١٩٤٩ شديدة الوطأة على سورية، نهكت قواها الاقتصادية بتأثير عوامل عدة خارجية وداخلية. ولكن هذه الأزمة باشرت تتفكك في عامنا الحالي، حيث أمكن للحكومة السورية أن تسيطر على شؤون البلاد الاقتصادية بعد ١٤ آذار ١٩٥٠، اثر فصم عرى المصالح المشتركة السورية اللبنانية، فتنفست سورية الصعداء - بالرغم من أنها ماكانت تود هذا الانفراد في العلائق مع بلد مجاور شقيق عزيز - وساعدت الأحوال العالمية القلقة، على خلق نشاط جديد في ميدان التصدير، فأمكن للإنتاج السوري أن يشق طريقه إلى بلدان مختلفة بأسعار حسنة أغرت المنتج على التوسع في إنتاجه، كما أن أسواق الاستيراد لقيت رخاء، حيث توقف دولاب الهبوط. وحركة التمويل العالمية الشاملة شملت سورية أيضاً فاستفاد منها المستوردون بعد مديد الضر، وتفتحت أمامهم آفاق جديدة للعمل، ماكانوا ليروها لو بقي حال سورية على ماكان عليه في علائقه السابقة مع لبنان، وعادت الحياة لدور الصناعة بعد أن كان معظمها مهدداً بخطر التوقف

الأبدي والانحلال . ولعبت اليد العاملة دورها في هذا الميدان تفيد وتستفيد، ولحق بمعظم الطبقات ومختلف المهن خير تفاوتت درجاته، وراحت الحكومات السورية المتعاقبة ترسم الخطط لتحقيق آمال البلاد الاقتصادية واستثمار إمكاناتها المتعددة، فاستقام شأن النقد واطمأن الناس إلى مستقبل سورية الاقتصادية الذي يبنى على أسس قوية من الإنتاج المحلي، ويجب أن يتوفر له إخصائون فنيون، حتى لاتأني نهضتنا طفرة ولا برامجنا خيلاً.

سأستعرض مختلف أحوالنا الاقتصادية وآمالنا، في النواحي الثلاث: التجارية والزراعية والصناعية، وفي شؤوننا العامة المتعلقة بها، علني أستطيع الإلمام بالمهم في هذه النواحي، لخدمة القراء والمجتمع السوري.

أولاً - التجارة

آ - أسباب نشاطها

إن استبعاد فكرة طرح ضرائب جديدة خلق في النفوس آمالاً جساماً؛ وسياسة تشجيع الاستيراد المباشر من الخارج التي لجأت إليها الحكومة وترك الحرية للمصدرين يتصرفون بأقيام تصديراتهم من العملات الصعبة بقيود شكلية تستهدف خير المستوردين، كل هذا كان عاملاً لاستعادة كثير من رؤوس الأموال النازحة عن البلاد، حيث وجدت مجالاً رحباً للاستثمار. وحرب كوريا لعبت دورها في نشاط مختلف الأسواق، وأتيح للمصدرين السوريين إمكان وساطتهم لتصدير إنتاج بلدهم، فشهدت سورية بمتاجرها ومصارفها وسماسرتها ووسائط نقلها تحسناً يذكر شمل طبقات عدة بخيره. وأمكن لمرفاً اللاذقية أن يثبت وجوده بحركة طال العهد بها منذ قديم الزمان، ودبت الروح في جسم المراكز الجمركية السورية مثل دمشق

وحمص وحلب، مما اضطر ولاية الأمر إلى التوسع في ملاك الموظفين لتأدية واجبات الحالة الجديدة.

ب - زيادة النقد المتبادل

وإزاء هذا التضخم في ميادين الاقتصاد المختلفة. أضحي من اللازم زيادة النقد المتداول لتلبية مطالب السوق، وهذا مادعا الحكومة إلى أن تفكر بإصدار جديد تغطيه بعملات نادرة تشتريها من المصدرين، تحتفظ بها لمصلحة البلد ودعم مالياتها وخدمة متجيتها.

ج - العلاقات الخارجية

كما أن مختلف البلدان الشرقية والغربية تعمل لتقوية علاقاتها التجارية معنا. فهذه وفود الباكستان والهندستان تدعو إلى توثيق عرى الروابط الاقتصادية معها، في الصادرات والواردات، وهؤلاء الملحقون التجاريون من امريكيين وفرنسيين وسويسريين وبلجيكيين وغيرهم، يتواردون تباعاً يدعون لصادراتهم ويفتشون عن صادراتنا.

ولئن طالبنا الحكومة السورية بسرعة تنظيم علاقاتنا التجارية مع الدول المتعاملة معنا لإنصافنا والانتصار لحقوقنا في تكافؤ عادل أو قريب منه، فإنه ليس كل سوري أن يستقيم ميزان تجارتنا الخارجية، لأول مرة في تاريخنا الحديث مع بعض الدول.

فهذه انكلترا وبلجيكا تستوردان منا ما يقترب بميزاننا التجاري معهما من التعادل المنشود، وكم كنا نتمنى لو أن ظروف مصلحة الجمارك السورية، تساعدنا على نشر أرقام التبادل التجاري مع الخارج، في الربعين الثاني والثالث من عامنا الحالي، حتى نعطي الدليل اليبين على استقامة الميزان التجاري بعد طول اعوجاجه.

إلا أن أملنا قوي أن عام ١٩٥١ سيكون إن شاء الله محققاً لأمانينا في تعادل المدفوعات التجارية الخارجية، إذا ساعدت الظروف على استدامة هذه الأسعار الحالية لإنتاجنا المختلف.

وسعي الحكومة في إقامة علاقات تجارية ثابتة مع ألمانيا الغربية، تنتظر نتائجها بفارغ صبر، ذلك لأن بيننا وبينها من الصلات الاقتصادية الحيوية ما يدعو إلى الاستعجال في تنظيم هذه العلاقات، فهي راغبة في شراء إنتاجنا من القمح والشعير والذرة والقطن والجلود وغيرها. ونحن بأشد الاحتياج لآلاتها وصناعاتها، بطريق المقايضة لتموين الزراعة والصناعة السورية فضلاً عن السلع التجارية. كما أننا مازلنا ننتظر تطوراً في صلاتنا التجارية مع تركيا، وهي الدولة المجاورة ذات العلاقات العديدة مع سورية، لتفسح لنا مجالاً في أن نصدر إليها ما يتعادل مع استيراداتها منها.

د - العلاقات الاقتصادية بين الأقطار

والأمنية التي يخفق لها فؤاد كل سوري، هي أن يرى العلاقات الاقتصادية بين دول الجامعة العربية، وقد انتظم عقدها، توحدت مقاصدها ومناهجها. وإن المؤتمر القادم للغرف التجارية والصناعية والزراعية لبلاد الجامعة، المنوي عقده في الاسكندرية في كانون الأول القادم (ديسمبر)، هو قبلة أنظار الجميع يستبشرون من ورائه خيراً ونفعاً. وجدول أعمال اللجنة التحضيرية المؤلفة لهذه الغاية، والتي اجتمعت في بيروت وعاليه في آخر أغسطس من العام الحالي. وفي الرابع من أيلول (سبتمبر) ممثلة بمدير غرفة تجارة الاسكندرية، وبسكرتير غرفة تجارة بغداد ورؤساء غرف تجارة بيروت وطرابلس وصيدا ومعاونهم، وأمين سر غرفة تجارة دمشق وبنائب رئيس غرفة تجارة حلب، ينبئنا هذا الجدول عن أهمية المواضيع التي سوف يعالجها المؤتمر القادم، مثل إنشاء غرفة تجارية صناعية زراعية عربية موحدة أو

إنشاء اتحاد لغرف البلاد العربية، والعلاقات التجارية ما بين دول الجامعة وما يوطدها وعلاقات هذه الدول مع غيرها، وأنظمة النقد وتحويل المدفوعات والرسوم والحواجز الجمركية وحركة الترانزيت وحرية الانتقال للأفراد والمواصلات المختلفة. ثم حماية الصناعات ووسائلها وتسهيل تبادل الإنتاج الصناعي والزراعي وإعطاء الأفضلية للمنتوجات الوطنية في كل بلد، وفي الزراعة تشجيع الإنتاج وطرق تحويله وتوحيد المكافحة ضد الآفات الزراعية وتشجيع الصناعات الزراعية، وبرامج الإغاثة الدولية في الشرق وأثرها في الاقتصاد العربي، إلى غير ذلك من الأبحاث والشؤون الهامة.

ولئن كانت غرفة تجارة حلب قد دعت منذ خمس سنوات إلى مثل هذا المؤتمر وكتبت لأجله لمختلف الغرف التجارية في العواصم العربية، ولئن حالت ظروف الماضي دون تحقيق هذه الأمنية، فإنه مما يسعد الغرفة أن ترى أمنيته وشبكة التحقيق. وإن الأستاذ علي شكري خميس مدير غرفة تجارة الإسكندرية وهو الذي عمل قبل الحرب الأخيرة لإنشاء غرفة تجارية مصرية سورية لبنانية في بيروت والذي تربطه بغرفتنا صلات ود صادقة؛ والسيد جعفر الشبيبي سكرتير غرفة تجارة بغداد، وله صلة وثيقة بمختلف الهيئات الاقتصادية العربية؛ والسيد عبد الرحمن سحمراني رئيس غرفة تجارة وصناعة بيروت، وهو شديد الإيمان بواجب التعاون العربي في ميدان الاقتصاد؛ يعمل هؤلاء واخوانهم في سبيل فكرة سامية وخير شامل، تناصرهم حكوماتهم أنى كانوا وتتسابق لحضانة المؤتمر الأول، فيكون النصيب من حظ الكنانة معقد الآمال ومحط رجالات العرب، على أن يليه من بعدها العراق، وهو البلد العربي المتين المتلهف لتحقيق هذا التعاون المنشود.

ولقد قامت بين المملكة العربية السعودية وبين سورية، معاهدة تجارية وقعت في ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٠، تستهدف توطيد العلائق التجارية بين البلدين العربيين،

وتقديم قرض مالي من قبل خزينة جلالة العاهل العربي ، وإهداء آلات يستعان بها لإنشاء المرفأ السوري في اللاذقية . وقد هلت سورية لهذا التعاقد بين الأخ وأخيه ، لا لأن الصادرات السورية ماكانت تشق طريقها إلى الحجاز قبلها ، ولا لأن في المعاهدة ما يضمن لهذه الصادرات أفضلية على غيرها وهي خلو من ذلك ، بل لأن سورية راحت تؤمن بضرورة التعاقد التجاري لانسجام علاقاتها الخارجية . ولئن حالت ظروف طارئة دون متابعة تنفيذ مضمون التعاقد السعودي السوري ، فنحن نرجو أن تزول هذه الظروف لاستدامة أحسن العلاقات مع قطر عربي كبير ، تربطنا به وبزعيمه روابط عدة من الإخلاص المتبادل والعطف والنية الحسنة .

وإنه لما يسوء كل عربي صميم أن يرى الصادرات السورية إلى الحجاز تنحسر في زمن المعاهدة أمام فيض واردات اليابان في أسواق جدة ومكة ، ولعل رجالات البلدين يعيدون النظر في علاقاتهم المتبادلة ، فيزيلون من سبيلها ما عترضها من عقبات .

والخطوة الثانية التي خطتها الحكومة السورية ، هي إيفادها لمصر بعثة اقتصادية لإجراء مباحثات تجارية ، تسبغ على التبادل التجاري بين البلدين لباساً جديداً من التنظيم والسعة . وقد أسفرت هذه المباحثات عن إتفاق ، إن لم نقل أنه واف بالمرام ، فهو الخطوة الأولى نحو استعادة علاقات قديمة ثابتة كبيرة . والصعوبة في التوفيق بين مصالح البلدين الحالية مبعثها أن في مصر سياسة اقتصادية مرسومة تقوم على الحماية المطلقة ، وإن صناعاتها وافر الإنتاج ، ويفيض بعضه عن الحاجة فيعد للتصدير ، وإن السمن (المسلى) والنسيج الحريري الحمصي وغيره ، مما اعتادت سورية على تصديره لمصر من قبل ، يتوفر إنتاجه هناك محلياً نتيجة للسياسة الاقتصادية المصرية الحكيمة التي اتبعتها مصر منذ عام ١٩٣٠ ، والتي خلقت اقتصاداً مصرية قومياً بحثاً نغبط الشقيقة الكبرى عليه ، ونتمنى له اضطراد التقدم

والازدهار. على أنا نتمنى على حكومة وادي النيل الشعبية أن ترعى علاقاتنا المتبادلة بعطف أكثر يضمن تكاتف العلائق المشتركة ويقويها، فإن في هذه القوة ما يعود بالخير والنفع على الجميع وعلى الوطن العربي الكبير.

ونعتقد أن زيارة معالي وزير التجارة والصناعة المصرية الأستاذ محمود سليمان غنام لسورية أخيراً، سيكون لها أظيب الأثر في تحقيق تعاون اقتصادي يخفف كثيراً من حدة البعاد بين النظريات المتباينة، وإن لم تسفر أنياً عن نتائج ملموسة عملية في حقل التبادل التجاري.

والأمر الذي أثلج الصدور بشراً وأملاً، هو ترحيب العراق باتفاق تجاري مع سورية، كما أعرب عن ذلك سعادة وزير القطر الشقيق المفوض في دمشق، فإن ما بيننا وبين العراق من علائق الود والقربى والتجارة القوية، ما يوجب الشروع فوراً بهذا الاتفاق. وكثيراً ما رغبت الغرفة التجارية في مختلف العهود إلى الحكومة السورية أن تحقق للبلاد هذه الأمانة الغالية، ذلك أن العراق بحاجة لصناعاتنا المختلفة وليس في مقدور بلد آخر أن يؤمن له هذه الحاجة كما تؤمنها سورية، ولأن سورية هي بحاجة أيضاً لكثير من إنتاج العراق ومحاصيله، سواء لاستهلاكه المحلي أو لإعادة تصديره. ومصلحة البلدين الجارين تقضي بأن تكون السبل الرسمية وحدها واسطة التبادل التجاري بينهما، ومن أولى بالعراق وسورية من أن يقيما علاقاتهما الاقتصادية؟ على أسس من الانسجام والنظام والمنافع المشتركة المتبادلة فلئن رجونا للنيات الحسنة أن تظفر بتحقيق آمال الهيئات الاقتصادية في البلدين، فإنما نعبر عن رأي الأكثرية المؤمنة بالتعاون العربي لإنشاء وحدة اقتصادية عربية جامعة.

واتفاق (الترانزيت) مع المملكة الأردنية الهاشمية، يخلص بنا إلى رغبة أسمى لقيام معاهدة أوسع مع البلد المجاور في الجنوب، وهو السوق الكبيرة لسورية بين أسواق البلاد العربية، كما أن سوريا تعتبر ميداناً فسيحاً لمصالح ومنافع هذا البلد الشقيق.

هـ - بين سوريا ولبنان

لقد وصف (التصميم الإنشائي للاقتصاد اللبناني) الذي أصدرته جمعية الاقتصاد السياسي اللبنانية عام ١٩٤٨ هيكل الاقتصاد اللبناني الحالي بما يلي:

«إن لبنان، وهو منتج ضعيف لمواد الاستهلاك، مستهلك كبير من جهة ثانية لهذه المواد، بسبب ارتفاع مستوى معيشة سكانه، هذا المستوى الذي يفوق مستوى البلدان المجاورة. أما سورية البلد الزراعي قبل كل شيء، فثلثا سكانها على الأقل يعيشون من الزراعة وتربية المواشي، ومستوى معيشتهم جد وضعيف. أضف إلى ذلك أن سورية تنحو بطبيعتها إلى الصناعة. وقد نشأت فيها ونمت صناعات مختلفة تبدو قابلة للحياة. وأخيراً فقد بدأت سورية منذ ثلاث سنوات أن تكون بلداً للتجارة ولتجارة المرور».

وجاء أيضاً في موضع آخر مايلي: «أنا والحالة هذه تجاه بلدين مكونين تكويناً اقتصادياً مختلفاً، وهما متباينان تبايناً ملموساً، فإن سورية تجني بالوحدة الجمركية القائمة منذ كانون الثاني ١٩٤٤ الفوائد جميعها وتبتلع لبنان اقتصادياً، وهذا ما حذرت منه جمعية الاقتصاد السياسي اللبنانية».

وجاء أيضاً في نشرة هذه الجمعية تحت عنوان: **مصير الوحدة الجمركية السورية - اللبنانية** «وإذا مانظرنا إلى ما ينتج عن درس هيكل لبنان الاقتصادي وميزان مدفوعاته الخارجية، لايسعنا إلا أن نتحقق من أن عدم توازننا الاقتصادي، يرجع بقسمه الأكبر إلى وحدتنا الجمركية مع سورية، وإلى اشتراكنا في سياسة اقتصادية واحدة، وعلينا أن نتيين ونقول بدون خشونة، إن لبنان يخسر استقلاله الاقتصادي

والضرائبي في ظل الوحدة الجمركية بينه وبين سورية. فيجب أن يسعى لاستعادة استقلاله الاقتصادي والمالي تجاه سورية كما حظي به تجاه جميع الدول الأخرى». ونشرت هذه الجمعية جداول لموازنة المدفوعات السورية اللبنانية، فأثبتت أن هذا الميزان قد اختل منذ عام ١٩٤٦، حيث اضطر لبنان أن يدفع سبعين مليون ل.ل. ليسد عجز مدفوعاته مع سورية. وقالت أن تسرب هذه الرساميل يمثل هذا يقابله فقر معادل، وأن وحدة التشريع الاقتصادي والضرائبي والإجماعي، هي شرط أساسي لكل وحدة اقتصادية وجمركية. وهذا ماكانت تفقده الوحدة السورية اللبنانية، ولبنان لايشاء التخلي عن سيادته. ومن ثم إن الوحدة الاقتصادية والجمركية السورية اللبنانية عملت، خلال السنوات الأخيرة، بحيث ضحت بالمصالح الاقتصادية اللبنانية، وقد أصيب لبنان إصابة مميتة في فروع نشاطه الاقتصادي كافة».

وجاء أيضاً في نشرة أخرى للجمعية الآتفة الذكر، صدرت في ٢ آذار ١٩٥٠، عن العلاقات اللبنانية السورية مايلي: «عند ذاك بدأت ترسم سياستان اقتصاديتان مختلفتان، فطالب السوريون بتحديد الاستيراد وزيادة الرسوم الجمركية عامة، في حين أن اللبنانيين راحوا يطالبون بحرية الاستيراد المطلقة. وقد أجبنا على حجة السوريين القائلة بضرورة المحافظة على الرساميل الضخمة المكتنزة في أيام الحرب بقولنا: الاستيراد أو الموت».

ثم تقول النشرة ذاتها: «هل يريد حقاً أصدقاؤنا السوريون فك الاتحاد الجمركي؟ أليس بقاؤه يرجع بالنفع عليهم أولاً؟ وهل يرضى لبنان بالشروط التي يرسمها له السوريون من أجل المحافظة على هذا الاتحاد؟ أليس قبولها يؤدي إلى إنهيار الاقتصاد اللبناني إثر دمجها بالاقتصاد السوري الهزيل، الصائر إلى الانهيار المحتوم؟ وماذا تقصد سورية من إنشاء مرفأ اللاذقية؟».

ثم تنصح النشرة سورية بقولها: «إنه لمن الخير لسورية أن تقلع عن تحقيق أحلامها في العظمة والسيطرة، أما إذا فشلت مساعي الحكومة اللبنانية الجاهدة بتأمين المحافظة على الاتحاد الجمركي القائم، عند ذلك يتحتم على كل من البلدين، أن يعمل على إعادة تنظيم اقتصاده، وعلى اختيار السياسة الاقتصادية والتجارية التي تناسب مصالحه وتتفق معها».

ونشرت الجمعية المذكورة نشرة أخرى في أيار ١٩٥٠ تحت عنوان: القطيعة الجمركية بين سورية ولبنان جاء فيها مايلي:

«إن القرار الذي اتخذته الحكومة السورية عشية ٣ آذار المنصرم، بفصل الاتحاد الجمركي بين سورية ولبنان. قد نفذ بدون ما هوادة. وقد دلت المذكرات المتبادلة بين الحكومتين خلال الأشهر السابقة من كانون أول ١٩٤٩ إلى آذار ١٩٥٠، على العقبات الكأداء، وعلى تباين وجهات النظر بشأن المحافظة على الاتحاد الجمركي أو تحويله إلى وحدة اقتصادية شاملة. وإذا مانظرنا إلى الأمر من ناحيته الاقتصادية المحضة، نجد أن لبنان لا يستطيع أن يوافق على قبول نظام اقتصادي، توجهه دمشق بغية حماية كافة المنتجات الصناعية والزراعية حماية كيفية اعتباطية، ولا يستطيع أن يقبل بتجربة جديدة في الاقتصاد الموجه مع كل ما يحف بها من التضييقات والمداخلات السياسية والبيروقراطية، والكوثا، وكل ما تجره من غلاء في أسعار المعيشة ومن التجاوزات. ومن هنا نجد أن الجواب اللبناني الكريم الحازم، المؤرخ في ١٠ آذار ١٩٥٠، كان الجواب الوحيد الذي يستطيعه لبنان، رداً على الإنذار الموجه إليه في ٧ آذار. وقد وضح الآن أن أسواقاً جديدة ستؤمن لتصرف جزء كبير من منتجات لبنان التي كانت تجد لها سوقاً في سورية، وأن التموين الذي كانت تؤمنه لنا سورية بالبضائع والمنتجات، سيؤمن لنا من مصادر كثيرة، وأن مجاري جديدة للتبادل التجاري بدأت تظهر وسترسخ خلال الشهور المقبلة».

هذا ماجاء على لسان جمعية الاقتصاد السياسي اللبنانية في مناسبات عدة ، هذه الجمعية التي يصح أن يقال عنها أنها تنطق بلسان الهيئة المسيطرة والموجهة في البلد الشقيق . وكان من حق سورية وقد أضناها مالمقيته من شذائد سياسة المصالح المشتركة الاقتصادية السابقة ، أن توحى إلى حكومتها روح مذكرتها إلى لبنان في ٧ آذار ١٩٥٠ (التي أجابت عليها الحكومة اللبنانية في ١٠ منه سلباً) ، ليس لحماية مصالحها والحفاظ على ثروتها القومية المهددة بالدمار الأبدي فحسب ، بل للتخلص من شكاوي لبنان وتأفقه من الوحدة الجمركية التي تبدو ظاهرة في أقوال جمعية اقتصاده السياسي ، وأن تسير في سبيلها الاقتصادي الجديد ، معتمدة على إمكانياتها وإرادتها في الاقتصاد الموجه القائم على الحماية المقيدة لا المطلقة ، وعلى حقها في حرية التشريع والتدبير والتنفيذ ، ولا سبيل للتدليل على صحة النظرية السورية ، فإن لسان حالها اليوم أفصح من لسان المقال . إلا انا نظمئن صديقنا الأستاذ منسى ، ان خان الجمرك بحلب الذي وصف تقهقره الاقتصادي في إحدى نشرات جمعيته ، قد عادت له الحياة ، وأنه اليوم سوق كبرى لتموين سورية وأحياناً لبنان بالقطع النادر ، عدا عن أنه أكبر مركز لتجارة واستيراد الخيوط والمنسوجات الأجنبية والوطنية في سورية . وأن نبين لأصدقائنا اللبنانيين أن سياسة سورية الاقتصادية الحالية ، هي سياسة كل حكومة سورية تلي الحكم في البلاد ، فليست إذا هي سياسة أشخاص ، وأن سورية ماأرادت أبداً الأضرار بلبنان ولا إخضاعه لإرادتها ، وإنما هي كما يقول المثل العربي : حر انتصر لنفسه . ونحن إذ نحترم آراء رجال الاقتصاد اللبناني ، فيما يعود لشؤون بلدهم العزيز ، نتمنى مخلصين أن يكونوا موفقين في تحقيق أهدافهم لخيره ومصلحته ، فإن أول مايبهم كل سوري هو أن يرى لبنان دوماً مرتعاً للرخاء والصفاء والهناء .

ولقد حوت مجموعتنا هذه فيما بعد، باباً خاصاً للمراحل الأخيرة لتطورات العلاقات الاقتصادية بين سورية ولبنان، ومذكرة وزارة المالية السورية إلى لبنان في ١١/١٠/١٩٥٠، وملاحظات رجال المجلس الاقتصادي الأعلى في لبنان أثناء اجتماعاتهم إلى صاحبي المعالي وزير الاقتصاد والمالية فيه.

وإنه ليس كل مخلص غيور على علائق البلدين التي يجب أن تقوم على أساس متين من التعاون، أن يرى قرار المجلس الأعلى للشؤون الاقتصادية في البلد الشقيق الذي اتخذه أخيراً، يهدف إلى توصيته بالإبقاء على سياسة التعاون، هذا القرار الذي اعترف - خلافاً لما كانت تنشره من قبل جمعية الاقتصاد السياسي اللبنانية من جهة ميزان المدفوعات اللبنانية السورية وتصويره بصورة المضر بلبنان، بتكافؤ المدفوعات بين البلدين، وأن المدفوعات اللبنانية لسوريا ٨٠ بالمئة ثمن محاصيل زراعية وحيوانية و٩ بالمئة محاصيل صناعية و١١ بالمئة قيمة خدمات وانتقال رساميل، وأن المدفوعات السورية للبنان ١٨ بالمئة محاصيل زراعية و٣٩ صناعية و٤٣ بالمئة قيمة خدمات، وأن معظم العجز في ميزان لبنان التجاري مع سورية كان يسدده لبنان عن طريق الخدمات التي يقوم بها تجاه سورية (أرباح تجارة، ترنزيت، سياحة، اصطيفاف، أجور تعليم) ويقترح المجلس إقرار حرية تبادل المنتجات الصناعية بين البلدين، شريطة أن تكون مصنوعة بمواد أولية محلية، وفرض رسوم جمركية تفضيلية على البضائع المصنوعة من مواد أجنبية، وإنه في حال عدم الوصول لعقد هذا الاتفاق، فعند ذلك تتخذ تدابير تفصيلية تطبق على المواد الزراعية والصناعية وفقاً لجداول مرفقة، كما اقترح المجلس اقتراحات عدة حول الحماية المتبادلة العائدة للمحاصيل المحلية التي تتطلبها الحكومة السورية، وحول التبادل التجاري والترانزيت واتفاق الإقامة وحسن الجوار، وانتقال الأشخاص ورؤوس الأموال وتسوية الـ ٤٤ مليون ليرة المجمدة. ونحن إن لم نظن أن كل هذه

الاقتراحات ستجد قبولا لدى الجانب السوري ، فانا نعتقد أن التقريب بين النظريات والمطالب المتباينة ، هو لمصلحة الطرفين معاً ، ونظن أيضاً أن تسهيل مهمة الحكومتين للاتفاق على تعاقد اقتصادي تعاوني ، هو من واجب الهيئات الاقتصادية في البلدين ، ونحن نرجو ألا يطل عام ١٩٥١ ، إلا وقد قام عهد تعاوني جديد بين سورية ولبنان ، مع بقائهما مستقلين في سياستهما الاقتصادية حسبما يتوافق ومصلحة كل منهما .

هيكل الاقتصاد السوري

لاجرم أن الاقتصاد السوري اليوم غيره قبل الحرب الأخيرة ، بل غيره قبل خمس سنوات ، ولئن بلغ الانتعاش العالمي خلال الربع الأول من هذا العام ، مستوى جديداً لم يعهد له مثيل من قبل ، وكان هذا الانتعاش في العالم أجمع مستمر الخطوات السريعة في التعدين والصناعات منذ نهاية الحرب الأخيرة ، فإن سورية البلد الصغير العالمي ، سائر أيضاً - بقدر محدود - مع قوافل العالم .

ولقد دلت الإحصاءات العالمية ، أن الإنتاج العالمي زاد بمعدل ٥٧٪ عما كان عليه عام ١٩٣٧ ، وأن الزيادة في الربع الثاني من العام الحالي ، بلغت ١٣٪ عما يقابلها من السنة الماضية ، وأن الإنتاج العالمي للقوة الكهربائية ارتفع من ٣١٧٨٠ مليون كيلوات عام ١٩٣٧ ، إلى معدل سنوي قدره ٦٤٥٤٠ مليوناً في الربع الثاني من عام ١٩٥٠ ، والزيوت الخام ارتفع أيضاً من ٢١ مليوناً و ٣٧٠ ألفاً إلى ٣٨ مليوناً و ١٨٠٠ ألف طن متري .

وإزاء هذا النشاط الذي شمل العالم أجمع ، تجد سورية لاستثمار إمكاناتها المتعددة . وها ان بعثة البنك الدولي للتعمير والإنشاء تصل دمشق للاتصال بالحكومة السورية بغية تزويد البنك بكافة المعلومات عن المشاريع التي تطلب الحكومة تمويلها بواسطته ، وهذه المشاريع هي تخفيف مستنقعات الغاب والروج ،

وتنظيم ري الخابور وبناء سد يوسف باشا على نهر الفرات، لإنتاج القوى الكهربائية وتنفيذ مشروع اليرموك، ومرافاً للاذقية وإنشاء شبكة حديدية بين الساحل والداخل في سورية، فإذا ما حقق البنك الدولي تمويل هذه المشاريع. فإن فجراً جديداً اقتصادياً سيطل على البلاد يحقق لها آمالها في تهضة عامة شاملة تعيد إليها مجدها الاقتصادي المندثر.

وعلى هذا، أصبح ضرورياً أن يعنى بوزارة الاقتصاد الوطني خير عناية، لتلعب دورها الرئيسي في مستقبل سورية الاقتصادي، فيكون لها المقام الأول بين الوزارات السورية، ويرصد لها المال الكافي للقيام بالواجبات المفروضة عليها، وأولها وضع سياسة اقتصادية ثابتة لا تتبدل بتبدل الوزارات والأشخاص والعهود، يضعها أخصائيون فنيون ورجال عمليون على ضوء إمكانيات البلاد وحاجتها وإنتاجها وظروفها الموسمية ومقطوعيتها، ويراعى بها الحفاظ على الثروة القومية وتنشيط الدخل الفردي ورفع مستوى المعيشة، وتأمين العدالة الاجتماعية لكافة الطبقات، ثم التوسع في دوائر الإحصاء في كافة أنحاء الجمهورية السورية، لتشمل سائر المحافظات والأقضية، توجه المزارع والمنتج في ما يجب أن يسلكه في طرق الإنتاج ونوعه، وتمد الدوائر الاقتصادية والمالية، بكل المعلومات التي تجعل تدابيرها منطبقة على الحقائق والحاجة والمصلحة العامة. كما أن الإستعانة بالخبراء الماليين أصبحت ضرورة لازمة لتنظيم شؤون النقد والإصدار والتشريع المالي والضرائبي وقضايا القطع وغيرها، ليكون للبلاد دائرة فنية مالية مثالية.

ولقد نص الدستور السوري الذي نشر أخيراً، على إنشاء المجلس الاقتصادي الأعلى بموجب قانون، وتقدمت اللجنة الفنية التي تألفت لوضع هذا القانون وغيره إلى مجلس الوزراء بمشروع القانون المذكور، فبات يرجى قريباً صدوره عن المجلس النيابي، لقيام هذا المجلس الاقتصادي الذي هو من الضرورة بمكان والذي تحدت

صلاحياته بموجب المادة ١٥٢ من الدستور، باقتراح الخطط والمناهج الاقتصادية، لتنمية قابليات الوطن في مختلف النواحي الاقتصادية، وبتقديم التقارير ونتائج الأعمال إلى الحكومة ومجلس النواب.

ثانياً - الصناعة

لاتزال سورية توسع مرافقها الصناعية وتنميها، وتنشئ صناعات جديدة مختلفة ويمكن القول أن أرقام أثمان المستوردات الأجنبية في ميزان التجارة الخارجية تشمل قيام الكثير من الآلات والقوى المحركة، لهذا لا يصح اعتبار العجز في الميزان بين صادر البلاد وواردها عجزاً بالمعنى الظاهر فيه، طالما أن الأدوات الصناعية تشكل أرقاماً ضخمة في باب الاستيراد.

وغمرُ مروراً سريعاً في صناعات سورية الحالية، فنرى أن في دمشق وحلب من مغازل القطن والشاب قرابة ٨٠ ألف مغزل (بروش) يقدر إنتاج كل مغزل في ثماني ساعات بمائة وخمسين غراماً من الخيوط، تكفي حاجة دور الصناعة السورية، ونرى صناعة النسيج القطني والحريري الآلي والبلدي في حلب وحمص ودمشق، سائرة أيضاً في طريق النمو، وفي الأول وحدها من الأنوال الآلية (ميكانيك) ٢٣٠٠ نول، وستبلغ في العام القادم ٢٥٠٠، كما أن فيها من الأنوال البلدية (اليدوية) نحواً من ٧٥٠٠ آلة. ويقدر إنتاج النوع الأول في الثماني ساعات بـ ٢٥ متراً وإنتاج النوع الثاني بين عشرة أمتار وخمسة عشر متراً.

وقد أنشئت بحلب أول مؤسسة لغزل الصوف ونسجه وإنتاج الأجواخ، كما أن صناعة حلب الأقطان تسير بخطى واسعة في ميدان الانتشار تبعاً لازدهار زراعة هذه المادة. ومعامل استخراج الزيوت من البذور النباتية، تعمل بجهد ونشاط في دمشق وحلب، وسيتبعها قريباً المعمل التابع لشركة السكر في حمص، وتقدر الكميات

اللازمة من حب القطن لهذه المعامل سنوياً، بما يزيد على الثلاثين ألف طن عدا البذور الأخرى التي تستعملها هذه المعامل.

كما أن صناعة الإسمنت تتضخم، فمعمل دمر أنشأ فرعاً ثانياً، وفي الربيع القادم يزيد إنتاج هذا المعمل على ٤٠٠ طن يومياً، كما أن شركة الشهباء في حلب تجدد مسرعة لإنجاز أعمالها، وسيبتدىء دور الاستثمار فيها في أول الصيف القادم، حيث تنتج مائتي طن يوماً مبدئياً.

ومن الصناعات التي مازالت البلاد مفتقرة إليها، صناعة الورق والأسمدة الآزوتية والآجر في الجزيرة (وهي فقيرة بالأحجار الصالحة للبناء وغنية بمادة الغضار) وصناعة القطع التبديلية للمحركات والسيارات والتراكاتورات والآلات الزراعية، ونحن نرجو أن يحقق المستقبل أملنا في إنشاء هذه الصناعات وغيرها.

إلا أن صناعاتنا الناشئة تحتاج لمزيد المعونة المادية لها، لتزويدها بما تحتاج من المواد الأولية اللازمة، وللتوسع الضروري الأكيد النفع، وفكرة إنشاء المصرف الصناعي جد حيوية، يتطلع إليها أرباب الصناعات بلهفة وشوق أسوة بجميع البلاد الناشئة والعريقة في الصناعة، وهذه الفكرة واجب قومي تفرضه مصلحة البلاد العامة، لأن الحركة الصناعية في سورية أضحت تشكل ناحية هامة في نواحي حياتها الاقتصادية والاجتماعية، يقوم عليها معاش الآلاف المؤلفة من مختلف الطبقات، فعسى أن تدبر الحكومة أمر هذا المصرف الذي هو من الضرورة بمكان.

وهناك ضرورة قصوى لإنشاء دائرة صناعية فنية في وزارة الاقتصاد الوطني يديرها اخصائيون غربيون لتوجيه الصناعات الوجهة الصحيحة في الإنشاء والإنتاج وللحيلولة دون الغش ولتصنيف الصناعات الواحدة أنواعاً، تأخذ سمة واحدة في الخارج، ونعتقد أن من جملة ماتقوم به هذه الدائرة، إحصاء الصناعات السورية الحالية، ومنع استيراد آلات جديدة للصناعة التي أضحت كافية في البلاد أو

للصناعة التي يشك في نجاحها، حتى لانصاب البلاد بتضخم صناعي قائم على الارتمجال والمحاكاة أكثر من اقامته على الحاجة والإمكانات والدراسة العملية، كما وقع في بعض الصناعات المنشأة قديماً وحديثاً. كما أن من جملة ماتقوم به هذه الدائرة الرقابة على أكلاف الإنتاج وأسعار المبيع، حتى لاتطفي الصناعة على مصلحة بقية الطبقات.

ولقد أمكن لسورية منذ ١٤ آذار ١٩٥٠، التحكم في التدابير الجمركية، حسبما يتلاءم ومصلحة البلاد. ولا شك أن التصرف الحكيم في الرسوم الجمركية سيضمن الحماية المعتدلة لكثير من الصناعات المفتقرة في أول مراحل إنشائها لهذه الحماية ولتشجيع الحكومة، كصناعة الزجاج والسكر والقطر السكري (غليقوز) وبعض أنواع النسيج وغيرها، على أن تكون هذه الحماية عادلة لاتضير المستهلك ولا تضر بالأكثرية الساحقة.

ثالثاً - الزراعة

تتطور الزراعة السورية تطوراً حميداً، تشهد به هذه الآلات الحديثة المنتشرة في حقول الجزيرة والفرات وحلب وحمص وحمماه وحوران، سواء للحراثة أو لاستخراج المياه من الأنهر والأقنية ومن جوف الأرض، ومشاريع الري التي تتطلع إليها البلاد، متى قدر لها النجاح، ستحقق لسورية مستقبلاً لامعاً. فمستنقع الغاب الممتد بين قلعة المضيق وبين جسر الشغور، والذي تقدر مساحة أراضيه بثلاثين ألف هكتار، ومستنقع الروج غربي ادلب ومساحته ٣ - ٤ آلاف هكتار، ووادي الفرات ومساحته ٢٥٠ ألف هكتار، كل هذه المساحات ستصبح مستثمرة أحسن استثمار. وأراضي أملاك الدولة البالغة في محافظة حلب وحدها ٤٦٣ ألف هكتار وفي

محافظات الفرات والجزيرة (٣٢٠) ألف هكتار، سيكون لها مستقبل حسن يشار إليه بالبنان.

لقد بلغ إنتاج الحبوب في سورية عام ١٩٥٠، حداً وسطياً بسبب ضعف مواسم حمص وحماء وحلب، أما الجزيرة فهي التي زودت أسواق لبنان بحاجتها كما زودت الأسواق الداخلية وصدرت أيضاً للخارج، ويقدر إنتاجها بماثني ألف طن من القمح تراوحت أسعاره في حلب بين ٢٠ و ٢٥ قرشاً سورياً للكيلو الواحد.

أما زراعة الأقطان التي انتشرت في محافظات الشمال بوجه خاص، فيقدر إنتاجها هذا العام بما يقارب الأربعين ألف طن من القطن المحلوج. تستهلك المغازل السورية منه نحواً من عشرة آلاف طن أو أكثر ويصدر منه إلى الخارج نحو من عشرين ألفاً. ويبلغ سعر كيلو القطن المحلوج اليوم في حلب أربع ليرات سورية، وهذا السعر يغري المزارعين بزيادة المساحات المعدة لزراعة الأقطان في العام القادم حيث يرجى أن تكون مضاعفة عن المساحات الحالية. وهذا التجديد في الزراعة السورية ينبيء بتطور حسن عظيم في الحياة السورية عامة، يشمل سائر الشعب ومختلف الطبقات، ويمكن الريف السوري من أن يرفع مستوى معيشته. ويخلق روح الجد والهمة في نفوس المزارعين كافة لاستثمار أراضيهم أحسن استثمار، كما يخلق حركة دائمة في الأسواق والمتاجر ودور المال وكافة مرافق البلاد.

أما الإنتاج الحيواني الزراعي، فهو بالرغم مما أصاب الأغنام السورية من كوارث متلاحقة - حتى لم يبق منها سوى ثلاثة ملايين ونصف رأس - فإن هذا الإنتاج يجد أسواقاً رائجة له في كل مكان. وأمكن لسورية في هذا العام أن تصدر من الأصواف قرابة ٣٥٠٠ طن بيعت اللبيرة منه بأسعار تتراوح بين ٧٠ و ٩٠ سنساً، كما أن الجلود والأمعاء تصدر لجهات عدة. والسمن صدر قسم منه إلى لبنان في المدة التي سمح بها البلد الجار باستيراد هذه المادة، وركد القسم الباقي،

وأسعاره تراوحت بين ٤٥٠ قرشاً سورياً و ٥٤٠ للكيلو الواحد بين صعود وهبوط .
أما الكارثة التي حلت بسورية الشمالية ، في حلب وأعمالها ، في زراعة الزيتون
إثر الصقيع النادر المثال الذي وقع في الشتاء الماضي ، فقد كانت بالغة الأثر وذهبت
بثروة قيمة من ثروات البلاد ، إذ أطاحت بمعظم حقول الزيتون ، وجعلت موسم
هذا العام عدماً . ولعمري ان التعويض عن هذه الآلاف من الأشجار الخضراء
الزاهية التي أصبحت حطباً ، يتطلب سنين عدة ومجهوداً جباراً .

وتحتاج البلاد في الدرجة الأولى اليوم إلى آلات لتنظيم وتنظيف المحاصيل
الزراعية وتبويبها أبواباً ، تأخذ صفة دولية في الأسواق الخارجية ، أسوة بالبلاد
الراقية .

ويحاول البنك السوري اليوم ، القيام بهذه المهمة في سورية الشمالية ، ولكن هذا
لا يكفي ، وإنما ينبغي أن تبادر الحكومة - مستعينة بالدور المالية - للقيام بهذا
الواجب في كل محافظة منتجة ، وأن تكون هي المراقبة الأولى عملياً على كل
مشروع من هذا النوع ، حتى لا تكون طرق استثماره مطوقة للبلاد بقيد يأخذ صفة
المشاريع الأجنبية التي تعاني البلاد اليوم من جرائها ماتعانيه ، ونحن لانقول هذا
مضادةً لأي مشروع أجنبي ، فنحن أفقر مانكون اليوم للإستعانة بالمشاريع الأجنبية
لاستثمار مرافق البلاد ، ولكن ضمن حدود مصلحتنا القومية أولاً ، وعلى أساس
احترام مصالح البلاد وتأمين منافعها وحقوقها ثانياً ، بعيداً عن روح الاحتكار وفكرة
الاستعمار من أية فئة كانت .

مرفاً اللاذقية

لقد صدر مرسوم تشريعي رقم ٣٨ ، مؤرخ في ١٢ شباط ١٩٥٠ ، يتضمن
إحداث واستثمار مرفاً بحري في مدينة اللاذقية ، تشترك الدولة السورية بموجبه
بثلث رأس المال بصورة إلزامية ، وتأخذ على عاتقها تغطية الأسهم غير المكتتب بها ،

ولها زيادة حصتها بشراء الأسهم من الأسواق الحرة.

ومجلس إدارة هذه الشركة المؤسسة بموجب هذا المرسوم، يعمل في سبيل واجباته في الحقلين الداخلي والخارجي وقد أمن لمرافئ اللاذقية بالاشتراك مع وزارة الأشغال العامة السورية، مستودعات سدت فراغاً كبيراً في أعمال التصدير والاستيراد عن طريق هذا المرفأ، وأوجد له بعض الآلات الرافعة والاستثمارية الضرورية، وأضحى ثغر اللاذقية من بعد ١٤ آذار ١٩٥٠ سبيلاً مهماً للتجارة السورية عبر البحار، سلكته أكثر القوافل البحرية والشركات المختلفة. وأمكن لصادراتنا من الحبوب والجلود والأصواف وغيرها أن تنفذ للخارج بواسطتها عن طريقه، كما أن استيراد الحديد والإسمنت ومواد البناء والأخشاب والخيوط الحريرية والآلات والخرداوات ومختلف البضائع قد تم أيضاً من مرفأ اللاذقية. ووجدت سورية الشمالية تسهيلات كلية في علاقاتها بذلك، بالنظر لقرب المواصلات ورخص الأكلاف في المعاملات. ومتى باشرت شركة المرفأ الإنشاءات المرسومة وتمت التعهدات وتغطية الأسهم، فسيصبح لسورية مرفأ فني عصري يؤمن حاجتها ويصلها رأساً مع العالم الخارجي، لأن اللاذقية تمتلك نواة لمرافئ تجاري جيد الحماية واتساع كاف لمجابهة احتياجات سورية لسنوات عديدة، وهو قابل لكل التقلبات الجوية. وعندما يتم انشاؤه سيصبح مؤمناً في أرصفته لرسو ست سفن كبيرة وثلاث أخرى صغيرة، وستكون هناك زيادة على ذلك، مراسٍ يمكن لخمس سفن أن تحتلها دون أن تعرقل حركة السفن التي تستعمل الأرصفة. وهذا عدا المرفأ الحالي، الذي سيبقى كمرفأ داخلي يمكن أن تستعمله السفن الصغيرة والمراكب الشراعية والقوارب الكبيرة. ويقول تقرير (السير الكسندر جيب وشركاه) أنه من المقدّر لمرافئ اللاذقية أن يتدبر أمر أربعمئة ألف طن من البضائع سنوياً، فضلاً عن إمكان توسع في المستقبل.

إن إنشاء مرفأ اللاذقية الحيوي لسورية، لايراد منه إيذاء المرافئ اللبنانية، فهي ستظل بحكم موقعها واستعداداتها وقدمها، سبيلاً قوياً لتجارة سورية أيضاً والبلاد العربية، إلا أن من حق سورية كبلد مستقل تمتد شطآنه كثيراً على البحر الأبيض المتوسط، أن يكون له مرفأ عصري. لهذا فإن من واجب الشعب السوري، حكومة وشعباً، أن يتضافر لإنجاح مشروع المرفأ السوري، لخير محافظة اللاذقية الجديرة بكل مؤازرة وعناية وتنشيط، ولمصلحة سورية واقتصادياتها عامة.

الختام

وان من أعز أمانني الهيئات الاقتصادية في سورية، أن يكون التعاون والتشاور بين الحكومة وبينها قائماً في كل آن، وأن يعمل الجميع مخلصين لخير المجموع ورفاه البلاد. ونحن نرجو لوطننا السوري الأصغر، ولوطننا العربي الأكبر حياة عزة دائمة وفلاح مستمر، لتأدية الرسالة الإنسانية في هذه الحياة لخير المجتمع وصلاح البشرية والسلام.

حلب في ١٩٥٠/١١/١

محمد سعيد الزعيم

تمهيد

السيد محمد سعيد الزعيم

لنشرة عن أسبوع التنمية الاقتصادية المنعقد

في مدينة حلب في عام ١٩٦٢ يلحق المجموعة الاقتصادية

لمناسبة (اسبوع التنمية الاقتصادية) الذي انعقد في حلب في
٨ - ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٢ بحضور السيد خالد العظم رئيس مجلس
الوزراء وعدد من الوزراء والمسؤولين ورجال الاقتصاد والتجارة،
أصدرت غرفة التجارة ملحقاً لمجموعتها الاقتصادية تناول جميع
فعاليات هذا الأسبوع.

وفي هذا الملحق أكثر من بحث كتبه رئيس الغرفة التجارية السيد
محمد سعيد الزعيم، أولها تمهيد للنشرة المشار إليها يتضمن تقديم
الأسبوع، ثم كلمة الافتتاح التي ألقاها في الاحتفال الرسمي،
ومداخلات في شتى المواضيع، وهانحن ننشر منها مايتصف بالجدة
متجنين التكرار.

مقدمة السيد محمد سعيد الزعيم

كثيراً مادغدغ أحلامي ، مهرجان اقتصادي تقيمه الشهباء ، يقصده رجال الاقتصاد والعمل والإنتاج ، يتلاقى فيه الجميع على صعيد الإخلاص لهذا الوطن الحبيب ، بدافع من التقدير للمصالح العامة قبل المنافع الخاصة ، وبتفكير جديد : ان الوطن للجميع فيجب أن يتقاسم خيراتة الجميع .

وإذا كان لابد من التعاون بين الفرد والفرد ، وبين الفرد والمجتمع ، لنعيش كلنا - دون استثناء - عيشاً كريماً .

وإذا سلمنا أن الاقتصاد الوطني السوري ، ماقام إلا على أسس من الجهد الفردي والجماعي ، وأن الحكومات رعته وساعدته ، وأن لها حق الإشراف والتدخل في بعض الأحوال والمناسبات لأنها المسؤولة الأولى عن حق الفرد ومختلف الفئات والطبقات ، فإن معنى هذا كله ، أن المواطنين جميعهم حلقات في سلسلة متماسكة ، هي سلسلة الصالح العام ، وتاريخ الاقتصاد السوري معروف من الجميع بسبب حدائته ، ففي ظله انتقل كثيرون من العدم إلى مصاف السعة والخير : العمال منهم أضحوا صناعيين ، والموظفون والأجراء أصبحوا رجال عمل ، والفلاحون أمسوا ملاكين

وإذا كانت البلاد قد ارتضت التوجيه الاجتماعي الحديث عن قناعة وإدراك للواجب ، فإن سورية منذ خمسة عشر عاماً قد مشت في طريق من العدالة الاجتماعية أبيع لها أن تسمى بأول بلد عربي كانت الطبقة الوسطى فيه كثرة ظاهرة .

ولقد مرّت سورية بهزات وأزمات، وواجهها تخطيط اقتصادي مختلف صمدت له وبقيت لها حيويتها ومقدرتها على الحياة، وفي ظل الحكم الأخير الذي استهدف إصلاحاً عاجلاً وعدالة اجتماعية تسيرها النية الحسنة الخيرة، كان لابد من دعوة جديدة للعمل الجماعي لإعادة النشاط الاقتصادي والازدهار لمرافق الوطن المختلفة. ولذلك فإن التفكير في عقد مؤتمر للغرف التجارية والصناعية والزراعية في سورية، بجانب ندوات اقتصادية اجتماعية تبحث في التنمية وترسم الخطوط الأولى لبرامج جديدة من الإنشاء والاعمار في شتى الميادين، إن هذا التفكير الجديد عائد لتلك الأحلام والآمال التي ألمت إليها في أول هذا الكلام، وهو يستهدف التنفيذ الفعلي لا الاسترسال في الأحلام والآمال.

ورفعت الفكرة إلى بعض الزملاء، ثم إلى بعض المسؤولين، وسرعان ما تلاقحت الأفكار والنيات فألفت تجاوباً كلياً، لاسيما وأن سورية مدعوة لمؤتمر اقتصادي عربي يعقد في تونس وان شؤون البلاد الاقتصادية الداخلية تستوجب مثل هذا المؤتمر. ومن ثم، مع حق دمشق بالأولية لأنها قطب العمل القومي والاقتصادي، فلقد رضي الجميع أن تكون الشهباء مقراً للمؤتمر، ولأول مهرجان للتنمية الاقتصادية في سورية.

ورحب دولة رئيس مجلس الوزراء بالدعوة، كما رحّب بها السادة وزراء الاقتصاد والتخطيط وحاكم مصرف سورية المركزي، ومن ثم وزراء الزراعة والصناعة والمواصلات والصحة والشؤون البلدية والقروية، وقصدهم من ذلك أن يتعرفوا إلى حاجات المحافظات، ويوجه أخص أحوال حلب. كما أن أساتذة الاقتصاد تطوعوا للعمل بكل قواهم لإنجاح الفكرة وباشروا التنفيذ.

ومشينا في العمل، وفي اعتقادنا أنه يجب تطوير تخطيط التنمية الاقتصادية إلى تنمية اجتماعية أيضاً. كما في يقيننا أنه في الخطوة الأولى تجربة قد تأتي ناقصة أو

غير محققة لكل الواجبات، إلا أنها ستكون منطلقاً إلى تجارب متوالية أكثر استعداداً وعدة ودراسات وإدراكاً للواجب.

ووجهت الدعوات، فلباها كثرة ما كنا نتظرها من السويداء، إلى القامشلي ومن دير الزور إلى اللاذقية، وجاء المسؤولون وفي قلوبهم إيمان وعزم، وجاء الناس يتلهفون إلى ما يقال ويرسم وينفذ وكلهم نظرة إلى الحاضر والمستقبل تنبعث من إدراك للمصلحة القومية والاجتماعية كإدراكهم للمصلحة الاقتصادية، وضاعت غرفة تجارة حلب ودار الكتب الوطنية عن أن تستوعب كل الملبين، وانتهى الأسبوع ومضى المؤتمر، وفي قرارة الجميع أن القطاع الخاص يستلزم رعاية مشروطة بعدم الافتئات والاثرة والأنانية والاستئثار والاستثمار، وأن في القطاع العام المتسع لعمل الدولة، وأن القطاع الخاص مدعو أيضاً للمساهمة في القطاع العام، وأنه في حالة إحجامه فلا لوم على الدولة ان هي باشرته كله وحرمت الأفراد والجماعات من مرافق عديدة للتشجير والانتفاع. كما كانت العقيدة بحرمة حقوق الطبقات العمالية والزراعية ورفع مستوى الفرد وحسن توزيع الدخل القومي وواجب الدولة على الأفراد في الضرائب والحقوق العامة، عامرة في كل نفس مقرة بأنه لاسعادة لوطن فيه المحروم والبائس والقاعد عن العمل والمريض والجاهل!

وهكذا سجل أسبوع التنمية ومؤتمر الغرف، أول انطلاقة في حقن الخدمة الوطنية لصالح الاقتصاد والمجتمع. كما تسنى لرجال الحكومة أن يدركوا حاجات حلب الماسة في الإصلاح والإنشاء في مختلف المرافق، وعادوا إلى عاصمتهم لينتقلوا في برهة قريبة إلى محافظة أخرى، يخططون لها إصلاحاً وإنشاءً وتجديداً، والوطن كله في حاجة للتعمير بعد تلك الغفلة التي انتابته والظرف الدقيق الذي مرّ فيه.

وإذا كان الشكر خير ما أختتم به هذه المقدمة ، فهو أول ما يرفع لفخامة الرئيس الأعلى ، الذي لا يغفل من أجل مصلحة الوطن وازدهاره ، ولا همّ له إلا الاستقرار والإصلاح وإشاعة الثقة والتحابب والتعاون والتماسك .

ومن ثم فإلى رئيس الحكومة الذي ماعرفناه إلا رجل دولة وعمل وإنتاج ، وهو العريق في فهم مصلحة الاقتصاد القومي ، والحث في سبيل خيره ونشاطه . وإلى السادة الوزراء والأساتذة المحاضرين ، الذين كانت أحاديثهم ومحاضراتهم دساتير نافعة اقتصادية واجتماعية لهذا الوطن الغالي ، ولا سيما وزير الاقتصاد ، وهو الذي مشى مع اقتصادنا في كل خطواته بإخلاص وتضحية .

ولقد عملت الصحافة السورية من أجل نجاح أسبوع التنمية ، وساهمت في الدعوة الخيرة لغايات الإعمار والإنشاء ، وشاركت في إبداء الآراء والنصح مخلصه فحق لها أيضاً الشكر وعرفان الجميل ، وساهمت كل غرف التجارة والصناعة والزراعة في سورية ، ولا سيما غرفتنا تجارة وصناعة دمشق ، وغرف زراعة وصناعة وتجارة حلب . فكان من اللازم عليّ أن أنوه بأثرها في العمل والجهد ، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وأن أرجو الجميع أن يتغاضوا عن القصور أو الأخطاء والكريم من عذر . . .

وأن خير ما أختتم به كلامي ، دعاء إلى الله تعالى أن يأخذ بيدنا ويجعل كل أقوالنا وأعمالنا موقوفة على المصلحة العامة ، وأن يهب سورية العربية العزيزة ، نعمة الاستقرار والرخاء ، لتأدية رسالتها كاملة من أجل قوة ومنعة الاقتصاد العربي والقومية العربية ، وأن يمينّ على العرب بوحدة الصف والغاية .

رئيس غرفة تجارة حلب
محمد سعيد الزعيم

١٩٦٢/١١/١٥

أسبوع التنمية الاقتصادية

في مؤتمر صحفي

عقده الأستاذ محمد سعيد الزعيم رئيس غرفة تجارة حلب

عقد الأستاذ محمد سعيد الزعيم رئيس غرفة تجارة حلب،
مؤمراً صحفياً قبل ظهر يوم الأربعاء ٧ تشرين الثاني ١٩٦٢ حضره
عدد من الأساتذة أصحاب الصحف والمحررين، تحدث فيه عن
أسبوع التنمية الاقتصادي، الذي سيفتتحه مساء يوم الخميس دولة
السيد خالد العظم رئيس مجلس الوزراء، ويشترك فيه عدد من
السادة الوزراء والأمناء العامين وحاكم مصرف سورية المركزي
وكبار موظفي الوزارات والمؤسسات الاقتصادية ورجال المال
والاقتصاد والفعاليات المهنية والعمالية والصناعية والتجارية.

وقد شرح الأستاذ الزعيم الغاية من إقامة هذا الأسبوع الاقتصادي والجهود
التي بذلت في سبيل تهيئة واشتراك كبار المسؤولين فيه واستجابتهم للأمني التي
تعلقها البلاد عليه، وأثنى على رجال الدولة الذين تجاوزوا مع هذه الأمني
وشجعوها للنهوض بمشاريع البلاد عامة ودفع عجلة حركتها وتطورها وتقديمها في
سبيل الرقي والازدهار.

وقال الأستاذ الزعيم أن الحكومة تجاوزت كلياً مع فكرة إقامة أسبوع التنمية ورحبت به على أن يكون في حلب لأنها مركز الثقل الاقتصادي، كما أن غرفة تجارة دمشق رحبت بالفكرة وعملت من أجل تحقيقها. وقد اغتنمت غرفة تجارة حلب هذه الفرصة لدعوة الغرف السورية إلى عقد مؤتمر لها في حلب في الوقت الذي يقام فيه أسبوع التنمية لدراسة المواضيع التي ستبحث وتناقش في مؤتمر الغرف العربية الذي سيعقد في تونس، ومؤتمر الغرف العربية الإسبانية الذي سيعقد في مدينة مدريد، ولإضافة المواضيع التي تقترح سورية عرضها في هذين المؤتمرين لتوطيد العلاقات التجارية وتقويتها.

وقال أن مؤتمر الغرف السورية الذي سيعقد في حلب ستكون مهمته دراسة جدول أعمال مؤتمر تونس وتهيئة الأبحاث والدراسات التي ستعرض على الحكومة والتي تعبر عن آمالنا وحاجاتنا.

ثم تحدث الأستاذ الزعيم عن التعاون بين القطاعين العام والخاص فقال: ان تطور البلاد وازدهارها لا يحققه إلا التعاون الوثيق المدروس بين القطاعين وفكرة أسبوع التنمية الاقتصادي تستهدف إقامة مشاريع جديدة لزيادة الدخل القومي ورفع مستوى معيشة جميع أبناء الوطن، ونحن نحتاج إلى مشاريع تقوم على أسس واقعية مدروسة تساهم فيها الدولة والشعب والأفراد.

وان حضور السيد رئيس مجلس الوزراء والسادة الوزراء وأساتذة العلم والاقتصاد إلى حلب واشترائهم في هذا الأسبوع سيكون له أثره الكبير في تنمية أمورنا ومشاريعنا.

وفي نهاية المؤتمر أذاع الأستاذ محمد سعيد الزعيم الكلمة التالية:

تطور الاقتصاد السوري منذ عام ١٩٥٠ تطوراً كبيراً، وبلغت نسبة زيادة الدخل القومي سنوياً ٦ - ٨ في المئة، وهذا التطور والنمو كان نتيجة نشاط القطاع الخاص وتعاون الدولة معه ورعايتها له، ثم نتيجة للقطاع العام الذي أوجدته الدولة. ففي القطاع الأول زادت المساحات المزروعة كما زاد الإنتاج الصناعي، وبنمو دخلها نمت التجارة والقطاع المالي والمصرفي والخدمات.

وفي القطاع الثاني قامت مشاريع الغاب والعشارنة ومشاريع أخرى كاليرموك والسن وبردى، كما تدرس مشاريع أخرى عديدة وفي مقدمتها مشروع سد الفرات واستثمار البترول والمعادن وغير ذلك.

وكان من وراء توسيع حركة الإنشاء الصناعي ونشاط التجارة مع الخارج والجوار، وفي حدود التجارة العابرة (الترانزيت) وازدياد العمران واتساع شبكة الطرق، ان ازداد حجم وأرقام الاقتصاد القومي، كما تضاعفت إلى جانب ذلك واجبات الخدمات الاجتماعية والعدالة الاجتماعية التي أضحت هدف الشعب والحكومة معاً من أجل خير المجتمع بكامله بكافة أفراده وهيئاته، وهذا كله ما يصور تشابك مصلحة البلد بأجمعه وتعاون الحكومة والأمة معاً لتحقيق المستقبل الأفضل للوطن السوري وتوجيه اقتصاده الوجهة السوية الكافلة لحق كل فرد ومجموعة فيه وما يقتضي بأن يصار لتخطيط اقتصادي صحيح وعملي يقوم على أساس برامج للتنمية الاقتصادية لا تبقى حبراً على ورق أو مظاهر للدعاية، يكون هدفها الإصلاح والصلاح وتعاون مجموعة الأمة والحكومة لتحقيق كل ذلك بما يكفل المحافظة على مجهود القطاع الخاص وحرمة حقوقه وجده وجهاده في غير اثره ولا استئثار ولا تسلط ولا احتكار ولا استثمار أو طغيان.

والنجاح أيضاً لمشاريع القطاع العام التي أضحت متلازمة وحاجة البلد وحياة لمستقبله ويقوم عليهما رفع مستوى معيشة الفرد والسكان. وكما أن القطاع الخاص

بحاجة لعون الحكومة ورعايتها، كذلك فإن القطاع العام يحتاج أيضاً لمساهمة فعالة من القطاع الخاص وللجهد والرأسمال الفردي .

وان تخطيط أسس التنمية الاقتصادية المنشودة للقطاعين ولمضاعفة الدخل القومي وتأمين حاجة البلاد لميادين جديدة في محيط مرافقها الاقتصادية أصبح ضرورة ماسة تستلزم الجهد الدائم والدراسات الفنية والعملية لاستثمار خيرات البلد والانتفاع من مواهب أبنائه الذين ضربوا بقسط وافر من الذكاء والمهارة والحنكة التجارية والمالية والصناعية ليس في الوطن المحبوب فقط، بل تحت كل كوكب، كما فجر المزارع السوري تربة الأرض والينبوع، وأقام قطاعاً زراعياً فاق غيره من بلدان هذا الشرق الأوسط .

لهذا كله فكر بعض الغياري على حاضر الاقتصاد السوري ومستقبله وتعاون سائر فئاته وطبقاته الخيرة في ظل تعايش سلمي اجتماعي عادل، أن يقام أسبوع للتنمية الاقتصادية في سورية يحاضر ويتكلم فيه بعض رجال الحكومات والفعاليات الاقتصادية والاجتماعية وقبلت الحكومة ذلك مشكورة كما قبلت الغرف الاقتصادية أن يتم هذا في حلب ولأول مرة ويسعد هذه البادرة الجديدة أن يحضرها دولة رئيس مجلس الوزراء وأن يفتتح الأسبوع وأن يحاضر فيه السيد وزير الاقتصاد والسيد وزير التخطيط والسيد حاكم مصرف سورية المركزي والأساتذة الدكتور عوض بركات والدكتور عبد الغني حمور، كما يحضره فريق من السادة الوزراء والأمناء العاميين ورجال مصرف سورية المركزي والمؤسسة الاقتصادية ومختلف النقابات والغرف ورجال الأعمال والعمال .

ومما يدل على اهتمام البلاد بهذا الأسبوع أن مئة وخمسين ذاتاً من المهتمين بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية سيحضرون إلى حلب من السويداء إلى القامشلي، متطلعين إلى حاضر سورية الاقتصادي ومستقبله بعين الأمل الزاهر

ومستهدفين حركة إصلاح شاملة في الميدان الاقتصادي . وان حلب لترحب مقدماً
بزائريها وبكل الإدارات والهيئات التي ساهمت في تحقيق أمنياتها الغالية كما
تشكر للحكومة شكراً حاراً وعدها بدراسة حاجات حلب الاجتماعية
والعمرانية والمحلية .

هذا وان عقد مؤتمر شامل للغرف السورية بمناسبة أسبوع التنمية هو أيضاً عامل
كبير في نشاط الهيئات الاقتصادية وحرصها على تحقيق غايات البلاد المثلى لضمان
الازدهار المنشود في شتى نواحي الحياة العامة .

كلمة الافتتاح والترحيب التي ألقاها

معالي الأستاذ محمد سعيد الزعيم

رئيس غرفة تجارة حلب

ألقى الأستاذ محمد سعيد الزعيم رئيس غرفة تجارة حلب ،
الكلمة التالية في حفلة افتتاح أسبوع التنمية في دار الكتب الوطنية
في مساء يوم الخميس ٨ / ١١ / ١٩٦٢ :

سيدي رئيس مجلس الوزراء :

السادة الوزراء والأساتذة :

اخواني وزملائي :

قال الله تعالى في كتابه العزيز : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير»
وما الدعوة إلى هذا الأسبوع ، أسبوع التنمية الاقتصادية ، إلا دعوة للخير استجاب
لها أهلوه ، لأنها إنما يقصد بها وجه الوطن ومصلحة أبنائه كافة ، حقاً وحقيقة .
وهذا الوطن العربي السوري غال على ذويه وبنيه ، لاسيما من شارك في بناء كيانه
السياسي والاقتصادي .

ولئن جاهد أهل السابقة في الجهاد في سبيل الاستقلال وانتزاع حرية البلد
وكرامته وسيادته من بين فكي الاستعمار ، في زمن كانت الحرية غاية صعبة المنال
بعيدة عن فرض الأحداث ، والعالم بين أكثرية مستبدة غاشمة عاتية ، وبين أقليات

غافلة متفرقة مستضعفة أو مستكينة للظلم والعبودية، بعيدة عن التطور الفكري والاجتماعي والاقتصادي، فإن أولئك - أهل الجهاد - شاركوا أيضاً في اعمار الوطن لجانب المعمرين الاقتصاديين، فجمعوا القوى الفردية لتعاونيات اقتصادية مختلفة.

وإني لأذكر كيف كان الزعيم هنانو واخوانه الجابري وحسن فؤاد، رحمهم الله، يدفعون الأفراد دفعاً وقسراً لتغطية أسهم أول شركة مساهمة للغزل والنسيج في سورية وهم غير مساهمين فيها.

كما أذكر يوم زارني السيد الرئيس العظم عام ١٩٣٢ هنا في حلب للدعوة لمشاركة الشهباء في تأسيس أول شركة مساهمة لصنع الاسمنت، والحفلة الخطائية التي أقمناها في قاعة سينما (باته) مركز نادي الضباط اليوم، وكيف كنت واخواني نقتنص المارة من الشارع اقتناصاً ندخلهم للقاعة لنملاً الصفوف.

ودار الزمان، ومرت الأيام، وأصبحت سورية العربية والحمد لله ذات سيادة سياسية ومالية وافرة الموارد والخيرات ينمو دخلها القومي بنمو مرافق الاستثمار الزراعي والصناعي، واتساع التجارة وازدياد الإنتاج حتى زاد الدخل من ١٨٩٢ مليون ليرة سورية عام ١٩٥٣ إلى ٢٣٥٧ مليوناً عام ١٩٦١.

هذا مع ملاحظة إدبار المواسم الزراعية الشتوية في العام الأخير إذ تناقص دخل الزراعة تسعة عشر مليوناً عما كان عليه في عام ١٩٥٣.

ولئن كان الذين حققوا للوطن ماذكرناه من سيادة حكم واقتصاد، يذكرون بالخير والإكبار سواء من صار منهم إلى القبور أو من مدّ الله في عمره، فإن رئيس الحكومة اليوم ورئيسها أيضاً سنة ١٩٥٠ السيد خالد العظم، قد أقام دعامة الاقتصاد القومي بيده القوية الحازمة، وبفكره الثاقب، يشاركه في ذلك معاونوه في الحكم، ومنهم السيد الدكتور معروف الدواليبي وزير الاقتصاد إذ ذاك، كما أن وزير

الاقتصاد الحالي قد وضع الأسس الصحيحة للنظام النقدي والمالي، فضلاً عن أنه مشى واخوانه من رجال وزارتي الاقتصاد والمال ومصرف سورية المركزي بسياسة البلد الاقتصادية والنقدية في الطريق السوية بحنكة ومرونة وليونة أكسبت اقتصادنا مناعة صمدت أمام كل التيارات والأحداث.

أيها السادة:

لقد قام الفرد بمجهوده الخاص في حقول التنمية والإنتاج، فأفاد واستفاد وكون للوطن خميرة اقتصاد ومال، وأوجد ميادين عديدة للعمل واليد العاملة والاستثمار، وقامت الحكومة بتوجيه الجهد الفردي والمبادهة الفردية، وأنشأت قطاعاً عاماً للإفادة من كنوز أرضنا الغنية وما تحويه من مرافق عدة للرزق وافرة العطاء، واتفقت كلمة البلد على التطور الاجتماعي وإشاعة الخير بين جميع الطبقات ورفع مستوى الفرد وإنالة كل ذي حق حقه.

ولكن هذا البلد يلزمه التخطيط الاقتصادي لمضاعفة دخله وحسن استثمار مرافقه ونبش مخبئاتها، من سدود وشبكات جديدة للري وزيادة في المساحات الزراعية والإنتاج الزراعي، وطرق مواصلات وجني للنفط والمعادن، وصناعات جديدة تزيد في حركة اليد العاملة، ونمو في موارد التجارة والمال والخدمات، كل ذلك مما يلزم الحكومة أن تنظم مشاريع التنمية، وأن تسارع في تنفيذها وتجند كل طاقات الوطن، وهذا ماتسعى إليه وزارة التخطيط والوزارات الإنتاجية الأخرى، مشكورة من الوطن وأهليه، على مايعمل رجالها وشبابها مزودين بالعلم والفن والخبرة من أجل إسعاد الحاضر ورخاء المستقبل.

وهذا التخطيط الاقتصادي للتنمية في جمهوريتنا العربية الحبيبة، الذي يضم بين جناحيه قطاعاً خاصاً هو بحاجة دائمة لتنشيطه والأخذ بيده في غير اثره ولا استثمار

ولا تسلط أو تحكم أو افتئات، والذي لاهياة له ولا حركة إلا بالاستقرار والاطمئنان الحاضرة ومستقبله والثقة بنفسه.

وكما يضم قطاعاً عاماً بعضه من حق الدولة وحدها، والبعض مشاع بينها وبين الجماعات والأفراد، تساهم فيه الأمة بقدر وسائل الادخار، ويفرض هذا القطاع واقع حتمي أو اجتماعي أو متطلبات العيش والحياة، فإن هذا التخطيط يتطلع إليه كل الناس باهتمام بالغ لمعرفة حاضريهم ومستقبلهم.

ونحن ان دعونا لأول أسبوع من أسابيع التنمية الاقتصادية في سورية، والذي أقبلت عليه الحكومة والشعب إقبالاً يدل على حسن النية وحب العمل الحقيقي، وتعاون الطرفين في التخطيط والتنفيذ لخير الأمة كلها بكافة طبقاتها وأفرادها، عاملها ورب عملها، فلاحها ومزارعها، تاجرها وموظفها، فإننا نحن نبغي أن يسير الوطن سراعاً في تأمين الرفاه لأهله، وأن نخلص من التخلف إلى التقدم، وأن يعمل الشعب مع حكومته، فالوطن بحاجة لكل ساعد ولكل درهم فيه ولكل طاقة من طاقات العمل والإنتاج.

سادتي:

إن في الوطن الحبيب مجالاً للعمل والعيش لكل فرد ومتسعاً لزيادة في النسل والسكان، فلتتكاتف إذاً ونعقد الخناصر، ولتشابك الأيدي من أجل إعمار الوطن متسامحين غير متخاصمين مخلصين له ورائدنا وجهه.

وما من شك أن واقع الاقتصاد السوري وخصائصه قد جعل من الجهد الفردي والجماعي دعامة يقوم عليهما، فعزوه وادفعوا به أيضاً للإسهام في القطاع الثاني، وادعوا من نرح ليعود إلى الأرض المباركة التي أنبتته، ولظل السماء الخيرة التي

ظللت في غابر أيامه، وكونوا من هذا البلد نموذجاً لتعاون مخلص وتعايش سلمي يقوم كلاهما بدوره في المجموعة العربية الكبرى، لإعلاء شأن العرب وحسن استثمارهم لخيرات بلادهم.

وان ما سوف نسمعه من دولة رئيس مجلس الوزراء من بيان وتوجيه وإرشاد وما يلقيه علينا بعض السادة الوزراء ورجال الاختصاص في الاقتصاد والاجتماع من دروس في التخطيط الاقتصادي والاجتماعي، لهو دليلنا إلى ما ننتهه ونرجوه.

وإني لأشكر باسم حلب الغرف الاقتصادية الثلاث في سورية، وعلى الأخص غرفة تجارة دمشق، التي ارتضت الشهباء مكاناً لأول أسبوع للتنمية.

كما أشكر لأولئك الذين أولوا هذا الأسبوع كل عناية واهتمام، فرحلوا إليه من مختلف أنحاء البلاد.

كما أن كلمة الولاء والامتنان والاحترام، أرسلها باسم الجميع للسيد رئيس البلاد الأعلى، لرعايته الاقتصاد القومي خير رعاية، وإلى حكومته الرشيدة التي عنيت بالتنمية وأسبوعها، وشدت إليه الرحال وأولت شؤون اقتصادنا جل عنايتها، راجياً الله سبحانه وتعالى، أن يأخذ بيده ويدها لما فيه خير سورية العربية والعروبة، وما يحقق للجميع أمانهم، متمنياً لضيوف حلب الأعزاء طيب المقام، ولوطننا الغالي دوام العزة والرفعة والعلاء.

رئيس غرفة تجارة حلب

حلب في ١٩٦٢/١١/٨

محمد سعيد الزعيم

المؤلف: محمد سعيد الزعيم

الناشر: غرفة تجارة حلب ومجلة الضاد

سنة الصدور: عام ١٩٥٧

العنوان: رحلة إلى الشمال الافريقي

ووقفه على أطلال الأندلس

ثانياً - كتاب الرحلات

تمهيد

في الصفحات القادمة من هذا الكتاب، وهي تقارب التسعين، نص كامل لكتاب كانت نشرته غرفة تجارة حلب ومجلة (الضاد) في عام ١٩٥٨، ونفذت منذ صدوره جميع نسخه. وكانت غايتي من إعادة النشر هذه وللنص الكامل أن يطلع القارئ على مؤلف يحتوي في آن واحد على الدقة في المعلومات التي تشير إلى كاتب اقتصادي كبير، وعلى سعة في الأفق تتجاوز التجارة والمال إلى مظاهر الحياة الإنسانية والعمرانية ووجوهها الفكرية والسياسية، وعلى لغة عالمية تنم عن ثقافة عربية واسعة اكتسبها محمد سعيد الزعيم منذ شبابه المبكر حين كان عضواً ناشطاً في النادي الأدبي في حماه في أوائل العشرينات، واستمر يدعمها بالمطالعة المكثفة لكل ما تنتجه المطابع في زمنه من كتب التراث والكتب الحديثة وموسوعات الآداب والفنون حتى جمع منها مكتبة ضخمة أقدم شواهدا في مكان آخر من هذه المجموعة التذكارية.

وأردت من إعادة النشر أن يكون الكتاب جناحاً يحمل القارئ إلى بلاد عربية ليس من السهل أن يزورها الناس إلا من كان قاصداً ومهتماً لبعده الشقة وكثرة التكاليف، ورأيت أن سطور الرحالة حملت الملايين من البشر إلى بلاد لم يكونوا يحامون أن يزوروها، فلتكن رحلة محمد سعيد الزعيم التي سجلها في

تسعين صفحة بمثابة بساط سحري يحمل الآلاف إلى البلاد الحبيبة إلينا في شمال أفريقيا وفي الأندلس. ولتكن بما ورد فيها من تلخيص واضح ومؤرخ بدقة للتاريخ وتفاصيل وافية عن كل شيء حتى كأنك حاضر مع الكاتب، وتفاصيل عن فتح الأندلس وعمرانها وأسباب انحسار الظل العربي عنها - لتكن درساً علينا أن نذكره في كل حين، ولا سيما حين نعاني من العدوان تلو العدوان على أجزاء حبيبة أخرى من الأرض العربية. إن هذا الكتاب يصلح أن يكون تاريخاً كما يصلح أن يكون درساً بالغ العمق في الحذر والوطنية وفي السياسة. وإضافة إلى كل ذلك كان الكتاب وصفاً دقيقاً رائعاً لإسبانيا وربطاً ذكياً لحاضرها بتاريخها العربي الإسلامي الكبير.

وبعد فإذا كانت الحوادث التي يشير إليها الكتاب والأرقام التي يوردها قد أصبحت قديمة بعض الشيء لسرعة حركة الزمان، وكان الكثيرون من كبار الرجال الذين التقاهم أبي لم يعودوا في مراكز السلطة الآن وبعضهم سبقنا إلى دار الخلود، فإن هذا ينقل الكتاب من أدب الرحلات إلى تاريخ الدول والمجتمعات فإذا فقد الراهنية فلم يعد يصف ما هو قائم الآن فإنه استعاض عنها بأنه مكتنا من أن نقارن ما كان في الماضي بما هو قائم الآن في عصر ينطلق بسرعة الصواريخ، وهذا من شأنه أن يرينا كيف تتبدل الأمور ويعطينا فرصة نادرة للتأمل في سرعة حركة الكون وضرورة مجاراتها بالعمل السريع والفكر السريع.

على أن دقة الوصف الذي أعطاه الكاتب - والذي محمد سعيد الزعيم - لمعالم الأندلس وجمال الأسلوب وصدق العاطفة كانت كلها دليلاً على أن الكاتب قد قرأ الكثير الكثير عن الأندلس قبل الرحلة وأطلع بعمق على ما أتاحت له رؤيته واستطاع أن يعبر عن كل ذلك بلغة جمعت الدقة إلى الجمال، وسيكون في وسعكم عندما

تطالعون هذا الوصف للأندلس أن تحكموا على هذا القول وتروا إذا كان ورد مثله في أي مرجع أو كتاب مما وصفت به اثارنا في الفردوس المفقود.

وأخيراً لا يفوتني أن أذكر أن القراءة نوعان، فإما سريعة تسبح فيها العينان على السطور مستعجلة حتى يستوقفها حادث ذو شأن أو موقف يستحق الذكر، فتبدأ عندئذ قراءة أخرى متأنية فيها معاودة ومحاكمة، وقد تتلوها إعادة ثالثة للتأمل والنقد وتسجيل الحواشي. وللقارئ أن يختار.

ولا يفوتني كذلك أن أشكركم على مرافقتي في رحلة الوفاء، ولعل هذه الحماسة التي أحس بها ليكون حياً أثر والدي في أسرته ومدينته ووطنه ومجتمعه العربي الكبير، تجد من يقدرها فيعمل على أن يعيش الكثيرون من أسلافنا النابهين بتسجيل مآثرهم وإنقاذها من الاندثار. والإنسان يموت مرتين: أولاً عندما يوارى، والثانية عندما يلفّه النسيان، وما الأوطان إلا البشر الذين يملؤون الحياة بالأثر الباقي والعمل النافع المستمر.

المقدمة

كان ابن بطوطة (١٣٠٣ - ١٣٧٧) مغربياً ولد في طنجة، ومنذ نعومة أظفاره تعلق قلبه بالترحال. كانت الشمس حين تمر فوق سمائه تقول له: أيها الفتى الذي أنبت الشوق بين كتفيه ألف جناح، سر مثل ماسرت أنا، تدفيء الناس بقصص يسرون بها ويجدون مافي تاريخ البشر من غرائب ومن عبر. لاتعلق عينيك بقرصي اللاهب، أخاف عليك أن تعشى. وإذا شئت السفر فاخرج كل يوم من حيث أنت، وسر إلى الشرق في مسار يمضي عكس مساري، وخذ معك الذاكرة فهي زادك حين تعود إلى حيث خرجت، فيقول من يسمعك: هذا شمس المحدثين...

ابن بطوطة الآخر، شمس المحدثين كان فتى من حماء بعد ستة قرون. النواكير في دورانها كانت تقول له: ماأنيني إلا لأنني هاهنا مقيدة. أدور حيث أنا، وأرجع أدور أدور. مامن جديد في حياتي سوى أن الجد يسبح في مائي ثم يتبعه ابنه فالحفيد. وأنت، هل ستربط نفسك إلى عمود أم تطلق جناحك يحملك بعيداً حتى تعود؟!

ابن بطوطة المغربي مضى حتى الصين في رحلتين مختلف المسار فيهما، والثالثة أخذته إلى بلاد الزنج. كان كتابه، كما سماه، (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). أما الرحالة الذي جدد سيرته بعد ستة قرون، فقد كان ابن عصره. رحل بالسيارة ثم بالطيارة. رأى أكثر ورأى أبعد، وعاد هو الآخر

يروى للذين أقعدتهم ظروف الحياة وثاقلت أجنتهم، قصة الشمال الأفريقي كاملاً وكما رآه وهو تاجر حاذق قرأ التاريخ وشهد فصوله، تثقف بالكتب وعزم على أن ينقل إليها تجارب الأسفار، وكان أن نشرت له غرفة تجارة حلب في سبع وسبعين صفحة قصة (رحلة إلى الشمال الأفريقي ووقفه على أطلال الأندلس)، فكانت سجلاً جمع بين التاريخ والجغرافية وعلم الأقوام ومحاسن التجارة، ولم ينس الطرفاة بل لعله جعلها بهار الحديث، وفي بعضها كان للنقد مثل لدغ الفلفل المغربي الحار...

تلك قصة والذي محمد سعيد الزعيم حين رافق واحداً من أكبر الاقتصاديين العرب في القرن العشرين، السيد عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي، وانطلقا وزادهما الشوق، وعُدَّتْهما عين مفتوحة ترى وذهن مفتوح يحفظ ويحلل ويستنتج، وقلم كان لأبي نَعْمَ الصديق كل حياته حتى لأقول: أنه كاتب أديب عمل في التجارة، وحمل إليها الرقة والدقة والجمال، ولم يكن تاجراً يكفيه من القلم أن يسجل الدخل والمصروف والصوافي.

ولا بد أن أقول أن نشر قصة هذه الرحلة الذي يأتي بعد ما يقرب من أربعين سنة من المباشرة فيها (بدأت في ١٩٥٧/١١/٢٣ من القاهرة)، ليس له مزية إطلاع الناس على ماهي الحال في الشمال الأفريقي الآن. فكم من الماء مرَّ تحت الجسور في أربعين عاماً كانت على التحديد أسرع أعوام البشرية حركة حتى ليعجب القارئ وهو يقرأ عن ليبيا السنوسي كيف ألت إلى ليبيا القذافي، وبين تونس التي كانت في أوائل أيام استقلالها وتونس اليوم، ثم قصة القفز فوق الجزائر التي كانت تعاني من الاحتلال وتذهب للثورة (التي أعلنت في عام ١٩٦٢) ليصل الرحالة إلى إسبانيا ثم ليعود إلى المغرب بحرراً ليبدأ الزيارة من طنجة في أيام السلطان محمد الخامس.

الزمان يركض يركض يركض حتى ليشبه الإعصار في حياة واحد من أبناء البشر
يلاحق هذه الحركة السريعة في عالم اليوم - فإذا كنا نقرأ ابن بطوطة اليوم فنعجب
ونتعلم ونستفيد، وبيننا وبين زيارته مئات سنين، فإن أقل من أربعين عاماً من بدء
زيارة الثنائي (الزعيم - شومان) للمغرب، تجعل القارئ يعجب من سرعة الكون.
أيتها الشمس التي نراك تشرقين وتغربين في نصف يوم، قل لي للناس أن يروا
جيداً ماتحت أعينهم اليوم، ففي غدهم، ما الذي سيبقى؟!
وها هنا - لافي الإدهاش - عبرة القراءة في التاريخ، وفي سطور المؤرخين كافة
ولا سيما الرحالة...

رحلة إلى الشمال الأفريقي ووقفه على أطلال الأندلس

غادرتُ مؤتمرَ الغرف التجارية الصناعية الزراعية العربية في دورته السابعة في القاهرة، المنعقد في ٢٣/١١/١٩٥٧، في رحلة إلى المغرب العربي، إلى ليبيا وتونس والمغرب وإلى إسبانيا، وعدت في آخر السنة. وفي ١٩/٢/١٩٥٨ أُلقيت في دار الكتب الوطنية في حلب حديثاً عن رحلتي هذه، وقد طلب إلي الكثيرون نشر مفصل هذا الحديث بكامله غير مختصر، عن أحوال بلاد شقيقة لاتزال مجهولة من الكثيرين منا. وتفضلت غرفة تجارة حلب بهذا النشر في مجموعتها الزاهرة التي توزع في مختلف بقاع العالم العربي، فلها الشكر على ماتفضلت به من توثيق عُرى صلات الود والمعرفة مع تلك البلاد العزيزة، ولرجالاتها صداقات طيبة خالدة مع كثير من رجال الوطنية والاقتصاد في بلاد الشام ومصر قطري الجمهورية العربية المتحدة الحبيبة.

وإذا كنتُ قد غادرتُ مؤتمرَ الغرف الآنف الذكر، والآمال مشرقة باتجاه مصر وسورية ووحدة اقتصادية بينهما، فإنه مما يفرحني، أن أعود من رحلتي إلى ديار المغرب العربي، والوحدة الكاملة بين البلدين حدث سعيد أقرت مبادئه، فيسجل شهر شباط (فبراير) ميلاد الجمهورية العربية المتحدة، برئاسة الرئيس جمال عبد الناصر، وتدق قلوب أبناء العرب فرحاً لهذا الميلاد، كبشرى لوحدة أعم

وتعاون أهم . وما من شك أن أولئك الأخوة في ليبيا وفي تونس وفي المغرب ، الذين كانوا يحدثونني عن آمالهم العذبة في تقارب عربي جامع ، والذين كانوا يطربون لأخبار المشاركة تنقلها إليهم إذاعة صوت العرب ، فتقربهم من المشرق ، والذين كانوا يجدون جهاد ونضال الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر في سبيل حرية العرب وإذكاء حماسة الشعوب العربية لتقريب ساعات كامل حريتها ، مامن شك عندي أن قيام هذه الوحدة قد هزهم فرحاً ونشوة ، كما هزتنا دوماً أخبار نضالهم في ليبيا وفي تونس وفي الجزائر وفي المغرب ، وكما أفرحنا جهاد ملوكهم ورؤسائهم وزعمائهم لأجل استكمال أسباب السيادة في بلادهم وتحرير الجزائر البلد العزيز على قلب كل عربي تواق للحرية والاستقلال .

ويجب عليّ أن أنوه بفضل المصادر التي استقيت منها كثيراً من معلوماتي التاريخية والاقتصادية والأرقام كما استوحيت كثيراً من مشاعري القومية ، فأذكرها وأذكر السادة الأكارم من أصدقائي القدامى والجدد الذين رافقوني في تنقلاتي وكانوا لي خير عون في التعرف على كثير من الأشياء والأعمال والأحداث ، فأذكر معالي السيد منصور قداره وزير مالية ليبيا السابق ، وقد حظيت برفقته من طرابلس الغرب حتى الدار البيضاء ، وهو نعم الرفيق . وأذكر معالي السيد مفتاح عريقيب وزير الدولة في ليبيا ووزير الاقتصاد السابق .

وأذكر مؤلفات الأستاذ محمد بن مسعود عن تاريخ وجغرافية ليبيا وقد أهداها إليّ صديقي العزيز السيد عبد العزيز الزقلعي رئيس وفد ليبيا إلى مؤتمر الغرف ونائب طرابلس في البرلمان الليبي ومن الرجالات الأحرار العاملين في البلد الشقيق ، وأذكر أيضاً الأخوان الأكارم السادة عبد العزيز الفطيس عضو مجلس النواب وبالقاسم محمد العلاقي وهما من كرام رجال غرفة تجارة طرابلس الغرب . وأيضاً مؤلف الأستاذ حسن حسيني عبد الوهاب (خلاصة تاريخ تونس) والنشرة

القيمة التي أصدرتها حكومة تونس تحت عنوان (هذه تونس) التي أهداها إلي الأستاذ علي البلهوان رئيس بلدية تونس ومن كرام رجالها المجاهدين في سبيل تحريرها (رحمه الله). وكتاب العرب في اسبانيا لناشره المرحوم الشاعر الأستاذ علي الجارم، وكتاب الآثار الأندلسية الباقية للأستاذ محمد عبد الله عنان. والنشريات التاريخية الاسبانية باللغة الفرنسية عن اشبيلية وقرطبة وغرناطة والاسكوريال (Le ESCORIAL). وكتاب أنا عائد من مراكش للكاتب الانكليزي (روم لاندو). وتاريخ المغرب للأستاذ محمد بن عبد السلام بن عبود. وكتاب المغرب للصدیق بن العربي. ومظاهر الحضارة المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله. والمدخل إلى تاريخ المغرب للأستاذ عبد الله كشنون. ومختصر تاريخ تطوان الذي أهداني إياه مؤلفه الصديق الفاضل العلامة محمد داود من أدباء تطوان وعضو المجلس الاستشاري الوطني في المغرب، وبعض النشرات الاقتصادية والإحصائية التي قدمها إلي السيد جوزيف زبليط عميد الجالية السورية في الدار البيضاء، والرجل العامل في سبيل تقوية الصلات التجارية بين وطنه الأول والثاني. وأيضاً النشرات المالية والتجارية التي تفضل بها معالي الأستاذ عبد الرحيم بو عبيد وزير الاقتصاد في الحكومة المغربية وهو من حزب الاستقلال المناضلين في سبيل حرية المغرب. هذا فضلاً عما التقطته من مصادره من آراء ومعلومات تاريخية واقتصادية وما نقلته عن بعض الآثار وما نقش عليها، إبان زيارتي لها.

واني إذ لأكتم غبطني بهذه الزيارة إلى المغرب العربي، التي تركت في نفسي حباً خالداً لأقطاره ورجالاته الذين تعرفت عليهم، وقد ملئت قلوبهم حباً بالمشرق وهياماً به وغيره على إحياء صلات المغرب به، أتمنى لكل أخ أن يزور هاتيك الربوع الحبيبة وأن يعمل على تقوية علاقات الأخوة معها، كما أرجو أن يكثر

التزاور بيننا وأن نرى على الدوام وجوه اخواننا المغاربة مشرقة مع مشرق الشمس
في بلاد الشام .

وأختم مقدمتي هذه بتحية احترام أرسلها للرجل العربي الكبير السيد عبد الحميد
شومان ، الباعث الأول لهذه الزيارة ، الذي كنت أستمد منه شعور الحب لبلاد بعثت
الحضارة العربية في تلك الديار البعيدة خالدة أبد الدهر ، والذي كانت رحلته رحلة
جهاد في سبيل العروبة وفي سبيل الجزائر وفي سبيل الاقتصاد العربي الذي كرس
لأجله كل حياته ونشاطه ، راجياً أن يحقق الله له أمنيته الغالية في رؤية الجزائر
وفلسطين وقد تحررتا وأصبحتا في عقد الأمة العربية ركنين أصليين إن شاء الله .

حلب في ٢٧/٥/١٩٥٨

محمد سعيد الزعيم

تعليق

أذكر وأنا صغيرة أنني سمعت الوالد يقص علينا كيف أن السيد عبد الحميد
شومان في مطار الجزائر قد أصر على رفع العلم الجزائري وتأخرت الطائرة
بعض الوقت وظلوا فترة يقنعونه بالعدول عن رأيه والتزام الحذر . فلقد كان شومان
رحمه الله من أشد المؤمنين بالعروبة لذلك أطلق على مصرفه اسم البنك العربي .

أمية

رحالة القرن العشرين

من مصر إلى ليبيا

تركت الاسكندرية صباح الجمعة الباكر في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٧ مع السيد عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي بسيارة ميممين شطر المغرب، في يوم هائج تفتحت فيه أبواب السماء بوابل من الغيث المدرار، سالت منه الوديان وحول الصحراء إلى بحيرات متصلة بعضها ببعض طوال طريقنا، وكان البحر الأبيض المتوسط عن يميننا. مررنا أولاً ببرج العرب ثم بالحمام ثم بالعلمين وبينها وبين الاسكندرية مائة وخمسة كيلومترات.

ومن منا لا يذكر العلمين وما يثيره هذا الاسم من ذكريات مرسومة بالأذهان، ذكريات الأيام المشؤومة من الحرب العالمية الثانية، عندما اشتد أوار المعركة في أراضي مصر، واشتبتك جيوش ضخمة في معركة الحياة أو الموت، وتعلق مصير الأمم في ميزان الأقدار.

مشاعر إنسانية - العلمين

تقع العلمين على شريط ساحلي يصل الاسكندرية بمرسي مطروح ويبلغ طوله ٢٩٠ كيلومتراً، وقد شهدت رمال صحرائه معركة من أشهر معارك الحرب الأخيرة، كما شهدت من قبل عظمة الاسكندر وروعة كيلوباترة ونمو الامبراطورية الرومانية وفتوح العرب للشمال الأفريقي. وهذا الموقع الذي وصف بأنه من أشهر ميادين القتال في العالم أجمع، الذي وقف عنده البطل الداهية رومل ثعلب الصحراء، والذي رفع مونتغمري إلى مصاف القادة العظماء، هو ذاته كان ممراً من

قبل لقادة العرب والإسلام مثل عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد وعقبة بن نافع وموسى بن نصير ومن تبعهم من الذين جعلوا الأبيض المتوسط في يوم ما بحيرة عربية وكان من قبل بحيرة فينيقية أو رومانية .

وقفنا في العلمين عند الأثر التذكاري القائم على إحدى الهضاب ، لتعود بنا الذكرى إلى الماضي القريب ، نسرح الطرف بتلك النصب والصلبان فوق قبور أولئك الذين لا قوا حتفهم في معارك طاحنة ، كانت الشرور وأطماع البشر رائدها ، فنسائل تلك الأخشاب الناطقة بأسماء الراقدين من تحتها ، عما أوحى به إليها بقايا ساكني هذه البقعة الموحشة ، وقد قضوا بعيدين عن ذويهم وأبنائهم وأوطانهم ، وتجيئنا ضحايا الإنسانية المعذبة ، إنها ليست إلا قافلة سبقتها وتلحق بها قوافل من قديم الزمان وإلى ما يشاء الله ، في طريق اللانهاية ، هي حصيلة الأطماع والجرائم الغريزية تلتطخ جين ابن آدم إلى الأبد بسيماء الآثام والعدوان .

الحب والحرب - السلم

وبعد العلمين مررنا بالضبعة ثم بسيدي براني إلى مرسى مطروح ، ذات الصلة الوثقى بحرب الصحراء ، وعلى جانبي الطريق إليها أشلاء أدوات الحروب المحطمة من دبابات وأسلak شائكة مبعثرة هنا وهناك ، على سهول زانتها الطبيعة بجمال الصحراء ، ومياه البحر الزرقاء الصافية تقبل رمال الشاطئ البيضاء برفق وحنان ، كما كان أنطونيو وكليوباترة يسطران بتلك البقاع قصة حوادثهما التي ذهبت مثلاً وتاريخاً ونشيداً للحب على مر الزمان .

وبعد أن تزودنا بالوقود وأقواس قزح تحيط بنا فوق البحر وفي الأفق البعيد من الصحراء ، توجهنا نحو السلم وهي آخر حدود مصر وتبعد عن الاسكندرية ٥١٨ كيلومتراً ، لنجري المعاملة الجمركية ومعاملة الجوازات . وكان الوقت ظهراً ، وقد لقينا من السلطات المصرية كل ترحاب وإكرام وودعنا بتمنيات عذبة طيبات .

طبرق

وتركنا السلوم وصعدنا مرتفعاً جليلاً على الساحل أيضاً لنصل إلى الحدود الليبية، ولنشهد المعسكرات التي أقامها موسوليني، لتكون مقراً وعمراً لجيوشه إلى مصر وسورية وهي الآن خاوية خالية. وبلغنا أول مركز ليبي يخفق عليه علم ليبيا، الذي يرمز إلى الشعار السنوسي والأقطار الثلاثة التي تؤلف المملكة الليبية المتحدة: برقة وطرابلس وفزان وفي وسطه الهلال والنجمة، وهذا المركز يسمى امساعد، أقرضنا حكمداره صفيحة من الوقود أعدناها لأمره في طبرق. ويبعد مركز امساعد عن السلوم ١٤ كم ومن بعده وبعد اجتياز ١٤٥ كم في طريق كلها معبدة، وصلنا طبرق المدينة الجميلة الصغيرة الرابضة على خليج باسمها ترسو به بعض السفن، وعلى جنبات المرفأ يقع قصر الملك ادريس الأول ملك ليبيا الذي يقيم فيه. والحديث عن طبرق يعود أيضاً إلى ذكر معارك الصحراء التي كانت للفريقين المتحاربين معارك كرّ وفرّ ونصر وهزيمة لاتزال آثارها بادية للعيان. ويعتبر خليج طبرق من أمنع المواقع في حوض الأبيض المتوسط، بفضل التحصينات التي أنشئت فيه خلال الحرب الأخيرة.

الدنيا دولاب

ويفضل الملك ادريس طبرق على غيرها بسبب هدوئها ودفتها وقربها من صحراء برقة مراتع طائفته وجماعته. وما أجمل غروب الشمس في طبرق بين البحر والصحراء، فلقد كانت روعة الطبيعة آخذة بالخيال الذي كان يتجه بنا نحو ماضي هذه البلاد العربية الشقيقة العزيزة.

درنه

وبعد سير ساعتين ونصف من طبرق مساءً، قطعنا خلالها ١٧٠ ك، وصلنا درنه وقد نزلنا إليها من الصحراء انحداراً حتى بلغناها على البحر، وحللنا في فندق أسسه الإيطاليون وسمّوه باسم الجبل الأخضر، روضة ليبيا الغناء، فنكون قد قطعنا في ذاك اليوم ٨٥٠ ك.

وأفقتنا في الصباح الباكر، نتفرج على معالم المدينة التي كثيراً ما ذكرت في حروب طرابلس وبرقة بين الأتراك والبرقاويين والطلليان، والتي تشع منها مظاهر الحياة الحديثة حيث لاتزال فيها جالية إيطالية، كما أن فيها تجارة ومتاجر ومكتبات عربية. وتحيط بدرنه من جهة الجبل بقايا سور حديثة بناها الإيطاليون لصد هجمات المدافعين العرب الأحرار القادمين من الصحراء.

الجبل الأخضر - بنغازي

بين درنه وبينغازي ٣٠٠ ك اجتزناها بأربع ساعات من الزمن، ولكنها بما تركت في أذهاننا من ذكريات، إنما اجتزنا تاريخ قرون وقرون. فلقد رحنا من درنه نصعد الجبل الأخضر، في طريق معبدة أحسن تعبيد، وهندستها تدل على كفاءة نادرة والأشجار الحراجية تكسو الأكام والحزون، وقد أقام الإيطاليون في الجبل الأخضر مزارع منظمة يستثمرها العرب اليوم، ولكن فلاحتهم كلها بدائية بوساطة الجمال والحمير والأبقار.

ويحوي الجبل آثاراً ظاهرة من بقايا الاغريق، وتستعمل مراكز إصلاح الطرق التي تركها الإيطاليون مدارس لتعليم أبناء القرى، وما أجمل قوافل الطلاب الفلاحين في الصباح تمشي زرافات ووحداناً لانتهاج مناهل العلم والعرفان. وسكان الجبل هم من بقايا قبائل بني سليم الذين توارثوا عن أجدادهم الحياة بعاداتهم القبلية وتربية الماشية.

مررنا بالبيضاء وهي مصيف الملك، من أجمل المدن في الجبل معروفة بأبنيتها البيضاء والغابات المنتشرة من حولها. ثم مررنا بمسج واجتازنا جسور وادي الكوف العظيمة ذات العلو الشاهق التي تصل بين جبلين في وادٍ سحيق، وهذه الجسور من إنشاء الإيطاليين. ثم مررنا بالبيضاة ثم بمدينة المرج وتحيط بها سهول منبئة متصلة بالساحل البرنيتشي الضخم الذي يدار اليوم لحساب البلدية، وقد بناه الإيطاليون على مرفأ المدينة في موقع جميل جداً.

تعدُّ مدينة بنغازي ستين ألف نسمة، وتعد من أجمل مدن ليبيا، فيها مطار مدني وآخر بريطاني، وحيث أن نظام المملكة يقضي بتناوب مركز الحكومة الفدرالية بين طرابلس وبنغازي كل عامين، فقد صادف وجودنا هناك انتقال الحكومة العليا بوزرائها ونوابها ومحكمتها الأولى إلى بنغازي. وسهلت لنا الدعوة الكريمة التي دعا إليها السيد عبد الله حامد السنوسي ابن عم الملك الوزارة جميعها لحفلة غداء في بيته العربي الكبير، إلى التعرف برئيس الوزراء السيد عبد المجيد كعبار وإلى سائر الوزراء، وكلهم من الشباب النير، وإلى التزود بكثير من المعلومات المختلفة.

وبنغازي مركز مواصلات مهم، ومطار بنينه يبعد عن المدينة سبعة عشر كيلومتراً في وسط سهول فسيحة تكسوها الحراج، كما تحيط ببنغازي خمائل أشجار الزيتون من طرف وزرقة البحر الصافية من جهة أخرى. تحوي المدينة الكثير من الصناعات اليدوية ولا سيما النسيجية، والبعض منها صناعة سورية بالأصل، نقلها إلى ليبيا تجار وصناع سوريون أذكر منهم السادة آل خزام الحلبي المنبت. وليس في بنغازي صناعات كبيرة آلية تذكر، ولكن فيها بعض الصناعات من أثر الإيطاليين. وغرفتها التجارية غرفة ناهضة تسعى لدعم الصلات التجارية مع الخارج، ورئيسها السيد عوض لنتقي من كرام الأسر البرقاوية. ويُننى في بنغازي الكثير من دور الحكومة الليبية المركزية، كما يقام فيها أثر تذكاري كبير فخم للشهيد عمر المختار، يليق

بذكرى سيد شهداء ليبيا، أوصى به الملك ادريس وفاء لحق هذا الرجل الأبي العظيم
على الوطن الليبي.

طرابلس الغرب

غادرنا بنغازي في الساعة الثانية بعد ظهر الاثنين ١٢/٢/١٩٥٧ من مطار بنينه
الذي يبعد عن المدينة سبعة عشر كيلومتراً، على متن طائرة شركة مصر للطيران في
وسط سماء غائمة متلبدة متكهربة. وبعد ساعتين وأربعين دقيقة نزلنا في مطار
ادريس، ويعدّه عن مدينة طرابلس الغرب ٢٩ كم. والطريق بينهما آية في الجمال
تسير وسط بحر من غابات الزيتون والكرمة.

البلدة جميلة جداً وعدد سكانها يتراوح بين ١٨٠ و ٢٠٠ ألف نسمة. يتجلى فيها
ال عمران الحديث، أوجد فيها الإيطاليون ساحات عامرة وأسواقاً منسقة جامعة،
وشوارع عريضة منظمة فهي مدينة أوروبية وبها قصور ومنازل ضخمة فخمة ذات
حدائق غناء، ومنظر الكورنيش على البحر بين أشجار النخيل بهي وأخاذ. أما
المدينة القديمة داخل السور فإنها تحافظ على طابعها الشرقي الجميل. والسور المحيط
بها يعود بتاريخه إلى الفينيقيين والرومانيين والعرب والإسبان والأتراك، وزرت
مبنى إدارة البنك الليبي الوطني داخل السور، وهو بنك الإصدار مبني بالمرمر
المختلف الألوان وهو في هندسته وعظمته تحفة غالية. وفي المدينة القديمة أسواق
مسقوفة كأسواق حلب ودمشق لبيع الصناعات المحلية من نسيج وجلود وغيرها.

ومن القصور الكبيرة في طرابلس قصر الخلد وهو القصر الملكي اليوم، وقد كان
مقراً للماريشال بادليو. بناه الإيطاليون على الطريقة المغربية الأندلسية فجاء عجباً
سخر له بُناته من مهرة الصناع الإيطاليين وأعطوه منتهى حذقهم الهندسي والبنائي
وفرشوه بأغلى الرياش، وفيه حديقة غناء تحاكي أعظم حدائق القصور الملكية في
أوروبا. وقد زرت والي طرابلس السيد طاهر باكير، وهو رجل فاضل ومن قدامى

رجال التعليم ، وقد قضى في دمشق ثماني سنوات مهاجراً عن بلده وهو يحفظ لسورية كل جميل . كما زرت الغرفة التجارية التي أسسها الطليان ويديرها اليوم التجار العرب وهي غرفة فخمة ذات أثر كبير في التوجيه الاقتصادي ويسعى رئيسها وأعضاؤها للأخذ بأيدي التجار الليبيين ليحتلوا المكانة اللائقة بهم ، كما أن لهم جهوداً كبيرة في توثيق عرى الصلات القومية والأخوية مع البلاد العربية كلها ، وقد لقيت منهم ومن ممثليهم في البرلمان كل إكرام وحفاوة وود صادق .

ومن الكلمات المألوفة في طرابلس كلمة (باهى) بمعنى جيد ، و(مازال) بمعنى أيضاً أو تابع ، و(راجى) بمعنى انتبه أو تأن . وفي المأدبة المنزلية التي أقامها لنا السيد علي نور الدين الفكني من كرام الأسرة المجاهدة الليبية قدم الطشت والإبريق على مائدة الطعام لغسل الأيدي بالصابون حسب العادات المحلية ، وقدم لنا الشاي ثلاث مرات عقب الأكل .

وتتضمن المدينة فنادق ضخمة من الدرجة الأولى ، منها فندق المهاري وقد أكرمنا فيه رجال غرفة التجارة بمأدبة كريمة ، وفندق كراندا أوتيل وكلها مبنية على البحر ، وتحوي كل وسائل اللهو ، وهي ملقى رجال الطبقات الراقية في طرابلس . وبالقرب من طرابلس المطار الاميركي الضخم ، وكانت الطائرات النفاثة دائمة الحركة فيه . وقمت بزيارة لمبنى البرلمان الليبي ، بصحبة الأخ الصديق السيد عبد العزيز الزقلعي نائب طرابلس ، وهو مبنى جامع لمجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وكان يوم الزيارة معداً نفسه للانتقال إلى بنغازي .

طبيعة ليبيا

تبلغ مساحة ليبيا ١,٧٥٠,٠٠٠ كيلو متر وسكانها نحو المليون وربع المليون ، منهم ٦ - ٧ آلاف يهودي هم دون تابعة حالياً . ومعظم الأراضي الليبية صحارى شاسعة ، وكثبان متحركة ، ولكنها لاتخلو من واحات أخصبها واحات فزان والكفرة

وجغوب كما ان بها هضاباً وجبالاً وبعضها صالح للزراعة. وأعلى قمة في جبال ليبيا ترتفع إلى ٣١٥٠ متراً.

الزراعة الليبية

الحمضيات موفورة في طرابلس، ويقدر إنتاج البرتقال والليمون بحوالي ٥٠ - ٦٠ ألف صندوق يصدر منها عشرة آلاف فقط. أما عدد أشجار الزيتون فهو حوالي ٧ - ٨ ملايين شجرة، منها في الشواطئ الثلاثة أرباع وفي الجبال البقية. وثمانون في المائة من زيتون الشواطئ للطلليان و ٥٪ لليهود و ١٥٪ للعرب، أما زيتون الجبال فكله للعرب. وقدر إنتاج الزيت عام ١٩٥٧ بنحو ١٨ - ٢٠ ألف طن. وفي ليبيا ملايين من أشجار النخيل ويقدر الإنتاج منه في منطقة طرابلس بكمية ٢٠ - ٢٥ ألف طن، وفي فزان ٧ - ١٠ آلاف طن.

تربية الأغنام والجمال

عدد الأغنام في ليبيا ١٨٠ ألفاً تقريباً والجمال ٢٥ - ٣٠ ألفاً والأبقار ٤٠ ألفاً وهي مدار حياة القبائل ومعظم السكان العرب.

الأحوال التجارية والاقتصادية والمالية

بلغت أرقام الاستيراد في ميزان التجارة الخارجية عام ١٩٥٦ مبلغ ١٦,٦٠١,٠٠٠ جنيه، والصادرات ٤,٢٦٥,٠٠٠ فيكون العجز ١٢,٤٤٧,٠٠٠ جنيه. وتبلغ قيمة المواد الغذائية نسبة ٢٨٪ من مجموع قيمة الواردات، لأن الأرض الليبية لاتفي بحاجات سكانها من الغذاء.

ومن أهم صادرات ليبيا المواد الخام غير الصالحة للأكل وتبلغ نسبتها نحو ٧/٥٦٪، كما أن منها الفول السوداني والمعادن ونبات الحلفا الذي يستعمل لصناعة

الورق ولإنتاج مادة السيلولوز، ويقدر إنتاجه السنوي بنحو ٣٥ - ٤٠ ألف طن يشحن معظمها إلى انكلترا.

وتحتل إيطاليا منصب الصدارة في التجارة مع ليبيا، تأخذ من الصادرات الليبية ٣٨/٢٪ وتورد لها بنسبة ٢٩/٩٪ من مجموع الاستيراد، وتليها انكلترا.

وليس بين ليبيا والبلاد العربية تبادل تجاري يذكر، غير ماهو قائم بينها وبين مصر بفضل المعاهدة التجارية المعقودة بين البلدين المتجاورين. وتعتبر ليبيا ثاني بلد بعد السودان يستهلك صادرات مصر من النسيج الذي يدخل معفاً من الرسوم.

أما التجارة بين سورية وليبيا فإنها لاتزيد عن ٣٦ ألف جنيه ليبي منها ٢٥ ألف ثمن مواد غذائية و ١١ ألف ثمن مواد مصنوعة. وتصدر ليبيا إلى سوريا بمبلغ ٧ آلاف جنيه مواد خامية.

يقدر ميزان المدفوعات عام ١٩٥٥ بـ ٢,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ليبي (استرليني) والدخل القومي بـ ٣٦,٣٠٠,٠٠٠ جنيه. وكانت موازنة الدولة لعام ١٩٥٦ قد بلغت ٦/٨ مليون جنيه دخلاً، و ٦/١ مليون جنيه إنفاقاً، والنقد المتداول خمسة ملايين جنيه. وتتناول الحكومة الليبية إعانات مالية من الخارج لتغطية العجز في النفقات، وفي الميزان التجاري والحسابي.

وليبيا اليوم في بدء مرحلة التصنيع، والصناعة اليدوية هي السائدة في صناعة النسيج والجلود المزركشة والأواني النحاسية. أما الصناعات الحديثة فهي تتناول تحضير المنتجات الزيتية وصنع المعكرونة وتعليب الخضر والفواكه والأسماك وأهمها الطون والسردين، ويقدر محصول هذه الأسماك بنحو ٦٤٠٠ طن من الطون الضخم و ١٣ ألف طن من المتوسط و ٢٨ ألف طن من السردين.

وقدر إنتاج القوى الكهربائية عام ١٩٥٥ بحوالي ٦٢ مليون كيلو واط ساعي. ومن المحتمل اكتشاف البترول في ليبيا. وفيها الآن عدد من الشركات الأميركية

والإنكليزية والفرنسية تقوم بأعمال التنقيب لهذا الغرض . ولم تجر حتى الآن أية دراسة جيولوجية للبلاد ، غير أن الدلائل تشير إلى أنه لا يوجد هناك أمل كبير في اكتشاف ثروات معدنية .

تاريخ ليبيا

هاجر الإغريق إلى ليبيا حوالي سنة ٧٠٠ ق.م وأقاموا حضارة زاهرة ، وعمرُوا الأرض ، وما برحت بقايا آثار شحات وغيرها تدل عليها . كما أن الفينيقيين اتصلوا بليبيا حوالي سنة ٩٠٠ ق.م ، وأقاموا لهم مدناً عظيمة ، وما تزال بقايا لبدّه أيضاً تشهد بعظمتهم محتفظة بطابع الجمال التي انفردت بها دون المدن الأثرية .

وفي أواخر سني ما قبل الميلاد وأوائل الميلاد ، أضحت ليبيا مستعمرة رومانية عظيمة حتى سنة ٤٠٩ م . عندما سيطر عليها (الواندال) الذين عاثوا في الأرض فساداً ، وجردوا لبدّه من محاسنها . ثم حكم البيزانطيون ليبيا منذ سنة ٥٤٣ م . وبعد مائة عام تغلب العرب على امبراطورية الاسكندرية ، وقاد عمرو بن العاص سنة ٢٢ للهجرة العرب لفتح ليبيا ، فسلم له أهالي برقة وفتح عقبة بن نافع زويله من مدن فزان القديمة .

وفي زمن عثمان بن عفان ، أذن الخليفة لعامله على مصر عبد الله بن أبي سرح بفتح أفريقيا بواسطة جيش العبادله المعروف الذي كتب له النصر المكين . وتوالت على طرابلس حكومات ودول إسلامية وعربية إلى أن ضعفت الدولة الحفصية ، وازدادت شوكة الإسبان بعد طرد العرب من الأندلس ، فاحتلت اسبانيا شمال أفريقيا ونزلت في طرابلس عام ١٥١٠ م إلى أن ظهر حكم فرسان القديس عام ١٥٣٥ ودام حتى الاستيلاء التركي الذي كانت طلائعه الهجوم البحري عام ١٥٥١ .

العهد الإيطالي والجهاد القومي الليبي

في ٢٩ أيلول ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا، وفي شهر تشرين أول تعرضت ليبيا لأول غزوة إيطالية واحتل الإيطاليون أهم المدن الساحلية. وجاء من استانبول ضباط كبار مثل فتحي وأنور ومصطفى كمال وعزيز علي المصري، الذين قادوا فلول الجيوش التركية زمناً مع القبائل الليبية في حرب مع المستعمر، استشهد فيها الكثيرون من أبطال برقة وطرابلس.

وجاءت الحرب العالمية الأولى، فعاد الترك في غواصات ألمانية، معهم نوري باشا أخو أنور، الذي اتصل بالسيد أحمد الشريف السنوسي والتحق به وكانت عاصمته جغبوب. وغرض الأتراك من حملتهم هذه إشغال الإنكليز في مصر من الجانب الغربي، وإشغال الإيطاليين عن حليفهم النمسا، ولكن الخطة فشلت واضطر السنوسي للتخلي عن حكم برقة للسيد ادريس، وذهب الأول في غواصة إلى استانبول. وفي عام ١٩١٨ إثر انكسار الأتراك وتوقيع الهدنة وسفر واليهم عثمان والضباط الألمان، جمع سليمان باشا الباروني المجاهد الكبير، مؤتمراً قومياً في ١٦ تشرين الثاني ١٩١٨ في مسلاته، وأسس جمهورية طرابلسية لها مجلس إدارة. وكانت إيطاليا تتظاهر بحب التفاهم مع الوطنيين، ولكنها نظرت إلى هذه الجمهورية في طرابلس وإلى أمارة دريس السنوسي في برقة نظرة الخداع. وأخيراً تنكرت للإتفاقيات التي أجرتها مع المجاهدين وحنقت على البيعة الإجماعية، التي تمت في مؤتمر غريان للأمير السنوسي، فباشرت بأول إجراء حربي لاكتساح ليبيا كلها مرة ثانية. فاحتلت في تشرين الثاني ١٩٢٣ ميناء قصر أحمد للوصول إلى مصراته التي كانت فيها حكومة وطنية برئاسة أحمد السويحلي. وكان الجنرال غرازياني قد غدر من قبل ببطل جبل نفوسه العظيم خليفة ابن عسكر، وكان يتفاوض معه بأرض (الوطيه) فاعتقل وأعدم شتقاً في الزاوية عام ١٩٢٢.

عمر المختار

وعندما سافر الأمير إدريس إلى القاهرة لأمر صحي، وأتاب لشؤون أمارته أخاه السيد الرضا، أسند قيادة الجيش بالوكالة عنه للسيد عمر المختار، وكان من أشهر الإخوان السنوسيين علماً وتقوى، وإخلاصاً وشجاعة.

وبعد أن تفرغت إيطاليا من إنهاء المقاومة من طرابلس تحولت للإستيلاء على برقة، فلقبت من عمر المختار وجنده كل ثبات، وكانت أودية الجبل الأخضر وكهوفه وغاباته خير مسعف لهم بإفناء الفرق الإيطالية.

وفي سنة ١٩٢٩ وفي زمن بادوليو والي ليبيا، الذي رأى أن فزان مهمة بالنسبة للعرب المجاهدين، أعدت حملة لاحتلال فزان، وبعد الجهاد المر، الذي قام به المجاهدون تمكنت الحملة من احتلال العاصمة مرزوق، وبذلك انتهت مقاومة فزان. وفي سبيل تطويق عمر المختار الخاضع لأوامر السيد إدريس في القاهرة، أجلى غرازياني والي برقة قبائل الجبل الأخضر عن أراضيها، وحصرها كلها في العقيلة، وهي مجردة من الشجر والنبات والماء، وذلك لإبادتها مع مواشيها.

واستمر عمر المختار يناضل ورجاله الفدائيون إلى أن كانوا ذات يوم وقد نفذ بتأثير الحصار المفروض عليهم كل قوت وذخيرة، عندما فوجئوا سنة ١٩٣١ بكمين إيطالي في بعض أودية مسه بالجبل الأخضر، فناضلهم عمر المختار وإخوانه حتى نفق جواده فسقط به على الأرض، وكان شيخاً قد جاوز الستين، فأسره الطليان وحوكم في بنغازي، وأعدم شنقاً بمحلة سلوق أمام القبائل وانتهت بنهايته آخر المقاومات المسلحة في برقة.

وفي عهد الفاشيست صودرت جميع الأراضي الساحلية الخصبة من الليبيين، وجلب بادوليو عام ١٩٣٥ عشرات الألوف من الأسر الإيطالية، حيث اقطعوا الأراضي للفلاحة، وبمساعدهتهم عُمرت القرى وغرس الزيتون وكروم العنب

واللوز وحفرت الآبار الارتوازية، وانتشر العمران في عموم ليبيا، وجهزت البلاد بالكهرباء وأنابيب الماء، كما مدت الطريق الساحلية من حدود تونس إلى حدود مصر وطولها حوالي ١٩٠٠ كم. وقد جند الإيطاليون أهالي ليبيا عام ١٩٣٥ لغزو الحبشة، ثم في الحرب العالمية الأخيرة لمقاتلة الحلفاء، وفرضوا على الأربع ولايات التي أوجدوها وأحقوها مباشرة بإيطاليا الجنسية الإيطالية، وكانت كل المشاريع العمرانية تقام لحساب ومنفعة المستعمرين دون أبناء البلاد.

واغتتم أحرار ليبيا المقيمون في الخارج فرصة الحرب الأخيرة لمواصلة الكفاح، ف عقدوا مؤتمراً عاماً في القاهرة جددوا البيعة للأمير إدريس، وأقروا الانضمام للحلفاء لتحرير ليبيا، وكون في ٣٠ آب ١٩٤٠ الجيش الليبي في الخارج من ١٤ ألفاً. وبعد ضرب البارجة الإيطالية خطأ لطائرة المارشال بالبو في سماء طبرق وهو فيها مع صحبه، جاء من روما المارشال غرازياني ثانية، وصار والياً مكان بالبو وكون جيشاً ليبياً كبيراً، كان من بينه ثمانون ألف ليبي. وبهذا الجيش هجم غرازياني على مصر حتى وصل سيدي براني، وهناك فاجأ الإنكليز في ٩ كانون الأول ١٩٤٢، بهجوم عام بقيادة المارشال وايفل الذي رد الطليان وأسر من الليبيين ألوفاً، انضمت إلى جيش التحرير الليبي.

وواصل وايفل زحفه في أعقاب غرازياني المنهزم حتى احتل برقة، وبينما الإنكليز في العقيلة، فاجأهم من طرابلس مجيء الألمان بدباباتهم الضخمة، بقيادة المارشال رومل، فاسترد برقة واستولى على سيدي براني. وبعد معركة العلمين وانكسار الجيش الألماني والطللياني في معركة دامت اثني عشر يوماً، سارع الإيطاليون بالانسحاب من ليبيا إلى تونس، ومنها مع حلفائهم إلى إيطاليا، وبذلك انتهى الحكم الإيطالي في ليبيا، بعد أن دام نحواً من ٣٢ سنة.

الحكم الوطني

وبعد الحكم الإيطالي، أسست في كل من طرابلس وبرقة حكومات عسكرية بريطانية، وفي فزان حكومة فرنسية عسكرية. وجاءت إلى ليبيا عام ١٩٤٨ لجنة تحقيق مشتركة من أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا، وقد أجمعت ليبيا على إعلان رغبتها في الحرية والاستقلال، وبعد عدة مفاوضات أعلنت هيئة الأمم المتحدة في ٢١ شباط ١٩٤٩، قيام دولة ليبية ذات سيادة في فترة لا تتجاوز أول عام ١٩٥٢.

وفي ٢٤ كانون الأول ١٩٥١ أعلنت الجمعية التأسيسية الليبية الاستقلال، وفي أول كانون الثاني ١٩٥٢، تسلمت الحكومة الليبية جميع المصالح التي كانت تديرها الحكومات العسكرية، وأعلن البرلمان الليبي تنصيب الأمير محمد إدريس المهدي السنوسي ملكاً على ليبيا.

وسارت المملكة الليبية المتحدة في طريق الإنشاء وتعريب الدواوين، وما تزال جادة في سبيل التقدم والعمران ورفع مستوى السكان.

ملاحظة من المؤلفة

لايفرتني أن أضيف إلى ماكتبه والذي أن ليبيا انتقلت فيما بعد إلى يد ضباط ثوريين يقودهم العقيد معمر القذافي وحكمهم قائم إلى الآن.

تونس

غادرنا طرابلس حوالي الساعة الواحدة من بعد ظهر الخميس في ١٩٥٧/١٢/٥ بالسيارة ميممين الحدود التونسية. مررنا أولاً بالزاوية ثم في سبراطه ثم في زوارا، وعند الكيلومتر ١٦٩ عن طرابلس تقع الحدود التونسية، وتبعد عن مدينة تونس ٦٠٢ كم. وموقع الحدود يسمى ابن غردان، وفي كل جهة من الحدود مركزان ومعاملتان. شهدنا عند دخولنا الأرض التونسية ثكنات الجيش الفرنسي، يحتلها الحرس الوطني التونسي والشرطة التونسية، بموجب آخر اتفاقية بين تونس وفرنسا. ومعاملة الحدود كلها باللغة الفرنسية.

مدينين وكابس

مررنا بأول بلد تونسي (مدينين) وهي مركز ولاية تبعد عن الحدود ٧٨ كم، والطريق من طرابلس إلى الأرض التونسية كلها معبدة عامرة بالزيتون والحمضيات والزراعة الشتوية الغياض في سهول فسيحة وعلى الساحل. ومن ثم وصلنا مدينة كابس، وفي ريفها وعلى طريقنا لقينا موكب عروس وهي على هودجها وحولها الأقارب والأهل بثيابهم الملونة المزركشة، يهزجون ويصفقون. وبعد قليل شاهدنا على الطريق ذوي العريس وأهل قريته يقفون بانتظار الموكب لاستقباله بالدف والمزمار وكانت الليلة ليلة الجمعة.

صفاقس

وحول الساعة الثامنة مساءً وصلنا مدينة صفاقس وتبعد عن الحدود ٢٩٢ كم. وتعد من النفوس ٦٥٦٣٦ نفساً تتجاوز فيها الأحياء القديمة بين أسوارها الحصينة مع

الأحياء العصرية ذات الشوارع العريضة المستقيمة، وحولها ضاحية ممتلئة بالمنازل الأنيقة والحدائق الزاهرة، وميناؤها من أنشط الموانئ حيث يتوارد عليها فوسفات قفصه، وقد جدد بعد الحرب الأخيرة، وفي عرض البحر توجد جزر قرقته.

وتمتاز صفاقس بخصب أرضها وبراعة أهلها في الزراعة، إلا أن الأمطار كثيراً ماتمسك عنها فتمر بها سنوات عجاف. وفي صفاقس إمكانات عظيمة لزراعة البقول والأثمار، إذا توفرت لها وسائل الري. وفيها أيضاً إمكانات للتوسع في الصناعات التي توجد منها الآن صناعة الصابون والعطورات والمشروبات العادية وتكرير الفوسفات.

وغابات الزيتون حول صفاقس المتصلة الحلقات، تمتد حيثما لا يدركها الطرف وذلك في تناسق هندسي بديع، وأشجارها متباعدة عن بعضها حتى تصل مدينة الجهم، وبينها وبين صفاقس ٦٥ كم. قضينا ليلتنا في أحد فنادقها الكبيرة، وتجولنا ليلاً في ساحات وشوارع صفاقس الحديثة. وفي الصباح دخلنا المدينة القديمة التي ماتزال أسوارها عامرة، تكسبها جاذبية روحية تعود بنا إلى تاريخ تونس الماضي المجيد.

إلى الجهم وسوسه

كان البحر على يميننا من طرابلس إلى تونس، والبحر في تونس هو الذي طبع كل شيء بطابعه الحيوي، فالبحر هو الذي يوجه نشاط البلاد. لهذا كانت جميع المدن التونسية الكبيرة باستثناء النذر القليل منها مدناً ساحلية. ومهما تماثلت الأرض وتشابه المناخ فإن المناطق الساحلية تفوق المناطق النائية عن البحر من جهة الاستغلال وتطور العيش. والحياة تنتظم قرب البحر، وبفضل البحر وفي الأقاليم المتاخمة للشواطئ يتكاثر العمران ويرتفع مستوى الحياة.

وسواحل تونس طويلة متعرجة ملتوية، وعليها تلويح آثار الرومان وفينيقيًا والرباطات العربية والقلاع التركية والحصون الإسبانية، تحدث بما شاهده هذه الشيطان من غزوات متلاحقة.

بلغنا مدينة الجم صباح الجمعة وبينها وبين صفاقس ٦٥ كم وبين تونس ١٣٩ كم وفيها المسرح الروماني الشهير الذي تبنىء مقاعله البالغة ستين ألفاً عن مدى ما بلغت تلك المدينة قديماً من عمران. وبعد سير ١٢٩ كم من الجم أدر كنا بلدة سوسة، المدينة التي أبحر منها قاضي القيروان الأميرال أسد بن الفرات لفتح صقلية.

والمدينة أقيمت فوق مرتفع (هدرومات) العتيقة ويسكنها حالياً ٤٨ ألفاً وحولها قرى كبيرة منتشرة في بادية ذات مرتفعات تتراحم فيها بالمناكب أغراس الزيتون في غير نظام. ثم مررنا بالنفيضة ثم بحمام الأنف وفيها قصور ومصايف الباي وتبعد ٢٠ كم عن تونس وتمتاز بحماماتها المعدنية وفيها محطة (تلفريك) للمركبات الهوائية الكهربائية، والطريق كلها وحتى أن بلغنا تونس كانت تزداد فيها معالم العمران والإنشاء والحياة، والبحر قريب منها.

تونس وضواحيها

وصلنا تونس حوالي العاشرة صباحاً بعد أن نكون قطعنا ٣٠٨٦ كم من القاهرة، والمدينة تقع على حافة بحيرة قريبة من مرسى قرطاجنة الفينيقية، ويبلغ عدد نفوسها مع الضواحي ٦٧٨ ألفاً، وتبدو من حيث طبيعة أرضها ملتقى المجتمع العصري والقديم. والمدينة القديمة وربضها الملتصقان بها، ربض باب الجزيرة وربض باب السوق، هي المركز الحساس بما ضمت داخل سورها (الذي مازالت بعض أجزائه قائمة) من طرق ضيقة وأسواق مسقوفة، وفي ما بين المدينة القديمة والبحيرة تقوم المدينة الجديدة بشوارعها وطرقها المقسمة على الترابيع ذات الزوايا القائمة، وبعماراتها ذات الخمسة والسته طوابق، ووراء هذه الدوائر المحدودة التي تتجمع فيها أغلب مظاهر

النشاط المدني والتي تعظم فيها حركة المرور ويشتد الزحام، تأتي منطقة المساكن المتجمعة في الأحياء الجميلة المتصلة بالمدينة من جميع الجهات، كما أن بها حديقة كبيرة جميلة تقوم على رابية مشرفة على المدينة والبحر منحتها الطبيعة أبهى حللها. كما أن تنظيم الحديقة وأشجارها وخمائلها كله آية في التنسيق، وتربط المدينة بالضواحي خطوط الحافلات والسيارات والقطر مثل أريانه وباردو التي تكاثرت فيها المباني حول قصور الباي وحلق الوادي مركز الصيد البحري ومدخل ميناء تونس الذي يتضخم عدد سكانه كل سنة في فصل الصيف بتكاثر المصطافين، وقرطاجنة التي تتجاوز فيه القصور المزدهرة مع المرسى الفينيقي العتيق والمسارح والمعابد القديمة، وسيدي بو سعيد مقر النخبة من الكتاب والفنانين الذي يشرف من عليائه على المنظر البعيد الذي تبدو فيه مدينة تونس بين إطار من ضواحيها، والمرسى وهو مصيف ذوي اليسار. وفي الضفة الأخرى لبحيرة تونس توجد قرى كثيرة جميلة مثل رادس.

وقد امتازت من بينها حمام الانف الواقعة على سفح جبل (بو قرنين) بحماماتها المعدنية وقرية سليمان ذات الطراز الأندلسي. كما أن على ساحل البحر القريب من تلك الضواحي تقع قرية قربص، وفيها قصر ملكي قديم اتخذ منه مركز للاستحمام بالمياه الحارة الطبيعية وبالبحر، وفي الطريق إلى قربص توجد بلدة نابل وفيها الكثير من دور عمل الخزف الجميل الدقيق الصنع والقيشاني المختلف الألوان.

والحقيقة أن جمال الطبيعة قد تجلّى بأبهى حلله في ضواحي تونس، وعلى شطآن البحيرات التي تكتنفها الجبال الخضراء، ومعظم الأبنية من حولها من طراز أندلسي مطلي من الخارج بالأبيض الناصع، ولون نوافذه وأبوابه وأكشاكه الجميلة الشرقية الدقيقة النجارة أزرق فاتح. وأبواب البيوت كبيرة عريضة، ولكل باب من

ضمته باب (خوخه)، وأشجار النخيل والبرتقال والورود والأزهار على اختلافها تزيد في مفاتن تلك المواقع الأخاذة.

وفي المرسى يقوم القصر الملكي السابق (السعيدة)، وفيه عقدت معاهدة باردو في ١٢ أيار ١٨٨١ التي قبل الباي بموجبها الحماية الفرنسية، ثم عقدت فيه معاهدة المرسى في ٨ حزيران ١٨٨٣ التي أفقدت تونس حقيقة استقلالها. وفي هذا القصر بالذات أبلغ آخر باي عزله عن العرش التونسي.

أما (قمارت) وما تحويه من (بلاجات) أنيقة لجانب التلال المكسوة بالخضرة الدائمة تظلل الدارات الجميلة ذات الطابع الأندلسي فهي من مفاتن الأرض التونسية. وبالقرب من ذلك المدرج القرطاجي في قارطاجه وحوله الملعب الروماني الذي كانت تلقى فيه الفتيات للأسود يفتكن بهن ويلتهمنهن. وحول ذلك متحف سلامبو للأسماك، وهو متحف غني بالأسماك المصبرة وعظام الحيتان الكبيرة ومختلف الأسماك الحية كبيرها وصغيرها، والحيات البحرية السامة ومنظرها مرعب. ومن الأسماك ماهو عجب عجاب في تركيبه، ومما يشبه في وجهه وجه الإنسان، وكل ذلك مما يعيش في بحار تونس. كما توجد في المتحف أنواع كثيرة من مصبرات الطيور التي تعيش في تلك الأقطار.

ولقد وقفت على أطلال قرطاجه القديمة ومينائها الصغيرة تشبه إلى حد كبير ميناء رأس شمرة قرب اللاذقية. ويقال أن بعض القبائل العربية التي هاجرت من جزيرة العرب مثل بني هلال وبني سليم قد خربت كثيراً من آثار قرطاجه.

تاريخ تونس والاحتلال الفرنسي

واني أتوقف هنا عن البحث، لأورد شيئاً عن تاريخ تونس القديم، فأقول أن قرطاجنه أسستها عمارة فينيقية أنت مع (ديدو) والتي هجرت صور بعد أن قتل أخوها زوجها، فثارت على أخيها ولكنها غلبت فلعجأت إلى البحر مع جماعة من

أكابر قومها وحطت في الشمال الأفريقي، واشترت من البربر قطعة من الأرض بنت عليها مدينة قرطاجنه سنة ٨٤٠ ق.م. ولعبت هذه المدينة وجمهوريتها دوراً كبيراً في التاريخ والتجارة والسياسة والحروب، إلى أن كان الاستيلاء الروماني سنة ١٤٦ ق.م. وقد دام حكمه لتونس حتى سنة ٤٣٠ م. ثم عقبه حكم الواندال من ٣٤٩ إلى ٥٣٤ م ثم الحكم البزنطي إلى ٦٤٢ م. ثم جاء العرب عام ٦٤٧ عندما فتح عبد الله بن الزبير سيطله كما فتح عبد الملك بن مروان، وكان من امار الجيش العربي قبل أن يصير خليفة، مدينتي جلولاً وبنزرت، وأسس عقبة بن نافع مدينة في الداخل سماها القيروان.

ثم عاد الجيش العربي لاحتلال الأرض التونسية عام ٦٦٨، واحتل حسان ابن النعمان قرطاجنه عام ٦٩٧ وقضى على المقاومة البربرية التي كانت تقودها الكاهنة أميرة البربر.

ومرت على تونس عدة عهود اسلامية منها المهالبة والأغالبة، وقد ابتدأت دولتهم عام ٨٠٠ م. عندما استقل بالملك ابراهيم بن الأغلب، وفي عهد زيادة الله جهز الأسطول العربي بدار صناعة سوسه، واستعمل عليه قاضي القيروان (اسد بن الفرات) ففتح عدة حصون ومدن في جزيرة صقلية (سيسيليا). وفي عام ٩٠٠ م جاء دور الدولة العبيدية وكان منهم المعز لدين الله الذي سير القائد جوهر إلى مصر، فأسس له مدينة القاهرة المعزية، وبذلك أصبحت الديار المصرية تابعة للدولة العبيدية إلى أن انتقل المعز إلى مصر وجعلها قاعدة ملكه. ثم جاء دور الدولة الصنهاجية ثم الموحدية ثم الدولة الحفصية ثم جاء خير الدين باشا من الجزائر سنة ١٥١٤ م أو ٩٣٥ هـ واحتل تونس، وخطب للسلطان العثماني، ولكن الفتح التركي النهائي لم يتم إلا عام ٩٨١ هـ أو ١٥٧٤ م على يد سنان باشا. ودام الدور التركي إلى سنة ١١١٧ هـ أو ١٧٠٥ م. حيث تأسست الدولة الحسينية، ومؤسس

هذا البيت حسين باي الأكبر وأبوه من كريت، ودام حكم هذا البيت حتى العام الماضي.

وبعد عام ١٢٩٤ هـ اضطرب جبل الأمن في الأراضي التونسية، واختلفت الأحزاب، وكثرت المشاكل بدسائس بعض القناصل، وصدف أن حصلت مشاجرة بين عربان جبال (خمير) في الشمال الغربي من تونس، وبين بعض الأهالي التابعين لحكم الجزائر جيشاً تسانده فرقة من الأسطول ارست على مدينة بنزرت، وأنزلت جنودها واتجهوا إلى العاصمة وحاصروا باردو، حيث يقيم الباي محمد الصادق الذي اعترف بحماية فرنسا، ووقع على المعاهدة التي عرضها عليه الجنرال (بريار). في ١٢ جمادى الثانية ١٢٩٨ هـ وبعد وفاة الباي وارتقاء أخيه سيدي (علي باي) عرش تونس. وفي ٨/٥/١٨٨٣ وقعت اتفاقية (المرسى) وبمقتضاها التزمت الحكومة الفرنسية بإجراء إصلاحات داخلية مما تراه مناسباً، ومع أن الاتفاقية قد حفظت للباي السلطة التشريعية، إلا أن المقيم الفرنسي هو الذي باشر عملياً، كل سلطات الباي وتسلم الإدارة مباشرة.

وظلت سيادة الباي الرسمية تنتقل من باي لآخر حتى تسلمها الباي محمد الأمين الأول بعد خلع محمد المنصف باي، الذي نفى إلى فرنسا ومات بها، وهو المحبوب من شعبه كثيراً. والباي الأخير محمد الأمين وهو تاسع عشر أمير بين أمراء الأسرة الحسينية، خلع عن العرش كما أسلفت عندما أعلن المجلس التأسيسي، إلغاء النظام الملكي وقيام النظام الجمهوري يوم الخميس في ٢٥ تموز ١٩٥٧.

وقد خرج وفد من قصر المجلس يضم ممثلي السلطة التنفيذية والتأسيسية وقصد إلى قرطاجته، حيث أحيط الباي علماً بقرار المجلس، وأبلغ قرار وزير الداخلية الذي يحدد له الإقامة في بلده منوبه تنفيذاً للتعليمات الصادرة عن المجلس

التأسيسي وقد استقر وأبناءه وولي عهده بالمنزل الذي خصص لهم . وبذلك طويت صفحة عهد دام مائتين واثنين وخمسين سنة .

استقلال تونس والحزب الحر الدستوري التونسي

كل هذا تم في نطاق التطور الذي صارت إليه تونس ، نتيجة لإجماع الشعب التونسي على طلب الحرية والسيادة ، فقدم في سبيل ذلك تضحيات جسيمة ، ولقي أحراره في مدى خمسة عشر عاماً كل مصائب التشريد والنفي والاعتقال ، كما لقي بعضهم حتفه في معارك ، أو من جراء اغتيال ومؤامرات . وفي ٣١ تموز ١٩٥٤ اعترف الرئيس مندائيس فرانس في بيانه بقرطاجه ، اعترافاً رسمياً بحق تونس في الاستقلال .

وبعد بضعة أسابيع افتتحت المفاوضات بين حكومة السيد طاهر بن عمار والحكومة الفرنسية ، وتعسرت هذه المفاوضات كثيراً ، إلى أن جاءت حكومة ادغار فور فوقع بنفسه مع ابن عمار اتفاقاً في ٣/٦/٩٥٥ اعترف فيه بنظام الاستقلال الداخلي الذي كان فاتحة عهد آخر ، حيث في ٢٠ آذار ١٩٥٦ اعترفت فرنسا على رؤوس الملاء ودول أخرى أيضاً باستقلال تونس .

وقد وقف المسيو بينو مساء يوم الثلاثاء المذكور بحضور الوفد التونسي ، يتلو نص البروتوكول القائل : تعترف فرنسا على رؤوس الملاء باستقلال تونس .

ونتيجة لذلك وبعد خمسة أيام ، دعي الشعب لانتخاب مجلس قومي تأسيسي . ثم توالى مراحل تسلم أسباب السيادة التونسية حتى اليوم ، ولما تتخلص تونس من براثن الاستعمار الفرنسي ، ولكنها واصله حتماً للخلاص منها نهائياً بإذن الله .

ويجدر بي هنا ، أن أذكر شيئاً عن الحزب الحر الدستوري التونسي ، حامل لواء الاستقلال . فهو قد تأسس عام ١٩٢٠ ، والهيئة العليا فيه هي الديوان السياسي ، وبعدها يأتي المجلس الملي ، الذي يضم ٣٢ عضواً ينتخبهم المؤتمر العام للحزب ،

بالإضافة إلى مندوب واحد عن كل دائرة وعددها ٤١، وهي تمثل الشعب وتبلغ ٨٨٣٠ شعبة.

وقد استطاع الحزب أن يتجه عن طريق المنظمات المهنية إلى إشراك جميع عناصر الأمة في معركة السيادة. فأحدث لذلك الاتحاد العام التونسي للشغل، والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة، والاتحاد العام للفلاحين التونسيين، والاتحاد القومي للمزارعين التونسيين، كما أن الاتحاد القومي للنساء التونسيات والكشافة التونسية، انبثقت منظماتها عام ١٩٤٦ ويبلغ عدد الكشافة ٢٠ ألفاً.

إصلاحات عهد السيادة

ومن الإصلاحات التي حققها عهد السيادة الإصلاح القضائي في ١٣ آب ١٩٥٦ ومنه ما يتعلق بالأحوال الشخصية بالنسبة للتونسيين المسلمين، كإخضاع الطلاق للمحكمة، وإلغاء تعدد الزوجات وتنظيم الزواج بفرض سن أدنى، ومنها الإصلاح التربوي بالشروع في تطبيق مبدأ مجانية التعليم الابتدائي، وتحويل برامجه لتتوافق والوسط التونسي العربي، وهذا الإصلاح لا يقضي بإلغاء تعلم اللغة الفرنسية في المرحلة الابتدائية.

ومنها الإصلاح العمالي، ففي ٣٠ نيسان ١٩٥٦ اتخذ تدبير بمنح العمال الزراعيين القانون الذي تطالب به المنظمات النقابية لضبط وتنظيم طريقة تعيين أجر العامل، وتنظيم أوقات العمل، وجعل الراحة الأسبوعية إجبارية، وإحداث شبكة من الصناديق الاجتماعية التعاونية الزراعية.

وفي حق المرأة يمكن القول أن المرأة التونسية التي كانت بالأمس حبيسة لاهتمام بأمر خارج عن نطاق وسطها العائلي، أصبحت اليوم مدرّسة وطبيبة وموظفة ومرشدة اجتماعية، إلى غير ذلك مما تمارسه من المهن، كما باتت تساهم بقسط متزايد في حياة البلاد وفي جميع مظاهر النشاط.

إنها تعنى بالدرس وتمارس الرياضة البدنية، وتمشي مشية عسكرية في الاستعراضات لابسة أزياء الرجال، وتبدو أحياناً من بعيد مرتدية حجابها الأبيض، كما لو كانت تتخذ منه جناحين لإسراع الخطى.

والاتحاد القومي للنساء التونسيات يلعب دوره العظيم في خلق جيل جديد صاعد نسائي. كما أن الاتحاد العام لطلبة تونس من أكثر المنظمات أثراً في الحياة العامة في تونس ونظامها الإداري يقوم على الفروع، ويوجد فرع لها في كل معهد. وينشر الاتحاد العام للطلبة صحيفتين الأولى باللغة العربية والأخرى باللغة الفرنسية.

السكان وطبيعة البلاد ومرافقها والثروة الزراعية والحوانية والمائية

ويبلغ عدد سكان تونس ٣,٧٨٤,٠٠٠ يمثل المسلمون منهم ٩٣/٢٪ ويوجد من الفرنسيين قرابة ١٨٠,٤٥٠ ومن الإيطاليين ٦٦,٩٠٠ ومن اليهود ٥٧,٧٨٦ ومن الجاليات المختلفة ٨٦,١٤٩. ويرجع أصل سكان تونس إلى عدة عناصر أهمها البربر وهم السكان الأصليون ثم فينيقيون فيونان فعرب، ومن العصور الأخيرة امتزج الشعب التونسي بمهاجري الأندلس والأتراك كما اختلط قليله بعد ذلك بالأوروبيين.

وتبلغ مساحة تونس ١٢٥ ألف كيلو متر مربع، وتنقسم الأرض التونسية إلى ثلاثة أقسام طبيعية هي الشمالية وتتركب من مزارع خصبة يمر على جانب عظيم منها وادي مجردة والساحل من الناحية الشرقية على طول البحر ويتألف من أرض منبئة غزيرة العمران وافرة السكان، والقسم الجنوبي ويشمل سهولاً عظيمة ومراعي شاسعة وواحات نخيل تبتدىء منها الصحراء الكبرى.

وتربة تونس مخصبة إجمالاً صالحة للزراعة وأشهر حاصلاتها القمح والشعير والذرة والزيتون والنخيل والكرمة وغالب الفواكه، والمساحات غير المنتجة في

تونس تبلغ ٣ ملايين هكتار ونصف من أصل ٩ ملايين، وتحتل الغابات مليون هكتار من بين ٤ ملايين يتواصل استغلالها أو زراعتها، يضاف إليها ٤ ملايين صالحة للمراعي، وتحتل الحبوب مليون هكتار في الشمال والوسط.

ويقدر الإنتاج من القمح القاسي بـ ١,٨٠٠,٠٠٠ طنار، ومن القمح الطري ٢,٢٠٠,٠٠٠ طنار. ويصدر من الطري فقط نحو ٢٠٠ - ٣٠٠ ألف طنار فقط، كما تحتل الكروم مساحة ٣٨ ألف هكتار، والحمضيات ستة آلاف هكتار، فيها ٢٠٠ ألف شجرة تقريباً.

وتحتل الزيتون ٨٠٠ ألف هكتار في وسط تربة ومناخ مثاليين في تونس، فازدهرت بسببها البلاد وهي اليوم أحد الأسس الثابتة للاقتصاد التونسي بأشجارها التي تعد ٢٧ مليون شجرة بنسبة مائة شجرة بالهكتار في الشمال، و٨٠ في الوسط، و٢٠ بالمناطق الجافة في الجنوب.

وتحتل تونس المرتبة الخامسة في الانتاج في العالم، والثانية في التصدير لجودة نوع الثمار، ويقوم على زراعة الزيتون في تونس ٢٧٦ ألف مزارع، وتملك نحو ٢٠٠٠ معصرة للزيت، ومخازن للزيت تسع ٨٠ ألفاً من الأطنان، وقدرت مواسم ١٩٥٥ - ١٩٥٦ بنحو ١١٦٣٥٤ طناً. وفي تونس ٢٥٠ ألف شجرة لوز و٨ ملايين ونصف المليون من الأشجار المثمرة، ونحو ٣ ملايين من النخيل في الواحات. وتستخدم الآلات الزراعية بكثرة في الشمال حيث تعمل ٢٧٠٠ آلة حصاد ودرس. وهناك عدة أعمال ومشاريع للري والسدود ولتوليد الكهرباء، فإن نهر مجردة الذي تتدفق مياهه من الجزائر قرب تبسه في ارتفاع ١٢٥٠ متراً، وهو أعظم أنهار تونس وطوله ٤٦٠ كم. يقوم عليه مشروع إحياء أراضي وادي مجردة الذي أمكن إنجاز نصفه في عام ١٩٥٧.

ويبلغ الاعتماد المالي المنتظر صرفه بـ ٢٥ مليار فرنك تبذلها الخزانة العامة للدولة، وهذا من شأنه إنتاج كهرباء بكمية ٣٠ مليون كيلواط في العام، وري ٥٠ ألف هكتار من الأراضي البعل، واستصلاح ٤٠ ألف هكتار كانت غير صالحة وحماية ٥٢ ألف هكتار من الفيضانات.

أما السدود الكبرى في تونس فأهمها سد وادي ملاق وسد العروسية، ويكفلان ري ٥٠ ألف هكتار، وهناك سد ثالث، سد بني مطير الذي أقيم على وادي الليل، وقد انتهى في أيلول ١٩٥٣، وهو يتسع لمقدار ٧٥ مليون متر مكعب من المياه، ويزود العاصمة التونسية في كل يوم بنحو مائة ألف متر مكعب من الماء الصالح للشرب. ومن المنتظر أن يتم إقامة معامل لتوليد الكهرباء بوساطة سد بني مطير، تنتج مائة مليون كيلواط في العام.

وبمناسبة ذكر القوى الكهربائية، أذكر أن استهلاك الفرد التونسي في العام من القوى الكهربائية ٦٠ كيلو واط ساعي، بينما هو في فرنسا ١٠٦٠. وأن المصنع الكهربائي في حلق الوادي، وهو أكبر مصنع بشمال أفريقيا، ذو قوة تبلغ ٧٠ مليون واط، وقد أنتج سنة ١٩٥٦ نحو ٢٢٠ مليون من كيلو واط ساعي. كما يوجد مصنعان آخران في مناطق سوسة وصفاقس تبلغ قوتهما بضعة ملايين واط. وقد ارتفع الاستهلاك المنزلي في تونس من ٧٢ ألف كيلوات عام ١٩٣٨ إلى ١٤٥ ألف عام ١٩٥٥.

وتبلغ شبكة سكك الحديد في تونس ٢٠٠٠ كم، وفي حقول تربية الحيوانات يذكر أن عدد رؤوس الأغنام في تونس يبلغ ٣ ملايين وربع المليون. وفي الشمال يتزايد عدد البقر البالغ ٥٣٦ ألف رأس، إلى جانب ٩٦ ألفاً من الخيل، و٥٦ ألفاً من البغال. كما يوجد في الجنوب والوسط ١,٩٤٠,٠٠٠ رأس من الماعز لجانب الأغنام التي ورد ذكرها.

في الميدان التجاري والصناعي

وفي الميدان التجاري نرى أن ميزان التجارة الخارجية لتونس لعام ١٩٥٦ زاد عن ٦٢ مليار فرنك استيراداً و٤٢ ملياراً صادراً، وأهم الواردات مواد استهلاكية وغذائية وأصناف المنتوجات والمواد الخام ووسائل التجهيز والطاقة، وأهم الصادرات معادن الرصاص والحديد والفوسفات والأسمدة وزيت الزيتون والحبوب والخمور ومنتجات الصيد البحري ومادة الحلفا والحمضيات والخضار وغير ذلك.

والإنتاج الداخلي على أشكاله يبلغ ١٦٥ مليار فرنك منها ٣٩٪ من الزراعة و٢٨٪ من الصناعة و٢٧,٥٪ من التجارة والباقي يعود إلى موارد مختلفة ويلحق الفرد في تونس من الدخل القومي ٤٥٩١٧ فرنكاً وفي الجزائر ٥٦٤٧٥ وفي المغرب ٦٠٦٦٦ وفي فرنسا ٣٠٢٣١٠ فرنكات، وتبلغ المبالغ المبذولة من الدولة من عام ١٩٤٧ إلى ١٩٥٤ نحواً من ١٣٥ مليار فرنك.

وفي الحقل الصناعي قدرت الأموال المرصودة مابين أعوام ١٩٤٥ و١٩٥٥ بنحو ٥٥ مليار فرنك بذلت خاصة إلى شركات البحث عن النفط والمناجم وتكرير الفوسفات وصنع الأسمنت ومواد البناء والورق واللفائف المعدنية والنحاس والنسيج، وفي العاصمة وحدها ٤٣١٤ مؤسسة من مجموع ٨٣٩٢ توجد في تونس والاستهلاك الصناعي من الكهرباء ارتفع من ٣٠ مليون كيلو واط في عام ١٩٣٨ إلى ١٣٢,٧ مليوناً في عام ١٩٥٥.

وفي ضواحي تونس تقوم صناعات عدة ومعامل للإسمنت ومطاحن ولكن معظمها لليهود والأجانب.

حاضر تونس وماضيها وجولة في معالمها

وتونس - كما شهدتها - بلدة جامعة بين القديم والحديث فيها ساحات وشوارع ومقاه ومطاعم وملاهي تجعلها مدينة أوروبية راقية فيها كل معالم المدينة، أما القديم منها فإنه يضم مفاخر العهود العربية والحكم الإسلامي، ويكفي تونس فخراً أنها مسقط رأس ابن خلدون العلامة الفيلسوف والمؤرخ الشهير الذي ولد في غرة رمضان سنة ٧٣٢هـ. وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨هـ ودفن فيها.

وان تونس تضم جامع الزيتونة الأعظم، الذي بني في عهد عبيد الله بن الحجاب الذي قدم إفريقيا سنة ١١٦ للهجرة، عاملاً من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد وقفت في جامع الزيتونة خاشعاً مكبراً أثر هذا المعهد الإسلامي الكبير، الذي حفظ اللغة والدين، وكان له الفضل الأكبر في نشر العلوم والآداب، وهو أثر فني رائع في فنون البناء والزخرفة.

وإذا ما أردت التحدث عن طراز البناء في قصور البايات، وما احتوته تلك القصور من تحف وجمال وجلال فإن الحديث يطول. ويكفي القول أن مقر وزارة الخارجية الحالي، وهو أحد تلك القصور، قطعة رائعة من الفن الراقي من فنون الهندسة والبناء المغربية الأندلسية الغني بالنقوش والقيشاني البديع الجميل، والحفر على الجبس والمرمر. وقاعات هذا القصر بعضها يشابه قاعات قصري آل العظم في دمشق وحماه، وفي القصر فسقيات للمياه وأروقة أندلسية جميلة. كما أن دار المجلس التأسيسي وهي من آثار البايات الأوائل، تحوي قاعات تاريخية وإحداها تنسب لها معاهدة باردو المار ذكرها.

والدار كلها أندلسية الطراز تبعث في نفس زائرها الروعة والإجلال بتأثير تلك السقوف الموشحة بالذهب، وتلك الأعمدة من المرمر والأروقة المغطاة بدقيق الحفر على الجبس، وذلك القيشاني الغالي الثمن الزاهي الألوان، الذي يكسب الدار بهاء

ورونقاً أخذاً. وقاعات العرش (وإحداها كان يتقبل البايعات فيها قبل أن يخرج إلى قاعة الاستقبال) يعجز القلم عن وصف جمالها وفخامتها وما ضمته من آثار قيمة وتحف غالية.

والحقيقة أن هذه الدار العامرة بالآثار العربية الفريدة والتي لا مثيل لها في الشرق، تضيف إلى أمجاد تونس الأثرية مجدداً عظيماً. وفي الطريق إلى هذه الدار مررت بقناطر للماء تشبه كثيراً حجريات نواخير حماه وهي من آثار الرومان. كما اجتزت ومرت بسور المدينة والأبواب التاريخية من آثار الحفصيين وبني الأغلب. وإلى جانب دار المجلي التأسيسي يقوم متحف باردو، وهو متحف غني بآثار قرطاج والرومان، ويكثر من الفسيفساء الرائعة وعديد من النقوش والصور، ومئات من التماثيل التي تعد من أروع ما تركته العصور الغابرة من فن النحت والتصوير في وسط قاعات تعج بالآثار الدقيقة الصنع الغالية الثمن.

مع رئيس الجمهورية

أما القصر الذي يقيم فيه رئيس الجمهورية التونسية السيد الحبيب بورقيبة، والذي قابلته ورفاقي فيه، فهو قصر كان مصيفاً للبايعات، حديث البناء جميل، تكتفه حديقة غناء. وكانت المقابلة استعراضاً للعلاقات بين تونس وسورية وبين البلاد العربية ولذكريات الماضي لاجتماعات سابقة في دمشق (يوم كان الحبيب أحد خطباء حفلة تأيين المرحوم سعد الله الجابري وكنت أنا مقدمه للمنبير) (١).

(١) كان الحبيب بورقيبة لاجئاً سياسياً في سورية أثناء الحكم الفرنسي في تونس وقد قضى فترة من لجوئه في مدينة حلب واستضافه والذي بعض الوقت. ولا زالت لدينا من زيارته قطعة خشبية مكتوب عليها ذكرى أسرة أبي رقية، وهذه القطعة موجودة لدى شقيقتي السيدة سعاد زوجة السيد صلاح كيالي.

والمأماً بأحوال تونس وما حققه الرئيس وإخوانه من أهدافها في مختلف الشؤون والأمور، وما يعترضه ويعترضها من صعاب وعقبات هي وليدة مآثره الاستعمار الفرنسي في تونس طوال ٧٦ عاماً من آثار له، أهمها قضية الاستيطان وقضايا النقد والتجارة والأمية وتلك الحواجز بين تونس والعالم العربي والخارج.

وقد خرجت وإخواني من مجلس الرئيس مؤمنين بصعوبة طريق تونس إلى آمالها الكاملة، ولكن متأكدين أنها واصله إليها حتماً، وأن إخواننا التونسيين عاملون ليلاً نهاراً، وبكل ما يستطيعون لتحقيق أسباب السيادة والحرية والرخاء للشعب الشقيق.

جهود اخواننا التونسيين

ومن جملة ما يسعى إليه إخواننا في تونس تحرير نقدهم وتسليم غطاءه، وإنشاء مؤسسة إصدارتونسية وطنية، وقد سارع مصرف سورية المركزي مشكوراً، بناء على توسطي، بإمدادهم بمعظم النظم والقوانين والاتفاقيات الشاملة للتصفية النقدية بين سورية وفرنسا، ولشؤون القطع وإنشاء المصرف المركزي، وتنفيذ قانون النقد السوري وتسليم مؤسسة الإصدار من بنك سورية لبنان.

وقد أجرت الحكومة التونسية المفاوضات الأولى لتحرير النقد والتجارة والجمارك والاقتصاد التونسي الذي جعله الفرنسيون مع الزمن قطعة منهم وإليهم. وقد أقامت الحكومة بنكاً جديداً للصيرفة وأعمال التسليف ساهم به عدد من كبار رجال المال والأعمال والمؤسسات التعاونية والحكومية.

ويجب أن أقول أن للأجانب من فرنسيين وطلين ويهود ومالطيين سلطاناً ظاهراً في كل مظاهر الحياة في تونس، لهذا يجب ألا نحكم على الأمور العامة في تونس حكماً عليها في سورية، التي لم تعان مآعانه المغرب وتونس من شدة وقع الاستعمار وأثره البالغ في سائر مرافق الحياة.

كلمة شكر لتونس وتمنيات لرجالاتها ومستقبلها

لقينا في تونس خير ترحاب من أصدقائنا ومن بعض رجالات الحكومة . ولذلك أسطر كلمة لوعة وأسى على السيد علي البلهوان رئيس البلدية ورئيس الوفد النيابي التونسي إلى سورية في الصيف الماضي وهو من كبار الرجال المناضلين في سبيل استرداد حرية تونس وهو الذاكر أثر زيارته لدمشق وحلب وحمص وحماء مع إخوانه . فقد افتقدته تونس أخيراً بالسكينة القلبية ، كما يجب علي أيضاً أن أذكر بالخير حفاوته بنا رحمه الله . هذا وقد لقينا أيضاً كل إكرام من سفيرنا السابق في تونس الأستاذ أسعد محفل ومن سفير مصر السابق الأستاذ علي كامل فهمي وهو الدبلوماسي العريق ، ومن رجال السفارتين معاً وقد أصبحنا بفضل الوحدة سفارة واحدة اليوم تعمل جاهدة في سبيل الجمهورية العربية المتحدة والعروبة .

ومن أصدقاء سورية وأصدقائنا دولة السيد محمد شنيق رئيس الوزارة الأسبق الذي اعتقله الفرنسيون ووزاراه يوم أبوا على فرنسا خداعها وعدم التسليم بحرية تونس واستقلالها الداخلي . وكان قد زار حلب عام ١٩٣٥ عندما كان رئيساً للحجرة التجارية التونسية في تونس مع صديقه معالي السيد محمد بدره الذي كان يعرفه الكثير منا مناضلاً في سبيل تونس ومبعداً ومشرداً وثائراً وسجيناً ووزيراً أكثر من مرة وهو زميل لنا في مؤتمر غرف التجارة والصناعة والزراعة العربية ونائب حالياً في المجلس التأسيسي ومن خيرة رجالات تونس إخلاصاً وأخلاقاً واستقامة وحباً للعروبة ولسورية .

ولا نزال في حماء وحلب ودمشق نذكر خطبه الرائعة في الوطنية لأجل حرية تونس في ربيع ١٩٥٣ . وقد زارها مع وفود الغرف ضيفاً على الحكومة السورية . كما أن معالي السيد الفرجاني بن الحاج عمار وزير الاقتصاد السابق ورجال الحجرة التجارية كانوا مثال الأخوة العربية في ودهم وحبهم لإخوانهم في

مختلف ديار العروبة . وكنا نشعر ونحن معهم أن زمالتهم لنا تشدنا إليهم وتشدهم إلينا في شعور باطني روحي قومي هو خالد في أثره في قلوب الفريقين .
وقد ودعناهم وغيرهم من رجال الحكم والتجارة والعلم والدين والأدب والوجاهة ومنهم معالي السيد محمد العزيز الجلولي رئيس مؤسسة الهلال الأحمر ومعالي السيد أحمد الماستيري وزير العدل والسيد سعيد الماستيري كبير أطباء تونس وعلم من أعلام الطب العربي ، وبودنا ألا يكون الوداع الأخير وأن نرى تونس قد حققت كل أمانيتها مشدودة إلى شقيقاتها العربيات برباط خالد هو رباط العروبة وأن نراهم وقد منّ الله عليهم بتحقيق مايبغون لوطنهم من رفعة وعلاء وهم الذين كتبوا أنصع الصفحات في تاريخ تونس المجاهدة الحبيبة .

اسبانيا

في مساء الأربعاء ١١/١٢/١٩٥٧ غادرنا تونس من مطار العويني في طائرة اميركية الساعة ٩,٢٠ إلى الجزائر، قطعنا في سبيلها ٦٣٠ كم. ووقفنا في مطار الجزائر نصف ساعة وغادرناه في منتصف الليل، وقطعنا من بعده إلى مدريد (٧٣٩ كم). ووصلناها الساعة ٢ من صباح اليوم التالي في وسط أمطار غزيرة، وحللنا في أوتيل بلازا الحديث. ومدريد مدينة عظيمة تمتاز بساحاتها المديدة وشوارعها المستقيمة العريضة وبما جد فيها من ناطحات السحاب.

وكانت الغاية من الزيارة لإسبانيا، التعرف على أمجاد العرب في الأندلس. وقبل أن أعود قليلاً إلى ماضي تلك البلاد، وقد كان للحكم العربي فيها من الآثار ما هو خالد على الزمان، يجدر بي أن أسطر كلمة شكر واعتراف بالجميل للمفوضية السورية خاصة، وعلى رأسها الأستاذ نشأت الحسيني، الشاب الممتلئ نشاطاً وحيوية فوق ما تصف به من وطنية سليمة وجهاد متواصل، وهو مثال الموظف المجاهد الأمين، وكذا للسفارات والمفوضيات العربية التي أكرمت جميعها وفادتنا، وكانت تتخاطفنا من حفلة لحفلة ومن إكرام لإكرام، كالسفارة السعودية وصاحبها المفضل معالي الدكتور مدحت شيخ الأرض، والسفارة المصرية بشخص السفير سيادة الأستاذ علي مرعي، والسفارة الأردنية وسفيرها سمو الأمير حسين بن ناصر، والسفارة اللبنانية وسفيرها سعادة الشيخ سامي الخوري، وقد كانوا جميعاً ومعاونوهم الأفاضل مثال التقاليد العربية الخالدة في طبائع خيار الأمة العربية.

ويجب ألا أنسى أيضاً أن أنه بأفضال القائم بأعمال المفوضية العراقية وإخوانه، وكذا سفير تونس في مدريد السيد حسان بن الخفاج، وهو من شباب العرب النير ومن رجالات القطر التونسي الذين أبلوا البلاء الحسن في سبيل تحرير بلادهم، وما زالوا يعملون...

الفتح العربي

كان القائد العربي موسى بن نصير داهية شديد الخدر، خشي أن تكون دعوة بعض الإسبان له لفتح بلادهم خديعة، لذلك أرسل إلى الخليفة في دمشق رسالاً ليرى رأيه في الأمر، واكتفى فيما بين سنة ٧١٠م. أو ٩١هـ. بإرسال خمسمائة رجل بقيادة طريف، أبحروا في أربع سفن تابعة ليوليان للإغارة، ونزل طريف في الرأس المسمى اليوم باسمه، ووصل إلى الجزيرة الخضراء، ورأى بأم عينه فقدان وسائل الدفاع عن اسبانيا، وعاد في السنة ذاتها إلى أفريقيا ليعلم موسى بما كان. وأرسل موسى أحد قواده طارق، بعد أن ورد إذن الخليفة بالاكتماء بغزو الأندلس بفرق قليلة، وكان مع طارق البربري سبعة آلاف رجل، جلهم من البربر، أرسوا سفنهم عند الصخرة التي حملت اسمه، وتوغل بعدها في داخل البلاد فالتقى مع جيش القوط في موقع سماه المسلمون وادي بكة وانتصر طارق، وبالرغم عن أمر موسى بعدم التوغل في داخل اسبانيا، تقدم هذا القائد متحدياً أمر موسى، وبعث الفرق والكتائب وبثها جميعاً في شبه الجزيرة، فأخضع مدينة إثر مدينة، وأرسل مغيث بن الحارس على رأس سبعمائة فارس لامتلاك قرطبة، فامتلكها ودخلها المسلمون، وهنا جاء موسى على رأس جيش عدده ١٨ ألفاً إلى الأندلس ليكسب لنفسه شرف الفتح، وبلغ جبال البرينات، وكان موسى قد سجن طارقاً، ولكن الخليفة عندما بلغه نبأ ذلك، استدعى موسى إلى دمشق.

ووصل المسلمون إلى جنوب الغال، ووصل عبد الرحمن إلى بوردو واستولى عليها، ولكن الفرنسيين أبدوا من الشجاعة والشدة ماساعدهم على رد المغيرين من العرب.

ملك المسلمون ثلثي شبه الجزيرة وسموها الأندلس، وأنشأوا بها مملكة قرطبة العظيمة، التي كانت أعجوبة العصور الوسطى، والتي حملت وحدها في الغرب شعلة الثقافة والمدنية وهاجة. وابتدأ نجم الأندلس بالتألق في أيام عبد الرحمن الداخل الأموي، صقر قریش الذي نزلها عام ٧٥٥م. أو ١٣٨هـ. واستولى على الحكم في قرطبة. ولبتت هذه المدينة زهاء ثلاثة قرون قاعدة للدولة الإسلامية بالأندلس ومثوى الحركة العقلية، وسقطت في أيدي القشتاليين سنة ١٢٣٦م. أو ٦٣٣هـ.

وكانت من قبل وفي عام ١٠٨٦م. أو ٤٧٩هـ. قد سقطت طليطلة بيد الإسبان وقد حكمها العرب مدى ٣٧١ عاماً. فكانت أول قاعدة أندلسية هامة تسقط بيد الإسبان. أما غرناطة فهي آخر القواعد الأندلسية الذاهبة من حكم العرب، وقد سقطت بالتسليم سنة ١٤٩٢م. بعد أن دام الحكم العربي فيها قرابة الثمانية قرون.

إلى طليطلة (توليدو)

قصدا طليطلة بالسيارة وبينها وبين مدريد ٧٥ كم. ووقفنا في مدخل القلعة أمام باب الشمس، نستعرض التاريخ من أحجار هذا الباب الأثري ومن آثار العرب الخالدة، منذ أن افتتحها طارق عام ٧١٤ للميلاد، وقد كانت عاصمة القوط ثم صارت بعد الفتح الإسلامي من أعظم وأهم القواعد الأندلسية، وهي بموقعها على المنحدرات الصخرية العالية الممتدة حتى ضفاف نهر التاجه، الذي يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب، وبأسوارها الضخمة وقلاعها الحصينة، تثبت أنها من أمنع مدن العصور الوسطى.

وعلى نهر التاجه أنشئت القنطرة التي لاتزال محتفظة باسمها، أيام المنصور بن عامر سنة ٩٩٧م مكان القنطرة الرومانية القديمة، ثم جددتها الفونسو السادس فاتح طليطلة. والمدينة جائية على رابية يحيط بها سور لاتزال بعض أقسامه العربية باقية، والأزقة الداخلية فيها تشبه أزقة مدن الشرق القديمة تماماً، في ضيقها والتوائها وتعرجها، وما فرشت به من بلاط الحجر الأسود الصغير، وطرار البناء لاسيما القديم منه كله عربي دمشقي.

وإنك لتجد الدار فيه تحوي وسطاً مكشوفاً من حوله الأروقة وبشر الماء والدلو والحبل على الطريقة القديمة، والأشجار في الوسط، والأبواب كلها شرقية التكوين والنجارة صغيرها وكبيرها، وللكبير منه باب خوخه، ولا تزال المفروشات تحتفظ بطابعها القديم العربي، من أسرة النوم إلى المقاعد إلى غرف الطعام.

وأهم ما في طليطلة كاتدرائيتها العظمى وهي تحتل مكان المسجد القديم الجامع وقد كان هذا المسجد كنيسة قوطية قديمة فحولها المسلمون وقت الفتح إلى مسجد طليطلة الجامع، واستمر هذا الجامع قائماً يؤمه المسلمون المدجنون بعد سقوط طليطلة بيد الإسبان زهاء قرن ونصف حتى أمر بهدمه الملك فرناندو الثالث في سنة ١٢٢٧م. وأمر بأن تبنى مكانه الكاتدرائية العظيمة في نفس الوقت الذي سقطت فيه غرناطة. ويوجد في الكاتدرائية لوحة كتب عليها بالإسبانية: في سنة ١٤٩٢ فتحت غرناطة وكل ممتلكاتها على يد الملكين فرديناند وإيزابيلا، وفي نفس هذا العام في نهاية شهر تموز أخرج جميع اليهود من جميع ولايات قشتالة وأراجون وطليطلة، وفي السنة التالية كان إتمام هذه الكنيسة.

ويوجد تحت القبة الكبرى نقوش خشبية مصورة تمثل قصة حصار غرناطة وافتتاحها ويبدو فيها فرسان معممون هم الفرسان المسلمون كما تبدو مناظر الحمراء

وقلاعها وتبدو صورة الملك فرديناند والملكة إيزابيلا كل على جواده وتسمى هذه النقوش افتتاح غرناطة في عصر الملكين الكاثوليكين، وتعتبر من أقيم مايزدان به صحن الكنيسة. على أن أهم ما يثير طلبة الباحث بين ذخائر كنيسة طليطلة هو علما السلطان أبي الحسن المريني اللذان غنمهما الإسبان في موقعة سالادو أو موقعة طريف وهي الموقعة التي نشبت بين الإسبان وبين الجيوش الأندلسية والمغربية بقيادة السلطان يوسف أبي الحجاج والسلطان أبي الحسن المريني الذي عبر إلى إسبانيا لنجدة المسلمين وذلك في ٣٠ تشرين أول ١٣٤٠م وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة. وقد علق هذان العلمان الإسلاميان على جدران القاعة المعدة للثياب المقدسة وأولهما عبارة عن سجادة كبيرة مذهبة الجوانب طولها ٣,٧٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ وعليهما كثير من الايات والحمد والعبارات. وتاريخ الصنع في عام ٧٤٠ هجرية في المدينة البيضاء وفي مدينة فاس.

ومن أهم صروح طليطلة القديمة التي تتصل بالعصر الإسلامي (القصر ALCAZAR) وهو بناء قديم ضخم شيد على صخرة عالية تطل على نهر التاجه أمام قنطرة (القنطرة) وكان أيام الرومان حصناً فجده ملوك القوط ثم جدد أيام المسلمين وأنشأ به الحكم ابن هشام أمير الأندلس في سنة ٧٩٧م قلعة منيعة لضبط مدينة طليطلة وقمع ثوراتها وكانت تستعمل حصناً ومقراً للحاكم، وقد حولت فيما بعد إلى ما يسمى اليوم (القصر) وقد استعمله الإسبان كقلعة لخصائمه، ثم حوله ملوكهم إلى قصر للإقامة فيه. ولعب في الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة دوراً هاماً حيث اعتصم به الملكيون أنصار الجنرال فرانكو واستطاعوا الدفاع عنه حتى تم لهم الظفر على الجمهوريين.

العودة إلى مدريد

وفي العودة إلى مدريد لقينا كثيراً من الآبار في الطريق عليها دواليب الاستخراج تديرها الخيول كما كانت عليه آبار المعرة قبل استعمال المحركات عليها أخيراً. كما شاهدنا لافتات في طريقنا تشير إلى مكان بلدة (البرج ALBORJE) التي ماتزال محتفظة باسمها منذ العهد العربي. كما شهدنا النساء القرويات يحملن قلال المياه على رؤوسهن في طريقهن إلى المنازل كما يفعل نساء القرى في بلادنا. وكذلك عربات الأثقال تجرها البغال والخيول بعضها وراء بعض وكأننا في أحد شوارع الميدان في دمشق. وكذا الحمير المعدة لنقل الأوساخ والفضلات من الشوارع وعليها (الشليف) المعروف عندنا بذاته.

وفي اليوم الثاني قمنا بزيارة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد الذي يؤدي للعرب والإسلام والإسبان ولكل مستشرق أجل الخدمات، ومديره الأستاذ حسين مؤنس يسهر على أداء واجبه كجندي في حومة الوغى دون ملل أو كلل. وفي هذا المعهد تعرفت إلى الأستاذ محمد عبد الله عنان الذي استمد من كتابه الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ضبط حوادث العرب ومخلفاتهم في حديثي هذا. ثم زرنا متحف مدريد وفيه أغنى اللوحات الزيتية الخالدة والكثير من تماثيل الرومان، والمتحف بعظمته وقيمتة الفنية لا يوفيه أي وصف مهما طال وأفصح.

وبعد الظهر قمنا بزيارة مدينة أراخويز وتبعد ٤٧ كم عن مدريد، والمدينة قائمة على نهر وبها حدائق وتحوي قصراً ملكياً فخماً يدعى Palacio Aranjuez فيه آثار ملوك الإسبان الفخمة من قاعات نوم واستقبال وأكل مع أبهى الصور وأثمن الرياش، والجدران كلها مليئة بصور زيتية خالدة فيها الصالون الصيني المشهور الذي هو أفخم قاعة من نوعه يقف الإنسان أمامها حائراً من عظمة الفن وقدرة اليد التي أبدعته. كما توجد بين تلك القاعات قاعة تدخين عربية على الطراز الأندلسي

ومقاعد شرقية وقبة عالية وهي آية في فن العمار من القيشاني ومختلف النقوش ويرجع تاريخها إلى سنة ١٨٥٠. كما يحوي القصر قاعة تضم رسوماً ثمينة للملك الإسباني واخرهم الفونسو الثالث عشر إلى جانب متاعهم وأشياءهم ومكاتبتهم وغرف نومهم وكلها ذات قيمة لا تقدر.

ويوم السبت في ١٤/١٢/١٩٥٧ زرنا القصر الملكي (أوريانتي) في مدريد وهو قصر فخم كقصر قرساي في فرنسا فيه من القاعات والغرف الساحرة، والغنية بالتحف والصور والأثاث والرياش الفاخر الملكي ما يحير الفكر، وكذا قاعة العرش وقاعة الطعام التي يستخدمها اليوم رئيس الحكومة الإسبانية، في المآدب الرسمية الكبرى، لضيوف إسبانيا من الملوك والرؤساء. وفي القصر غرف من (البرسيلان) عظيمة حقاً وكذلك غرف صينية تمتاز بتلك النقوش البارزة فيها.

الاسكوريال

وبعد توجعنا إلى الاسكوريال El Escorial وهي شمال غرب مدريد، تبعد حوالي ٤٧ كم. عنها في طريق معبدة عريضة، وهي مصيف عال تكتنفه الجبال المكلفة بالثلوج. والقصر يحوي كنيسة تاريخية عظيمة، وقبور (البانتيون) الإسبان للعائلات المالكة ولعظماء رجال الدين. كما أن في البانتيون قبة تحت الأرض، جدرانها موضع لنعوش الملوك وفي داخلها الرفات، وهذه النعوش كلها حجرية صنعت بمهارة وحذق عجيبين وعليها الكثير من جيد النحت والنقوش والرموز.

وفي القصر أيضاً دائرة سكن بعض الملوك الإسبان، وفيها على الجدران من السجاد شغل الإبرة في منتهى الإبداع والروعة والتصوير، وفيها من القيشاني والصيني أيضاً ما يزيد في روعة هذا الأثر. وكذا الأسرة وقاعات الطعام. وفي المتحف أيضاً صور زيتية خالدة دينية، وأردية رجال الكهنوت القدامى وأسرتهم التاريخية.

وفي المكتبة توجد أضخم مجموعة من الكتب التي حرص رجال الدين على جمعها من مختلف الأنواع والمصادر واللغات والعهود، ومن جملتها كتب عربية ومصاحف مخطوطة، هي في غاية من الذوق وحسن الخط والتصوير والتزيين. وأحد الكتب هو في الطير، يصف القطا خير وصف، ويقارن بينه وبين الدراج، ويصور القطا صوراً حسنة رائعة مما يدل على أن التصوير في الأندلس لم يكن ينظر إليه كما ينظر إليه بعض رجال الدين الآن !

وفي الكلام على القطا، يصف المؤرخ كيف يخزن هذا الطير الماء في جوفه ليستقي به فراخه إلى غير ذلك، والحقيقة أن الاسكوريال مجموعة من الآثار الخالدة التي لاتقدر بثمن مادي.

جولة ليلية

وفي المساء حضرنا إحدى حفلات مسرح Calderon وسط مناظر بديعة، وسمعنا آيات الغناء الإسباني والرقص الإسباني القريب من الرقص العربي، وكانت انطونيتا Antonita Morena الفنانة الإسبانية المشهورة مجلية في إظهار بديع صوتها العذب، وحسن تمثيلها فيما أدته من فصول، وفي أناقة ثيابها وجمالها، وكل ذلك في منتهى الحشمة والأدب والذوق. كما قدر لنا أن نحضر أيضاً سهرة في مقصف صامبرا Zambra لنشهد رقص الغجر الإسباني القديم المسمى Jonda، وقد شهدنا فصلين رائعين من الموسيقى الغجرية القائمة على البزق باليد والتصفيق باليد بالراحات بتواقيع موسيقية، وكان الرقص الفريد من نوعه ذو الوقع الشديد على الأرض، وهزات أجزاء الجسم القوية العنيفة، رائعاً حقاً، وكان الفنانون والفنانات جالسين على المسرح على الكراسي في نصف دائرة، وسحنة أولئك الغجر واحدة، هي ذات سحنة وتكوين أبناء قومهم في بلادنا.

إلى اشبيلية

ويوم الأحد في ١٥/١٢/١٩٥٧ شددنا الرحال بالطائرة إلى اشبيلية، وصلناها بعد ساعة ونصف، وهي مدينة مشرقة جميلة تتخللها حدائق البرتقال والليمون فتكسبها بهاء ورونقاً. وهي تبعد عن مدريد ٥٥٠ كم. قريبة من البحر الأطلنطي، وتقع على نهر الوادي الكبير، ويسميه الإسبان Ria Guadal - quivir وتبعد عن ثغر قادس نحواً من ١٣٦ كم. وعرفت يوماً ما في أيام العرب باسم (حمص) لأن أجناد حمص كانت في طليعة الجيوش الإسلامية التي دخلتها.

وكانت اشبيلية أيام الدولة الإسلامية، أعظم مدن الأندلس وأجملها، بل كانت أعظم وأجمل من قرطبة ذاتها، وقد سطعت أيام بني عباد، إذ كانت دار الملك وغدت أيام الموحدين مركز الحكم مرة أخرى، وسقطت في أيدي القشتاليين سنة ١٢٤٨ م. أو ٦٤٦ هـ. أي بعد سقوط قرطبة بإثني عشر عاماً.

وجمال اشبيلية أكبر من أن يوصف، وليس فيها اليوم من الآثار الإسلامية سوى القليل. وتحتفظ فقط بديرتيها الإسلاميتين الفريدتين، وهما منارة مسجدتها الأعظم و(القصر) ذو الطابع الإسلامي الفريد. والمسجد لم تبق منه وحدة قائمة بذاتها، فقد أزيل وأقيمت مكانه كنيسة اشبيلية العظمى، التي تعتبر بضخامتها وفخامتها ثاني كنيسة في العالم بعد كنيسة القديس بطرس. ومن الجامع لم يبق قائماً اليوم سوى صحنه القديم ومنارته.

وقد قام بإنشاء هذا المسجد خليفة المسلمين أبو يعقوب يوسف الموحي سلطان المغرب والأندلس في سنة ١١٧٢، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وأتمه ولده المنصور وأنشأ منارته الشهيرة التي مازال قائمة ويعرفها الإسبان باسم (لاخيرالدا) وارتفاعها ستة وتسعون متراً، وهي إحدى منارات ثلاث متشابهات من طراز واحد

وفي عهد واحد، أما المنارتان الثانية فهما منارة حسان في الرباط التي لم تكمل، والمنارة الكتبية في مراكش.

ولم يبق من مسجد اشبيلية إلا صحنه، وهو ما يزال يحتفظ بشكله وموقعه القديم، وفي وسطه نافورة أندلسية، وكذلك بقي باب الجميع الرئيسي كما هو بعقده وزخارفه البرونزية الإسلامية، وقد نقش على كلتا قبضتيه الضخمتين ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد. ويبلغ عرضه نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة، والمنارة الآنفة الذكر يصعد إليها من الداخل بواسطة عمارات منحدرية صاعدة مرصوفة بالآجر تبلغ نحو الثلاثين، وبها في ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجانبية لها نوافذ ومشرفيات عربية، زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة، وتعلو هذه الطبقات الأربع طبقة خامسة ذات أروقة ومشرفيات عالية، والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين، ثم تأتي بعد ذلك الطبقة الأخيرة، وهي اليوم برج أجراس الكنيسة، ذلك أنه قد وقع في الثلث الأعلى من المنارة تغيير عظيم، حيث أزيلت سارياتها الإسلامية المذهبة (التفافيح) والقسم الذي يليها من الأسفل، وأبقى هيكلها الرئيسي بطبقاته الخمس على أصله، ثم بنى الإسبان فوقه في أواخر القرن السادس عشر برج الأجراس من طابقين، ونصبوا فوق البرج تمثالاً برونزياً للإيمان ارتفاعه نحن خمسة أمتار.

والتفافيح الضخمة الثلاث (الساريات) كانت الوسطى منها بالغة الضخامة، قام برفعها إلى أعلى المنارة المعلم أبو الليث الصقلي، وموهت الساريات الثلاث بالذهب بما قيمته مائة ألف دينار.

ولأعد إلى ذكر شيء عن القصر في اشبيلية فأعيد ماقاله الأستاذ عنان في كتابه الأنف الذكر من أن كلمة (القصر) في إسبانيا أصبحت علماً يطلق على الصروح أو القصور الملكية الإسلامية، وبالرغم من أن قصر اشبيلية معظمه من إنشاء الملوك

الإسبان فإنه يسمى كذلك لأنه أقيم على بقايا قصر إسلامي سابق وعلى الطراز الأندلسي . والقصر طابقان عظيمان ، الأول يبدو في معظمه أندلسي الأصل وإن كانت قد أضيفت إليه أبنية حديثة من إنشاء ملوك إسبانيا ، والطابق الأعلى كله من صنع إسباني أجري تقليداً للنمط الأندلسي .

ويظهر أن واجهة مدخل القصر من بقايا قلعة أندلسية قديمة ينم عن ذلك طرازها ومشارفها العربية . وتقوم بعد الفناء الذي يلي المدخل ثلاثة عقود قديمة يبدو أنها أيضاً من عقود الصرح الأندلسي القديم . والطابق الأول يحوي عدة أفنية وأبهاء وهي قاعدة العدل ، فناء الصيد وفناء العذارى وبهو كارلوس الخامس وبهو السفراء وجناح الملوك الأندلسيين وجناح الملوك الكاثوليك . وأهم وأبدع هذه الأبهاء بهو السفراء وهو بهو شاسع فخم تطلله قبة عالية جداً معقودة على عمد ومقرنصات عربية بديعة ، وجدرانها مكسوة بالقيشاني الفخم تتخلله نقوش عربية مقلدة في الغالب . وفي هذه الطبقة السفلى يبدو الطابع الأندلسي الأصيل قوياً ، وفي كثير من الأبهاء بعض الايات القرآنية وهي مقلدة منقولة عن نظائرها في بعض الصروح الأندلسية المعاصرة . ففي أبواب قاعة السفراء نقشت عبارة (الملك لله) يمينا ويساراً على مصاريع الأبواب ، وفي الجزء الأعلى نقشت هذه العبارة : أمر مولانا المعظم المرفع ضمن بضر ، ملك قشتاله وليون ، أدام الله سعده وهنيء أيامه بعمل هذه الأبواب الجديدة لهذه البقعة السعيدة بما أجلب من العزة والرفعة من حشد السرور والسعود . وفي هذه اللوحة بالذات توجد عبارة (ولا غالب إلا الله) وهي شعار بني نصر ملوك غرناطة منقوشة ثمانني مرات بخط كوفي جميل .

ولا تزال بقايا الأسوار الموحدية باقية في جنبات اشبيلية . أما حدائق القصر العظيمة الياقة وهي منسقة على الطراز الأندلسي فإن بها الكثير من النخيل العربي ، والظاهر أن هذه الحدائق أقيمت مكان حدائق القصر القديمة .

ويقول المؤرخون والكتاب الإسبان أن لإشبيلية اسماً سحرياً يعود إلى ماضيها العربي، ولقد أخذت بهذا السحر منذ أن وطئت قدمي أرض مطار المدينة وجمال بخاطري وأنا أتجول في أبهاء القصر الحكم العربي في إبان ازدهاره، وكأن خيال المعتمد بن عباد كان ماثلاً أمام ناظري فيعكس في فؤادي غصة على تلك المدينة الزاهرة المنقرضة وما كانت عليه تلك الآثار الباقية وما حوته من بديع فن البناء والنقوش على الجبس وتلك الأبواب الخشبية للمنافذ والشبابيك والخشب المحفور وغرف حريم الملك العربي وهي عشر على ما يقول الإسبان حيث لكل زوجة حجرة ولكل حجرة نافذة تطل على البهو العظيم وعلى الحديقة الأندلسية، وتلك الأكشاك الشرقية الدقيقة الصنع (كأنني في دمشق) وتلك الحجر لنوم الملوك العرب التي لأبواب لها وإغا كانت الستائر هي التي تغطي الأبواب. ما كانت كل تلك الآثار وما تنطق به من جلال وروعة لتنسيني الحقيقة المرة القائلة: كنت يوماً ملكاً عربياً عالي الشأن ولكني اليوم حلم وعظة وذكرى.

إلى قرطبة

وفي صباح الإثنين في ١٦/١٢/١٩٥٧ قمنا بالسيارة إلى قرطبة والمسافة إليها ١٤٠ كم. قطعناها في طريق وسط سهول مكسوة بالزيتون والزراعات الشتوية في أرض خصبة جداً. والطريق معظمها عريضة معبدة. ومررنا بعدة مدن ظاهر من معالمها أن بها آثار حصون عربية ومساجد حولت إلى كنائس أو عادت لحالتها السابقة. وقد قضينا ساعتين للوصول إلى قرطبة وقد اجتزنا الوادي الكبير في مدخلها، وفي أول الجسر مدخل برج عال من آثار العرب وسارعنا إلى الجامع الحزين نطفىء الشوق إلى الأثر الخالد من آثار المسلمين في الأندلس وإن كانت قد غيرت الأحداث الكثير من معالمه أو حولت مواقعه جميعاً إلى كنائس جامعة وكاتدرائيات.

ولبث قرطبة، حتى بعد انهيار الخلافة فيها، تحتفظ في ظل الطوائف ثم المرابطين والموحدين بكثير من هيبتها الخالدة كقاعدة رئيسية من قواعد الإسلام في إسبانيا وكان لسقوطها أعظم وقع في الأندلس وفيما وراء البحر. ومع أن مجتمعها الإسلامي التالد أخذ ينهار منذ سقوطها بسرعة، وقد غادرها أكثر سكانها المسلمين ولا سيما الأشراف فراراً إلى القواعد الإسلامية الأخرى فقد بقي بها في ظل القشتاليين كثير من المسلمين الذين (تدجنوا) - من تدجن أي ألف واستأنس وعاش تحت حكم الإسبان - ثم فقدوا بمضي الزمن وحكم الاندماج خواصهم ودينهم ولغتهم. ولم يمض زهاء قرن أو قرنين حتى كان المجتمع الإسلامي في قرطبة قد غاضت آثاره الأخيرة. ولم يبق بها اليوم، إذا استثنينا مسجد الجامع القديم، ما يذكرنا بماضيها الضخم وتكاد قرطبة إذا استثنينا أيضاً بعض الدروب المحيطة بالجامع ولها ما يشابهها في اشبيلية التي تحاكي دروب دمشق القديمة ومنعطفاتها وأكشاكها أو La Mezquita Aljama الذي يحيط به الدروب الضيقة من جوانبه الأربعة وتبدو على جدرانه وواجهاته الخارجية آثار الإهمال والقدم. حتى إذا بلغنا فناءه الواسع واجهنا الأثر الذي هو من أبداع الآثار الأندلسية الباقية.

إنشاء جامع قرطبة

بدى بإنشاء مسجد قرطبة في سنة ١٧٠ هـ. أو ٧٨٦ م. على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وكان موضعه كنيسة قوطية، وأراد عبد الرحمن أن يكون مسجد قرطبة أعظم مساجد الأندلس وأفخمها، فجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المموه، وتوفي قبل إتمامه فآتمه ولده هشام وأنشأ به منارته الأولى، وزاد فيه عبد الرحمن ابن الحكم بهوين جديدين، وأنشأ فيه محمد بن عبد الرحمن مقصورة فخمة، وجدد عبد الرحمن الناصر واجهة الجامع وهدم منارته القديمة وأنشأ منارة مكانها أرفع وأضخم، تحوي سلمين أحدهما للصعود والآخر للهبوط، وفي

أعلاها ثلاث تفاحات اثنتان من الذهب وواحدة من الفضة، ثم زاد فيه الحكم المستنصر زيادات كبيرة فابتنى المحراب الثالث واستغرق بناؤه أربعة أعوام، وعملت له قبة فخمة زخرفت بفسيفساء بديعة استقدم لها الحكم خبيراً من القسطنطينية، وأرسل له قيصرها هدية بقدر كبير، وزاد بعد ذلك خلفاء الحكم في مساجد الجامع وبلغت عمده الألف ومائتين، وأبوابه البرونزية العديدة ومحاريبه الفخمة وزخارفه البديعة، تجعله من أعظم المساجد الجامعة في العالم الإسلامي.

ومساحة الجامع نحو ٥٠ فداناً، وكان للجامع قبلاً تسعة عشر باباً طليت بالنحاس الأصفر، وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه، وصب في سواريه الذهب الابريز واللازورد. أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة، رصع أكثرها بالأحجار الكريمة، وسمر بمسامير من الذهب، وبنيت دور إلى الجانب الغربي من المسجد لتزول فقراء المسافرين وأبناء السبيل. وفي المسجد مئذنة من الثريات التي صنعت في حينها من نحاس أجراس الكنائس وكان بالمسجد ثلاثمائة خادم لإيقاد البخور من العنبر والعود.

وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة، ويحار النظر في تأمل عقوده وأعمدته المتقاطعة التي لاتدرك العين نهايتها، وتبلغ عقوده في الطول تسعة وعشرين، وفي العرض تسعة عشر، ويبلغ ارتفاع سقفه نحو اثني عشر متراً، وقد أزيلت القباب القديمة من الجامع ماعدا القبة الرئيسية الوسطى، وحلت محل القباب سقوف مضلعة.

والمحراب الباقي فخم مزين بالنقوش والآيات القرآنية، ومن جملتها بسم الله الرحمن الرحيم، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، أمر الإمام المستنصر بالله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله بعد عون الله فيما

شيده من هذا المحراب، بكسوته بالرخام رغبة في جزيل الثواب وكرم المآب، في شهر ذي الحجة من سنة ٣٥٤هـ.

ويقول المؤرخون الإسبان في أصل جامع قرطبة، أنه كان في قرطبة كاتدرائية باسم San Vicente. وفي سنة ٧٤٨م. أجبر المسيحيون الإسبان، الذين كانوا يعيشون إلى جانب المسلمين على التنازل عن نصف الكاتدرائية المذكورة إلى المسلمين، حيث اجتمع أصحاب المذهبين في معبد واحد، ولكن في عام ٧٨٥ اغتصب عبد الرحمن الأول القسم الثاني من المسيحيين، حيث شيد الجامع موضوع البحث.

ويقول المؤرخون العرب، إنَّ القسم الذي كان يشغله المسيحيون، كان تحفة من تحف الفن، وأن المهندسين العرب لم يهدموا سوى خمس باحات من الكنيسة الكبرى وذلك بتبديل اتجاهها، وقد استعملت جميع المواد البنائية القديمة.

ووقفنا في حرم الجامع وأمام المحراب خاشعين لله وللتاريخ، نجمل النظر في أخشاب السقف وكلها من الأرز، ونتطلع إلى القيشاني الجميل وإلى تلك الأعمدة ولم يبق منها غير ٨٥٠ عموداً، وإلى تلك الكنائس العديدة التي ملأت جوانب الجامع، وإلى تلك الأروقة وما سد منها وإلى مازال من الأبواب أيضاً، وإلى محال الوضوء الباقية، وإلى بيوت المدرسين والعلماء، وإلى المئذنة التي تحولت إلى منارة أجراس، فتملكنا الدهشة التي يتعرض لها كل من يرى هذه البقية من الآثار التي تدل على عظمة الماضي.

وكان روح عبد الرحمن الداخل كانت تلاحقنا وهي أسيرة في محبس هي غريبة فيه، بعد أن كانت تملأ الأجواء عزة وجبروتاً وأمجاداً، لتستنطقنا حال الأرض التي منها هاجرت إلى تلك البلاد. والحقيقة ان روعة الجامع هي فوق كل وصف وأثره في نفس زائرته تبعث على الاحترام لذلك الماضي المجيد.

ويحكى أن شارل كان ملك فرنسا وألمانيا وإسبانيا الذي أمر ببناء إحدى الكنائس في داخل الجامع، أسف كثيراً عندما زار الجامع ورأى عظمته الهندسية وقال لعامله أنه كان يود أن تبقى للجامع هيئته وقيمتها الفنية وأن تبنى الكنيسة في مكان آخر محاشاة لانتقاص جمال الجامع. هذا مقالته المؤرخون الإسبان الذين أثبتوا أن آثار الفن الهندسي في قرطبة ومتحف مدينة الزهراء، تعبران أحسن تعبير عن عظمة الفنون في عهد الخلفاء، وتفوقها على الفنون الأوروبية في القرن العاشر.

ويقول المؤرخون العرب أنه كان يوجد في قرطبة أكثر من ٩٠٠ حمام لاستقبال عامة الشعب الإسلامي. وكان يقول المؤرخون الإسبان أن ازدهار قرطبة بلغ قمته في عهد الحكم الثاني، الذي كان خليفة ذكياً عالماً، جمع مكتبة غنية تحوي أكبر عدد من الكتب العالمية، وأنه شجع العلوم والفنون والهندسة.

وخرجنا من جامع قرطبة نودع التراث الخالد بدمع سخى، علم الله أنه مستقى من أعماق الفؤاد على أمجاد العرب الماضية، لنقف أمام الباب الوحيد، الباقي من أبواب قرطبة القديمة، وهو المسمى باب المدور Puerta de Almadovar، وهو يقع في جنوب غربي المدينة على مقربة من الجامع.

ولم نكن نملك من القوى ما يمكننا من زيارة المتحف الأركيولوجي، وقد جمعت فيه طائفة من اللوحات والأحواض الرخامية والزخارف العربية، وكثير من القطع الخشبية المطبوعة بالآيات القرآنية ومعظمها مأخوذ من الجامع، لأننا كنا محطمي الأعصاب بتأثير مشاهدتنا لتلك السجادة الأثرية في متحف داخل الكنيسة في الجامع والتي تصور أمير قرطبة يسلم مفاتيح البلد إلى فاتحها القائد الإسباني، وبجانبه زميل له يقبل أقدام القائد المذكور، المملوء زهواً واعتداداً وفخاراً، وتلك الأيام نداولها بين الناس !

الزهراء

وغادرنا قرطبة وفي نفسنا حنين لزيارة معالم الزهراء ومدينة الزاهرية، المدينتين اللتين تحتلان مقاماً ملحوظاً في تاريخ الأندلس المعماري، وقد بدأ الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ - ٣٥٠) هـ بإنشاء الزهراء كضاحية ملوكية لقرطبة عام ٩٣٦ م وأكملها ولده الحكم المستنصر. وكان المهندسون المسلمون الذين أشرفوا على إنشاء هذه المدينة الجديدة ثلاثة من أشهر مهندسي العرب وهم عبد الله بن يونس وحسن بن محمد وعلي بن جعفر المصري، واستغرق بناؤها ٢٥ سنة بيد عاملة قدرها ٢٥ ألف عامل، وأتت المدينة روعة في جمالها وكانت قاعة الخليفة وسقفها مغطاة بالفيسفساء المذهب وحواجزها من المرمر الشفاف وحوضها في الوسط مفضض وتتدلى من السقف لؤلؤة كبرى مهداة من امبراطور القسطنطينية.

نعم كان في نفسنا حنين لزيارة أطلال مدينة هذه الضاحية لولا خشيتنا من النكسة التي قد تصيبنا عندما نفكر بأن هذا الأثر النادر قد خربته الحوادث السياسية والخلافات بين حكام المسلمين وما تعرضت له المدينة من موجات الغزو والنهب التي تابعت قادمة مع الغزاة الافريقيين من البربر الذين لم يبقوا على شيء.

وكانت أفكارنا في ذلك الحين ونحن نغادر قرطبة متجهة نحو ابن رشد أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته، وبودنا لو نعلم المكان الذي ولد فيه هذا العالم الكبير في أرض قرطبة لنحج إليه ونتأجيه ولكن أين نحن من هذا، والديار غير الديار والأهل غير الأهل ؟ !

إلى غرناطة

واتجهنا من قرطبة إلى غرناطة والمسافة بينهما ١٧٢ كم في طريق كلها جبلية وعالية ومكسوة بأشجار الزيتون التي لاحد لها، ومررنا بعدة مدن وكم رأينا

قلاعاً وحصوناً ربما تكون أكثرها من بقايا القلاع الإسلامية، وتناولنا غداءً بسيطاً في بلدة تسمى القلعة (Al- Calà) وهي مدينة صغيرة بجانب قلعة حولها سور وآثار إسلامية.

ووصلنا غرناطة بعد مسير ثلاث ساعات ونصف وحللنا في فندق الحمراء وهو فندق ضخم بني بالقرب من قصر الحمراء يشرف على مدينة غرناطة من عليائه وقد بنيت قاعاته على الطراز المراكشي المغربي كما أخذت بعض القوالب البنائية عن قصر الحمراء وأدخلت في بعض جدران وسقوف الفندق فكان فيها الكثير من عبارات: لا غالب إلا الله، وما النصر إلا من عند الله.

غرناطة وحمراء غرناطة

ومعناها بالإسبانية (الرمانة) وهي شعارها التاريخي، وحمراء غرناطة هي بلا ريب أعظم آثار الأندلس الباقية وهي مازال كما كانت منذ عصور تشرف بأبراجها وقبابها المنيفة من هضبتها العالية على المدينة الإسلامية القديمة من ركنها الجنوبي الشرقي فتسبغ عليها آيات من الروعة والجلال.

وكان أول ماتضطرم به مخيلتنا أن نرى درة الآثار الأندلسية الفريدة قصر الحمراء الذي حرّف الإسبان اسمه فأصبح يعرف في العالم الغربي باسم Alhambra.

ويعد أن اجتزنا (باب الرمان) الذي بني في عهد الامبراطور شارل كان استقبلتنا غابة رائعة تضم ثلاثة طرق عريضة يفضي الأول إلى (الأبراج الحمراء) والثاني إلى قصر (جنة العريف) والثالث إلى (باب الشريعة) أول أبواب الحمراء وقد كان مجازاً لذوي المظالم. وفي الساحة التي تليه كان يجلس السلطان أو نائبه للفصل في المظالم في يوم معين جرياً على تقاليد خلفاء الأندلس وملوكها السابقين.

ويبلغ ارتفاع باب الشريعة نحو خمسة عشر متراً ونقش على قوسه بخط أندلسي متشابك مايلي: (أمر ببناء هذا الباب المسمى «باب الشريعة» أسعد الله به شريعة

الإسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف بن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافاً لله في الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فتيسر ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية). ويوافق هذا التاريخ سنة ١٣٤٨م. والسلطان أبو الحجاج هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة حكم من سنة ١٣٣٣ إلى ١٣٥٤م. وهو الذي شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء.

وأخيراً وقفنا أمام قصر الحمراء قبلة الرواد من سائر أنحاء الأرض، ولسان حاله يقول لنا: أجل هنا كانت ثمة مملكة وثمة ملك وعرش، وبين جدرانها كان يقيم سلاطين آخر مملكة إسلامية استمر تاريخها يدوي في الآفاق زهاء مائتي عام، عنوان مدينة زاهرة تركت أثراً خالداً، ثم كنت قبراً لهذه المملكة، عندما وقع في أحد أبهائي أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس ووزراؤه معاهدة تسليم غرناطة والحمراء وحكموا بذلك على دولتهم بالمحو وعلى أمتهم بالفناء.

منشأ الحمراء وقاعاتها

وبين هذه الجدران الصامته التي يكاد الأسى يرتسم على زخارفها ونقوشها العربية يضطرم الخيال بهذا المصير، غالبنا الدمع ونحن نجوس خلال تلك الأبهاء الملوكية الفخمة وعبرة (ولا غالب إلا الله) شعار بني نصر ملوك غرناطة تتمثل أمامنا في كل واجهة وركن.

ويعود بنا التاريخ، إلى قيام الحمراء في القرن الرابع للهجرة يوم أنشأ باديس ابن حبوس زعيم البربر سوراً منيعاً حول الهضبة التي تقع عليها قلعة الحمراء، وأقام داخله قصراً ومركزاً لحكومته وسميت بالقصبة الحمراء، ثم لما استولى محمد بن الأحمر النصري على غرناطة سنة ٦٣٥هـ و ١٢٣٨م اتخذ مركزه في (القصبة)

وأنشأ داخل أسوارها قصره المحصن الذي أطلق عليها اسم الحمراء القديم ، واتخذ قاعدة للملك وجلب إليه الماء من نهر حدّره . وفي أواخر القرن السابع الهجري أنشأ محمد بن محمد الأحمر ثاني سلاطين غرناطة الملقب بالغالب بالله ، الحصن الجديد والقصر الملكي ، وأنشأ ولده محمد إلى جوار القصر مسجداً هو الذي تحتل موقعه اليوم كنيسة سانتا ماريا . ثم جاء السلطان أبو الوليد اسماعيل فزاد في القصر وفي تجميله . بيد أن الحمراء تدين بفخامتها وروعيتها إلى ولده السلطان يوسف أبو الحجاج المار ذكره ، وهو الملك الشاعر والفنان الموهوب الذي بنى معظم الأجنحة التي مازالت تسبغ على الحمراء روعتها الخالدة .

وتقع الحمراء فوق هضبة مرتفعة طولها ٧٣٦ متراً وعرضها ٢٠٠ متر ويحيط بها سور ضخّم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة . ويتخلل السور عدة أبراج وأبواب بقي معظمها إلى اليوم ، وأهم أبراجه الباقية هي برج الحراسة وبرج قمارش وبرج العقائل وبرج الأميرات وغيرها .

والجناح الأول هو أول ما يراه الزائر وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة أو فناء الريحان Patiodelas Arrayanes وهو فناء كبير مستطيل مكشوف تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان وقد نقشّت في الزوايا العبارة الآتية : النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين ، والآية : وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . كما يوجد على يمين الباب الشمالي المفضي إلى البهو المجاور أبيات أولها :

فلو خيّر الإسلام فيما يريده لما اختار إلا أن تعيش وتسلما

ويفضي باب فناء الريحان الشمالي إلى بهو صغير يسمى بهو البركة ، به قبلة زينت بنقوش جميلة . أما بهو السفراء فهو أعظم أبهاء الحمراء لسعته وارتفاع قبه

الشاهقة وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم، ولا يمكن وصف جماله. وفيها الكثير من الشعر والآيات القرآنية، واسم مولانا أبو الحجاج عز نصره، ثم فناء الأسود أو كورة السباع، وقد قام بإنشاء هذا القصر أو الجناح، السلطان محمد الغني بالله الذي تولى العرش في سنة ٧٥٥هـ. ١٣٥٤م. والذي مازال اسمه ماثلاً في مواضع كثيرة من هذا الجناح، ويعتبر فناء الأسود بطرازه المصقول وقبابه المضلعة وأعمدته الرشيقة وزخارفه البديعة ونافورتة الفريدة، التي تحملها الأسود الإثنا عشر أروع أجنحة الحمراء وأوفرها رواءً وسحراً.

وننتقل إلى قاعة بني سراج التي تنسب إلى الأسرة الغرناطية الشهيرة، التي لعبت دوراً كبيراً في حوادث غرناطة الأخيرة، وهي قاعة تعد آية من آيات البناء والزخارف العربية والخشب المعقود، وقد نقش في جدار الصدر هذان البيتان:

تبيتُ له خنس الثريا معيذة	ويصبح معتل النواسيم واقيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به	ولم تكُ في أفق السماء جواليا

ثم ننتقل إلى قاعة الملوك أو قاعة العدل ومجلس السلطان الخليفة، ثم إلى الحمامات ذات المصاطب للاستراحة والجرون الكبيرة التي تحمل محل المغطس والقمريات، وغرف نوم الخليفة والحرم السلطاني، ومحاريب الصلاة تستقبلك بآيات وحكم بينات: اقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. وخرجنا من الأبهاء إلى الحدائق، وفي أطرافها مساكن العلماء والمرافقين والحجاب، وكلها تطل على غرناطة من عل.

الاستيلاء الإسباني

وزرنا بعدها برج الحرس الذي مازال يرفع عليه الصليب الذي كان رفعه علامة الاستيلاء الإسباني على القصر العربي وتسليم غرناطة، حيث في

الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٤٩١م. و٨٩٧هـ. أمضيت شروط التسليم ودخلت جيوش الإسبان الحمراء.

وبينما كان فرديناند وإيزابيلا يركعان على ركبتيهما يحمدان الله على هذه الغلبة ويسجد خلفهما الجيش كله، وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة في ثلة من فرسانه بسفح جبل الريحان، وتقدم إلى فرديناند وسلم إليه مفاتيح المدينة، ثم ولى ظهره منطلقاً إلى الجبال، حتى إذا وصل إلى قرية البذول، وهي على مسافة مرحلتين من المدينة، وقف يودع المملكة التي نزع منها، فرأى المرح النضير وأبراج الحمراء ومناثرها الضاربة في السماء ويساتين جنة العريف، فأجهش بالبكاء وصاح الله أكبر، ووقفت أمه عائشة إلى جانبه وهي تقول:

حق لك يا بني أن تبكي كما تبكي النساء، لفقد مدينة لم تستطع أن تدافع عنها دفاع الرجال ! ولا تزال البقعة التي ودع فيها أبو عبد الله مدينته بدموعه وزفراته تسمى إلى الآن: آخر حشرات العربي. ثم اجتاز أبو عبد الله البحر إلى بر العدو بأفريقيه، حيث كان يعيش بها هو وأبناؤه بالاستجداء وسؤال المحسنين.

للتاريخ والإنصاف

ويجدر بي هنا أن أقف قليلاً لأعود إلى التاريخ في قصة الأندلس وأردد ما قاله بحقها المرحوم علي الجارم، من أنها قصة رائعة تتقلب فيها أحداث الزمان، ويداول الدهر فيها بين شطريه، فهو مرة صفاء لا يشوبه كدر، وهو في أخرى هم ونصب، فيها من أحاديث البطولة والإقدام ما هو عجب. فيها جرأة طارق، وإقدام عبد الرحمن الداخل، وعزيمة الناصر، وعبقريه المنصور، وسخاء أبي الحجاج، وحكمة ابن عباد.

وفيهما صحائف من ذهب تتجلى فيها مدينة العرب كمعجزة من المعجزات، تتراءى من خلال سطورها شعلة النور ومناثر الهداية المنبثقة من جامعات قرطبه

واشبيليه وغرناطه وغيرها، كملتقى طلاب العلم من الشرق والغرب. فيها الأدب السامي والشعر والفن العالي، والهندسة الفائقة والنقش الزاهي، فأرى من كل هذا أن سقوط الأندلس كان سقوط النجم المتلالي، وأنه لم تشيع دولة بالعبرات والخسرات كما شيعت الأندلس، ولم يبك الشعراء ملكاً طواه الزمان كما بكوا ملك الأندلس.

ولقد خفقت الجوانح بحب الأندلسيين، على الرغم مما يزعمه التاريخ، من أنهم أعطوا ملكاً فلم يحسنوا سياسته. ذلك أنهم كما قال الأستاذ علي الجارم رحمه الله في كتابه (العرب في اسبانيا) أمة نزلت أرضاً غير أرضها في اقليم فيه كل صنوف الفتنة والجمال، وكان أعداؤهم يحيطون بهم من كل جانب، وأعداؤهم في المشرق ينصبون لهم الحبائل، عاشوا نحو ثمانئة عام في ديار غير ديارهم، فعمروا الأرض أكثر مما ترك الأمويون في الشام، والعباسيون في بغداد، والفاطيون في القاهرة. وما الهدامون لآثارهم إلا أعداؤهم من البربر والفرنجة.

وها أن مستشرقاً اسبانياً من أعظم الكتاب في العصر الحديث (بلاسكو ايبانز) يقول في كتابه المشهور (في ظلال الكنيسة) وهو من أكبر أصدقاء العرب المعجيين بحضارتهم، ماملخصه: لقد جاءت نهضة إسبانيا على أيدي العرب. فلقد كان الفتح العربي حملة بعثة حضارية استوعبت علم اليونان ومدينة فارس وحكمة الهند القديمة وصنائع الصين العريقة، إنه الشرق يدخل في صميم أوروبا كلها عن طريق إسبانيا التي استقبلت مفتوحة الذراعين رسله الفاتحين الذين استولوا في شبه الجزيرة الإسبانية في مدى عامين اثنين على حكم استغرق استرجاعه سبعة قرون ! فلقد كانت حرية الاعتقاد وهي حجر الزاوية في بناء عظمة الأمم مبدأ معزراً عند العرب.

وهكذا قامت في القرن الخامس عشر أجمل وأغنى حضارة عرفت القارة الأوروبية. وقد تألف من أجناس مختلفة وأديان متباينة مجتمع متضاعف النشاط

يتعايش فيه المسلمون واليهود والإسبان والعرب الخالص وأبناء مصر والشام والمغرب في خليط متمازج يذكّرنا اليوم بالولايات المتحدة الأميركية.

وفي هذا الوطن الإسباني العربي قامت عوالم متعددة من الأفكار والعادات والمدنيات. ومع هؤلاء العرب الواردين تواردت أنواع من الزراعة والصناعة كالقطن والبن وقصب السكر والليمون والبرتقال والرمّان وحرير القز والورق والمنسوجات من الوشي والشفوف الرقيقة والأسلحة الدمشقية المنزلة بالفضة والذهب وكذلك الحساب العشري والجبر والكيمياء والصيدلة والطب والعلوم الكونية والعشر المقفى. ولقد كان الفلاسفة الأقدمون من اليونان على وشك الاندثار لولا العرب الذين نشرهم واصطحبوهم في فتوحهم فأصبح للمعلم أرسطو مكان الصدارة والرئاسة في جامعة قرطبة وكان الراهب من أهل الشمال إذا أوتي الرغبة في زيادة العلم أتى جامعة من الجامعات العربية في المدن العربية ليتزود في الفلسفة والعلوم الكونية.

ويقول كتاب آخرون إسبانيون مؤرخون: إن المسلمين لما نزلوا غرناطة وهاموا في جبالها ووديانها ورياضها اعتبروها كالجنة الموصوفة في القرآن وتأثروا بنعيمها، وانتزعت منهم الطبيعة الفاتنة روح الحرب والغزو لتحل محلها روح شعرية حساسة تميل إلى العلم والنشر والتمدن والإنشاء والإعمار.

وداع غرناطة، وإلى الجزيرة وجبل طارق

بمثل هذه الأحاسيس المتناقضة: صور التاريخ وصور الآثار والحقائق الماثلة فيما قاله ابن خفاجة الأندلسي:

كتبْتُ يدُ الحداث في عَرَصَاتِهَا لا أنت أنت ولا الديارُ ديار

ودعنا غرناطة وداعاً لم يزد جراحات القلوب إلا تبريحاً وإيلاماً، وكأننا من أبناء تلك الديار نهجرها مرغمين، في موكب من مواكب أبي عبد الله الحزينة الباكية

وكانه بيننا أو أمامنا . ولقد نكون في مسيرنا إلى البحر سلكنا ذات الطريق التي سلكها في هجره الدار إلى غير مأب ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

قصدا الجزيرة وتبعد عن غرناطة ٢٦٧ كم ، وبعد أن تركنا سهول غرناطة الخضراء صعدنا في الجبال في ارتفاع شاهق وسط مناظر طبيعية أخاذة كانت تخفف من أحزاننا ، والوديان من حولها مليئة بأشجار الزيتون والزراعات الشتوية وزراعة الدخان . أما الجبال فمكسوة بأشجار الصنوبر بينما كانت تترأى أمامنا من بعد جبال أكثر علواً تغمرها الثلوج حتى إذا أطل علينا البحر الأبيض المتوسط بأشرنا بالهبوط وتبدل الحال من برد غرناطة القارس إلى دفء (ملقا) التي بلغناها بعد مسير ساعتين ونصف . ومنها وبعد الغداء في فندق للسياحة فخم كائن على البحر ، يمينا شطر جبل طارق والجزيرة الخضراء ، في طريق ساحلي جميل حداً مليء بالمصايف والفنادق والبلاجات ، تحيط بها الورود والأزهار . وهذا الساحل يشبه ساحل (الكوت دازور) في فرنسا ، ووقفنا عند المفرق إلى جبل طارق أو الصخرة الكبرى الراسية في البحر ، التي نزل بها طارق بن زياد فكسبت اسمه على مر الزمان ، وفي جنبات تلك البقعة الكبرى تقوم أماكن السلطة الحاكمة البريطانية والميناء ومراسي البواخر الذاهبة إلى الشرق والآية منه .

وكان منظر أشعة الشمس عند الغروب وهي تنعكس على مياه البحر الدافئة من أبهى المناظر ، وأمامنا عن بعد جبال المغرب العربي في شقة البحر الثانية من الجانب الأفريقي ، تشدنا بشوق روعي إليها .

وبعد ٧ كيلومترات من المفرق إلى جبل طارق وصلنا إلى الجزيرة ، وهي مدينة صغيرة جميلة ، ميناؤها سبيل المسافرين إلى سبتة وطنجة من كل حذب وصوب . وكان سقوطها بيد الإسبان سنة ٧٤٢هـ . أو ١٣٤٢م . أما جبل طارق فإنه لم يسقط

بيد الإسبان السقوط الأخير إلا عام ١٤٦٢م. وكان فقدته ضربة شديدة للأندلس
ومن مميزات سقوطها الأخير .

وتبعد الجزيرة عن مدريد ٦٤٨ كم. وعن قرطبة ٣٧٨ وعن قادس ١٢١. وإليها
تنسب معاهدة الجزيرة المشهورة نتيجة لمؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦، الذي تقاسم
به الأوروبيون النفوذ في الشمال الأفريقي، فأطلقت يد الإسبان والفرنسيين
في المغرب العربي وغيرهم في البلاد الأخرى، ولا تزال المدينة تحتفظ باسمها
العربي Al - Geciras.

طنجة والمغرب

وغادرنا الجزيرة بباخرة بحرية الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء في ١٨/١٢/١٩٥٧ منطلقاً إلى المغرب لتتزل في طنجة. مررنا أولاً من أمام رأس طريف الشهير، ثم تركنا الشاطئ الإسباني إلى الأطلنطي. وبلغنا مدينة طنجة (الدولية سابقاً) بعد ساعتين ونصف من تركنا الجزيرة.

والوقت في المغرب العربي يتماشى مع وقت غرينويش، ومعظم الفنادق في طنجة تتسم بطابع مراكشي أو أندلسي، والمدينة تضم نحواً من ٢٠٠ ألف نسمة، منهم ١٢٠ ألف مغربي، و٣٠ ألفاً من الإسبان والبقية من اليهود والأجانب. وهي كثيرة الحركة وبها أحياء حديثة وجميلة. يقع معظمها على سفح جبل، كما أن بها قبر ابن بطوطة الرحالة المغربي المولود فيها. ويظل لها اليوم علم المغرب، وسلطان الملك محمد الخامس ملك المغرب. وقد اشر على جوازات سفرنا بمهر الأمن العام المغربي عند الدخول.

أحوال المغرب الطبيعية والزراعية وأحوال سكانه

والمغرب تبلغ مساحته ٥٢٠ ألف كيلو متر، منها ٤١٥ ألف كيلومتر بالمنطقة الجنوبية التي كانت مشمولة بالحماية الفرنسية، و١٠٤ آلاف في المنطقة الشمالية، التي كانت مشمولة بالحماية الإسبانية، و٣٨٠ كيلو متراً في منطقة طنجة. ويبلغ طول سواحلها على المتوسط من حدود الجزائر إلى طنجة ٦٤٨ كم. وعلى المحيط الأطلنطي من طنجة إلى حدود الصحراء ٨٣٥ كم.

وتقع جبال الريف في الشمال قرب المتوسط وجبال الأطلس الشهيرة في الجنوب ويتراوح علو الجبال من ٧٥٠ متراً إلى ٤١٦٥ متراً. وتبلغ مساحة السهول نحو الثلثين. والمغرب هو القطر الوحيد بين أقطار الشمال الأفريقي، الذي تكثر فيه الأمطار والثلوج والمياه والأنهار الكبرى.

والسكان ينتمون إلى العنصر البربري الذي استقر بالبلاد خلال العصور القديمة. وبعد الفتح الإسلامي نزح العرب إلى المغرب وامتزجوا بالسكان امتزاجاً كبيراً خلال القرون المتعاقبة، وهاجرت إليه خلال القرن الخامس الهجري قبائل عربية متعددة واختلطت بالسكان في جل أنحاء المغرب.

وبعد سقوط غرناطة في القرن التاسع، هاجر إلى المغرب عدد كبير من سكان الأندلس مسلمين ويهود واستقر فيه عدد كبير من الأجانب في القرن الحالي ويقدر عددهم بنحو ٤٠٠ ألف من أصل المجموع البالغ عشرة ملايين نسمة و٩٠٪ من الأجانب يستقرون بالدار البيضاء وكبريات المدن وأكثرهم من الفرنسيين ويليهم الطليان والإسبان والبرتغال، كما يبلغ عدد اليهود المغاربة نحو ٢٠٠ ألف معظمهم بالمدن والباقي بجبال الأطلس، ولا تزال عدة قبائل بالمغرب تعيش على التنقل والارتحال في طلب العيش والماء.

ومغرب بلد زراعي، أربعة أخماس سكانه يشتغلون بالزراعة والرعي. والأراضي المحروثة تبلغ ٤ ملايين ونصف هكتار أي ربع مساحة الأراضي الصالحة للفلاحة. وتبلغ الأراضي التي يستثمرها الأوروبيون ٩٠٠ ألف هكتار، ويعنون بزراعة الكروم والأعاب وأشجار الزيتون والفواكه والحمضيات والخضار المختلفة والتبغ والكتان والقطن والقنب والحلفا في أكثر الأراضي خصباً.

ومعظم إنتاج الأراضي الزراعية في المغرب هو من الزراعة الشتوية وتوازي ٩٠٪ من الأراضي المحروثة، وتبلغ مساحات الغابات ثلاثة ملايين ونصف هكتار من

أشجار البلوط والعرجار والصنوبر والأرز، ويبلغ عدد الأغنام ١٣ مليوناً من الرؤوس، والماعز ٦ ملايين، والأبقار مليونين ونصف، والحمير مليون وربع، والبقال ٢٠٠ ألف.

وفي المغرب نوعان من الصناعة: الصناعة اليدوية الفنية، والصناعات الحديثة. وتعتمد الأخيرة على الفحم الحجري والكهرباء والبتروك وكلها متوفرة بالمغرب. وفي مقدمة الصناعات الحديثة معامل إنتاج المواد الغذائية والمشروبات الغازية وتركيب المواد الكيماوية والنسيج الصوفي والقطني والدباغة وصناعة الأدوات المنزلية. وبلاد المغرب غنية بمختلف المعادن، وفي مقدمتها الفوسفات والفحم الحجري والبتروك والمنغنيز والحديد والرصاص والزنك والنحاس.

وتكثر الأسماك المختلفة في الشواطئ، وتعد مدينة أسفى من أعظم موانئ الصيد في العالم. وقد بنيت في المغرب عدة سدود لخزن المياه قصد توليد الكهرباء أو سقي الأرض، وأكبرها سد ايمغوت على نهر أم الربيع وسد بين الوريدان على وادي العبيد وسد القنصرة على وادي بهت وسد نهر نفيس. أما الموصلات فإن المغرب مزود بشبكة طرق كبرى تربط ما بين المدن والقرى، ويبلغ طول الطرق المعبدة ٨ آلاف كم. وطول الطرق الثانوية ٣٢ ألفاً، وفي المغرب ١٧٠٠ كم. من السكك الحديدية ويتصل المغرب بوساطتها بالجزائر.

ماضي المغرب

إن أول دولة أجنبية اتصلت بالمغرب هي دولة قرطاجنة ثم الرومان، وهم الذين أسسوا مدينة طنجة ثم جاء الواندال. ثم سيطرت بيزانطة على المغرب حتى سنة ٦٤٠ م. عندما استخلصه عقبة بن نافع رضي الله عنه عام ٦٢ للهجرة. وبقي المغرب تابعاً للحكم العربي الإسلامي بالشرق، من الفتح إلى حدود ١٧٢ هـ.

ثم تأسست الدولة الإدريسية في عهد إدريس الأول وهي أول دولة عربية إسلامية مستقلة بالمغرب، ثم الدولة المرابطية من سنة ٤٥٣هـ. أو ١٠٦١م. إلى ٥٤١هـ. و١١٤٦م. وفي هذا العهد أسست مدينة مراكش، ثم الدولة الموحدية من ٥٢٤هـ. أو ١١٣٠م. إلى ٦٦٧هـ. أو ١٢٦٩م. ثم الدولة المرينية من ٦١٣هـ. أو ١٢١٦م. إلى ٨٧٦هـ. أو ١٤٧١م. ثم الدولة الوطاسية إلى ٩٦١هـ. أو ١٥٥٤م. ثم الدولة السعدية إلى عام ١٠٦٩م. ثم الدولة العلوية وقد تأسست سنة ١٠٥٠هـ. أو ١٦٤٠م. ولا تزال هذه الدولة هي الحاكمة حتى اليوم.

وفي عام ١٩١٢ فرضت الحماية الفرنسية على المغرب بموجب معاهدة فاس في ٣٠ آذار من تلك السنة، وجردت الحكومة المغربية من اختصاصاتها في عهد مولاي عبد الحفيظ، كما فرضا معاهدة ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٢ الحماية الإسبانية على القسم الشمالي من المغرب.

وقامت بعد ذلك ثورات قبائل الأطلس ومافيلالت وسوس وجبال الريف ولم تخمد حركة المقاومة إلا في سنة ١٩٣٤. وكلنا يذكر ثورة الأمير محمد عبد الكريم في الريف وما انتهت إليه.

وبعد وفاة مولاي يوسف وتولي السلطنة ولده محمد الخامس عام ١٩٢٧، ظهرت حركة ثورية نفسية جديدة، زادها إذكاء صدور الظهير البربري سنة ١٩٣٠، الذي زاد في تمزيق وحدة البلاد، وإقامة السدود بين سكانها، فانبثقت حركة المطالب الوطنية التي انتهت بتأسيس الأحزاب الوطنية ووقوف الشعب صفاً واحداً، للمطالبة بحقوقه المغتصبة وراء مليكه الذي قاسى الشدائد والأهوال في سبيل وطنه، حتى كللت جهوده بالنجاح التام.

وقام الشعب المغربي ببذل كل غال ورخيص في سبيل تحقيق أمانيه حتى أذن الله عام ١٩٥٦ بأن جعل خاتمة هذه المراحل الطويلة، المليئة بالأحداث عودة محمد

الخامس من منفاه، وأخذ من فرنسا اعترافاً رسمياً باستقلال المغرب استقلالاً تاماً ووحدة أرضه وتحقيق أمانه، بموجب تصريح مشترك وبروتوكول في ٢ آذار ١٩٥٦، ثم تبع ذلك بيان مشترك مغربي إسباني في ٧ نيسان ١٩٥٦، اعترفت فيه إسبانيا أيضاً باستقلال المغرب.

إلى تطوان

في يوم ١٩/١٢/١٩٥٧ توجهنا من طنجة بالسيارة لزيارة تطوان عاصمة المنطقة الخلفية المشمولة بالحماية الإسبانية سابقاً، والبعد بينهما ٦٠ كيلومتراً، وأجرينا معاملات الحدود على حدود طنجة، وفي حدود المنطقة الخلفية ذهاباً وإياباً. والطريق جميلة متعرجة تتخللها جبال ووهاد ومضائق، كان بعضها مسرحاً للثورة الريفية التي أوقدها الزعيم المغربي الأمير محمد عبد الكريم عام ١٩٢٠ والتي انتهت عام ١٩٢٥ باستسلامه ونفيه من قبل فرنسا إلى جزيرة مدغشقر.

ودخلنا مدينة تطوان التي تتركز فيها الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية والفكرية للمنطقة كلها، وقد أسست هذه المدينة في عهد يوسف المريني سنة ٦٨٥ للهجرة، بينها وبين البحر عشرة كيلومترات، وبينها وبين سبتة نحو أربعين، وتقع في سفح جبل درسه شمال النهر الكبير. وخربت في حدود سنة ثمنمائة، عندما غزاها الإسبان وبقيت خراباً نحو تسعين سنة، ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبي الحسن علي المنظري الغرناطي.

ومدينة تطوان الموجودة الآن هي من بناء المسلمين المهاجرين من الأندلس ومن غرناطة بالذات. ولا تزال بعض العائلات العريقة في تطوان تحافظ على أنسابها الأندلسية، وقسم منهم يحتفظون حتى اليوم بمفاتيح منازلهم في الأندلس يتوارثونها أباً عن جد. ومختصر تاريخ تطوان لمؤلفه الأستاذ محمد داود عضو المجلس الوطني الاستشاري في المغرب، ومن كبار الأدباء والعلماء الأخيار الذي

تعرفت إليه أثناء هذه الزيارة، يصف لنا الكثير من أثر تلك العائلات الأندلسية الأصل في تطوان، وهو من عيونها، وكذا عائلة الطريس التي منها السيد عبد الخالق سفير المغرب في مصر والشام وهو أحد المجاهدين الذين عملوا مع حزب الاستقلال في سبيل حرية بلادهم.

وقد مكنتنا السيد أحمد مدينة الكاتب العام لعامل تطوان، وهو شاب مهذب متعلم ومن أرقى الشباب الذي يحمل الفكرة العربية وقد تلقى علومه الابتدائية في مدرسة نابلس بفلسطين، مكنتنا من الاصلاح على أهم مافي البلد من آثار ومعالم ومجتمعات. فزرنا أولاً قصر الخليفة الرسمي الذي كان مقرراً لمولاي الحسن خليفة تطوان سابقاً وسفير المغرب حالياً في لندن، وهو قصر فخيم بما احتواه من هندسة أندلسية وزخارف ونقوش وقيشاني وفسيفساء ونجارة مغربية بديعة وسقوف مزينة وفيه الكثير من الآيات والأشعار بالكتابة المغربية. وزرنا السوق القديمة المتعرجة الضيقة المطبوعة بالطابع الشرقي والأسواق الحديثة وسور المدينة.

وفي بيت السيد طريس تناولنا الغداء على الطريقة المغربية بالأيدي وسط قاعات أندلسية وأرائك مغربية ومع نفر من أهل العلم والرواجة أمثال السيد محمد داوود المار ذكره وهو مملوء حماسة وحباً للعروبة والأستاذ محمد بن العربي بنون من أفاضل المغرب وأكابر علمائه ومفكره الذين درسوا في مصر والسيد أحمد مدينه ابن أخت الأستاذ الطريسي المملوء نبلاً وخلقاً وعلماً.

إلى الرباط

ويوم الجمعة في ٢٠/١٢/١٩٥٧ أخذنا طريقنا من طنجة إلى الرباط في ظلال طقس جميل يشبه جو نيسان في الشام. مررنا أولاً بأصيلة ثم في مدينة العرائش ثم في القصر الكبير ثم عرباوه والمسافة ١٣٥ كم. اجتزنا ضمنها أولاً حدود طنجة ثم

حدود المنطقة الخليفة الإسبانية سابقاً حتى وصلنا إلى حدود المنطقة الجنوبية التي كانت مشمولة بالحماية الفرنسية وكانت المعاملة في تلك الحدود ممتازة.

والطريق من طنجة إلى عرباوه، وهي منطقة الحدود، جبلية ومتعرجة تحيط بها الخضرة الدائمة والأشجار، ولكنها من عرباوه إلى الرباط ١٤٠ كم. عريضة وسهلة وسط سهول منبتة وغابات كثيرة ومزارع من الحمضيات. مررنا بالفرق الذي يؤدي إلى ميناء ليوتي نسبة إلى المارشال ليوتي ثم بمدينة القنيطرة وهي مدينة كبيرة وصناعية قائمة على نهر كبير تمخره بواخر للشحن حتى البحر، ووصلنا بعدها الرباط بعد مسير خمس ساعات ونصف وهي عاصمة المغرب ومقر مليكه وقاعدة حكومته. شيدها الخليفة عبد المؤمن بن علي في القرن السادس للهجرة وجعلها رباطاً لحشد الجيوش والأساطيل لغزو الأندلس، وأتم بناءها الخليفة يعقوب المنصور.

والمدينة تحيط بمعظمها الأسوار الموحدية والأندلسية والقديم من المدينة يحتفظ بطابعه المغربي القديم. أما الحديث منها، فهو أوروبي الطراز يحوي ساحات واسعة وشوارع مستقيمة عريضة وبها الكثير من الحدائق. وأهم مافي الرباط بقايا وأطلال جامع حسان الشهير الذي شيده الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ليكون من أكبر مساجد العالم، تبلغ مساحته ٢٦ ألف متر مربع وطوله ١٨٦ وعرضه ١٤٢ م. وبه ١٢ باباً. أما منارة حسان وهي من أعاجيب الفن المعماري، فهي دوماً قبلة السواح ومن المعلوم أنها بقيت ناقصة ولم تكتمل، ويبلغ عرض كل جهة من جهاتها ١٩ م، وارتفاعها ٤٤ متراً.

خطط الاستعمار وارثه الضخم الصعب وقضية افني

لقد كان إلى أمد غير بعيد ممنوع على المسلم أن يسكن خارج المدينة القديمة، أما المدينة الحديثة فهي وقف على غيره وعلى الأوروبيين.

وبهذه المناسبة أذكر أن إنتاج المغرب يختص الأوروبيون بأربعين في المائة منه على قلة عددهم . وكانت خطة المستعمر أن يقطع الأرض الخصبة والقرية من وسائل الري والبحر إلى الأجانب بوسائل مختلفة وأثمان بخسة وأسباب قاهرة . وهؤلاء عمروا الأرض وعملت فرنسا كثيراً في تنظيم شؤون العمران وشقت الطرق التي لا مثيل لها ولكن لمنفعة جماعتها .

وقد كان هدفها حصر المغاربة العرب المسلمين في أماكن منعزلة بعيدين عن المناطق الخصبة المنتجة، والتفرقة بينهم وبين البربر وإفشاء العنصرية ومحاربة التعليم وبالتالي الانصهار بيوثة فرنسية أو الإبادة على مر الزمان حتى لا تبقى جنسية أو فكرة مغربية مسلمة وقتل اللغة العربية، ولولا تلك الشرذمة القليلة من أحرار المغرب ورجالات حزب الاستقلال وغيرهم، ولولا هذا المليك الذي هو القمة في القومية المغربية الإسلامية، ولولا دور علوم الدين واللغة القديمة لأمكن لفرنسا أن تحقق مع مرور الزمن بغيتها .

ومن يطوف المغرب ويرى قلة شبابه المتعلم التعليم العالي أو الثانوي من قبل، وتلك اللغة العامية التي تخالطها اللغة الفرنسية، وذاك الاستيلاء الفرنسي الكامل على دواوين الدولة كلها بلغتها وعاداتها وعلى المجتمع، يدرك جيداً أي نصر حققه المغرب ليغير عجلته من جهة إلى جهة ومن درب إلى درب، وأي مشاق يتعرض لها، وأي صعاب تلاقيه في تعريب الدوائر وإيجاد الشباب المغربي المتعلم لإملاء وظائفها وأي مشاكل يلاقيها، من جراء قضايا الاستيطان وحقوق التزلاء، وتحرير الاقتصاد المغربي وإنشاء وحدة مالية مغربية مستقلة .

ولكنني واثق أن المغرب سيتخلص من كل هذا عاجلاً أو آجلاً، بفضل حكمة مليكه ورباطة جأشه، وإخلاص رجال حكومته وجهاد رجال الأحزاب، وعلى رأسهم الأستاذ علال الفاسي، الذي يذكى في نفوس أبناء المغرب روح المقاومة

للاستعمار، والمغرب يحارب على عدة جبهات مع فرنسا ومع إسبانيا في الشمال، ومعها في الجنوب في مستعمرة سيدي افني، التي اغتصبتها إسبانيا عام ١٨٦٠ وأتمت احتلالها عملياً سنة ١٩٣٤، وهي واقعة على الأطلنطي، طول شاطئها ١٠٠ كم. ومساحتها ٢٥٠٠ كم. مربع ويقطن بها نحو ٣٠ ألفاً من سكان آيت عمران، ومع السكان الأجانب المستوطنين وما اكتسبوه من حقوق مع الزمن.

ثم لدى المغرب مشاكل القواعد الجوية الأمريكية، فقد سمحت فرنسا للولايات المتحدة الأمريكية بموجب اتفاق ثنائي عقد في ٢٢ ايلول ١٩٥٠، وآخر في أيار ١٩٥١، بإنشاء خمس قواعد جوية أمريكية في المغرب في بن سليمان والنواصر وجمعه سحيم وسيدي سليمان وبن جرير. وبلغت تكاليف بناء هذه القواعد في مرحلتها الأولى نحو ٢٠٠ مليار من الفرنكات، استمكت الأرض فرنسا من أهلها بأثمان بخسة وأجرتها هي لأميركا.

وهكذا تبدو الصعاب كثيرة في طريق المغرب نحو التحرر واستكمال أسباب السيادة، ولكن فجر النور الذي طلع على كل الأمم المستعبدة في العالم، وإيمان أهل المغرب القوي وروحانيتهم الإسلامية والعربية الكبيرة، وإخلاص زعماء البربر لقضايا وطنهم ومليكهم، كفيل بتذليل تلك الصعاب. كيف لا وهذه الإذاعة المغربية تنفخ كل يوم في أرواح ونفوس الشعب اليقظة والتمرد على الاستعمار والأخذ بأسباب النهضة وتنقل إليهم أخبار البلاد العربية، وهذه صوت العرب أيضاً يسمعها السائق والعامل والتلميذ، فيتابع مراحل جهاد العرب في مختلف أمصارهم، وخاصة مصر والشام، ويعلم الشيء الكثير من أخبار المشرق، الذي كان مايينه وبين المغرب سداً منيعاً، أقامه المستعمرون للحيلولة دون أي اتصال، وهذا كبير البربر رئيس الوزراء السابق السيد محمد البكاي، الذي يعرف حلب ودير الزور معرفة طيبة، يوم كان ضابطاً في الجيش الفرنسي في أعوام

١٩٣١ - ١٩٣٢، قد دلل على عميق وطنيته يوم استقلال من باشوية إحدى المدن الكبرى، عند نفي ملكه، محتجاً على فرنسا، فلما أن عاد الملك اختاره رئيساً لأول وزارة استقلالية، وهو الرجل المملوء نبلاً وخلقاً وحكمة وحباً للعروبة. والبربر جماعة امتزج تاريخها بتاريخ الإسلام، وكان لهم كثير من الفضل عليه ولغتهم تسمى الشلحة وهي مزيج من البربرية القديمة وقليل من العربية.

والمشاكل التي يتعرض لها المغرب كثيرة، فقد خلف نظام الحماية تراثاً ثقيلاً لسوء الحظ في البلاد. فهناك الجاليات الضخمة الفرنسية، التي منحتها الحماية حرية مطلقة ويدها الجزء الكبير من الاقتصاد المغربي والتي لم يتم تحريرها أو إلغاؤها بعد. وهناك قضية وجود الجيوش الأجنبية، التي ماتزال تتمسك بوضعيتها أيام الحماية، وكذلك القواعد العسكرية الأميركية، التي قامت دون استشارة المغرب أو مشاركته، والتي منحت امتيازات مالية وقضائية وجمركية تتنافى مع وضع البلاد الجديد المستقل.

ومن العراقيل الضغط الفرنسي في الميدان الاقتصادي، وكلنا يعلم أن الاقتصاد المغربي كان في وضع جعله متمماً للاقتصاد الفرنسي، ولهذا فإن فرنسا، كلما أرادت، تضغط على الجهاز الاقتصادي المغربي بوسائل كثيرة. وكذلك؛ مشكلة الحدود المغربية ومشكلة الجزائر التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع القضايا القومية في المغرب والتي تكون السبب المباشر لتمسك الجيش الفرنسي بقواعده في المغرب.

مع الملك ورجال الحكم والشعراء العرب

اتصلنا في الرباط بسفراء العرب كلهم، وفي المقدمة سفيرنا فيها معالي الأستاذ أسعد محاسن وزير المال السابق، الذي كان خير دليل لنا في العاصمة وخير معين، وقد لقينا من لطفه وكرمه وأنسه ما هو أصيل فيه، كما لقينا من فضل السفير العراقي، معالي الأستاذ عبد الغني الدلي مالا ننساه، وقد أكرمنا بحفلة جامعة

فائقة، وكذلك السفير السعودي شاعر العروبة الأستاذ الأديب خير الدين الزركلي، وهو كما نعلم جميعاً العربي المجاهد المؤمن المبدع.

واجتمعنا إلى وزير الاقتصاد والمال السيد عبد الرحيم بو عبي وهو من مجاهدي المغرب والذين وقعوا وثيقة ١١ كانون الثاني ١٩٤٤ بالمطالبة بالاستقلال ووحدة أرض المغرب بظل محمد الخامس، وإلى كثيرين من زملائه من رجالات الدولة والأحزاب والعلماء والأدباء.

وكانت خاتمة المقابلات حظوتنا بلقاء صاحب الجلالة محمد الخامس ملك المغرب في قصره في الرباط وقد استقبلنا أحسن استقبال، وذكر ما بين سوريا والمغرب والعروبة من صلات قديمة وحاضرة وكيف يريد توثيقها. وانه مسرور جداً لما لقينته كريمته الأميرة عائشة من استقبال حسن في دمشق من قبل صاحب الفخامة رئيس البلاد السيد شكري القوتلي وحكومته وشعبه والجمعيات النسائية. وارتجلت بين يديه كلمة أوضحت فيها مركز المليك السامي في قلوب أبناء الشام والعرب والمسلمين وحب المشاركة للمغرب وسعينا لتعزيز الصلات الاقتصادية والاجتماعية بين سوريا والمغرب، وعن أملنا القوي في رخاء البلد الشقيق والوصول به على يد جلالته إلى كامل أغراضه وأمانيه.

وقد سرّ كل السرور من كلمتي وأثنى على العاطفة التي أوحتها ورجا لنا الخير وتقوية أواصر القربى والعلاقات بين بلاده وبلادنا، وتمنى كثرة التزاور بين الأقطار الإسلامية لتعيد إلى الماضي سالفه يوم كانت تشد الرحال من المغرب إلى الشام وبغداد، ومن القاهرة والبصرة وحلب إلى تونس وفاس ومكناس وطنجه وتطوان.

وودعناه وكلنا إعجاب بهذا المليك الطاهر المجدّ، الذي ضحى بعرشه في سبيل شعبه، ولم يضحّ بشعبه في سبيل عرشه، وهو يحمل آمال وآلام عشرة ملايين

مغربي . وتمت المقابلة مع السفير السوري معالي الأستاذ أسعد محاسن الذي قدمنا للمليك نحن : عبد الحميد شومان ومنصور قداره وكاتب هذه السطور . وكان يتقدمنا في المقابلة وزير القصر ورئيس التشريفات السيد الفاسي الذي هو اليوم سفير في طهران وأنقره . وقصة هذا المليك وحدها تاريخ كامل ، فهو من أسرة حاكمة هي (الأسرة العلوية) .

الأسرة العلوية وتولية محمد الخامس

وليت الحكم بعد أسر مالكة عديدة تمتعت كلها باعتبار رفيع في العالم الخارجي ، كانت محاربة قوية وإدارية ممتازة وسياسية قادرة ، وعلى الرغم من أن بعض سلاطينها كانوا قساة لا يرحمون ، إلا أنهم كانوا يرعون العلوم والفنون ، ويشجعون الرجال النابغين ، والتاريخ شاهد ناطق على مآثرهم العظيمة في إسبانيا ، سواء في ميدان الهندسة والبناء ، أو في ميادين الطب والتسيج والخزف وحفظ التربة . ولا تزال ذكراهم حية إلى اليوم ، في المدارس العديدة التي أنشأوها في فاس ، والأضرحة السعدية في مراكش والجوامع التي أقاموها في كل البلاد .

وإن من أشهر سلاطين الأسرة العلوية الحاضرة مولاي اسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧) وكان ذا شخصية قوية حكمت البلاد طوال خمسين سنة عرفت خلالها عهد ازدهار من القوة والوحدة لا تزال آثاره شاهدة للعيان ولكنه قاسي القلب متعطش للدماء .

وفي أوائل هذا القرن وفي عام ١٩٠٧ خلع مولاي عبد العزيز عم الملك الحالي وحل محله أخوه مولاي عبد الحفيظ الذي بذل جهوداً كبيرة لإعادة النظام إلى البلاد ولتعزيز الخزانة الفارغة فوق باديء الأمر ولكنه مالبث أن انغمس في ملاذه ومتارفه فأفلتت دفعة الحكم من يديه . ولكن عندما أوشك المتمردون من البربر أن ينقضوا على العاصمة فاس لجأ عبد الحفيظ إلى طلب

المساعدة من فرنسا فوجهت ثمانية آلاف جندي لتجديته مهدة بذلك سبيل الاحتلال الفرنسي لمراكش.

وقد تنازل مولاي عبد الحفيظ في آب ١٩١٢ عن العرش وتولى أخوه مولاي يوسف والد محمد الخامس، فاغتنم المستعمرون فرصة انصراف الرجل إلى تقاه فجعلوا سلطانه اسمياً ليس في يده من الأمر شيء وإنما الأمر للماريشال ليوتي وحده. والعادة في تولية السلطان أن علماء المسلمين هم الذين يختارون السلطان الجديد في اجتماع خاص يعقدونه بجامعة القرويين في فاس، ولكن في ظل الحماية الفرنسية لم يكن هذا الاختصاص لرجال الدين كما كان قبل الحماية.

وعندما توفي مولاي يوسف عام ١٩٢٧ اختار علماء المسلمين أصغر أولاده سناً الملك الحالي الذي جرت ثقافته في المجري التقليدي أولاً من دراسة أصول الفقه وآداب اللغة العربية ثم درس الفرنسية وعدداً من العلوم العصرية. وما علم الفرنسيون - عندما اتجهوا نحو الشاب محمد دون أشقائه الذين يكبرونه سناً ليرفعوا به إلى العرش الشريف وكان عمره سبع عشرة سنة هذا الذي يبدو ضعيفاً جزوعاً لين العريكة بسيطاً - أنهم ملاقون فيه فيما بعد، رجلاً ذا شخصية قوية يصبح في منتصف القرن العشرين معبود شعبه وزعيماً تتجسد فيه آمال أمة بكاملها.

ومما يحكى عن رباطة جأش هذا المليك، وكما روى الكاتب الإنكليزي الشهير روم لاندو صاحب كتاب أنا عائد من مراكش الذي ترجمته دار العلم للملايين في بيروت، والذي اعتمدته في كثير من الحوادث في حديثي هذا، انه في ١٩٥١/١/٢٦ عندما اجتمع الجنرال جوان (المقيم الفرنسي العام في مراكش - آخر ملك غير متوج في العالم - كما وصف هو نفسه) بالسلطان محمد الخامس وقدم إليه إنذاره المشهور قال الأول للثاني: «إذا كان السلطان يشعر أنه غير قادر على الموافقة ففي استطاعته أن يتنازل عن العرش لأحد أفراد الأسرة المالكة»

فأجابه السلطان في تؤده وهدوء: «لسنا ههنا أيها الجنرال في ساحة عرض عسكري حيث يكفي أن تصدر أوامرك لكي تطاع» !

نفي السلطان وعودته

وتوالت الحوادث وزج أحرار المغرب في السجون دون محاكمة، واحتلت الفرق العسكرية أمهات المدن، وكشف الجلاوي - باشا مراکش - عن وجهه الحقيقي، وكان في عام ١٩٤٧ قد زار المقيم العام الجنرال جوان قائلاً له: «سيد الجنرال، إن رجالي على أتم الاستعداد للعمل، إنهم ينتظرون إشارة منك وأمرأني للانقضاض على السهول ومطاردة ذاك المخادع، الذي نسي أن فرنسا هي التي رفعتة إلى العرش».

وظلت فكرة إقالة محمد الخامس مختمرة في أذهان رجال الاستعمار حتى كان لهم ما أرادوا، فطاروا به وبعائلته في صباح ٢٠ آب ١٩٥٣ وفي زحمة عيد الأضحى إلى كورسيكا ثم إلى ماداغسكير، وأجلسوا مكانه السلطان الزائف محمد بن عرفة الذي يقيم الآن في فرنسا. ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه. وكما قال الشابي الشاعر العربي التونسي: «لابد للقيد أن ينكسر». فقد انتصر الحق وانكسر القيد، وعاد محمد الخامس إلى عرشه في ١٦ تشرين الثاني ١٩٥٥، بين تهليل شعبه وإعجاب العالم وعطف العرب، يزاوِل مهمته ويكمل رسالته.

اصلاحات المليك وحكومته

وهذا المليك المصلح يوالي جهاده في سبيل إصلاح المجتمع المغربي ويرفع من شأنه، وقد أدرك أنه مالم تنشر الثقافة في مختلف طبقات الشعب، فلن يكون له حظ كامل في الحياة. وكان الفرنسيون ينظرون إلى مراکش وكأنها ملحقة بفرنسا أو متممة لاقتصادها، فأهملوا الناحية الثقافية، وانصرفوا إلى تعزيز الحياة الاقتصادية

التي تعود عليهم بأعظم الفائدة، فوجد الملك إزاء هذا الإهمال، أن من واجبه إنشاء المدارس الحديثة حتى وعلى حسابه الخاص، وأن يشجع غيره على أن يحدو حذوه، ذلك أن في المغرب أفراداً كثيرين من الباشوات والأعيان، الذين يملكون أموالاً طائلة وأراضي واسعة، والذين تعودوا أن ينفقوا بسخاء على ملاذهم ومتارفهم وعلى حفلاتهم.

وقد نظر محمد الخامس إلى النظام الإقطاعي كله نظرة خوف وريبة، ومن أجل ذلك وقف إلى جانب الطبقة المثقفة، وأرباب الحرف، وأفراد الطبقة الوسطى على العموم. ولقد أعلن في إحدى خطبه قائلاً: «لو أن هؤلاء الناس أنفقوا على شؤون التربية والتعليم - وهو يشير إلى النبلاء الإقطاعيين - نصف ما ينفقونه على أعيادهم وأفراحهم، إذاً لتحولت مراكش إلى جنة زاهرة بثمرات العلم، وإذن لكان في استطاعة شبابنا أن يكتسب ثقافة تؤهله لأن يقوم بقسطه في خدمة مواطنيه».

ولقد صدف يوم أن كنا في الرباط، وفي يوم السبت في ٢١/١٢/١٩٥٧ أن احتفل المغرب بتأسيس أول جامعة مغربية حديثة، دعي إليها ممثلو العرب الدبلوماسيون والسفراء الأجانب، ورهط كبير من أساتذة الحقوق في باريس، ورجالات فرنسا المستشرقين، وعلى رأسهم الأستاذ ماسينيون. دشنها الملك بخطاب قومي رائع، وكان نواة هذه الجامعة معهد الحقوق والعلوم الذي أسس في الرباط عام ١٩٢٠.

أما الجامعات الأخرى في المغرب فأهمها جامعة القرويين، التي أسستها فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام ٢٤٥ للهجرة، وقد لعبت هذه الجامعة دورها في نشر العلم والفقه واللغة مدى طويلاً من الزمن.

ومما يقال أن سلفستر الذي صار فيما بعد بابا لرومية، درس بالقرويين وأدخل الأرقام العربية إلى أوروبا، كما أن ابن خلدون درس فيها وله في مكتبتها كتاب

مخطوط بخط يده. وتطورت الآن جامعة القرويين إلى مدرسة حديثة تدرس العلوم العصرية بجانب العلوم الدينية وآداب اللغة والشعر. ويبلغ عدد التلامذة المغاربة المسلمين عام ١٩٥٦ حوالي ٣٣٢٩٨٨، وعدد الفرنسيين ٦٩٧٣١، والمغاربة اليهود ٣٦٩٥٨.

وتجدر حكومة المغرب بإشراف الملك في مغربة الإطار الإداري، وقد بلغت نسبة المغاربة في بعض الوزارات ٧٠٪، وتعدتها في إدارة الأمن الوطني إلى الثمانين، وقام الجيش المغربي حدثاً سعيداً بين أحداث المغرب، ورئيس أركانه هو ولي العهد الأمير الحسن، وتحرر القضاء من كل القيود والامتيازات الأجنبية، وذلك بإمضاء معاهدين قضائيتين مع فرنسا وإسبانيا، ويتنازل بريطانيا والولايات المتحدة، عما لهما من امتيازات قديمة. على أنه لا يزال في المحاكم الوطنية بعض القضاة الأجانب.

واتسعت حركة التعليم، فزاد عدد التلامذة مائة وأربعين ألفاً، واستعان المغرب بمعلمين من الدول العربية. وقد أوفدت سورية بعثتين علميتين للمساهمة في ميدان العلم المغربي، ومن جملة أهداف المغرب من هذه البعثات تقوية أواصر الأخوة بينه وبين شقيقاته، كما عني العناية الكاملة بالعمل والعمال، وقيام المؤسسات النقاية والتعاونية وصناديق التوفير وبالمؤسسات الصحية.

وقد أقامت وزارة الصحة مجدداً ١٩٦٤ سريراً جديداً في مستشفيات المدن والبوادي، كما يسرت ٢٢٥٠ سريراً آخر لعشرة مستشفيات قديمة، وخمسة عشر مستوصفاً، وسعت لتنظيم مؤسسات البر والإحسان برعاية المجلس الأعلى للتعاون الوطني الذي ترأس لجنته المركزية الأميرة عائشة.

الفتاة المراكشية وحقوقها باختيار شريكها

وقد صدرت إرادة ملكية تقضي بأن على كل شاب مسلم يود الزواج من أبة فتاة، أن يطلب موافقتها على ذلك، وعليه بعد ذلك الانتظار حتى يبلغ الثامنة عشرة، وتبلغ هي الخامسة عشرة من عمرها. وكان يحق لوالد الفتاة أو ولي أمرها في السابق أن يعطيها زوجة لمن يشاء، رضيت الفتاة أم لم ترض. وكان يسمح بالزواج في سن مبكرة جداً.

في الناحية الاقتصادية

وفي الناحية الاقتصادية، كانت أبواب البلاد مفتوحة في وجه البضائع الأجنبية بتعريفات جمركية منخفضة فتعذر تصنيع البلاد. فسعت الحكومة للتخلص من كثير من الاتفاقيات والامتيازات ووضع تعرفه جمركية جديدة تراعي ضعاف المستهلكين، كما اهتمت بتوحيد عملة البلاد وسحب (البيزات الإسبانية) ليتسنى للحكومة العناية بقضايا النقد، لتظهر البلاد بمظهر مالي واقتصادي جديد. وتعمل الحكومة في سبيل الزراعة وإحداث تغيير كبير في مظهر البادية في مساحة بين المائة وخمسين والمائتي ألف هكتار. وقد ابتدأت في العام الفائت حملة التشجير، وذلك لغرس عشرة ملايين من الأشجار المتنوعة.

ومما يذكر أنه بمناسبة افتتاح عملية غرس الأشجار، بلغ عدد أشجار الزيتون الجديدة التي تم غرسها بناحية مراكش ١٢ ألف زيتونة، وقد ارتفع إنتاج الزيتون خلال السنة المنصرمة. ويقدر مااستخرج منه من زيت بـ ٣٥ ألف طن.

وتبلغ الواردات في ميزان التجارة الخارجية لعام ١٩٥٦ حوالي ١٦٠ ملياراً، و٧٣٧ مليون فرنك، منها من المواد الغذائية ٣٩ ملياراً و ٦٠٦ ملايين وأهم هذه المواد هو: السكر، الشاي، القهوة، الجبن، الحليب، الزبدة، الخمر، اللحوم

الأجنبية، البطاطس، ومن أصل الواردات تبلغ المستوردات من فرنسا ٧٩ ملياراً و٨٠٩ ملايين.

أما الصادرات فقد بلغت ١١٩ ملياراً و٥١ مليون فرنك منها مواد غذائية بـ ٥٧ ملياراً و١٦٠ مليوناً، ومنها مواد معدنية بـ ٣٧ ملياراً و٦٥٤ مليوناً. والصادرات التي تصدر إلى فرنسا قد بلغت ٦٢ ملياراً و٦٩٤ مليون فرنك.

إلى مكناس وفاس

وفي صباح يوم الأحد في ١٩٥٨/١/٢ أخذنا السيارة إلى مكناس ثم إلى فاس، في طريق جميلة عريضة معبدة أحسن تعبيد، تكتنفها الأشجار الباسقة وبساتين البرتقال وغابات الفلين والفرشاية وسهول منبته وبين الرباط وفاس ٢٠٠ كم. وتحيط بمدينة مكناس أسوار عالية وأبواب عالية عريضة كلها محلاة بالقيشاني وعليها عديد من الآيات والتواريخ، وهي من كبريات المدن المغربية ذات الماضي المجيد.

تقع قرب جبل زرهون وترتفع عن سطح البحر ٥٢٢ م. تحيط بها سهول خصبة وبساتين فيحاء وغابات الزيتون، ويرجع تاريخ تأسيسها إلى القرون الهجرية الأولى. والمولى اسماعيل اتخذها عاصمة لمملكته، فبنى بها الأسوار والقصور والحدائق والدور والمساجد والحصون والأبراج. ومن آثاره باب منصور العلي في ساحة الهديم وبستان أكداو وفيها قبة الخياطين، وهو الجناح الذي كان معداً لاستقبال السفراء الأجانب.

وكان لدى مولاي اسماعيل اصطبل واحد اتسع لـ ١٢ ألف فرس، وقد زرنا مرقده هذا الملك العظيم. والقبر ذو مهابة يقصد للزيارة والتبرك، تعلوه قبة جليلة تاريخية، كما زرنا دار الآثار العربية والفنون الجميلة، وهي دار أثرية قديمة عظيمة فيها بعض الآثار والمصاحف القيمة، والكتب المخطوطة النادرة. وقد كتب في القبة:

أمر بها السيد المختار الجامعي وزير السلطان الأعظم مولاي الحسن سنة ١٢٩٩ ميلادية كما تفرجنا على المدرسة العنانية وهي من آثار المرينيين شيدها أبو الحسن وأتمها أبو عنان.

ثم توجهنا إلى فاس وهي من أكبر المدن الإسلامية في المغرب العربي، وتحتل مقاماً ممتازاً كعاصمة يرجع تاريخها إلى عصر المولى إدريس الثاني الذي شيد فيها سنة ١٩٣ هـ. عدوة القرويين ثم عدوة الأندلس، وفيها من الآثار الخالدة الإسلامية ما يفوق كل وصف، فيها منارة القرويين ومنارة جامع الأندلس وباب الفتوح وباب الشماعين ومدرسة الصفارين ومدرسة العطارين والمدرسة العنانية ومدرسة الشراطين وبرج النور وبرج سيدي بو نافع. وأهم أثر فيها هو جامع القرويين ذو المهابة والجلال ففي وسطه شيدت نافورتان للمياه شيهتان بنافورات قصر الحمراء بغرناطة.

وللمسجد ١٤ باباً، وقد قام هذا المسجد بدور عظيم في تطور الحركة الفكرية والثقافية بالمغرب والأندلس، كل من زاره يقف خاشعاً أمام عظمة فن البناء وما أنفق عليه من قناطر مقنطرة، وما اعتقد أن الإسلام قد ترك في المشرق من أمجاد العمران ما تركه في المغرب: هذا النقش على الجبس وذاك الخشب من الأرز الجميل المنجور، وكله مزين بما حفر فيه من آيات وما نقش عليه من شعر وتاريخ نافر، والقيشاني بأعلى أنواعه ودقيق صنعه يعمر الجدران والمحاريب.

وأما منازل الأساتذة والطلبة التابعين لجامعة القرويين فحدّث ولا حرج عن قيمتها الأثرية، وما احتوته من نوادر في آيات البناء والنقش. والدروس تلقى في الجامع بالصورة البدائية حتى اليوم، التلامذة جلوس على الحصر والجلود، والمعلم على عرندس غير عال، وإلى جانبه لوحة الكتابة السوداء.

وقد كتب في بعض إحدى المدارس التي يقيم بها طلاب الجامع مايلي:

«النصر المكين والفتح المبين لمولانا أبي عنان المريني . وتاريخ هذه المدرسة يعود إلى تاريخ ٥٩٨هـ . وقد كان في فاس ١٤ مدرسة ، زرنا معظمها كما سلف القول . ولكن وبالأأسف هذه المدارس الأثرية مهمة والعناية بها كأثر قيم نادر جداً من جهة الترميم والنظافة ، مما لا يتناسب مع مركز فاس الأثري ، كمدينة تتجلى فيها روعة الفن المغربي الأندلسي ، في هندسة القصور والدور والمنتزهات والحدائق ، كما تتجلى في الفنون والصنائع اليدوية التي اشتهرت بجودتها . كما هي مدينة كانت مهجر الكثير من العائلات الأندلسية والقيروانية والجزائرية ، لهذا ترى شوارعها في المدينة القديمة داخل السور ، تعطيك صورة عما كانت عليه بعض مدن الأندلس ، شوارع ضيقة وبيوت متلاصقة ، وكشوك قائمة ، وحدائق قرب المنازل .

وقرب السور تقع حديقة كبرى منظمة أحسن تنظيم تسمى «حديقة السبيل» وفيها ناعورة تدور على مياه قناة كبيرة من أفنية النهر المجاور تقليداً لنواعير المشرق . وودعنا المدينة القديمة منطلقين إلى فاس الحديثة ، المدينة الضاحكة ذات الأبنية العالية والساحات الواسعة والطرق العريضة ، والمحال الاجتماعية الراقية ، وكان لا يسكنها قبلاً غير الأجانب ، أما اليوم ففيها أقلية من المغاربة المسلمين .

وعدنا إلى الرباط عن طريق سيدي يحيى وسيدي سليمان ، لنكمل مسعانا في سبيل الحصول على موافقة تبيح تسجيل مؤسسة البنك العربي في المغرب .

إلى الدار البيضاء

ويوم ٢٤ / ١٢ / ٩٥٧ توجهنا بالسيارة إلى الدار البيضاء ، والمسافة إليها ٩٢ كم . قطعناها بساعة ونصف الساعة ، والطريق ساحلية عامرة بديعة ، وحللنا في فندق مرجبا ، وهو فندق حديث . والبيضاء مدينة أوروبية حديثة جامعة ، أكبر وأجمل مدن المغرب ، وهي عاصمته التجارية ومينأؤه الأول ، تبلغ مساحتها ٣٧٥ هكتاراً ، ويتجاوز سكانها النصف مليون ، من بينهم ٣٠٠ ألف من المغاربة ، فيها كل معالم

المدينة والحضارة، وأجمل الحقائق والقصور والأسواق وكبريات المخازن والمقاهي والمطاعم. فيها جالية سورية لبنانية صغيرة، وكبيرها السيد جوزيف زبليط من أبناء اللاذقية الذين هاجروا إلى تلك البلاد ونالوا بسطة من العيش والرزق، وهو يحمل أطيّب الشعور لوطنه الأم ولأبناء قومه.

وقد قضينا ليلة عيد الميلاد في وسط الدار البيضاء المتلألئة بالأنوار، فكانت تلك الليلة كلها شعلة من نور، تعج بألاف من السواح والمسافرين، الذين أرادوا قضاء فرصة أعياد الميلاد ورأس السنة في جو مراكش البديع.

إلى مراكش

وصباح عيد الميلاد قصدنا مراكش بالسيارة، وتبعد عن الدار البيضاء ٢٥٠ كم. قطناها بكل راحة في وسط يوم ممطر، في غضون ثلاث ساعات، بفضل تلك الطريق العظيمة، التي تصل مابين المدينتين الكبيرتين.

وتقع المدينة على بعد ٣٠ كم. من الأطلس الكبير، وارتفاعها عن سطح البحر ٤٥٠ متراً، أسسها الأمير يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس، وأتمها بعده الخليفة عبد المؤمن الموحي الذي بنى فيها عدة أثار، من بينها مسجد الكتبية، وقد أقام منارته الشهيرة الخليفة يعقوب المنصور الموحي. كما أن باب اكناو والقصبة والمشوار ودار المخزن وجامع ابن يوسف ومدرسة وقبور السعديين وأطلال قصر البديع وقصر مولاي عبد الحفيظ.

وتمتاز مراكش بحدائقها الغناء، وجنانها الكثيرة، وحقولها الخضراء، والأشجار المثمرة التي تحيط بها من كل جانب، زيادة على غابات النخيل التي توجد بالقرب منها والتي تبلغ مساحتها ١٣ ألف هكتار بها نحو ١٠٠ ألف نخلة، تجولنا ضمن أسوارها وفي أحيائها القديمة. وبعد زيارة الكتبية واوكدال التي بها حدائق قصر السلطان الواسعة، المليئة بالنخيل والبرتقال، والتي تضم بحيرات كبرى جداً للترفيه

وللسقاية وللمراكب، قمنا بزيارة جامع ابن يوسف، ومدرسة وقبور الأشراف
السعديين، وجامع المنصور، وقبور العلويين.

وألّفينا أن آثار مراكش كأثار فاس تبعث في النفس الروعة، لهذا المجد التالد
المائل في الجوامع والمدارس العظيمة. وتسمى مراكش الحمراء، لأنها مطلية كلها
باللون الأحمر. والمدينة الحديثة خارج السور، مدينة أوروبية بديعة غرست أشجار
النارج والبرتقال في ساحاتها وشوارعها، فأكسبتها بهاءً ورونقاً نادراً.

وقصدنا فندق المأمونية لتناول الغداء، وهو أفخم فندق في المغرب، يفتح
للسواح في موسم الشتاء فقط للدفع بشمس مراكش، وفي هذا الفندق كان استجم
في أيام الحرب السيد تشرشل. تجولت في أبهائه وصالاته المبنية على الطراز المغربي
الشرقي، ونعمت بمنظر فسقيات الماء في داخله وبنقوشه الزاهية، وبحديثته الغناء
المديدة المنظمة خير تنظيم، وأدركت ألا مثيل لهذا الفندق في بلادنا الشرقية ولا نظير
في فخامته وحسن موقعه وجميل أثاثه. وعدنا إلى البيضاء في وسط أقطار غزيرة
أستعداداً للعودة إلى الوطن بالطائرة عن طريق باريس، بعد أن أطلال الغياب عنه
وكثر الشوق إليه.

وهكذا أنهيت رحلتي في ختام عام ١٩٥٧، عائداً من المغرب العزيز إلى ديار
المشرق، شاكرًا المولى القدير على ماكتب لي من سعادة وغبطة في هذه الرحلة
المتعة، التي ستظل آثارها خالدة في نفسي ماحيت.

حلب في ٢٧/٥/١٩٥٨

محمد سعيد الزعيم

ثالثاً - الكتاب الثالث

خواطر عن الحياة الفكرية والقومية
في مدينة أبي الفداء في العشرينات
وعن مساهمتها في الثورة السورية على الفرنسيين

نشرته مجلة الضاد الحلبية في ١٩٦٢
وأنشر تكثيفاً له بحذف الكثير
من الصور البلاغية والتوقف عند الخبر المفيد.

توطئة

كان والدي قد كتب هذا الكتاب في عام ١٩٦٢ بصورة فصل فيها محاضرة في الموضوع نفسه كان ألقاها في تلك السنة في دار الكتب الوطنية.

وقد رأيت - بعد أخذ رأي من أثق بصواب نظرهم إلى الأمور - أن اختصار هذا الكتاب بعض الشيء أولى ، لأنه حوى تفاصيل كثيرة جداً وأسماء مثات من الأشخاص الذين ساهموا في تلك الأحداث مما يجاوز الفائدة التاريخية وإن كان شهادة على اطلاع المؤلف الواسع وتتبعه لتفاصيل ماجرى بدقة متناهية لاسيما وأنه كان ممن عانوا السجن وتعرضوا لخطر الموت - مع والده حيث كانا معاً في الاعتقال والخطر.

والذي أنشره من هذا الكتاب - بعد اختصار نصف صفحاته - يكفي لاطلاع القارئ على الخطوط العامة للموقف ومجرى الأحداث دون أن يغرق في التفاصيل ، والذي استبقته يصلح لبيان عاطفة الناس الوطنية في ذلك الزمان .

وقد قدّم والدي للكتاب بكلمة ضافية تحت عنوان (إهداء) أجتزئ منها المقطع التالي ضاماً مارأيته أن من المفيد إنقاذه من النسيان من أسماء وحوادث ، ليكون بين المراجع المفيدة في قصة ماضينا الفخور .

أمية الزعيم

الإهداء

هذا كتيب، فيه انطباعة من شعوري وومضة من نفسي وخلجة من قلبي
وأنين من آلامي ورنين لآمالي، أهديه إلى كل ثائر وعامل ومجاهد ومفكر،
في سبيل وطنه وقومه .

وإذا كان حديثي فيه، ينصبُّ على عهدٍ معيّن من عهود الجهد، فلا بُدَّ لي،
من أن أعطر فاتحته، بذكر رجلين كبيرين من رجال النضال، قاد الأول منهم الأمة
في سبيل السيادة وحقق لها الجلاء، وقاد الثاني سفينة البلاد إلى شاطئ
الاستقرار من رحلة كانت شاقة وتائهة، الرئيس الزعيم شكري القوتلي،
والرئيس الأول ناظم القدسي، جزاهما المولى على ما قدمت أيديهما المباركة من
أجل الوطن والعروبة خير الجزاء .

ولست أنسى في هذه الفاتحة، الشهداء في الميادين الأخرى ولا الراحلين من
أعلام الوطن الخفاقة، الذين ضحوا بحياتهم وهنائهم وأموالهم ومراكزهم، نزلاء
السجون والمتنفي، حملة مشعل الحرية ينير ظلام الوطن في لياليه الليلية، وقد
اضطهدوا وحاربوا وما ذلُّوا وما استكانوا، زعيم المجاهدين ابراهيم هنانو،
وصاحب أول ثورة الشيخ صالح العلي، والرئيس الجليل الصابر على مرّ الحياة
وقساوة الأقدار هاشم الأتاسي، وأسد الشمال وفخار الوطنيين سعد الله الجابري،

وداهية الساسة السوريين جميل مردم، والمجاهد الصامت الصادق الحاج
فاتح المرعشي والعلامة الأكبر الأستاذ فارس الخوري والزعيم الدكتور
عبد الرحمن الشهبندر، ومن تقدمهم ومن لحق بهم، من حملة السيف والقلم،
مثل فوزي الغزي وعادل ارسلان وعادل نكد ونجيب الريس وسليمان المعصراني
ونجيب عويد وحمد الأطرش. وغيرهم وغيرهم رحمهم الله أجمعين.

ومسك الختام في هذا الإهداء، دعوة إلى الله أن يطيل في عمر من بقي من
أولئك السيوف المسلولة على الباطل، القائد العام للثورة السورية سلطان الأطرش،
والغرّ الميامين العاملين على مرّ الأيام، يبلى الزمان ولا تبلى روحهم الأبية،
ولا غيرتهم القومية، رجال الكتلة الوطنية.

محمد سعيد الزعيم

المقدمة

كانت حماه في مؤخرة المدن السورية التي وطئتها جيوش الاستعمار الفرنسي، وفي مقدمتها في حوادث الجلاء والإجلاء. طابعها السلبي مافارقها في غصون الانتداب، حتى أن السلطة الحاكمة عام ١٩٢٢ سمّت ممثلاً عنها في أول مجلس تمثيلي من غير أهلها وقاطنيها، وكانت في طليعة البلدان التي لبّت نداء الثورة السورية عام ١٩٢٥.

وثورة حماه عام ١٩٢٥ قصيرة ونحيفة في أمدها، عريضة وطويلة في اثرها، غيرت مجرى أحداث الثورة السورية الكبرى وكان من حقها أن تكتب وتسجل أحداثها، ولكن الردى طوى الكثيرين ممن رافقها.

وخير من يصدق الخبر ويحيط به الإحاطة التامة ويحسن الرواية، الذين رافقوا الحدث من ألفه إلى يائه وعاشوا في خضمه، وهؤلاء إما من أضاع مذكراته أو من دفنت ذكرياته في صدره في لحده، أو من لم يساعده الظرف والحال لتزويد التاريخ بهذا السجل ووقائعه.

وانه لمؤلم حقاً، أن تبقى الأحداث السورية دون رواية كاملة واضحة ممن كان في ميدانها، وأن تبقى مذكراتهم وخاطراتهم حبيسة في محافظها أو في مخيلاتهم، والموت يتخاطفهم واحداً بعد واحد، وانك لتجدن أكثرهم اليوم في المقابر مقاماً، وكل معالمهم - غير مجدهم الخالد - لاتتمثل إلا في الحجارة الناطقة بأسمائهم !

ولقد قدر لي أن أرافق بعض أحداث ثورة حماه في عام ١٩٢٥ وأن أكون على صلة وثيقة بنفر كريم من رجالاتها، وظلت ذكرياتي عن ذلك حية في أعماق نفسي، حتى حزمت أمري على إظهارها بعجزها وبجرها في هذا الكتيب. واني لا أدعي أنني أحطت بكل شيء عن هذه الثورة، واني أظهرت أسرارها وما خفي منها، فعلم ذلك عند أبطالها المجاهدين. ولقد أكون قد أغفلت ذكر بعض الأسماء أو الحوادث والأمور، وما ذلك انتقاصاً أو إقلالاً من شأن أحد، وإنما سهو الذاكرة أو جهل الخاطرة.

ولقد شئت أن أسجل انطباعاتي، وأنا طفل أو في أوائل الشباب قبل الثورة، وقصدي من هذا أن أرتد القهقري قليلاً لأمرٍ مروراً عابراً بالحركة الفكرية التي أشرق نورها في أوائل القرن العشرين على مدينة أبي الفداء، ولأذكر بالخير بعض الرجال المصلحين المفكرين، الذين حملوا مشعل الهدى في آخر عهد الظلام. وقد كتب لي أن ألحق بأواخر عهدهم، وأن أشهد بعض مجالسهم، رحم الله من راح منهم، ومد في عمر من بقي.

وإذا ما أرسلتُ دمة سخية على شهداء ثورة حماه أمثال: صالح قمبر وسعيد العاص ومصطفى عاشور وعبد القادر المط وعلاء الدين الكيلاني ومحمد طهماز وعبد الحميد الأوسي وجريش وبعيج ورزوق النصر وعديّة القويدر وعبد القادر مليشو وغيرهم.

وإذا ما بكيت على المجاهدين الذين ماتوا على فراشهم في ديار الغرب أو بعد العودة إلى وطنهم، بعد صراع طويل مرير في هذه الحياة، كخالد الخطيب وتوفيق الشيشكلي، محمد علي الشواف وعثمان الحوراني وسامي السراج ويدر الدين الحامد ومصطفى البشري وحسين الكمش وحسن العبدوي وغيرهم، فإنني أبكي كل شهيد ومجاهد ممن عرفت ومن لم أعرف، في كل بقعة وأرض.

نعم أبكيهم وأبكي مرَّ الزمان الذي رافق أولئك الأخيار، وقد عرفت بعضاً مما نالهم من جور الأقدار وخشونة الحياة، وما صبروا عليه وما جوزوا به!

وليسمح لي القارئ الكريم ومن أذكر عما علق بعيشه من أكدار، إن أنا خرجتُ عن الموضوع، وسردت بعض المآسي والشجون والأحزان في الحادثات!

أول ما ذهبت إلى مصر بعد الثورة، عام ١٩٢٧، وقد همدت انتفاضة سورية، سألت عن المجاهد الرفيق العزيز الأستاذ سعيد ترماني، حامل أوسمة أربعة من أحكام الإعدام، ربيب الدلال والجاه، ودلوني عليه في شارع (سيدنا الحسين) على الرصيف يبيع الأحذية! ودعاني إلى بيته للغداء، ودعا المرحومين خالد الخطيب وسامي السراج والخال عبد الرحيم سلطان، واستقبلنا ولده الطفل (عصام) قائلاً: بوداعة الحمل: عمو جاء يأخذنا إلى الوطن ؟ ؟ ! ! وأمسكت بالدمعة في مجراها لهذه الحال والسؤال والفضنك الظاهر في المكان!

وكنْتُ في حيفا عام ١٩٣١ وهممت للقاء سعيد العاص البيوزباشي في الجيش التركي والضابط العربي الفيصلي والقائد الثوري الذي أقض مضاجع الفرنسيين في أكرام والضيقة ومشارف طرابلس، الشهيد الذي أبى الاستشهاد في أية معركة، فأكرمه الله به في فلسطين في حربه مع الإنكليز واليهود. وكنْتُ لأعرفه إلا من صورته في الصحف، وإن يكن قد كان يبادلني الكتابة من عمان لحلب بتوقيع (أبو سعاد).

وجاء إليَّ ليلاً، وسلمنا وتبادلنا القبلات، وإذ بي أرى سعيد العاص ونحن في كانون الأول دون معطف، وقميصه ممزق في العنق! ! وراح معي إلى الفندق الذي حللت فيه، يستعيد ذكرياته العذبة عن الشهباء ومغانيتها وأيامها وأمجادها. وحدثته عن نهضتها الصناعية التقليدية، وإن بها صناعة نسيج حريري طبيعي ممتازة،

وقصدي أن أهدي إليه قميصاً دون أن تتأثر معنوياته، وأريته القميص من شغل (محفل) جديداً يلمع، وسألته إن كان يقبله ذكرى لحلب التي أحبها وقضى فيها أياماً من عهد الشباب، ولأنها موطن الزعيم هنانو سيد المجاهدين الأبرار، فأجاب بكل انشراح: ويستر صدري أيضاً! فجعلت القميص قميصين.

ومن قبل في أواخر عهد الثورة السورية، كنتُ أقضي السهرة في مربع الشهباء، وخرجت منه والنور في الشوارع خافت تبعاً للأحكام التي رافقت الثورة، والأوان شتاء، ومشيت في طريقي وإذ بيد تنقر على ظهري من بين الخارجين من المربع، والتفت إلى الوراء وإذ برجل ملثم ومعه آخرون مثله بكوفياتهم وعباءاتهم، ويناديني الأول باسمي ويكشف عن وجهه، وجه الشهيد عدي القويدر.

وأذهل من المفاجأة وهو محكوم بالإعدام، والأحكام العرفية تسود البلاد وأخشى عليه واخوانه، فيجيبني: ألا تراني جيداً! وأراه مدججاً بالسلاح الكامل تحت العباءة، والقذائف في يمينه وشماله، ويقول والله لن ترهق روعي قبل أن أزهر عشرات الأرواح، وما قدر لامفرٍّ منه، حجرة الجامع للجامع وحجرة جهنم لجهنم!! وقد جئنا حلب للمداواة بعض الجرحى من المجاهدين.

وسألهم قضاء الليل في بيتي، ولكنهم يريدون العودة على عجل، وعادوا إلى ميادينهم في ظلام السحر، ثيابهم رثة ولكن سلاحهم كامل.

واستشهد عدي رحمه الله، تبعاً لأحكام القدر الذي آمن به! بعد ذلك بقليل.

أما مصطفى عاشور، وقد كنت معه في عضوية مجلس إدارة الأيتام الإسلامية في حماه، وهو الرجل الأمي الساذج الطاهر، الملتهب غيرةً على وطنه، فما تزال أناته من حكم فرنسا ترن في أذني، حرباً عليها واستنفاراً ضدها.

فارقته الفراق الأبدي قبل الثورة بخمسة أيام، وراح (أبو حسين) يتنقل من ميدان إلى ميدان، حتى سقط صريعاً في الغوطة وقد ضاع قبره بين مئات قبور الشهداء،

الذين رووا الأديم بدمهم الطري، مثلما عطروا تاريخ البلاد بسيرة جهادهم الذكي، ولم يترك شيئاً لأولاده، غير الماضي المجيد.

والشهيد الأكبر الطبيب صالح قمباز، رجل الإنسانية والعلم والتقوى والعصامية والأريحية والشهامة، ألم يسقط قتيلاً فوق الجريح الذي لبي نداءه، برصاص سنغالي أرعن، فعادل بين الخسارة به مع كل خسارة لحقت بمدينة أبي الفداء، ألا أبكيه وكان بيده مشعل النهضة، وهو المهندس الذي شق طريق الفكر لشباب حماه ورجالاتها، وقد بكاه العلم والوطن والدين والأخلاق ؟ !

والطبيب توفيق شيشكلي، كيف أنساه في هذه المقدمة، وقد كان لسانه أمضى من سيف في وجه الانتداب، وقلمه أقطع من رمح وأفنك، تحمّل من أذى المستعمر والقدر بصبر مابقي خالداً على صفحات تاريخ البلاد.

أقام في السجون والمعتقلات، مثلما أقام المجاهدون في ساحات العراق والنضال، وقاد المظاهرات مثل أولئك الذين قادوا الهجمات في ميادين الثورات، انطق الحجر وفجّر الصخر وأطلق الفكر لمحاربة الانتداب، وهوى بعد ذلك صريع القلب في يد المنون رحمه الله.

وهل أنسى رجال الوطنية الآخرين من الرعيل الأول، الذي كفر البعض بحقه ؟ هذا جميل ابراهيم باشا، يحرك الفرنسيون عليه أحد دائنيه في عام ١٩٣٢، يوم الانتخاب ليزج به في السجن المدني، وقد أعجزهم أن يلقوه في السجن العسكري الذي ألفه، في تلك المناسبة، فسخرُوا الأجراء، المطايا لهم، ولكن المرحوم الطبيب الذكر سليم جنبرت، يسارع إلى - لافاستر - ويلح عليه في إخلاء السبيل، ويخلى سبيل الزعيم الوطني جميل ابراهيم باشا. ولولا الوساطة لبقى في السجن ولا مال لديه، ليفي دينه. ولقد مات بعد ذلك وفي عهد الاستقلال، فقيراً لا يملك شيئاً، وقد كان يهز المدينة ويحركها بإشارة من فمه أو يديه.

ومظهر رسلان ؟ ألم تشكل لجنة برلمانية لمحاسبتة على مااتهم به وهو في الوزارة، لقي وجه ربه ولم يخلف لأولاده إلا البيت الذي ورثته عقيلته المرحومة عن والدها، ومظهر باشا رسلان ماكان إلا بين زعماء النضال الوطني البارز في كل مظهر من مظاهر الجهاد والعمل الدائم، وبالقسوة الأقدار وكفران الناس ! !
وما أظن أحداً يجهل أن المجاهد الكبير فخري البارودي، الذي كتب تاريخ البلاد النضالي من أوله إلى آخره، والذي رافق كل حدث وقضية وطنية، ان بيته ارتهن لضيق ذات اليد، التي ماكان أسخى منها وأوسع عطاء في سبيل الوطن والبلد ! !

وان زعيم المجاهدين ابراهيم هنانو (كانت اللجنة مأواه) مات ولا بيت له وضياعه مرتته، وان الزعيم الأمين النبيل سعد الله الجابري لم يترك ولداً ولا نشباً ! !
وهنانو وسعد الله كانا وحدهما أمة رفع بهما الجاه والمركز والعلاء إلى حيث لم يبلغه أحد سواهما إلا القليل.

لقد تناسينا أبطالنا أو نسيناهم، وغاب ذكر من استشهد في الساح أو من مات مثقلاً بأمراضه وعمله، من رجالاتنا العاملين، ممن شهر سيفاً أو قلماً أو قال شعراً أو نثراً، فكفرنا بتاريخنا وعلق بنا العقوق، وكاد الجيل الصاعد ينسى الرعيل الأول من كثرة مانسب إليه من مطاعن، وليس في شرعة الإنصاف والوفاء ألا يعرف النشء الجديد مآثر المجاهدين والمناضلين وقد بذلوا أرواحهم أو حياتهم أو هناءهم من أجل الأبناء، بينما يفخر اليوم على الوطن من وجد الطريق معبدة والمائدة معدة ! أو من ليس له دلو بين الدلاء ! !

وختاماً، هناك بين القبور، ضريح لجدتي، وكثيراً ماذرفت الدموع إبان ثورة حماء على حفيدها الشاب، الغائب بين الحديد والسياط في السجن بجانب أبيه

ولدها، وعلى دم ابن ابنتها المهذور في الليلة الأولى من ليالي الثورة الظلماء، وقد كانت تمسك بثدييها تعريهما وترفع بهما إلى السماء، تدعو الله أن يريها فرنسا نازحة عن البلاد. وقد ماتت قبل أن يحقق الله ما تمننت به عليه، فليسمح لي القارئ الكريم أن أذكرها في هذه المناسبة، وإن استمطر على قبرها الرحمات.

وأخيراً، إلى كل شهيد ومعذب ومجاهد ومجهول، في سائر جنبات الوطن العربي المكافح، تحية مع شعور مواطن عربي، قادر لما خطه الشهداء والمعتدون والمجاهدون والمناضلون في سفر التاريخ وعلى صفحات الأحداث، بأحرف من نور أرواحهم، ومداد من ذكي دمائهم.

وإلى كل قارئ لهذا الكتيب الصغير، رجاء الصفح عما به من قصور أو إسفاف أو نقص أو أخطاء والسلام.

محمد سعيد الزعيم

حلب في ١٠ شعبان ١٣٨١هـ

١٥ كانون الثاني ١٩٦٢

أضواء وأنوار على تاريخ حماه

حتى عام ١٩٢٥

كنتُ أودُّ أن تيسر لي المصادر الموثوقة، التي تمكّني من تسجيل تلك الحقبة من التاريخ التي مرّت على مدينة أبي الفداء قبل ١٩٢٥. هذه الحقيقة التي أصبحت مجهولةً تماماً أو تكاد، لأن الرجال الذين عاشوها ممن هو قادر على روايتها، قد تناهوا وذهبوا، وما علمت أن أحداً منهم أو من الذين مدّ الله بحياتهم، نشر ماخطته يد الأحداث في خلال الربع الأول من القرن العشرين، وقد كان مليئاً بحوادث تمثلها نهاية الامبراطورية العثمانية وبداية عهد سورية بلداً مستقلاً، ثم خاضعاً لصك الانتداب، وما بين تلك وهذه، انطوت صفحات وانتشرت صفحات، وزالت عهود وبرزت عهود.

غير أنني أثرت أن أمر مروراً بما وعته ذاكرتي فيما التصق بحياتي أو بكياني أو بعالمي الدراسي، وأنا طفل وتلميذ، وما تيسر لي معرفته بالرجال العاملين أو المفكرين، كل ذلك باختصار، حتى أصل إلى ذكر الثورة وهي بيت القصيد في هذا الكتيب.

مع السجون

أبصرت عيني النور في أواخر ذي الحجة عام ١٣٢٢ هجرية (١٩٠٥م) وأفقت على الدنيا وأنا ابن خمس سنوات، أزور والدي رحمه الله (الشيخ خالد الزعيم) في السجن، وقد اعتقل والمرحوم الشيخ مصطفى الحداد قاضي حماه الأسبق،

والأستاذ الشيخ توفيق الصباغ رئيس جمعية العلماء في حماه اليوم من قبل الحكومة العثمانية، بتهمة مساندة جمعية أسند إليها الاتحاد والترقي في عاصمة بني عثمان والأناضول، إنها تعمل لعودة السلطان عبد الحميد وخلع أخيه السلطان محمد رشاد.

وسيق والدي ورفاقه إلى استانبول، ليحاكموا مع جمهرة من علماء المسلمين الأتراك، ويدان البعض وتبتلعه مياه البوسفور أو يشنق، ويظل العلماء العرب في السجن رهن التحقيق بين برائن الموت حتى تثبت البراءة وحسن النية في البرقية التي أرسلت من سورية مؤيدة لحكم الشريعة والتي وقعها العلماء الموقوفون، وفي سريرتهم أنهم يريدون حكماً عربياً وما يهمهم في الحاكم إن كان رشاداً أو عبد الحميد، فكلاهما تركي قبل أن يكونا مسلمين! وكان لمثل حماه في مجلس المبعوثان العثماني المرحوم خالد آغا البرازي اليد الكبرى في الإنقاذ وفي العودة إلى الوطن الحبيب سالمين.

وأثر هذا الحادث في نفسي وأنا طفل. فقد ظلمنا باعتقال والدنا وفي سوقه إلى بلد بعيد وفي سجنه، وأنه قد يجوز ألا يعود، فكنت ووالدتي وأخوأي وذوونا نبكي ونشكو إلى الله جور الظالمين. وتلك أول زفرة القلب الصغير الذي أوجعه القدر بيد ذلك الحاكم العاتي!

الشيخ طاهر الجزائري

وتتفتح أعين رجال العرب إلى الحرية والتخلص من الحكم العثماني ويقوم الأحرار السوريون في دمشق وبيروت والقدس واستانبول والقاهرة وبغداد، يبشرون وينذرون، ويأتي المرحوم الشيخ طاهر الجزائري العلامة الأشهر، أكثر من مرة إلى حماه، ويقيم في المدرسة النورية ضيفاً على سماحة مفتي حماه اليوم الشيخ محمد سعيد النعسان الوردي ووالدي رحمه الله من تلامذته ينهل وإخوانه

العلم في حلقات الأدب والفقه والبيان والشعر والدين، من مناهل وطنية
الشيخ طاهر، وهذا يثير حماسهم في سبيل التحرر الديني والقومي، وفي سبيل
القضية العربية.

وتلوح علائم الحرب العالمية الأولى، ويدرك الشيخ الكبير أن العثمانيين لاشك
يشتركون فيها، فأقر في قرارة نفسه أن يسعى للهرب والإفلات من حكمهم إلى
مصر قبل أن تنقطع السبل.

ويعلم بذلك الوالد، فيقيم على شرفه حفلة في بستان خارج المدينة
(بستان البشريات). وصدف في ذلك اليوم أن باشرت الدولة (بالسخرة) تسخير
الدواب لحمل الأعتدة استعداداً للحرب، التي أشعلت نارها حادثة مقتل
الأرشيدوق النمساوي، بين الصرب والنمسا، فيأخذ المدعوون طرقاً غير رئيسية
تخلصاً من الرقابة ومن تسخير الدواب والخيل بوقت واحد.

وعلى أنغام النواغير كان المدعوون يستمعون إلى حديث الشيخ الأكبر،
وذكرات الطفل تبقى خالدة مطبوعة في دماغه. أتذكر منه أمل الشيخ بقرب بزوغ
فجر للعرب جديد، ووصاياه بالإخلاص للقومية العربية ومناهضة الحكم التركي
متى تيسر ذلك.

ورحل الأستاذ الجزائري متخفياً عن طريق بيروت إلى الاسكندرية، وأعلنت
الدولة الحرب (سفر برلك).

وبرزت الفكرة العربية في سورية، وعلق الأحرار على المشانق في بيروت
ودمشق، وقد تساوت عليها رؤوس العلماء ورجال الدين والأحرار والعسكريين
والأدباء من مسيحيين وإسلام، وكان نصيب حماه منها رأس الشهيد المرحوم
محمد علي الأرمنازي طيّب الله ثراه.

بعد الحرب الأولى

وانتهت الحرب باندحار الأتراك وخروجهم من سورية، وأنا لم أبلغ الرابعة عشرة، ولكن في نفسي وفي شعوري الكثير من قضايا الحرية والقومية العربية والاستقلال واستعادة أمجاد العرب، أسمع بها وأشهد بعض أحداثها ويلقنني إياها أساتذتي في مدرسة برهان الترقى لمديرها الشيخ صالح سلطان، ومدرسة عنوان النجاح لمؤسسها فضيلة المفتي الشيخ محمد سعيد النعسان الوردى، فضلاً عن أساتذة الأدب واللغة في جامع البارودية وجامع النورى، والدروس التي كان يغذيها بها والذي.

وفي غضون عهد الاستقلال، كانت هناك جامعة للقومية العربية يشرف عليها وينميها رجالان من رجال العلم والمعرفة والوطنية هما الشهيد الطبيب صالح قمبراز، والطبيب الذكر الطبيب توفيق الشيشكلي، فكنت مع والذي بين من نهلوا من هذه الجامعة، والمدينة كلها متقدة الشعور قوية الإحساس، تحلم بالامبراطورية العربية الكبرى.

وراح المفكرون المؤسسون يقيمون صروحاً للنهضات العلمية والأدبية، كدار العلم والتربية، وجمعية الإسعاف، ودار الأيتام الإسلامية، معهم الطبيب والمرحومون نورس الكيلاني والحاج أحمد مشنوق، ومحمد البارودي وغيرهم، فكانت تلك الصروح منارات للوطنية، تلهب حماسة الناس.

وكان إلى جانب هذا الدور التأسيسي، دور آخر ترعاه جمعية أعمال البر الإسلامية لمؤسسها مفتي حماء الأستاذ النعسان، وقد أسست عام ١٩١٣ تبني وتوجد المدارس والحضانات في الأحياء المتطرفة، للأطفال ذكوراً وإناثاً، وتهتم بنواحي الخير والمبرات، يقوم بها حفنة من رجال العمل والخير.

وفي عهد الانتداب يموت جنين الحكم العربي وعهد الملك فيصل الأول رحمه الله وتطفأ شمعنة استقلال سورية الذي أعلن في ٨ آذار ١٩٢٠، من طوروس إلى العريش ومعان، ويدخل الجنرال غورو دمشق، ويقف حول قبر صلاح الدين قائلاً: أنا هنا يا صلاح الدين ! ونحن مانزال صبية نستمع إلى أنات الأدباء وتنهدات رجالنا الأحرار، فتهب في نفوسنا رعشة وفي أعصابنا قشعريرة. وكانت البذور الوطنية التي بذرها في قلوبنا أساتذتنا وعلى رأسهم الأستاذ محمد سليمان ثم في ١٩١٨ - ١٩٢٢ في سلطاني حماه (التجهيز) مع مديره الأستاذ محمد علي كعكو ثم الدكتور كامل نصري والأساتذة الشيخ سعيد زهور عدي والشيخ علي الدلال أستاذ الدين، والأستاذ محمود الرواس أستاذ الرياضيات، والأساتذة ناظم الريس والطبيين عمر الدلال ومحمود الريس، والأستاذ عبد الغني القوادري، والحاج عارف حمضمض وغيرهم، كانت هذه البذور تدفع بنا إلى أعمال الفكر الدائم في حاضر بلدنا ومستقبله بعامل قوي من حماسة الشباب واندفاعه.

وكنا معشر طلاب الصفوف العليا في تجهيز حماه (ومن الرفاق للأستاذ هاني الريس محافظ حلب الأسبق) والأستاذ رثيف الملقى والأستاذ كنجو طيفور المحامي، والأستاذ محمود البرازي المحامي، والسيد عبد الحليم الحوراني وغيرهم، نتعلم من معلمينا الأفاضل مقت الرجال الذين يخدمون في صفوف الاستعمار، وكل من يتقاعس عن العداء للغاصب المحتل.

النادي الأدبي

وكان جماعة من أهل الفكر والوطنية، وعلى رأسهم المرحوم الطبيب توفيق شيشكلي، قد راحوا يعملون تحت مختلف الستارات، من أجل إذكاء روح الوطنية ومقاومة الفرنسيين، ونشر لواء العلم والأدب والرياضة والموسيقا والمعرفة وترقية المجتمع، فأسسوا (النادي الأدبي عام ١٩٢٢) وكانت لجنته الإدارية في أول عام ١٩٢٤ مؤلفة من السادة: الدكتور شيشكلي والمحامي ابراهيم شيشكلي والأساتذة محمد البارودي وعثمان الحوراني وعبد الحسيب الشيخ سعيد.

وبتاريخ الجمعة ٤ كانون الأول ١٩٢٤ أجريت انتخابات جديدة وفزت بعضوية اللجنة الجديدة مع الأساتذة: رشيد حميدان، قدري كيلاني وجميل بارودي برئاسة الطبيب الشيشكلي.

وكان من همّ النادي إلقاء المحاضرات الوطنية والعلمية، وتشجيع ارتياد الأهلين لمكتبته الغنية، واستقبال العلماء والحفاوة بهم وإقامة حفلات التمثيل التي تعيد ذكريات الفتحاح العربية، أو التي تنشط الروح الاجتماعية والعلمية والأدبية، فضلاً عن المساجلات الشعرية والندوات للشعراء والأدباء وتجديد المراكز الأثرية والعلمية القديمة.

وكان من نصيبي في العمل أن اشتركت في تمثيل كثير من الروايات التاريخية والاجتماعية في حماء وحمص، ومنها: فتوح الأندلس وفتوح الشام والبؤساء وفي سبيل التاج وغيرها، كما ألقى محاضرة عن جزيرة صقلية (سيسيليا) ألحقها المرحوم الأستاذ الشيخ طاهر النعسان بقصيدة من ذات الموضوع.

وكان الفرنسيون يتبرمون من أعمال النادي الأدبي ويلجظون نشاطه مهدماً لعهدهم الانتدابي، ويبعثون إلى دوائر دمشق وبيروت الرسمية العليا بتقارير عن

نشاط النادي المذكور، وكان جواسيسهم يتبعون حركات وسكنات أعضاء النادي، ويراقبون المكتب مراقبة دقيقة.

محاضرة النادي الأدبي

وفي ٢١/٥/١٩٢٥ حضر المحامي ابراهيم شيشكلي في النادي الأدبي بحماه أمام جمع ضم حوالي ٨٠ شخصاً تقريباً بحضور الدكتور توفيق شيشكلي وأبو الهدى اليافي وعبد الرحمن مصري وأستاذة مدرسة دار العلم والتربية، وكان المستمعون الآخرون هم عمال وأساتذة مختلفون وتجار صغار. وكان موضوع المحاضرة كما أوضحها تقرير المخابرات الفرنسية الذي أطلعت عليه بعد الاستقلال كما يلي:

١ - تفصيلات عن الانتداب بشكل عام والانتداب في سوريا بشكل خاص بعدما شرح ان الانتداب ماهو إلا تحوير لكلمة الاستعمار، واتهم المحاضر الحلفاء بتصلهم من وعدهم بإخضاعهم بدلاً من منحهم استقلالهم.

٢ - حقوق وواجبات الشعوب تحت الانتداب.

كان ينطلق دائماً من فكرة أن الانتداب ماهو إلا المعنى الحقيقي للاستعمار.

وقد بشر المحاضر بالاتحاد وبإنشاء أحزاب سياسية من طبيعتها تطوير الشعب نحو الاستقلال، والسماح له بالحصول عليه بحكم الاقتناع.

في النهاية تحدث إلى المستمعين عن الضرورة المطلقة لتنظيم حزب عمالي يمكن أن يكون ذا أهمية وقوة لاتسمح بأن يهمل.

قبل نهاية المحاضرة طلب مساعدة النادي الأدبي، الذي ما انقطع منذ إنشائه عن تقديم براهين الإخلاص للقضية الوطنية في كل يوم.

ومن جملة المحاضرات أيضاً محاضرة ألقاها السيد نجيب الأرمنازي وموضوعها (العرب والإسلام) في يوم الجمعة ١٩ حزيران ١٩٢٥ ، وقد عقبه (شاعر العاصي) المرحوم الأستاذ بدر الدين الحامد بقصيدة بعنوان (النادي الأدبي في حماه).

الانتقال إلى الشهباء

وفي تشرين الأول من عام ١٩٢٤ ، اتخذ والدي رحمه الله حلب مركزاً تجارياً له بجانب محله في حماه . وانتقلت معه إليها لتأسيس ذاك المركز ، متردداً بين البلدين . وشاء الوالد أن تكون صفة مركزه في حلب البساطة الكلية في كل مظاهر الحياة - حسب عادته - فاتخذ من المقر التجاري في خان العادلية السكنى والعمل معاً في غرفتين فقط ، يستمد من مركز محله في حماه الاعتماد والثقة لتمشية عمله في البلد التجاري الكبير ، وفي وسط تسوده الطبقة التجارية الثرية القادرة ، وكنتُ أنا إلى جانبه حيناً في حلب وأكثر الأحيان في حماه .

وفي الشهباء ، تفتحت آفاقي أمام عالم أوسع في كل شيء ، وذكريات ثورة أبي الثوار الزعيم ابراهيم هنانو ماتزال ماثلة توحى للناس والوطن أن الثورة على المستعمر لانقاس بضعف المقاوم أمام الغادر البطاش القوي ، ولا بفشل الشوط في ميدان الجهاد ، بل بقوة العزيمة وثبات الإيمان ، والاعتماد على الله والنفس .

الأوضاع في البلاد

وكانت أوضاع البلاد العامة تسير من سيء إلى أسوأ ، والمستعمر يفرض سياسة الإفقار والإذلال والتحكم في كل الأمور صغيرها وكبيرها ويطبق في سورية سياسته الاستعمارية التي طبقها في تونس والمغرب ومن قبلهما في الجزائر ، بعد أن قسم البلد إلى دويلات وأذكى روح الفرقة الطائفية ليس بين المسيحيين والمسلمين

فحسب بل بين الطوائف المحمدية ذاتها . تقابل كل ذلك الروح الوطنية السلبية التي تجلت في المواطنين في سورية كلهم، إلا من أغواه الشيطان والمنصب والمال وهم قلة .

أعمال النادي الأدبي في حماه

كان من جملة ماعمله النادي الأدبي، العناية بتاريخ البلاد وتراثها القديم وأمجاده، وبعث ذكرى الملوك والأدباء والشعراء القدامى، فسعى إلى تجديد وترميم مرقد أبي الفداء ملك حماه ومؤرخها المشهور، مستعيناً بأهل الخير والغيارى على التاريخ للقيام بأود ذلك . وشكل لجنة مالية من أعضاء لجته الإدارية سميت أنا معتمداً لها، وأصدر على الحمويين مذكرة في طلب العون وتنظيم الجمع هذا نصها:

كرموا عظماءكم أيها الحمويون

إن لجنة النادي الأدبي، التي أخذت على عاتقها قضية تجديد مرقد أبي الفداء ملك حماه المؤرخ الكبير، قررت بجلستها الأخيرة، اعتماد أحد أعضائها السيد محمد سعيد الزعيم، ليقوم بجمع الإعانات قليلة كانت أو كثيرة، فترجو من المواطنين اعتماده وهي تشكر كل شخص يقوم بجمع الإعانات وإيصالها إليه وتسهيل مهمته، بشرط أن تكون لقاء وصل من القابض .

ولكي لا يقع خلل بالأعمال، نرجو من الذين دفعتهم وتدفعهم حميتهم لمعاونة مندوب اللجنة السيد الزعيم، أن يعملوا بعد التفاهم معه، وأن تكون قوائم التبرع التي يحملونها موشحة بأعلامها بتوقيعه وخاتم النادي تأييداً لثقة الناس، والله لا يضيع أجر المحسنين .

لجنة النادي الأدبي

حماه

تدشين المرقد وزيارة أحمد زكي باشا

ودعا النادي لتدشين مرقد أبي الفداء بعد إتمامه، وجاء المرحومان العلامة أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) والدكتور محجوب ثابت من مصر، يحضران الحفلة، وأقيمت مآدب واجتماعات تخللتها خطب وقصائد كلها من وحي الشعب المهضوم الحق والوطن الذبيح، والطير الذي يريد الإفلات من القفص. وكان ذلك في تموز من عام ١٩٢٥، فمرَّ على حماه أسبوع كان عيداً قومياً وفرصة مناسبة سياسية، للتعبير عن الآلام التي تميش في نفس كل مواطن.

وسافر الضيفان الكبيران بعد ذلك إلى المعرة لزيارة مثوى فيلسوف العرب والإسلام أبي العلاء، ثم إلى حلب الشهباء للاستزادة من ذكريات مواطن المجد، مواطن سيف الدولة والمنتبي وأبي فراس.

واهتم الفرنسيون كثيراً لهذه الزيارة وأثرها في إشعال النفوس المتوقدة.

الثورة في جبل الدروز طليعة الثورة السورية

وفي أوائل تموز ١٩٢٥، أطلقت الرصاصات الأولى للثورة السورية من جبل العرب وقام سلطان باشا الأطرش زعيم هذه الثورة وقائدها ينادي بالحرب على الفرنسيين، وكانت معركة الجنرال ميشو التي انهزمت فيها فرنسا أمام الثوار، وتلتها معارك ومعارك خالدة في مختلف بقاع الوطن، مما لامجال لذكرها في هذه المذكرات الخاصة بثورة حماه.

علائم هذه الثورة

عندما وقعت وقعة الجنرال ميشو في ١ - ٢ آب ١٩٢٥، ودارت الدائرة على حملته وهزم الفرنسيون وتوالت أحداث الثورة، كانت حماه تهيم بالواجب، ولكنها كانت مقعدة مكبلة لا تستطيع حراكاً، ولم يخف ذلك على المستعمر ولكنه كان خائفاً حذراً، إذ لم تكن له في البلاد القوى الكافية التي يقضي بها على كل بادرة وهي في المهد.

وفي ظل هذا الجو المشبع بغيوم المفاجآت والأحداث، وفي وسط الألم بعد القضاء على ثورتي الشيخ صالح العلي وإبراهيم هنانو، وما تملك اليأس من قلوب الأحرار، كان الفرنسيون يقلقون للسحب البارزة في سماء هذا البلد.

الرئيس فوزي القاوقجي والثورة

وكان في الجيش الفرنسي في حماه الرئيس فوزي القاوقجي من أهالي طرابلس الشام، خالط القوم واختلط بهم وعرف اتجاهاتهم وتأثر بأفكارهم وشعر

بشعورهم ، ولكنه مع كل هذا ، إذا جالسه الناس ، جالسوه متحسين غير مطمئنين .
وكان قد حج البيت واعتمر بعمامة فوق قلنسوته وقد تلحى . وكثيراً ما اتهم
بالتظاهر بالدين ليصل إلى أعماق الناس في خلواتهم وصلواتهم ، لينقل ذلك إلى
أسياده الفرنسيين (على ما ظن القوم وبعض الظن إثم) .

وإني لأذكر أنه كان في دعوة عشاء مع ابن عم له من تجار طرابلس (السيد رشاد
محمد قاوقجي) في بيتنا ، فلما أذن المؤذن لصلاة العشاء ، هرع لها قبل الجميع ،
وتأخر البعض عنها بسببه غير عارفين بحقيقة ما انطوت عليه سريره من صدق
وإيمان ، لأن المظاهر ما كانت تدل على البواطن . وكثيراً ما يؤخذ الناس بالظواهر ،
فيصيبوا الناس بجهالتهم ، ويصبحوا على ما فعلوا نادمين .

في تلك الأيام كانت حفنة من الرجال والشباب ، يتصلون بالقاوقجي
ويبيتون أمر الثورة معه ، وكان بيته المكان السري للاجتماعات ، لتبقى بعيدة عن
أنظار الجاسوسية .

وكان في مقدمة أولئك الرجال : سعيد الترماني وعثمان الخوراني والحاج
مصطفى الديب والشهداء المرحوم مصطفى عاشور وعبد القادر المط وخالد الخطيب
وغيرهم ، وكانوا يضمون إليهم الأنصار مثني مثني فقط ، ثم تحولت الاجتماعات
إلى بيوت أخرى .

وكان الرجل أو الشاب الذي يدعى لا تكشف له الأسباب إلا بعد التزكية وبعد
الأيام والعهد ، دون أن يدري في أوائل العهد من هم رفاقه وإخوانه ، ولا
ما يستهدفه القائمون .

وعندما دُعيتُ أنا للانتساب إلى (جماعة الواجب الوطني) كنت مع المرحوم
الشيخ محمود العثمان من أساتذة دار العلم والتربية عضوي تلك الليلة في
بيت المحامي المعروف الأستاذ إبراهيم الشيشكلي . وزعيما حماء رحمهما الله

صالح قنباز وتوفيق الشيشكلي ماكانا يريان صواباً في ثورة تهب داخل المدن وما كنت أنا إلا من جماعة الواجب الوطني لا بمن عمل للثورة واستعد لها، فذلك كان شأن الطبقة الأولى من الرجال المتصلين بالقواقجي والشهبندر وغيرهما.

الاستعداد للثورة والاتفاق بين الجيل وحماه

نحن في شهر المولد النبوي الكريم والحوادث تمر سراعاً، فخرج من النادي الأدبي جماعة من الشباب إلى مصيف المرحوم الدكتور الخطيب، على مرتفع تل صفرون في وسط البلد، والقمر يتهدى في السماء فيرسل أشعته الرضاءة على مياه العاصي، ونواعيرة تشدو بألحانها الخالدة، ولكن كالكالي يندبن صروف الزمان وما تخبئه الأيام.

وانفردت مع المرحوم الخطيب وإذ به يفاجئني الهمس، إن ليلة المولد ستكون ثورة لاهبة يكون بطلها القواقجي، فأعجب لسرعة المفاجأة، وأتساءل عن ضمانته إخلاص الرجل، وأشك في فلاح هذه المخاطرة، فيجيبني محدثي أنه رجل صادق والله أعلم بالسرائر وأنهم اتخذوا للأمر عدته، فسكت دون أن أسأله إيضاحاً ولا معرفة بالرجال والعدة وافترقنا إلى الصباح.

وكانت الأيام الأخيرة من شهر ايلول أيام حركات واجتماعات، وتنقلات وغدوات، فمذ دبر أمر الثورة مع الرئيس السيد القواقجي والاجتماعات تتلاحق في المدينة وفي بعض القرى، وكان اجتماع قرية (معر شحور) بداية اجتماعات متكررة يعقدها الشباب والرجالات الأحرار ووجوه حماه وبعض رؤساء القبائل، والذين لهم صلة للاتصال مع القواقجي.

وقد سافر السيد سعيد الترماني إلى دمشق، وعاد ومعه آلات قرض الخطوط والمواصلات وقطعها، كما سافر المجاهدان مظهر السباعي من حمص ومنير الرئيس إلى جبل الدروز بطريق شرق الأردن، يحملان صورة اتفاق وقعه بعض رجالات

حماء للقيام بالثورة في مدينة أبي الفداء، وأن يجهد لها بمناوشات تمهيدية في الغوطة في أول تشرين الأول ١٩٢٥، وأن تسير من جبل الدروز مفارز من الثوار إلى بادية حمص لموقع يسمى (عين القصب) يقع شرق مدينة حمص وبالقرب من ناحية القريتين على ما ذكر.

وقد عين هذا الموقع بالكتاب الذي وصل من قائد الثورة العام سلطان باشا الأطرش جواباً على صورة الاتفاق الذي حمّله إلى الجبل الأستاذان منير الرئيس ومظهر السباعي الذي بقي بضيافة الأستاذ سعيد الترماني ١٥ يوماً، ريثما هيئت له وسائل السفر لشرقي الأردن مع زميله ومن هناك للجبل.

ومن جملة ما جاء في كتاب القائد العام للثورة أنه سيبحث بمفرزة من المجاهدين على رأسهم المجاهد حسني بك صخر (قائد درك السويداء سابقاً). إلى موقع عين القصب المنوه عنه آنفاً لينضم لها ثوار حماه، فيما إذا فشلت الثورة فيها.

وقد حمل كتاب الباشا، المجاهد الجريء نزيه العظم والشهيد مظهر السباعي وسرحان أبو تركي وسلموه بدورهم إلى خالد الخطيب الذي جاء به إلى حماه.

وقد تلي مضمون الكتاب في جمع خاص بحضور القاوقجي والترماني والحوراني وعاشور والمط والشيخ محمود العثمان والخطيب ومصطفى الديب وغيرهم من الاخوان، ويتضمن كتاب القائد العام للثورة موافقته على الشروط التي حملها المجاهدان الرئيس والسباعي كما ذكرنا.

وتم الاتفاق على أن تعلن الثورة في الثاني من تشرين الأول ١٩٢٥ في حماه، وأن يوحد بين تلك الحركات الثورية، وأن لا يعقد صلح منفرد في أي جبهة مع الفرنسيين.

بوادر الثورة

وكان القومندان (كوستلير) هو مستشار حماء الإداري ونائبه القاوقجي، فاستأذن الثاني الأول في رحلة تفتيشية للبدو، بغية عدم تجاوزهم على القرى. وشدّ القاوقجي الرجال ومعه رجاله ومن يعتمد عليهم، وكلهم من الخيالة، وطاف بين القبائل داعياً رجالها لتأييده في ثورته، واتفق مع بعض الشيوخ وفي مقدمتهم الشيخ صالح بن هديب من مشايخ عنزه. وكان هناك في ناحية محردة التابعة لحماه ضابط فرنسي يدعى جرباي ومعه قوة لا يستهان بها، فاستدعاه القاوقجي بداعي المؤازرة في أعماله التفتيشية. ولكن رجال فوزي ومنهم العريف السيد ميشيل نحاس الذي هاجر بعد الثورة إلى أميركا، وجندي مغربي، أوثقا هذا الضابط في الطريق، وسلماه إلى رئيسهم في قرية (كاسون الجبل).

وبذلك أمن القاوقجي وجماعة الثورة شر قوة جرباي.

البادرة الأولى وتأجيل ميعاد الثورة

كان من المتفق عليه أن تشعل نار الثورة ليلة المولد النبوي، حسبما أشرت قبلاً إلى ما همس به إليّ المرحوم الدكتور الخطيب. وفعلاً سارت من بيت السيد ترمانيّني مفرزة صغيرة على رأسها الضابط عبد القادر مليشو الذي استشهد في ميادين الثورة بعد ذلك، وباشرت عملها بقطع الخطوط الهاتفية والبرقية. وعادت بعد ساعتين منجزة عملها باستثناء خط السكة الحديدية البرقي الذي لم يقطع سهواً أو خطأ، ولم يبقَ من صلة بحماه غير هذا السلك.

وهنا فطن الفرنسيون للأمر، وأدركوا أن أمر الثورة ليس حديث خيال، فأرسلوا في طلب القائد القاوقجي، ولكن هذا تظاهر بالعمل في المهمة التي انتدب لها.

ومن جملة الاحتياطات التي اتخذت لإنجاح الخطة، وضع قوة من المجاهدين على رأسها المجاهد مصطفى عاشور أمام خان العسكر - مقر ملجأ الأيتام حالياً - في قطعة الأرض الكبيرة المسماة يومئذ بـ (بستان العدسة) والتي أصبحت اليوم سوقاً للهِال.

وقوة أخرى في منزل المجاهد عبد الرحمن المط الملاصق لخان الشعبة (المتخذ حالياً مدرسة للصنائع) وكان مركزاً للقوى الفرنسية.

وقد وضعت هذه القوى في الموقعين المذكورين لمنع نجدة القوى الفرنسية لبعضها إذا ما حدث حادث ليس في الحسبان أثناء تنفيذ الخطة.

وعند منتصف الليل وصل القائد القاوقجي من البرية مع جنوده الثمانية إلى منزل السيد الترماني حيث كان إخوانه بانتظاره للبدء بالعمل.

وقد وضعت قوة من المجاهدين على رأسهم قاسم قنبر الحلاق في مقبرة باب الجسر من الجهة الشمالية لحماه، لحراسة السيارتين الصغيرتين اللتين تحملان القائد وجنوده لمنع السيارتين من الهرب ودخول المدينة، وإخبار السلطات بالأمر وإحباط الخطة المرسومة وذلك من قبيل الاحتياط فيما إذا لم تنجح الخطة.

وبعد المذاكرة مع القاوقجي في كيفية تنفيذ الخطة لاحتلال الأماكن العسكرية بصورة سرية كما أسلفنا، وكان اتفق على البدء بالعمل بإرسال المجاهد عثمان الحوراني إلى موقع بستان العدسة أمام خان العسكر المار ذكره لمشاهدة وضع القوة الموجودة فيها، فذهب وقد بلغت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فلم يجد أحداً من المجاهدين.

وأرسل شخص آخر لمنزل المجاهد المرحوم عبد الرحمن المط فوجد المجاهدين الذين خصصوا لهذا المنزل موجودين بكاملهم بأسلحتهم التامة.

ولدى عودة الحوراني فوجيء المجاهدون بعدم وجود أحد من المجاهدين في بستان العدسة، فذهل الموجودون من هذه المفاجأة المؤلمة غير المنتظرة. وساد الوجوم للجميع، ولم يصدق بعض الاخوان هذا الخبر، فأسرع الأستاذ الترماني بنفسه للتأكد من صحة الخبر، فوجد أن ما ذكره الحوراني صحيح، فرأى القاقجي ضرورة تأجيل التنفيذ بضعة أيام وهنا لابد من بيان الخطيئة التي ارتكبت من قبل المرحوم مصطفى عاشور بتغيير الموقع لموقع آخر دون أن يعلم مقر القيادة بالموقع الجديد وهو كما يلي:

عندما توجه المرحوم المجاهد مصطفى عاشور وإخوانه لأخذ مواقعهم في بستان العدسة كما بيّنّا، وجد أن البستان المذكور والذي هو عبارة عن أرض لاشجر فيها ولا زرع، لاتصلح أن تكون مقراً لهم لأنها مكشوفة على المارة وحراس المدينة الليلين، لهذا تحوّل وإخوانه إلى بستان أم الحسن الذي يقع شمال بستان العدسة وعلى مسافة مائة متر تقريباً، لأنه مشجر، ولأنهم يستطيعون أن يكمنوا فيه دون أن يراهم أحد، وهذه هي الخطيئة التي ارتكبت عن حسن نية، يضاف إليها عدم إعلام مقر القيادة بذلك، هي السبب الوحيد الذي دعا إلى تأجيل التنفيذ في تلك الليلة إلى بضعة أيام أخرى.

وقد بحث أمر قطع الخطوط البرقية والهاتفية التي تمت، وبأن الفرنسيين سوف يجدون في الصباح أن الخطوط جميعها قد قطعت فيستبهون ويتخذون الاحتياطات الشديدة في المدينة لمقابلة كل حركة تقوم بغاية القوة والشدة، فلم يجد هذا البحث شيئاً واتخذ قرار بالتأجيل، وعاد القاقجي وجنوده إلى حي باب الجسر وركبوا سياراتهم وتوجهوا ثانية إلى البرية، بعد أن تمّ الاتفاق بين القاقجي والترماني بقرية معر شحور التي تقع شرقي حماه وعلى مسافة عشرة كيلومترات منها، كما كان وجهاء حماه يعملون سراً للاستعداد لليوم الموعود، ورجال الثورة أمثال

الدكتور خالد الخطيب والدكتور محمد علي الشواف والسيد سعيد الترماني
والمرحومون مصطفى عاشور وعبد القادر المط وحسين الكمش وعدي الكنيفذ
وعثمان الحوراني ومظهر السباعي وفؤاد رسلان والسادة الحاج مصطفى الديب
ومنير الرئيس وإخوانهما يجددون العزائم ويزيدونها قوة وعدة وعدداً لإعلان
الانتفاضة المرتقبة، بعد ذلك التأخير في ميعاد الثورة الذي كان من أسبابه أيضاً أن
القائد القاوقجي كان متفقاً مع إخوانه في حماه على احتلال الثكنات العسكرية
وموقع الشرفه الحصين الذي لا يمكن اقتحامه بوجه من الوجوه، إذ يحتاج الأمر
لقوى منظمة ومدافع ورشاشات، وهذه الأسلحة غير موجودة لدى المجاهدين
وذلك بصورة سرية لا يطلق فيها رصاصة واحدة، وذلك بالاتفاق مع بعض النقباء
من المغاربة المجندين عند فرنسا، والنقيب الحموي ابراهيم سلطان شقيق أنيس
سلطان، إذ لا يشعر أحد من الفرنسيين بحادث ما تلك الليلة، فيقبض على الضباط
الفرنسيين ويتم احتلال المواقع العسكرية، ويستولى على جميع مافي المستودعات
من سلاح وذخيرة لتوزيعها على المجاهدين، ومن ثم الزحف بعد ذلك إلى مدينة
حمص واحتلالها.

وعلى هذا الأساس دعي من حمص خمسة عشر رجلاً على رأسهم المرحوم فؤاد
رسلان والمجاهد عبد الهادي المعصراني فوصلوا حماه ليلاً وحلوا في بيت
الترماني بانتظار تسليمهم السلاح والذخيرة بعد إنهاء معركة حماه ليتوجهوا إلى
حمص لإشعال نار الثورة فيها لدى وصولهم إليها.
كذلك سيكون الحال في بعلبك وفي نفس الليلة - أي ليلة المولد النبوي
الشريف - لو نجحت الخطة في حماه.

إعلان الثورة وإحراق دار الحكومة وضرب المدينة بالقنابل

وفي مساء الأحد ٤ تشرين الأول ١٩٢٥ ، كنتُ والمرحوم السيد محمد البارودي نجلس في مقهى على العاصي ، أمام الأرض التي قام عليها فندق أبي الفداء اليوم ، ونحن نضرب أخماساً بأسداس حول مخبآت الغد ، وكأنَّ الطير فوق رؤوسنا . ومرَّ بنا الدكتور الخطيب فسلم مسرعاً وعلى وجهه علائم الاهتمام والارتباك . وافترقت عن المرحوم البارودي ، وكلُّ منا أخذ سبيله إلى البيت ، وما كدت أدخله إلا وحتى بدأت لعلعة الرصاص فجأة تتصاعد إلى السماء من كل جانب . وما هي إلا نصف ساعة حتى كانت المدينة في صفوف النار وطلقات المدافع الفرنسية من ثكنة المحطة وغيرها تصم الأذان ، ورسل الموت تعلو فوق كل إنسان ، والناس بين مقتحم متشجع بيني الخير والتناج ، وبين متحسب مترقب أذهلته تلك الدماء التي روت الأرض في لحظة عين .

وكان دخول القاوقجي ورجاله ومعه فريق من رجالات حماه وشيوخ قبائلها ، من جهة الحاضر . فسلم رجال مخافره من درك وشرطة أسلحتهم وبادر الترماتيني وجماعته من الطرف الآخر إلى مخفر الحسين ، واستولوا على مافيه من سلاح . وتلاقى الجمعان حول دار الحكومة ، وكانت بها قوة من الدرك وعلى رأسها الضابط عبد القادر شيشكلي ، كما كانت بها قوة من المليس الفرنسية تحرس السجون ، فجابهت الثوار بالنار وتحصنت وراء الجدران وكانت تصطاد المهاجمين اصطیاداً ، فاستشهد جماعة كثيرون أمام السراي بينهم ابن عمه لي هو المرحوم منير قنوت .

ودامت المعركة حامية الوطيس حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وقد اضطر الثوار إلى حرق السراي للاستفادة من الوقت والإسراع في مهاجمة الأماكن الأخرى ، قبل أن تقبل النجيدات الحرية التي طلبها الفرنسيون .

وأشعلت النار فأتت على كل شيء، وكان لهيبها يصل إلى عنان السماء، وقضت على بعض من الدرك المحاصرين، فكان المشهد مما تتفتت له الأكباد والقلوب. هذه أم تندب نجلها الشهيد، وذاك رجل يبكي أخاه، وجريح يعاني سكرات الموت، وطالب نجدة والقدر يضمن بها.

ونامت حماه تلك الليلة، ولكن لم ينم فيها غير الجماد، فلم تغمض عين لمخلوق، والناس جماعات جماعات في الطرقات، وقد انتقل المهاجمون من السراي إلى مهاجمة الثكنات، وأزيز الرصاص لا يهدأ ولا يتقطع وسماء المدينة يكسوها دخان النار، وكأنه غيوم متلبدة والمدافع تقذف قنابلها حتى البيوت الآمنة المطمئنة، والهلع والخوف يملكان الزمان والمكان، وجماعات الثوار تستमित في الكر والفر.

وهنا نسوة يزغردن ويشجعن ويحملن الماء للسقاية، وهناك شباب وأطفال ينقلون العيش والسلاح للأبطال المغامرين، حتى أقبل صباح يوم الإثنين في ٥ تشرين الأول ١٩٢٥، وياله من يوم أسود أبيض على ما أصفه في مايلي:

أشرقت شمس الإثنين في ٥ تشرين الأول ١٩٢٥ والمدينة ساحة حرب، وقد خرج الخيالة الفرنسيون من بعض الثكنات يردون الثوار، فدارت بين الطرفين معركة دامية على جسر العاصي انتهت بارتداد الخيالة إلى الثكنة.

وقد أبلى في هذه المعركة القاوقجي ورجاله ومجاهدو حماه ممن ذكرت، وقد انضم إليهم أيضاً الحاج محمد الحبال والبطل خيرو الهزاع وجماعتهم وأبلوا البلاء الحسن. ثم طوقت الثكنات وبدأت موقعة أخرى دامية تسببت فيها القنابل اليدوية المشتعلة التي استعملها الجند في إشعال النار في الأسواق المجاورة للثكنات، وكانت الطائرات قد قدمت فأخذت تلقي قنابلها على المدينة.

وقبيل الظهر جاءت نجدات قوية لإنقاذ المعسكرات المحصورة، وتوالى وصول التجندات، وزاد عدد القوات المسلحة الفرنسية زيادة أدرك الثوار إزاءها حرجة الموقف.

المعارك في يومها الثاني واستشهاد الدكتور صالح قنباز

وكان الأكثرية من ذوات حماء التي عاهدت على الثورة قد توانت أو أحجمت أو تراجع. وبعد ظهر اليوم دخلت المدينة قوة كبيرة من الجند السنغالي بمدافعها ورشاشاتها، وصارت تطلق النار على من تراه في الشارع.

وصبت المدافع نيرانها، وكانت القوى الفرنسية الداخلة قد احتلت مرتفعات البلد وباشرت في أعمالها الحربية. وعظمت المصائب على البيوت القريبة من تلك المرتفعات والطائرات تواصل قذف قنابلها.

وقد بلغ عدد المخازن والمتاجر التي أتت النار على مافيها - حول الثكنة (الموقف) - مائة وسبعة عشر، ولم يعد بالإمكان حصر عدد القتلى والجرحى.

وعظمت النكبة وخيمت الرهبة على البلد ومن فيها، ولم يعد الأخ يفكر بأخيه، ولا الفتى بأبيه، ولا الأم بطفلها، وتملك الاضطراب والحيرة الناس جميعاً.

وما كان الإنسان المنطلق من شارع لآخر ليأمن على دمه وروحه، فالفرنسيون قد ظنوا بثورة حماء أنها ثورة محكمة من جانب ثورة سورية عامة، نبتت في جبل الدروز وستقوم بقيامها الثورات في كل مكان، من الشهباء إلى لبنان إلى بادية العراق، لهذا جنّ جنونهم يريدون الدفاع عن أرواحهم ومصالحهم ونفوذهم دفاع المستميت لا يفرق بين وسائل يجيزها قانون الحروب أو يحرمها، ولا بين ثائر وحيادي، ولا فاعل ولا بريء، لهذا كانت النار وحدها المتكلمة في ذلك اليوم الأبيض والأسود.

وقد قلت فيما سبق أن زعيمى حماه الطيبين قنباز وشيشكلي ماكانا يريان أن المدن تصلح لتكون ساحات للقراع بين قوى مسلحة لجيش قوي مستعمر، ومدنيين عزل من السلاح، وإنما البراري والسهول والحزون خارج المدن قد تكون أوفق وأجدى.

ويشاء الله الذي لامرء لقضائه أن يسمع الطبيب صالح قنباز، وكان قد عاد حديثاً لبيته بعد أن قام بواجبه الإنساني كطبيب يواسي الجرحى ويضمد جراحهم يسمع صوت استغاثة من جريح قريب له يعاني سكرات الموت في الطريق من جراء إصابته وهو سائر فيها وهو على خطوات من بيته، فهرع إليه، ولكن رصاص السنغال عاجله فوق قنباز يتخبط بدمه فوق الجريح الآخر فلفظ أنفاسه الذكية في ساحة الواجب الإنساني والوطني والشرف، وخسرت حماه وسورية والعلم والوطنية والنهضة خسارة لايعوضها الزمان، إذ هيهات أن يجود الزمان بمثل صالح قنباز.

وقد ظلت جثة الشهيد الكبير مطروحة على الأرض ساعتين حتى خرجت النساء وحملنها إلى المنزل الذي احتله السنغاليون في اليوم التالي للاستفادة من موقعه المرتفع.

ونقل الشهيد إلى جامع قريب هو (زاوية آل الشرايبي) ليدفن فيه موقتاً لأن الوصول إلى المقابر كان دونه الموت الزؤام.

الفرنسيون يحتلون القسم الغربي من البلد ويقضون على الثورة وكانت الطائرات قد أصابت بقنابلها الكثير من أحياء الحاضر والسوق فكان الناس يتسترون بالجدران ليصل بعضهم إلى بعض إما مستفسراً أو معزياً أو مستفقداً. وكانت الحرائق لاتزال تمتد وتستمر، والثوار وجموعهم تسميت في الدفاع أنا وفي الهجوم أحياناً.

وأتى الليل - ليل الثلاثاء - وأزيز الرصاص يصم الأذان والدلائل تشير إلى فشل الثورة في داخل المدينة، وأنه لامندوحة عن انسحاب الثوار إلى خارجها ليأمن البلد شر الدمار الكلي.

وكان الضابط (جرباي) قد تسلمه قبل ذلك من جماعة القاوقجي أحد وجهاء حماه، وهذا أطلق سراخه وأوصله بأمان إلى جماعته للسعي وراء الكف عن القتال. وما أصبح صباح الثلاثاء حتى أذاع القائد الفرنسي بلاغاً رسمياً بوضع المدينة تحت حكم السلطة العسكرية (وكان متصرف البلد إذ ذاك السيد فيضي الأناسي) الوزير السابق المعروف، وأن التجول محظور، وعند ذاك ابتدأت القوى الفرنسية تنطلق في أنحاء المدينة الغربية والجنوبية، وبقيت الجهات الشرقية والشمالية بيد الثوار.

وجاء الكولونيل (مارتي) قائد مواقع حمص وحماه (الجنرال مارتي بعدئذ) ينظم الحركات الحربية، وسارعت السلطات العسكرية إلى إقامة الاستحكامات في الشوارع وفي الثكنات، والمتاريس في المعابر والطرقات.

ولما أصبح الاستيلاء على المواقع العسكرية الباقية متعذراً على الثوار الذين تكاثر عددهم أيضاً ولكن بنسبة غير متعادلة، انسحب السيد القاوقجي ورجاله في الليل إلى خارج المدينة نحو الشمال للاستعانة بالبدو في أعمال ثورية.

ولم يلبى عربان الموالي نداء القاوقجي وهاجموا قضاء المعرة، وأحرقت إحدى محطات سكة الحديد، ووقعت معركة بين القاوقجي ورجاله وبين القوى العسكرية في ذلك القضاء دامت أربع ساعات أسفرت عن وقوع قتلى من الطرفين، ولكن المجاهدين غنموا بعض العتاد.

ولما أيقن القائد القاوقجي استحالة الاستيلاء على المواقع العسكرية انسحب مع قواته إلى خارج المدينة تفادياً من تدميرها بقنابل الطائرات، ولكن الطائرات

كانت قد رسمت لها خطة الهدم، فأثر ذلك في نفس القائد كثيراً.
وكان من المنسحبين معه المجاهدون بديع وعلاء الدين ومكرم الكيلاني
وعبد القادر مليشو وسعيد الترماني وصالح الجرکس ومحمد علي الشواف
والحاج مصطفى الديب ومصطفى البشري وبقية الشباب الأحرار، الذين آثروا
الموت على الحياة، مع الرجال الأبطال أمثال مصطفى عاشور وحسين الكمش
وعبد القادر المط وإخوانهم.
إلا أنه من الثابت أنه كان لثورة حماء الأثر البالغ في تقوية معنويات الثورة
في جبل العرب، عندما اضطر الفرنسيون لسحب قواتهم المراقبة هناك ونقلها
إلى حماء.

التحاق ثوار حماء بمجاهدي الثورة السورية

وبعد أن طاردت السلطات الفرنسية مفارز الثوار الحمويين، تفرق هؤلاء
جماعات جماعات، منهم من التجأ إلى العراق أمثال محمد البارودي والسادة
جميل بارودي وناصر العظم ومحمود الخناوي، ومنهم من راح إلى جبل الدروز،
ومنهم من اعتصم في بعض الجبال وفي الكهوف.
ولما انتقلت الثورة السورية إلى الغوطة وإقليم البلان وجبال بعلبك وجروود النبك
والقلمون اشترك الثوار الحمويون في معاركها، وانضم قسم كبير منهم بعد ذلك
إلى المفارز التي ألقها الشهيد القائد سعيد العاص الحموي الأصل، واستشهد منهم
من استشهد أمثال عبد القادر مليشو ومصطفى عاشور وعبد القادر المط وعلاء الدين
الكيلاني وغيرهم.

امتداد الثورة السورية واشتراك زعماء البلاد فيها

لقد فشلت ثورة حماء ولكنها كانت ربحاً للثورة السورية، فلقد كان دويها

عظيماً في أرجاء البلاد وفي الخارج ، دفع الكثيرين من رجالات البلد وأحراره للانضمام للثورة السورية والقتال في صفوفها، يتسابق الجميع لنزال المستعمر نزالاً رخصت فيه الأرواح والدماء ، وقد ملأوا شعاب جبل الدروز وغياض الغوطة وهضاب القلمون والضنية وفيافي اقليم البلان .

وكان في مقدمة رجال الثورة السورية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجميل مردم وحسن الحكيم ونسيب البكري إلى جانب سلطان وعبد الغفار ونسيب ومتعب الأطرش وعقله القطامي وسعيد حيدر ورشيد طليح والأمير عادل أرسلان وفؤاد سليم ويحيى حياتي وسعيد العاص وفوزي القاوقجي وصادق الداغستاني ومصطفى وصفي وزكي الحلبي وأصف السفرجلاني وفؤاد رسلان وواصف عمر باشا وشوكت العائدي وصادق المغربي ومظهر السباعي وعبد القادر مليشو ومحمود حمدي السمان وخالد الخطيب ومحمد علي الشواف وأمين رويحة ومدحت ومنير شيخ الأرض وفائق وصبري وحكمت العسلي والأمير عز الدين الجزائري ونزيه المؤيد وزكي الركابي وسعيد الترماني ومنير الرئيس وسليمان المعصراني وجميل العلواني وعلاء الدين الكيلاني وشوكة البسطامي وأحمد مريود وشاكر العاص وعبد القادر سكر ومحمد الأشمر ومحمد الدرخباني وحسن الخراط وحسن المقبعة وأبو عجاج الشيخ وعمر البهلوان وأبي محي الدين شعبان وأولاد قطاط وأولاد عكاشة وتوفيق هولو حيدر وشكيب وهاب وخليل بصلة وجمعة سوسق ونظير النشواتي وخيرو الشهلا وعديه الكنيفذ ومصطفى عاشور وعبد القادر المطر ومحمود خيتي وعادل نكد وأبو دياب البرازي وغيرهم وغيرهم .

وقد استشهد بعضهم ولقي وجهه ربه البعض الآخر ، وما زالت منهم على قيد الحياة منهم قلة مباركة .

وكان في خارج البلاد يعمل ويجاهد أيضاً المرحومون الأمير شكيب أرسلان والشيخ رشيد رضا والأمير ميشيل لطف الله وسامي السراج وأسعد داغر وتوفيق اليازجي ورياض الصلح ونسيب صعيبة وغيرهم مثل السيد شكري القوتلي وعطوفة إحسان الجابري والشاعر خير الدين زركلي يشنونها حرباً سياسية عاصفة في مصر وأوروبا والمهاجر، لقي منهم الفرنسيون في الميادين السياسية وفي خلال المؤتمرات مالقيته جيوشهم ورجالهم في سوريا من مصاعب فضلاً عما قام به أكثر من ذكرت بتغذية الثورة بالمال والمعدات عاملين لقضية البلاد ليل نهار.

إلقاء القبض عليّ، ثم زج المرحوم الوالد أيضاً في السجن

حالما أخلى الثوار المدينة طفقت السلطات الفرنسية تستأصل جذور الثورة وتقضي على أسبابها وتنتقم منها انتقاماً بربرياً وحشياً لم تسجله إلا أيام القرون الهمجية، فتقاضى الحمويين جمهرة وتأخذ البريء بجريمة سواه، والسياسي الشريف بما جنته يد بعض اللصوص والمجرمين ممن اندس بين صفوف الثوار، وهنا التبس الحق على السلطات وابتدأت المظالم.

عندما نشبت النار في دار الحكومة، وكادت تأتي على كل شيء بها، أحس بعض أفراد الدرك بخطر الموت المهدق بهم، فلهجوا إلى الجدران الشرقية يدقون عليها شديداً لتصل أصوات استغاثتهم إلى الجوار.

وكانت السجون قد أخليت وانتشر المسجونون ووصلت الأصوات إلى (آخور) يخص المرحوم فريد بك العظم، فنقب رجاله الجدران وأنقذوا فريقاً من الدرك وبينهم ضابط وكيل، فلما تمكن الفرنسيون من قمع الثورة عهدوا إليه مؤقتاً بقيادة الدرك وملاحقة من اتهم أو ظن به الاشتراك في الأعمال الثورية.

وسارت قوات كبيرة من الدرك والشرطة والمليس والسنغال، تجوب الشوارع وتتحري البيوت عن الرجال والأسلحة. وكان أول بيت استهدفته تلك القوات،

بيت السيد سعيد الترماني، ثم بيت فوزي القاوقجي، فالقي القبض على شقيق
المرحوم السيد عثمان، وعلى ذوي الثاني وجلسائه وسماره وأصدقائه.

وكانت القوات قد وصلت في مساء الثلاثاء في ٦ تشرين الأول ١٩٢٥ إلى
أحياء الحاضر، فكنت أنا أول من أوقعه القدر الغاشم بين يدي تلك المفارز،
وسرت وسطها بين الأسنة والخراب، وقد لحق بي المرحوم والدي وذوي، ولكن
الشوارع وهي خاوية خالية أوحى برهبتها إلى بعض رجال الشرطة العرب
بالنصح والإلحاح على الوالد رحمه الله ومن تبعه بالرجوع خشية مالا محمد عقباه،
لا سيما وأن الساعة قد قاربت الخامسة، ومنع التجول يبدأ بها، وواصلت القوة
السير، وقد ألفت القبض بطريقها على أبناء وصال الدين بك التركي وعلى شباب
من آل الكيلاني.

وأدركنا الثكنة في السادسة، وفتحت أمامنا الأبواب إلى الجحيم الذي هيهات
لقلم أن يقدر على وصفه، والذي يشفق الإنسان مهما تحجر قلبه وقسا، أن يتمناه
لألد الأعداء وأعداء الخصوم.

وما صرنا في وسط الثكنة حتى فتشنا التفتيش الدقيق وسجلت أسماؤنا وأعطينت
أنا الرقم ١٣ مما يدل على أن اثني عشر هضيماً سبقوني إلى دار التعذيب وأدخلنا إلى
غرفة السجن، وقد أرخى الليل سدوله على ضوء خافت من الشمع.

وأغلق الباب وهو المنفذ الوحيد للهواء. وما كاد يغلق حتى تعالت أصوات
الأنين تقطع القلوب والأكباد، هي أصوات بعض الرفاق، والله يشهد ألا دخل لهم
في الثورة، لقد كانوا القافلة الأولى إلى السجن (ونحن القافلة الثانية).

تميزت من بين الأصوات أنين الأستاذ السيد أحمد وتار، وأنين الأستاذ
عبد الرحيم الغزي مدير دار الأيتام الإسلامية الذي لقي حتفه في صيف ١٩٤٦
وهو في طريقه إلى العاصمة في مؤتمر كشفي وإذ بالأستاذ أحمد الوتار مكتوف

اليدين والرجلين مشدود الوثاق كأنه كتلة من جماد ملقى على وجهه على الأرض يستغيث ولا مغيث .

وأقبل عليه وقد تملكني الرعب وحسبت أن نهاية الحياة بنا قد أوشكت ، فسألت الله القويَّ العون على الشدائد بقلب منكسر لن تندمل جراحاته من تأثير تلك الحوادث مهما امتدت بي الأيام .

طلب الأستاذ الوتار ورفاقه العون منا ، ولكننا نحن رجونا أيضاً - مثلهم - فقد فتح الباب فجأة ودخل نفر ومعهم الحبال والماء والعصي ، وبالله ماأشد قسوة ذاك الجندي الشرس وأمتن عضله وأشد ساعده يمسك الشاب منا من شعر رأسه ويلقيه على الأرض بكل قواه ويقف فوقه ويأتي سنغاليان وقد بلاّ الحبال بالماء ، فيشدان أيدينا وأرجلنا شداً قوياً لا هوادة فيه ولا رحمة ، وقد تلاقت جميعاً إلى بعضها من الورا ، ثم يصبُّ الماء فوق الضحية ويرفعه ثم يهوي به إلى الأرض لجانب رفاقه الموثقين .

واتفق أن كان موضعي إلى جانب الأستاذ الوتار ، ووجهه من طول مامراً على وثاقه من الوقت ، انتفخ واسودَّ وتوقف الدم فيه ، وراح كلُّ منا يودع هذه الدنيا ، ويحن فؤاده إلى أهله وذويه وأصدقائه ، فيرسل إليهم من أعماق السجون شعور الحنين والوداع ، ودموعه تبلل الأرض ، كما تبلل الماء الثياب .

عفوك يا قارئ العزيز ورحمك مما ألهب به إحساسك من تأثير وصف ما عايناه ، لا مبالغة فيه ولا إكثار ، فأولئك الرفاق أكثرهم ولله الحمد أحياء . السيد أبو الهدى اليافي وكان إذ ذاك مدير أوقاف حماه ، ورافق بك العظم ، والشيخ سعيد زهور عدي أستاذي وأستاذ الأدب العربي في تجهيز حماه وكثيرون كثيرون ، بل اني أذكر الدكتور صبحي السباعي ورفيقه من آل كيالي من كفر تخاريم ، وقد دخلا السجن لمدة أسبوع ، وكانت وطأة الشدة والعذاب والآلام قد خفت ، دخلاه وهما تلميذان

في مدرسة سلمية الزراعية . كما كان هناك من انتقل بعد ذلك إلى رحمته تعالى كالشيخ طاهر النعسان، وشاعر العاصي الأستاذ الحامد والسيد عمر الحريري وغيرهم فشاركونا في أحزاننا، وحفظوا في أنفسهم عن السجن ذكريات مريرة على مرّ الأزمان، لأن ذاك السجن ليس كباقي السجون .

ولنعد إلى ليلة السجن الأولى الليلاء، وقد بدأ الحبل يعض أجسامنا والكل يتمنى ألا تطول الحياة عسى أن يضع الموت حداً للعذاب . وكانت السياط تلهب منا الأجساد، ونحن نعصّ على الستتنا من الألم حتى تكاد تنقطع .

وتمر أربع ساعات ونحن نعاني أشدّ ضروب الإيلام، وإذ بالبواب ينفرج عن الكولونيل مارتي، أحسن الله إليه حياً أو ميتاً، فيتحسس وجدانه بمصابنا، وتوجهه أوجاعنا، فيأمر بفك الرباط وتفرج علائم الشدة قليلاً .

ولكن أتى ليد الإنسان أن تقوى على حلّ حبال مبللة بالماء محكمة العقد، فكان للسكين فضل تقطيع الأربطة حتى تحمل الأيدي والأرجل، وأجسامنا بعد ذلك مقعدة لا تقوى على الحركة .

ونقضي الليل على تلك الأرض المبللة ولا رداء ولا غطاء ونضطجع بين اليأس والآلام، حتى أقبل الصباح، فيطلّ علينا مع الشمس عريف بيده هراوة ماكان أقسى ولا أصلب منها، يتزل علينا بها فتسيل منا الدماء، ويسوقنا سوق الأنعام إلى سطح الثكنة نجتمع الرصاص الفارغ والبندق من أثر الموقع، وكلما رفع سجين رأسه إلى السماء كان عقب البندقية في ظهره والسوط على وجهه . وبألها من ضربة قاصمة لظهير وصال الدين، ذهبت بأحدى بصيرتيه .

وكان في خدمة الفرنسيين من رجال شرطة حماه، رجل يدعى عبد الله الحشوة عرف بالجناسوسية والكيد للرجال الوطنية، أطلق يده أسياده أثر الحوادث في البلد، فأبلى البلاء الأشد في الذي انتدب لأجله، وكله آمال أن يكون رئيس شرطة

المتصرفية. وانصرف يلقي القبض على شباب المدينة وأحرارها وكرامها دون روية ولا تمييز، فغصت السجون بالناس، وزج العلماء والأفاضل والكبراء والموظفين مع القتلة والمجرمين والسارقين وقاطعي الطرق.

وكان نصيب غرفتنا السوداء خمسين، وهي لاتسع لخمسة عشر. قضينا بها عشرة أيام أو أكثر شهد الله أنها من بلواء الأزمان وأشدّها قساوة. وكانت الأرض فراشنا وبعضنا فوق بعض، وضروب الإذلال والتنكيل مابعدا ضروب.

ومضت ثلاث ليال لانعرف للزاد طعاماً غير الماء، حتى كان اليوم الرابع وقد دخل السجن نفر جديد ومعه الأستاذ الشيخ طاهر النعسان والمحامي الشيخ فرج الفرجي والد الأستاذ ابراهيم بك الفرجي أحد كبار رجالات القضاء حالياً، فأمكن لفضيلة مفتي حمّاه الشيخ محمد سعيد النعسان - مدّ الله في حياته - أن يستخدم نفوذه ومركزه الديني والرسمي لإرسال الطعام لأخيه طاهر، وكان للجميع زاداً اقتسموه بعد جوع، وكأنه مائدة السماء للكليم موسى.

لكن البلاء مازال يسلط علينا أسبابه، نقضي الليل رعباً والنهار شغلاً شاقاً، وقد ألفنا طعام القراونه من ماء العدس وغيره، ونحن منقطعون عن العالم وما جرى به، وكأننا في القبور قبل أن نصل إلى القبور.

وفي ذات ليلة، فتح باب السجن ونودي على أولنا قدماً فيه، فحسبنا للأمر ألف حساب، لأن الوقت في الهزيع الأخير من الليل، ولم يكن المنادى عليه يعود إلى رفاقه ليحدثهم عن الأسباب.

وجاء دوري فخرجت، وقادني جنديان إلى غرفة يتصدرها ضباط وترجمة. من أنا؟ وماذا أعرف عن الثورة ورجالها؟ وما صلتني بها؟ وأين كنت إبان الحوادث؟ وأجبت والكاتب يسجل إفادتي بأمانة، وقد وقانا الله شرّ القتل وأساليب الاستنطاق.

واقنادني الجنديان إلى مكان آخر تجمعنا فيه حتى بلغنا الأربعين وقوفاً، وكان المشايخ فينا قد شكوا للمحقق الفرنسي مانقاسيه من هول وشدة، فرقَّ حاله وأمر أن يفرق بيننا وبين المجرمين والسارقين، وأخذنا إلى سجن جديد في ذات الثكنة، كثير المنافذ طلق الهواء، وقد فرشت أرضه لإيواء الجند، فأصبح الصباح علينا فيه، ونحن لانصدق أننا صرنا على وجه الأرض بعد أن كنا بين طياتها.

ويعر أمام النافذة السيد حلمي البارودي، وقد دخل الثكنة بإذن خاص لزيارة المرحوم والده رشيد البارودي وبعض وجهاء حماء، ومنهم السيد نجيب البرازي الذين ألقى القبض عليهم أخيراً ووضعوا في مكان خاص، فنشير إليه بأننا جياع. ويعود بعد ساعة بوسيلة سرية حاملاً إلينا الخبز واللحم والبطيخ الأحمر ويرميه من النافذة ويولي سائراً بدون أن ينبس ببنت شفة. ونلتهم الطعام ونشكر الله والسبب والمغامر وتعود إلينا الآمال.

وما تنقضي ساعة من الزمان إلا ويمر بنا وكيل المستشار (الليوتنان ديرفو) فيعجب من حالنا وما صرنا إليه من راحة ولا يعجبه ذلك - نغص الله عليه عيشه - ويأمر بإعادتنا إلى سجننا الأول، إلى باقي الرفاق نقضي به بقية الأيام الأولى، حيث لانور ولا راحة ولا هواء.

وتشاء السلطة أن يجمع بين المسجونين في (قاووش) كبير، فننقل إليه ويتلاقى السجناء، وإذ بي وجهاً لوجه أمام المرحوم والدي وقد بلل لحيته بالدمع، يضممني إليه وقد بلغته الأخبار أنا صرنا نحن معشر القافلة الأولى والثانية في عالم الأموات.

ويقف قائد الموقع سائلاً إياه عن سبب بكائه، فيجيبه أنه والد وأني ولده، فيطمئنه أن مابلغه عن موتي ورفاقي لاصحة له، وأفهم أن الوالد ورفاقه اعتقلوا بعد أسبوع من اعتقاله، وسجنوا أولاً في جامع باب البلد بتهمة مد يد المعونة للثوار،

ثم نقلوا إلى حيث نقلنا . ودام الجمع أكثر من شهرين، ثم أطلقوا سراحه دوني،
وبالحنان الأب وهو يهيم بمغادرة السجن، وولده بين الحديد والنار ! .

دور النادي الأدبي

لقد اتهم النادي الأدبي ظلماً بأنه أوقد نار الثورة، وكان المقصود اعتقال
رئيسه المرحوم الدكتور شيشكلي وأعضائه: رشيد حميدان وجميل البارودي
والسيد قدرى الكيلاني وصاحب هذا الحديث، ولكن الرئيس رحمه الله تمكن من
الهرب، وكذلك فعل الباقون، ووقعت أنا في الفخ، أحاسب عن النادي وهو من
التهمة براء .

وكان الشيخ فؤاد حبيش الأديب اللبناني المعروف ضابطاً من ضباط دائرة
الاستخبارات في حماه، فنقل معظم مكتبة النادي إلى تلك الدائرة، ولم يلهمه
الله حسن الظن بدار يتتمي هو لعالمها، ولعل له عذره ونحن نلوم، والله أعلم
بما في النفوس .

وصول المحكمة الاستئنائية لمحكمة الموقوفين

وكانت الحكومة، قد أرسلت إلى حماه، محكمة عسكرية أعرف نائبها العام
السيد عارف العنبري، ومستنطقها علي بك حسني باشا المواطن الحلبي المعروف،
سميت بالمحكمة الاستئنافية الأولى .

وجاء دور الاستنطاق، فكنا نساق مكتوفي الأيدي، والأغلال والسلاسل تثقل
كواهلنا، إلى حيث اتخذت المحكمة لها مقراً في دار ضيافة آل السعدي والكيلاني .
وكان الفرد منا يؤخذ أولاً إلى مقهى الكوكب، ثم إلى مسرحه الذي كان
أمام المقهى وطالما اشتركت فيه مع إخواني التلامذة، وأولهم الأستاذ السيد
كنعان الخطيب في تمثيل فتوح الأندلس والشام والبؤساء وفي سبيل التاج، حيث

يستقبلنا فيه الضابط عبد الله الجركس لارحمه الله، وبين يديه جنديان من الدرك، فيلقي بنا على الأرض ويضربنا بالعصا على أرجلنا، ويصب الماء عليها كلما اشتد منها اللهب.

وكنا نستنجد بالمرءة وهو منها خالي الوفاض، ونستصرخ الوجدان والرحمة والإنسانية والشفقة وقلبه أقسى من الحديد، ونسأله الكف عن الضرب فيزيد فيه حتى نتكلم له وللمستنطق بعد ذلك عما نعلمه من أسرار الثورة ومخابيء المجاهدين. وكانت أظافر أرجلنا ومفاصلها تصطبغ باللون الأزرق، وهو لايلين، فمن كتب الله على قلبه الثبات صبر وتصابر فوقاه شر الإيقاع بالناس، أو فقدان الرشد فيضل الكلام ويتهم حتى الأبرياء، ويقول مايقال له، ومن اشتدت وطأة الألم به أو جبن أو تعلق بأسباب النجاة والحياة، خلط الحابل بالنابل وأوقع نفسه وسواه ظلماً واعتباطاً.

ويشاء ربك القوي المتعال أن أصبر على القدر، وتتورم رجلاي ولا أظلم أحداً، وله الشكر على كل حال. فأوقع الضبط وأنا واثق أنني ناج بإذن الله. أما صاحب القلب المتحجر عبد الله، فلسوف أحدث القراء فيما بعد كيف جندله بأهم شارع في البلد، رصاص أحد الأحرار وربك عزيز ذو انتقام.

الأشغال الشاقة

وتوالت مهام الاستنطاق، ونحن في خلالها نعاني الأشغال الشاقة، نخرج من الصباح إلى ميادينها ونعود ظهراً نصف ساعة لتناول طعام الغداء، وجميعه على التوالي حساء العدس والفاصولياء المجففة لتوالي بعد الطعام الأشغال حتى المساء. أناس ينقلون الحجارة من الأسواق المتهدمة إلى أسطحه الثكنة لبناء المتاريس والاستحكامات، وفريق يعملون في الطين ونقل الماء، لتمييز بين كبير أو صغير، فالكل في العذاب سواء.

وكان بعض الشيوخ يجبرون على حمل أوعية البول والقذارات من داخل السجن إلى خارجه بعماماتهم البيض زيادة في الإذلال والإيلام .
وكنا نساق من السجن إلى ثكنات أخرى ، موثوقي الأيدي بالحبال والأغلال ، حيث المعاول تحز من مرافقنا وسواعدنا ، نضرب بها الأرض لتبعثه الأكياس بالتراب ، نحمله إلى الطابق الثاني من الثكنة الأخرى ، ليكون متاريس في المنافذ ووراء الأبواب والممرات .

وإنني لأذكر أن يدي لشدة ما عانيت من وطأة العمل ، لم تعد تقوى على رفع المعول لأهوي به على الأرض ، فعاجلني سنغالي ورائي برجليه وحذائيه الثقيلتين ، يدمي ظهري وأطرافي ويهمهم عليّ بلغته شاتماً ساخطاً ، وهو الحيوان المأجور الذي جعلوه لا يدرك من معنى الحياة إلا الطاعة العمياء للشر الذي ينتدبه إليه مولاه وأفقدوه معاني الإنسانية ليكون جلاذاً مطيعاً .

ضرب حي الحاضر إثر فرض السلاح عليه

و ذات يوم كنا في عملنا المضني على سطح ثكنة السجن ، أشد بالحبل رافعاً الطين إلى العلاء ، وإذ بالبوق ينفخ سريعا بالعودة إلى المخادع وأغلقت الأبواب ، وتنكب الجنود البنادق ، وكان ذلك مساء الأربعاء في ١٤ تشرين الأول .

ولم يمض قليل من الوقت حتى دوى أزيز الرشاشات في الفضاء ، فحسبنا للأمر ألف حساب ، لأن السلطة العسكرية كثيراً ما كانت تتلقى أخباراً كاذبة عن قرب هجوم الثوار على المدينة ، وعن حركة ثورية ثانية من أهلها داخلها ، فكنا نخشى الانتقام منا وأن تضعنا السلطات في خط النار .

وتوالت الطلقات وتكلمت أفواه المدافع ودام الأمر كذلك ساعتين ، وأقبل الليل ونحن في ظلمة القدر .

وتبين في اليوم الثاني ممن دخل جديداً إلى السجن، أن السلطة العسكرية كانت فرضت مئة بندقية وقذائفها على أحياء الحاضر، ثم ضوعف العدد. ولما مرَّ الأمد المضروب ولم تسلم الفريضة بكاملها، حلقت الطائرات في الجو، ورمت أماكن في تلك الأحياء بالقذائف، ذهبت بحياة كثيرين وهدمت كثيراً من الأبنية.

ويشاء ربك أن تلقى قذيفة قرب بيتنا ومحلنا التجاري، وكأنهما المقصودان، ويكون فيه مع من فيه السيد نعيم شحاده التاجر الدمشقي المعروف. فلما أحس بهدير الطائرات غادر المحل ورفاقه وأخي عبد المعين (أبو فاروق) إلى ملجأ في أحد الأقبية. وما كادوا يصلون إليه، حتى أصمى آذانهم دويُّ تلك القذيفة، وقد نزلت على بعد خطوات من باب المحل ووصلت شظاياها إليه وأثرت في الصندوق الحديدي، الذي كان إلى جانبه كرسي كان السيد شحادة جالساً عليه، وتلك عجائب الأقدار.

وتوالى الضرب في اليوم الثاني حتى أكمل عدد الغرامة، ولكن بعد أن أنزل في حفر المقابر كثير من الشهداء الذين لا ذنب لهم ولا جرم.

وكان عدد من ألقى القبض عليهم إثر هذه الحوادث كثيراً، ومنهم فريق من الأطفال والصبية، وقد أحيوا بعد ذلك إلى مستنطق حلبي فأخلى سبيلهم.

ولكن لا بأس من ذكر نكتة حدثني بها أحد أولئك الصبية، فقال سئلت: أين كنت الليلة الفلانية فأجبت كنت (بالمنزول) ولا خبر عندي عما تسأل عنه، فهوى عليَّ بالعصا قائلاً: وتقول بالمنزول ولا تستحي وعارضاك لم يظهر أياها الوقح؟ فكررت الإجابة مغلفاً بالإيمان أنني لم أفارق المنزل، ويزداد عليَّ بالضرب إلى أن أتاح الله لنا من أنبأ المستنطق أن المنزل في عرف الحلبيين هو الماخور أي (المحل العمومي) أما في حماة فيعني بهو الزوار.

عودة إلى السجن وحادث أبي الهدى اليافي ومنع الغذاء عنا

ووصلت حماة حملة من الدبابات ومن جنودها فتى فرنسي كنت نصيبه من المسجونين، للقيام بخدمة تنظيف دبابته، لاطفني ورفق بي في اليوم الأول ومدّ يده إلى جيبه مخرجاً علبة سكاير يقدم إليّ واحدة، وأعتذر شاكراً وأفهمني أن هذه العلبة من درزي قضي عليه، وأنه كان في حملة جبل الدروز «وقد ظن أن هؤلاء المسجونين من ذاك الفريق الذي لقيه من أشاوس بني معروف» غير عارف أن أكثرهم لم يركب حماراً في حياته، ولم تنطلق بين يديه فتاشة، فلما عرف أن بعض مسجونني حماه من النوع الذي وصفت، صار ورفاقه يدخلون السجن وييدهم العصي لانتقاء خدمة لهم ينكلون بهم ويسومونهم من ضروب العذاب أشكالا.

وولي أمر السجن بعد رئيسه الفرنسي جندي من الهرمل اسمه تركي قد قلبه من الحجر، ماكان يعرف غير السوط لساناً معنا، والعصا إشارة لنا. لم ينجُ أحد منا من شره ولا أبقى على كرامة أحد أو حفظ مقام شيخوخة هرم وكان بيننا من قارب عمره المائة.

وكان يتردد على السجن عريف بين الجنود من مسيحي عكار اسمه انطون، ماكان أعفّ منه لساناً ولا أشفق منه جناناً. كان يداوينا بيلسم حديثه، ويصبرنا على البلوى، ويتظاهر أمام رؤسائه بالشدة علينا، ويلين لنا في الخفاء. رعاك الله يا انطون إن كنت حياً، وجزاك عنا الخير في العالم الثاني إن كنت ميتاً، فأنت خالد بين أهل الشمم والمروءات.

ولقد سبق إن قلت إنا في أيام السجن الأولى، انقطعنا عن عالم الدنيا، ولا علم لنا بما يجري في البلد، وهل يسأل عنا أحد أو جماعات، وهل قضى الفرنسيون على ثورة الجبل أم هي في ازدياد.

ونعود ذات مساء للسجن بعد عناء شديد من العمل، ونجلس القرفصاء حول خوان الحساء والذي وأنا والأساتذة النعساني وزهور عدي والحامد رحمه الله واليافي والسادة عمر الحريري (رحمه الله) ومنذر وصفي أبناء العظم والمرحوم سعيد الكيلاني وغيرهم، ونحن نشكل حلقة واحدة في منتصف السجن، ويدخل رئيس السجن الفرنسي وينادي بلغة رطينة - خواجة أبو دي يافي - ويقصد أبو الهدى اليافي، دون أن نعلم الخبر والسبب، ويعود إلينا محملاً على الأكتاف فاقد الوعي وقد برح به الضرب.

وقد حدثنا بعد أن أفاق من غيبوته قائلاً: أنتم تعلمون الوسيلة التي أحكمت أسبابها لتصل إليكم جريدة ألف باء، وهي التي كشفت لكم النقاب عما جرى ويجري في البلاد بعد اعتقالنا، حيث امتدت الثورة إلى إقليم البلان والغوطة وحول الشام، وحيث دمرت دمشق بالمدافع في ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥، مما كان شعاع الأمل ينصب عليكم بالنجاة.

ويظهر أن قائد الموقع علم بالوسيلة الناقلة واني صاحبها، فاستقدمني إليه وسألني الغاية من استقدام الجريدة قائلاً: «إن كنتم تبغون الأخبار فأنا محدثكم عنها، حرقت دمشق ودمرت وقضينا على الثورة وستقضي عليكم».

وسلمني لرجلين من الجنود فألقيا بي على طاولة منكباً على ظهري، فأوثقا يدي ورجلي بأطرافها الأربعة وهويا عليّ بسياط دونها الحديد المحمي بالنار، بعد أن جردت من ثيابي وضاع رشدي من الألم، فلم أفق إلا بين أيديكم.

ودام وجعه وطالت آلامه أياماً وفرض علينا جميعاً، إثر ذلك، نظام منع الزاد جزاء صنيع الأستاذ أبي الهدى اليافي، وأمضينا اليوم الأول ينهكتنا الجوع مع العمل الشاق.

يوم «سرق» بصلّة !

وكنّت في هذه الآونة قد نقلت إلى الأشغال الشاقة الخفيفة بتأثير وساطة الأهل والأصدقاء مع المستشار وبالنسبة لصغر سني، أعمل في المطبخ أفرم الخضار وأوقد في نار حساء مع العظام، واللّه يشهد أن جبروت ذلك المشرف على المطبخ، يعاونه طبّاخون شرسون كان يمينني التهام أي شيء أسدّ به رمقي، إلا أنني في اليوم الثاني تمكّنت من تناول بصلّة واحدة كبيرة ووضعتها خلصة في جيبي.

وأقبل المساء، وكان في زيارة حمّاه قائد فرنسي لست أذكر اسمه دخل الثكنة وولج السجن مفتشاً، فهاله مانحن عليه من جوع وتعب، فأشفق علينا وأمر بالطعام فشكرته الألسنة منا والقلوب.

ولكن أولئك القساة ساءهم أن يفشل انتقامهم منا حتى النهاية، فعمدوا إلى التوفيق بين رغبة قلب ذاك القائد الحنون وبين هوى أفئدتهم المتحجرة بتوزيعهم علينا خبزاً تعافه البهائم، مضى زمن طويل على صنعه ودقيقه، دق على الجاروش يوم الحصار من قمح دون تصويل ولا تنظيف تخالطه الأتربة والزوان والمواد الغريبة، وخبز على الصاج إبان الثورة يوم تعذر الاتصال على الفرنسيين بين الثكنة ومخازن التموين، ليكون لأتباعهم غذاء، فكان لنا سماً زعافاً، ونجّثم على الأرض حول خوان طعام السجن، ويتخاطف الرفاق مني البصلّة المسروقة لتسهيل ازدراد ذاك الحفيّز، والقوي ذو الحظ السعيد من ناله جزء منها !

ولكن في اليوم الثالث من ذاك العذاب، سمح بإيصال زاد الأهل والأصحاب إلينا، فانتعشت أجسامنا وآمالنا بعد عذاب وهوانٍ لم يذقه أي معتقل في تاريخ الوطن الحديث.

وكان قبل ذلك قد أحضر الأستاذ بدر الدين الحامد شاعر العاصي المعروف، رحمه الله وهو في حمص في خدمة المعارف، إلى السجن، فيالهلول الساعة التي

لقينا بها، وقد تقطعت منه النياط من شدة الخوف والهلع، ولكنه استأنس بنا وبما من الله به علينا من جلد في احتمال المشقات، فأتقن صف الحجارة وجبل الطين وتنظيف الاسطبلات، ونظم في ذلك أبياتاً ذهبت مع الأيام مثلاً مطلعها:

كلما نادى النادي أين بدر الدين

قلت لاشك ينادينني إلى «زبل وطين»

وفي اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٢٥، وهو يوم الهدنة، نقل إلينا ناظر السجن أن اليوم يوم راحة إكراماً للعيد، فقلنا في قرارة نفوسنا ليته ثلاثة.

ولكن ماحان وقت الظهيرة إلا ونفاجأ بلزوم الخروج جميعاً لعمل خفيف هو تنظيف أرجل الخيل من كدر لحق بها أثناء الاستعراض، من خيول المغاربة المعروفة، وتهيئة المعالف لها وتوزيع التبن والشعير عليها، فقلنا لييك يامن له الأمر في الأسر. وخرجنا إلى باحة الثكنة، وكان نصيبي من العمل إلى جانب الأستاذ الحامد، وقد شددت بيدي اليمنى على الفرشى وباليسرى على القشقش أتمر (على لغة أهل الخيل) حصانين كل منهما يهد جداراً، ولكن بدر الدين لم يكن ابن بر ولا راعي خيل، ما قبضت يده على غير القلم، فأفلت منه حصان شرس وانطلق بعيداً، فكان السوط جزاء جهل الشاعر الرقيق يدمي وجهه وأطرافه !.

وبالاختصار، لقد كان العذاب الذي حلَّ بمعتقلي حماء شديداً، ذلك لأن ثورة القاوقجي كانت عظيمة لدى الفرنسيين في مفاجئتها.

وقد كانت في مقدمة العوامل التي اضطرت الجنرال غاملان قائد الجيوش الفرنسية في الشرق إذ ذاك، والقائد العام لجيوش الحلفاء في الحرب الأخيرة قبل هدنة ١٩٤٠ للتراجع عن جبل الدروز، فقد اعتقد أن هناك خطة عسكرية مدبرة يراد بها القضاء على الجيش فرجع مسرعاً إلى حوران.

كارثة دمشق وحريقها ومجيء المحكمة المدنية إلى حماه

ولما حلت الكارثة بدمشق، إثرَ ضربها بالمدافع بسبب دخول الثوار إليها، في ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥ وما أصاب بعض أحيائها من تخريب وتدمير وإحراق، وما جرّت هذه الكارثة وراءها من حوادث وذيول، انتقلت المحكمة الاستئنافية من حماه إلى دمشق لمباشرة الأحكام بها، وسميت محكمة أخرى للفصل في الأحكام الصادرة عن المحكمة الأولى وإجراء المحاكمات.

وكانت المحكمة الأولى أصدرت أوراق توقيف غير موقت بحق جميع الأحرار ومعظم الموقوفين، وأتهمتهم بالعصيان والتمرد على الدولة، واستعمال السلاح ضد النظم والقانون والأمن، بموجب مواد تسوقهم إلى مواضع النطع والشنق والإعدام، رغم أن ظروف التحقيق وأحوال الاتهام ماكانت تؤيد هذا الذي ذهبت إليه المحكمة في الإفراط في الظن والإجرام.

المحكمة الرحيمة

وقدمت المحكمة الثانية المدنية إلى حماه يرأسها المرحوم الأستاذ صفوت بك ابراهيم باشا، وأذكر من أعضائها الأساتذة: الأمير حسن الأيوبي والشيخ اليافي وتوفيق الأورفلي رحمه الله وغيرهم، ومن أمنائها السادة المرحوم بدري الجراح محافظ حلب السابق وبشير فؤاد وجلال طبارة وغيرهم.

وكان قدومها بسمه أمل أشرقت على مدينة أبي الفداء، فالثورة السورية كانت قد عمت وسط البلاد وجنوبها وما حول طرابلس، والفرنسيون أدركوا خطأهم في أساليب الشدة التي لجأوا إليها لقمع الثورة مما أثار عليهم حنق العالم والإنسانية. وكانت صحف اليسار في فرنسا تندد بالمسلك الذي سلكته الحكومة في معالجة الموقف في سورية، وكان المسيو دي جوفنيل يجوب البلاد ويلوح بغصن الزيتون للثوار لتصفية الخلاف.

وكان العالم العربي كله يتألم لما حلَّ ببلاد الشام، ويرثي لحالها ويضمّد جراحها
ويخفف من آلامها، والشعراء يتغنّون بشجاعة المجاهدين ويترنّمون ببطولة
الأبطال، وأثر الحوادث، والزركلي يقول في قصيدته:

والنار محدقةٌ بجلق بعدما

تركت حماة على شفير هاري

إلى شوقي وحافظ والكاظمي رحمهم الله، يلهمون في إحساس دنيا العرب
والعروبة، ونحن في السجن لانزال نقاسي الشدة والأهوال. ولكن نظر الفرنسيين
بنا تبدل، فخف النيل من كرامتنا وإن كان البؤس بنا مقيماً.

إطلاق سراحى مع أستاذى الشيخ سعيد زهور عدى

وقدم حماه مستشارها الجديد (القومندان بيكه دي بيلوروس) مدير استخبارات
حلب فيما بعد في أعوام ١٩٢٦ - ١٩٢٧ على ما أذكر، ويباشر بإطلاق سراح من
في السجن مبتدئاً ببعض الشيوخ والطلاب، والمحكمة الجديدة تدق أوراق الاتهام
فيهولها هذا الإسراف في الظن والتجريم، ويأبى وجدانها أن تكون أعمالها محط
هوى دوائر الاستخبارات، وأن يكون ظنها في الأظناء قائماً على اخباريات
الجواسيس، أو إقرار الباطل بتأثير الضرب المبرح الغاشم إبان الاستنطاق، فتسير في
نهج غير ذاك الذي نهجته المحكمة الأولى.

ولا يمضي أسبوع إلا ونصف المعتقلين أحرار. ويمرُّ على اعتقالي سبعون يوماً،
فيشاء ربك المنان أن ينقذني من عذاب أكثر وآخر، وإن أنجو والرفاق الأبرياء من
أعواد المشاق، ويصادف مساء الخميس استقبلته ويدي مغموستان في الرماد،
أنظف به مواعين المطبخ.

وأدخل السجن وأنا يائس من الإفلات منه، متسائلاً عن اليوم الذي أنتشق فيه أريج الحرية، التي لا يشعر بنعمتها إلا السليب، متمنياً إن كان العهد بالسجن طويلاً أن ينقذني الموت منه، فالحديد قد صار له من الجسم نصيب وأثر السياط والعصي كالوشم عليه، وهذه الحال من الإضرار بالصحة والتعرض للحشرات والجراثيم قد أسرع بي في مدارج العمر، وكأني لست ابن تاريخي (١). وأقضي الهزيع الأول من الليل غارقاً في بحار الآلام والتفكير، أساهر الظلمة التي مافارقت قلبي، وإذ بالبواب يطرق في منتصف الساعة الأولى، ومناد يناديني مع أستاذي في اللغة العربية الشيخ سعيد زهور عدى - مدَّ الله في حياته - وأن نحمل أمتعتنا. وبالتلك الساعة كم كانت بهيجة لأنني سأنتقل إلى عالم الحياة بعد أن كنت في عالم الموت، فأرى الأهل والعشيرة، ومؤلة لأنني تارك رفاقي في البأساء.

ودعّتهم وودعوني بدموع الحنان والآلام، سائلين لي الحسنى في لقاء القوم والأقرباء، وكلهم يوصيني بما يجب لأهله وبنيه وإخوانه، وراجياً لهم الفرج القريب الذي صرت إليه، وقد صاروا إليه جميعاً ولله الحمد بفضل ما أنزله في قلوب قضاة تلك المحكمة، التي تركت أثراً لا ينسى وما سبّح للحرية أسير أو هضيم. ويستقبلنا القومندان، ويبشرنا بحريتنا ويرسلنا في سيارة إلى بيتنا، لأن التجوال مازال ممنوعاً، ويوصينا بالتزام السكينة والهدوء، ويأخذ علينا عهداً بالتأثير في محيطنا وأحيائنا لاستتباب الأمن، ويهددنا بالعودة للسجن إن نحن أثّرنا الخواطر، ونودع باب السجن الأسود الذي سجّلت حجارتُه ماقاسينا من أهواله.

(١) كتب والدي الكتاب كما توضح المقدمة في ١٥/١/١٩٦٢ وكأنا كان شعر بأن النهاية قريبة إذ توفي بعد أربعة عشر شهراً في ١٢/٣/١٩٦٣ بأزمة قلبية عاجلته، رحمه الله.

وأبلغ البيت وأطرق الباب، ويستقبلني الأهل وهم لا يصدقون أنني الذي تناقلت الألسن وطارت الأحاديث، بتعيين اليوم الذي أعلق به على الأعواد. أعود إلى البيت سالماً، وتستقبلني الأم التي روت الأرض بدموعها على الشباب يكبل ظلماً بالحديد وتخر ساجدة لله.

وإنه لمشهد والله لا أنساه يصح أن يكون درساً لأولئك الذين لا يقدرّون النعمة التي صرنا إليها، ويكفرون بها ولا يخلصون في أقوالهم وضمائرهم لواجب الالتفاف حول قدس حريتنا، يحاسب بعضهم بعضاً على الصغيرة قبل الكبيرة، ويسرفون في الأسباب التي تهدد كيائنا وهو مازال في المهد، بوقت نحن فيه بشديد الحاجة للتكاتف والتساند والإخلاص للواجب في السر والعلانية، نرحب بالخير أنى أتى.

مقتل عبد الله الجرّكس

أشرت قبلاً إلى مالتيناه من فطاعة وفضاطة الضابط الدرّكي عبد الله جرّكس، وكيف كان شديد الوطأة علينا في الضرب في أوقات الاستنطاق، وأودّ أن أفصّل هنا كيف انتقم منه لنفسه وإخوانه، شاب سجين كان معنا من (سخانة حماه) هؤلاء العرب الأكارم الأشاوس أنى نزلوا، يدعى عبد الرزاق نصر، دميت قدماء من أثر العصي، والسوط فأخذ على نفسه عهداً أن يزهق حياة هذا الوحش الكاسر.

فلما غادر السجن فاراً، جعل ديدنه مراقبة عبد الله، حتى لقيه ظهيرة يوم أحد في أحد الشوارع فجاءه من الأمام لا من الخلف وقال له: تأهب ياسيدي فأنا أنتقم منك، اقبض على مسدسك! فقبض عليه الضابط، وقبل أن تنطلق رصاصته كانت رصاصة الشاب قد سدّدت إلى قلبه، فخرّ صريعاً يتخبط في دمه.

وأقبل شرطي شاهراً سلاحه يريد عون الضابط والقضاء على الجاني، ولكن عبد الرزاق أنذره بتسليم السلاح وأن يرفع يديه إلى العلاء أو يعاجله بما عاجل به

الصريع ، فسلمه الشرطي سلاحه ولكنه استنجد بالأهلين والمروءة لردّ سلاحه إليه خشية انتقام ولاية الأمر منه ، فردّه إليه وذهب في سبيله غانماً بالإياب والسلامة .
وتقوم قيامة الفرنسيين لهذا الانتقام في وسط النهار وعلى مشهد ملاً من الناس ، فتسير القوى للقضاء على البطل المنتقم الشجاع ، وتضايقه السلطات فيلجأ إلى القرى متعقباً آثار قوى العدوان وينكل بهم ، حتى يجتمع عليه مائة فارس وهو في مضارب إحدى القبائل ويفرغ سلاحه في هذا الجيش المهاجم حتى يلقيه ، وقد أصابته رصاصة قاتلة ذهبت به شهيداً لاحقاً بقوافل الشهداء . لانامت أعين الجبناء ! .

اغلاق النادي الأدبي

في غضون الثورة ونحن في غياهب السجون ، عطل النادي الأدبي في حماه . وأبلغنا صورة عن كتاب من الفرع السياسي للمفوضية الفرنسية لدولة سورية يبلغ بأنه تطبيقاً للمادة من قرار ٤١٣ ، المؤرخ في ١٠ تشرين الأول الأخير الصادر عن رئيس دولة سورية تغلق كل المؤسسات غير المؤسسات الخيرية . وان النادي الأدبي في حماه يعتبر محلولاً حكماً ، وان رئيس مصلحة الاستخبارات في حماه مكلف بتنفيذ هذا الأمر ، والتوقيع هو لمندوب المفوضية العليا لدى دولتي سورية وجبل الدروز .

كما أن وكيل متصرف حماه أرسل إلى رئيس مصلحة الاستخبارات الكتاب التالي تحت رقم ٣٠٢ في ١٢/٢٩/١٩٢٥ :

جواباً على كتابكم المؤرخ في ١٥/١٢/١٩٢٥ تحت رقم ٢٤٨ ، أجبني رئيس الشرطة ان النادي الأدبي قد أغلق منذ حوادث حماه ويضيف بأنه أخبر مخفر باب البلد بمراقبة هذا النادي واعتباره كملغى .

المتصرف بالوكالة

وتفضلوا بقبول الاحترام

محمد عادل

أعمال المحكمة الاستئنافية الثانية

وتواصل المحكمة الاستئنافية الثانية أعمالها. وفي غضون بعض جلساتها وفي أثناء شهادة لوكيل المستشار الليوتنان ديرفو أمامها مدلاً على حسن نيته وطيب طويته، قال انه سمع وهو في ثكنة المحطة (ثكنة القاوقجي اليوم) أزيز رصاص صادر عن المدينة، فأسرع للهاتف يهتف لثكنة السجن كي لاتقضي القوة العسكرية فيها على السجناء، لأن الأوامر الصادرة قبلاً كانت ترمي إلى تقتيل المعتقلين فوراً بالرصاص، حالما تنطلق رصاصة واحدة من البلد، وأنه بذلك حال دون إراقة دماء المتهمين والأطباء.

فحال المحكمة العادلة هذا الخبر، وحمد السجناء لهذا الليوتنان رحمته بعد ذلك العذاب الأليم، والخسف الذي ألمَّ بهم بسبب ماقدمت يده، وتبرىء المحكمة الأكثرية الساحقة، وتحكم أقلية لاتتجاوز عدد الأصابع بأحكام الموت والسجن لمدد مختلفة مع الأشغال، وبعض المحكومين هم في ميادين الثورة والجهاد.

ويشاء ربك ألا تزهق بسبب هذه المحكمة الرشيدة روح الإنسان، فينقل السجناء إلى بعض المغائر والكهوف في جبل الشرفة حول ثكنة القاوقجي، ويحس بعضهم وهو يسير برجة تحت رجله، ويحفر ورفاقه الأرض في الليل، وإذ هم فوق مغارة أخرى ينزلون إليها وينطلقون إلى الخلاء.

ولكن الساحات محاطة بالأسلاك الشائكة فيرتبون خطة الهزيمة لليلة المقبلة، وما أدركتهم حتى تقدم الجميع، من حكم بالإعدام ثم بالمؤبد ثم بالسجن الطويل، ويأخذ أحدهم على عاتقه أمر الديدبان، فيرميه أرضاً وفوق بيت الحراسة الخشبي ومعه سلاحه، ويفرش آخرون الأسلاك بفراشهم ويقفزون من عليها وينزلون سراعاً إلى وادي العاصي، حيث لهم من الأشجار ستار يقيهم الأنظار، وذاك

الرايض على قلب الحارس لا يفارقه حتى ينجو آخر محكوم بالسجن المديد، فيتزل عنه ليسلم هو أيضاً.

وما يتعد عنه حتى يطلق الأول رصاصة من سلاحه، فيهب الجنود إلى إطلاق النار ويقبضون على القافلة الثانية من السجناء القصيري المدة والزمن ويعيدونها إلى مخادعها، عاملين بها ضرباً وتقتيلاً.

ويصبح الصباح والفارون من متناول يد السلطات يلحقون بإخوانهم إلى ميادين الثورة والنزال.

التحاق السجناء الثوار الفارين بميادين الثورة

التحق ثوار حماه بميادين الثورة السورية، وكان معظمهم قد تركز في ميدان القلمون، وقد أحكم قيادة هذا الميدان المرحوم سعيد العاص، وفوزي القاوقجي، واتسعت جنبات هذا الميدان من أبواب حمص حتى حدود غوطة دمشق الشمالية. لهذا فقد وجه إليه الفرنسيون أول هجومهم الشديد الذي استهدفوه للقضاء على الثورة، بعدما استقدموه من ذخائر وعتاد وجنود ملأت سورية ولبنان على سعتهما.

لهذا لجأ القائدان المذكوران إلى المدافعة عن النبك أولاً في جهات قاره، وحشداً لذلك نحواً من ٨٠٠ مقاتل. ودخل مشاة المجاهدين قاره يوم ١١ آذار ١٩٢٦، وقصد فرسانهم دير عطية للإحداق بجناح العدو الأيسر.

وفي ١٢ منه اشتبكوا مع الفرنسيين في عيون العلق انتهت بارتدادهم إلى النبك يوم ١٤ منه فصمدوا للجيش وكان يتبعهم.

وعند الأصيل احتل الجيش المستشفى الهولندي في المدينة، وكان الثوار قد عادوا لاسترداده. على أنهم في ١٥ آذار اضطروا للانسحاب بسبب ضخامة جيش الجنرال مارتي وقوة معداته ووفرة عدد جنوده.

وذهب القاوقجي توأ إلى الغوطة ومعه فريق كبير من رجاله، وبينهم المجاهد المعروف الحاج مصطفى الديب السبسي والمجاهدان المعروفان السيد محمد براك والسيد مصطفى المصري المعروف بالغيش، واشترك في حروبها كلها.

وكانت معركة الشفونية في ١٩ تموز ١٩٢٦ من المعارك الرئيسية، حيث كانت دوماً مقر هذا القائد، دامت حتى ٢٥ منه وأبلى بها البلاء الحسن، وعاد الفرنسيون بخفي حنين إثر تلك المعركة.

أما سعيد العاص فقد غادر قريته حثيته مقر قيادة الثورة في الغوطة في ١٨ نيسان ١٩٢٦ قاصداً الأنحاء الشمالية لإثارتها، فسلك طريق الضمير إلى القلمون إلى أكروم.

وكان معه من أشاوس المجاهدين منير الريس وفائق الكيلاني وشاكر السباعي ورشاد ملص وعلاء الدين الكيلاني (وقد ألقى القبض عليه غدرأ في قرية خربة التين فيما بعد، وقتل رمياً بالرصاص دون محاكمة في سجن الفرنسيين في حمص) حيث أشعلوا نار الثورة في جبال الضنية، وهددوا طرابلس وقطعوا المواصلات الحديدية مراراً بين طرابلس وحمص، وأضحت المدينتان معسكرات تعج بالجنود، وقد رابطت في بحار الأولى المدرعات والمدمرات تستعد للاشتراك في النضال. وقد انضم إلى سعيد العاص بعد وصوله إلى أكروم، بعض ثوار حمص بقيادة السيد نظير النشواتي وتوحد العمل.

أما بقية مجموعة شباب حماه ومجاهديها، فقد لجأت إلى الجبل الأعلى وجبل شحشبو بزعامة عدي الكنيفذ رحمه الله.

وهددت مدينة أبي الفداء غير مرة وهاجمت بالاتفاق مع جماعة صبحي اللاذقاني قوات الدرك وأعملت بها قتلاً وتدميراً. ولا زالت جماعات الشوار

الحمويين تقاتل وتنازل في مختلف ميادين الثورة، والقواقجي ينتقل من ميدان لآخر حتى كتب للقوة أن تغلب على الحق وكان ماكان.

وكان قسم من مجاهدي حماه، قد وصل إلى مقر المجاهد الشهيد سعيد العاص، في موقع بالقرب من شرقي الحصن بسفح الجبل، وعلى رأسهم من الأبطال مصطفى عاشور وخيرو الهزاع وحسين الكمش ومحمود طافوحي وحسن العبدو وصطوف البشري وعادل الجاجه وأديب الجندي، وقد اشتركوا معه رحمه الله في معاركه التي كانت مثار الإعجاب والإكبار لبسالته، وما رافق حركاتهم من مفاجآت، لولا ان الاستعمار الغاشم المجهز بكل أنواع القوة والمعتد بتأييد العالم المستعمر، قد كتب لتلك الجهود والأضاحي ألا تثمر ثمراتها العاجلة في ذلك الحين.

ويجب أن أشير هنا أيضاً إلى ما قام به المجاهد الشاب الجريء المقدم الحاج طهماز من أعمال البطولة الخارقة والهجوم المتواصل على مفرزات الجيش الفرنسي حول حماه، وقد صرع ضابطاً كبيراً من ضباطهم، انتقاماً للأعمال الوحشية التي بدرت منه، فضلاً عن كثير من المفاجآت التي أرعبت الفرنسيين.

هذا وقد منعت محاكمة والدي ومحاكمتي بعد التوقيف الطويل لعدم ثبوت جرم علينا.

ملاحظة على التقارير

والمدقق في تقرير المستنطق والمدعي العام، من الذين رافقوا أحداث الثورة، يرى أن ولاية الأمر والتحقيق والإدعاء خلطوا بين الحابل والنابل وجمعوا بين المتناقضات، حسبما سولت لهم أنفسهم رجال السلطة الفرنسية، أو ماجاءت به تقارير المخبرين والجواسيس، أو ما صدر عن ألسنة بعض الوقوفين من رجم بالغيب أو ظنون، أو ما أفاد به البعض الآخر افتراءً أو ظلماً أو تقريباً من المحققين في سبيل

الكف عنهم أو إطلاق سراحهم ، كما يرى أن التحقيق جمع بين تهمة الثورة من أجل كرامة الوطن وحرية واستقلاله ، وبين تهمة سرقة أو سطو على حق الغير أو نهب للمحل العمومي .

وكما كان السجن لذوي التهمتين ، يعيشون معاً في جوّ كانت قساوة العيش في ظلّه مع المجرمين صعبة جداً ، وشديدة على أهل النفوس الرضية من الثوار لحق الوطن ، ومن العلماء والأدباء والوجهاء والمعلمين والشباب والتجار ، كان التحقيق أيضاً جامعاً بين دفتيه لخليط من التهم والإدعاء الغاشم أو الكاذب أو المزري والمشين ، وما ذلك إلا زيادة في إيلام النفوس الحرة وفي التنكيل بمكارمها ، فضلاً عن أن قرار الاتهام قد جمع بين من ظلّ رهن السجن كل عهدها وزمنها ، ومن أوقف ساعة أو يوماً أو اسبوعاً لمجرد ظن أو استدراك لقصد يقصد به سواء أو من زجّ في السجن بغية التجسس على الأحرار من النزلاء أو للرقابة عليهم ونقل ذلك للأسياذ .

ولا بدّ من القول أن كثيراً من الذين ذكرت أسماؤهم في تقرير الإخلاء لم تكن لهم يد في الثورة ، وإنما جمعوا جمعاً من الأحياء (كحي الحاضر مثلاً) لحادث بسيط وقع فيها إبان الحكم العسكري العرفي أو رهائن ريثما تستوفي الغرامات المفروضة أو يسلم بعض المطلوبين للسلطات العسكرية ، ولم يخل الموقوفون من أطفال فوق الثانية عشرة ، أو يافعون لآحول لهم ولا طول .

تأخير إطلاق سراحي

وبالرغم عن قرار الإخلاء ، فإن وكيل المستشار الليوتنان ديرفو تأثراً منه بإرادة الاستخبارات أخرّ في إطلاق حرية الكثيرين ، وأبقاهم رهائن في السجن ، أو ضماناً ليقوا في السجن خالدين إلى الهدوء لا ينغصون على المستعمر عيشه أو يعملون ضده . وكنت في زمرة أولئك الرهائن زمناً من آخر أزمانني في المعتقل .

أحرار السجون والشهداء

وقبل أن أختتم كلمتي عن السجن، لا بد لي من أن أذكر الرفاق الأخيار فيه، من الذين ثاروا على الفرنسي واشتركوا في قتاله، أو من المفكرين والشباب الذين قادهم تفكيرهم الوطني وموقفهم السلبى من الانتداب، إلى ظلام السجون. فأذكر المرحومين والسادة: سليمان الشركس، وعثمان الترماني، ومحمد شريف لطفي وأولاده، ومنذر وصفي ورافق العظم، وسعيد الكيلاني، وخالد وحمدو المسلماني، والشيخ عبد السلام الفرجي، والحاج أحمد القواص وولده، وخالد الكيلاني، وحسن الكيلاني وغيرهم، من الذين لم تحضرني أسماؤهم، وقد مضى على تلك الأيام السوداء ٣٦ عاماً، فأرسل إلى أرواحهم الطاهرة في من جاور ربه، وإلى أنفسهم الصابرة في من بقي منهم على قيد الحياة، تحية عن بعد فيها كل معاني أخوة رفقة الآلام.

كما أنه لا بد لي من أن أذكر أولئك الشهداء الذين لم تسطر أسماءهم السجلات الورقية، بل كتبوا عند ربهم أحياء يرزقون وذلك خير لهم وأبقى. ومنهم المرحوم الشهيد أحمد بن علي سلطان.

ما ذكر لدى السلطات الفرنسية عن التحقيق معي

وقد جاء في تقرير الكولونيل رينال عن حوادث حماه ومحاكمات المعتقلين مانشر في مجلة (الجوائب) البيروتية :

واستدعيت السيد محمد سعيد الزعيم الذي قال أنهم لم يسلموه حوائجه وليرة عثمانية ذهبية أخذوها منه لدى الحبس عليه في الثكنة .

ولكن الليوتنان (ديرفو) يذكر في تقرير وضعه أن بعض السجناء كانوا يستولون على أشياء لم تكن لهم ، لأن السجن في ثكنة (برازا) لم يكن منظماً وهو قد أنشئ على غير استعداد .

وقارنت أقوال السيد الزعيم وأقوال الوتار عن نظام السجن ونظام المأكل فيه . ثم عاد فقال (ان الأطعمة كانت تعطى بشكل منتظم مرة من كل ثلاث مرات ، ولكني لأعتقد على ثقة بوصول الأطعمة المرسلة إليه من منزله في موعدها) .

ملاحظات حول مقابلي للكولونيل رينال الذي حقق معي ومع الكثيرين

ولا بدّ لي من الإشارة إلى هذا (الكولونيل) المحقق ومقابلي إياه وظروف المقابلة وملابساتها لأخلص من ذلك إلى التأكيد بمغايرة حقائق المقابلة وما دار بها وما تخللها ، لما ورد مترجماً في جريدة الجوائب عن تقارير دوائر جمعية الأمم في جنيف .

كما لا بدّ من الإشارة أيضاً إلى أن هذا (الكولونيل) كان حوَّص من قبل الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى في إحدى القلاع ، وأظهر رباطة جأش وبسالة أدهشت الألمان وهو محصور . ولما استسلم مضطراً ردّ إليه الألمان سيفه علامة تقدير لبطولته وصموده في وجه الجيش الذي حاصره .

في أواسط عام ١٩٢٦ كان الكولونيل (رينال) في حلب يقوم فيها بمهمة تصفية
علائق خط بغداد، منتدباً من قبل جمعية الأمم، فيما يتعلق بالتعويضات الحربية،
فقصد حماه بمهمة أخرى، واستدعيت إليه وقد كنت في حلب، حيث يعمل في
مهمته الثانية.

وتشاء الصدف أن أدخل إليه في الطابق الثاني من الشكنة التي تقيم بها اليوم دار
الأيام الإسلامية، هذا الطابق الذي ملئت منافذه بأكياس التراب التي اشتركت في
حملها ورصها إبان الاعتقال.

وكان ترجمانه ضابط فرنسي مستشرق، لهجته مغربية، سألتني عن اسمي
فأجبت، فلم يصدق أنني محمد سعيد الزعيم، بل ظنني ولدأله لكثرة ماعلق باسمي
من ذبول وحواش بمناسبة الثورة وأيام الاعتقال.

وسألتني عن شكواي لجامعة الأمم وأنا لم أشتك إليها، فأسقط في يدي، ولكني
علمت أن اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في مصر، هي التي
تقدمت بالشكوى بالنيابة عني وعن إخوان آخرين منهم السادة: أبو الهدى اليافي
ورفيق العظم والشيخ النعسان وأحمد الوتار.

وسألتني: هل لدى اللجنة وكالة منك؟ فأجبت بالإيجاب، وكانت هذه اللجنة
قد ضمت صورة احتجاجها بأسمائنا نحن الستة في كتابها الذي أصدرته في العام
المذكور بعنوان (فظائع الفرنسيين وفجائعهم).

وأطرني الكولونيل رحمه الله بوابل من الأسئلة عن العذاب الذي لحق بي،
وعما عاناه المعتقلون. وكان قد اتصل، بعد ذلك، بمعظمهم فأجبت بكل حرية،
وأشرت لأكياس التراب وراءه، وأنها حملت على كتفي، فهاله جنون الإرهاق
والتنكيل وأسف للواقع، واللفظ لم يفرق محياه ولا الإيناس.

وقلت له : لم نتعلم ياسيدي في ظل الدراسة أن فرنسا تخنق الحرية بمثل هذه الأحوال التي عانيناها وشاهدناها . فقال تأكد يا ولدي أن هؤلاء قبل أن يسيثوا لكم أساؤوا البلد هم وحققها ونفوذها وسمعتها .

على أن جريدة الجوائب التي كانت تصدر في بيروت في عام ١٩٢٧ كما رأى القارئ نقلت ترجمة التحقيق معي صادراً عن جمعية الأمم والمناقشة التي دارت حوله ، والمندوبون الفرنسيون قد شوَّهوا حقيقته وشكله وغيروا من أقواله ونتائجه .

كلمة الختام

هذا ماتيسر لي وعيه وجمعه عن حوادث حماء في أيام ثورتها، وكنت أتمنى لو يسرت لي الفرص، اتصالاً مباشراً مع البقية الباقية من الذين رافقوا تلك الحوادث، استقرىء الأحداث الحقيقية من أفواههم وذكرياتهم، ولكن ماكل مايتمنى المرء يدركه.

وأخيراً أستغفر الله من حقيقة أشكلت عليّ، ومن خبر أثبتته على غير حقيقته، ومن أناس فاتني التحدث عنهم بقدر ما يستحقون أو أني لم آت على ذكرهم، وعذري في ذلك أن هذا ماوسعه علمي، وحسبي في كل شيء حسن النية، وخدمة التاريخ، آملاً أن أكون وفقت بقدر ما استطعت في تحقيق الغاية التي استهدفتها، من أجل مسقط رأسي والجيل الصاعد في مدينة أبي الفداء لمعرفة من سبقه وتقدمه. والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيراً والسلام.

حلب في ١٠ رمضان ١٣٨١

١٥ شباط ١٩٦٢

محمد سعيد الزعيم

ذلكم هو والدي الذي تشرفت وباقي أهلي بالانتماء إليه، والانتساب لدوحته. وأستطيع أن أقول إنه ساكن في كل خلية من خلاياي، ومنه استمددت ولا أزال القوة على مواجهة صعوبات الحياة حين مرت بي، ومنه عرفت كيف يكون الفرح بالإنجاز والعمل الطيب، وإنسي لأزال - وقد بلغت قمة الخمسين - استمد منه العون والإلهام كلما مرّ بي وبأهلي شيء من صعوبات الحياة.

وإنني لأرجو أن يرضى عني حين سجلت مامرّ بحياتي من طرائف ومصاعب، ومن نجاحات ولحظات متعبة لعلها تكون مما يفيد الرجل فيكون أوسع أفقاً وأكثر رحمة وما يفيد المرأة في بلدي في شق طريقها باستقلالية وتفاؤل وصبر ورفض للتراجع والاستخذاء، وما يفيد الجيل الناشئ ويعلمه الصبر واللين والتفهم لضرورات الحياة وحدود طاقة الأهل، فيكون ذلك جسراً بين الأجيال.

أمية محمد سعيد الزعيم

بعض من الصور التذكارية

لوالدي المرحوم

محمد سعيد الزعيم

طيب الله ثراه

وأبذلها بصورة لحي رعمه الله



الرحوم الحاج خالد الزعيم

الصورة العائلية
التي ورد الحديث
عنها في الكتاب
وتبدو أمية طفلة
على يد والدها
رحمه الله ١٩٤٣



مع أسبق الزماني وسامي النجاني



الصورة العائلية
التي ورد الحديث
عنها في الكتاب
وتبدو أمية طفلة
على يد والدها
رحمه الله ١٩٤٣





مع أسبق البرياني وسامي الكياني



من اليمين إلى اليسار في الصف الاول : السيد أحمد أوبري ، سامي الكيالبي ، شكري كيتندر ، الاخطل الصنطي ، بشارة الثوري ،
 محمد سعيد الزعيم ، عمر أبو ريشة ، الحاج مسامي صائلم الدهس .

في الصف الثاني :
 انطوان حاض ، مصطفى سالم ، فتح الله صقال ، الحاج عبد القادر صائلم الدهس ، سعيد فريجة .
 اخذت هذه الصورة التذكارية في المدينة العتيقة بتاريخ ١٢/١٠/١٩٣٥



١٩٥٢/٤/٢٣ التوقيعة الإعلانية

بسم الله الرحمن الرحيم
 في هذا اليوم الموافق ٢٣/٤/١٩٥٢
 تم توقيع الاتفاقية



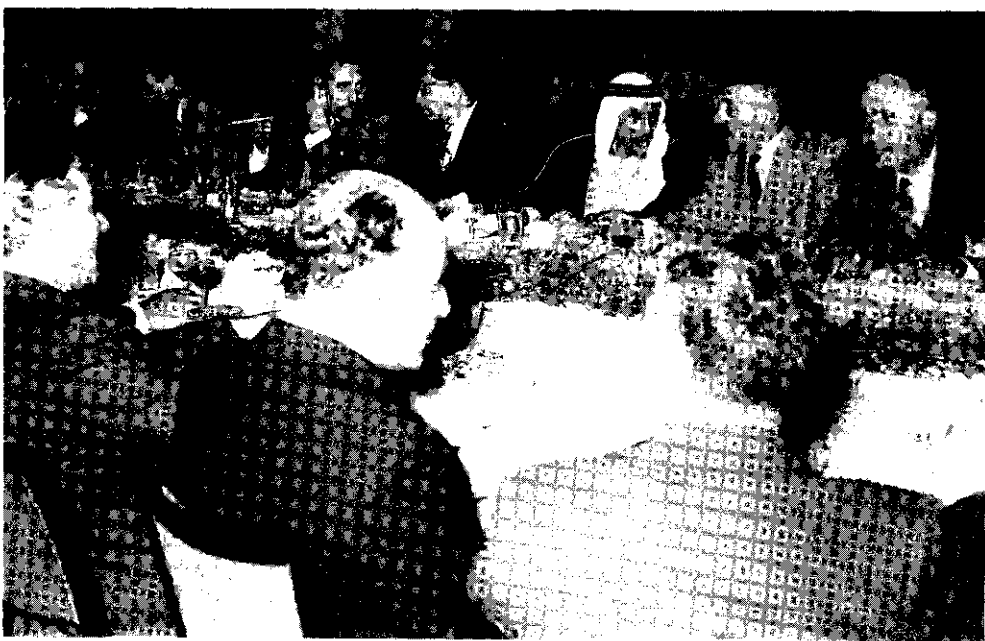
ويظهر في الصورة الدكتور عزة الطرابلسي



صورتان معبرتان مع الأستاذ فارس الغوري عام ١٩٥٣

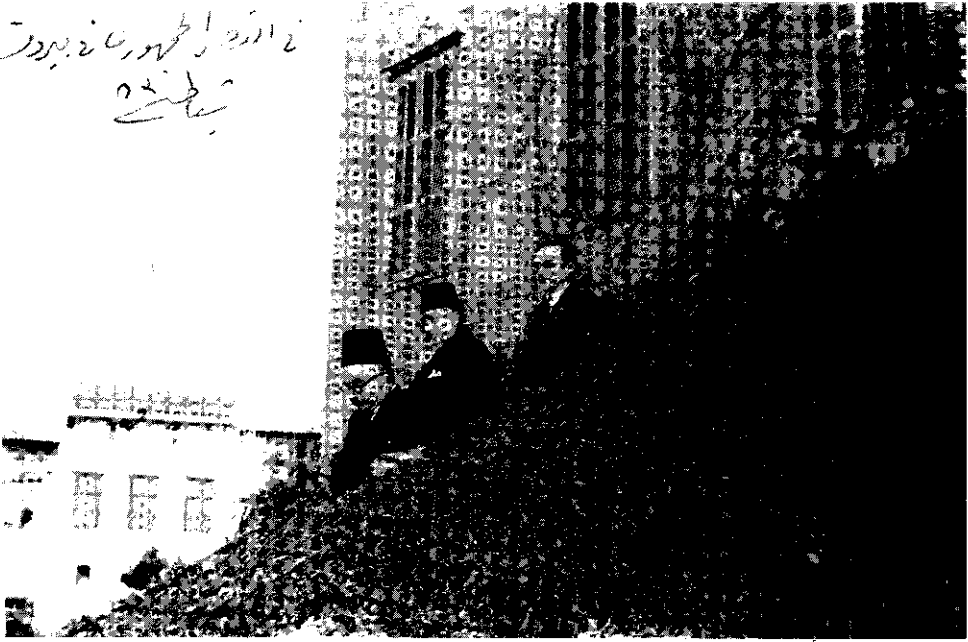


مؤتمر وزراء المال والاقتصاد العرب - بيروت ١٩٥٣/٥/٢٥

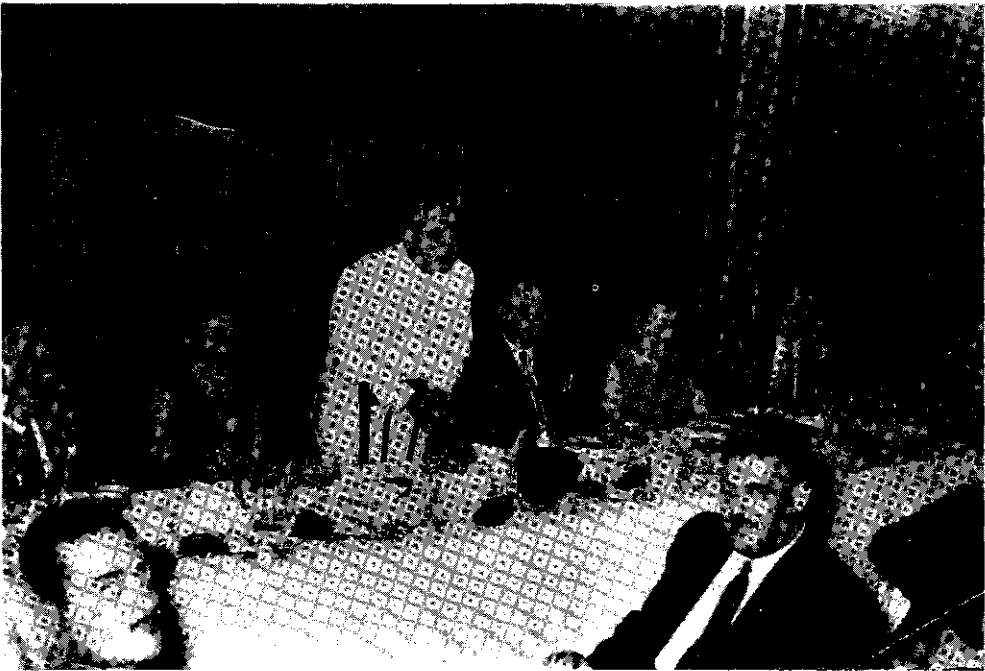


في حفلة رئيس الجمهورية - مؤتمر وزراء المال والاقتصاد العرب في بيروت ١٩٥٣/٥/٢٦

في القصر الجمهوري في بيروت
شباط ١٩٥٣



في القصر الجمهوري في بيروت - شباط ١٩٥٣



مع الأستاذ صائب سلام



مع الحبيب الاقتصادي الدكتور شاغت

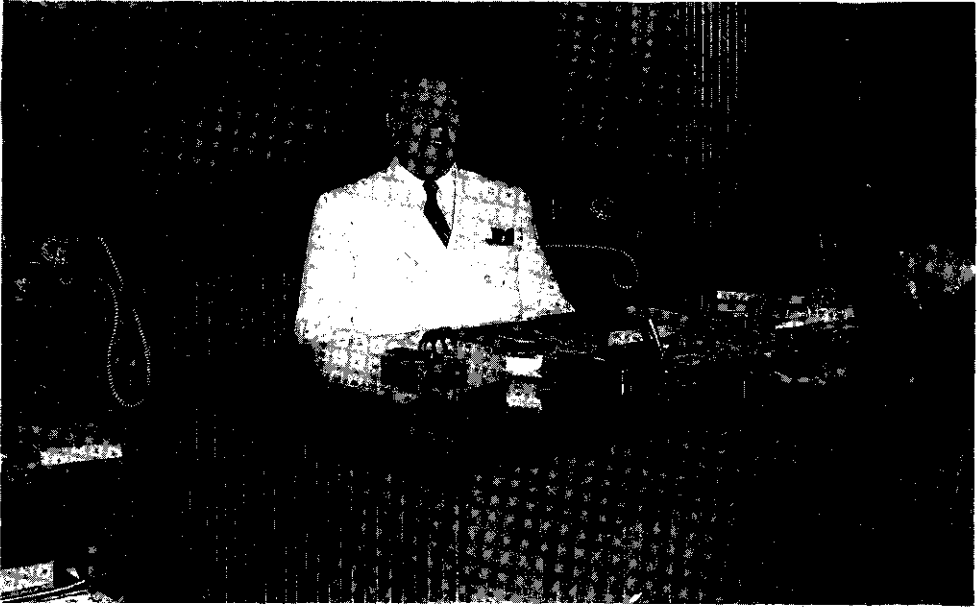




حلب - بالملعب البعلبي - ١٩٥٢/٤/٢٠



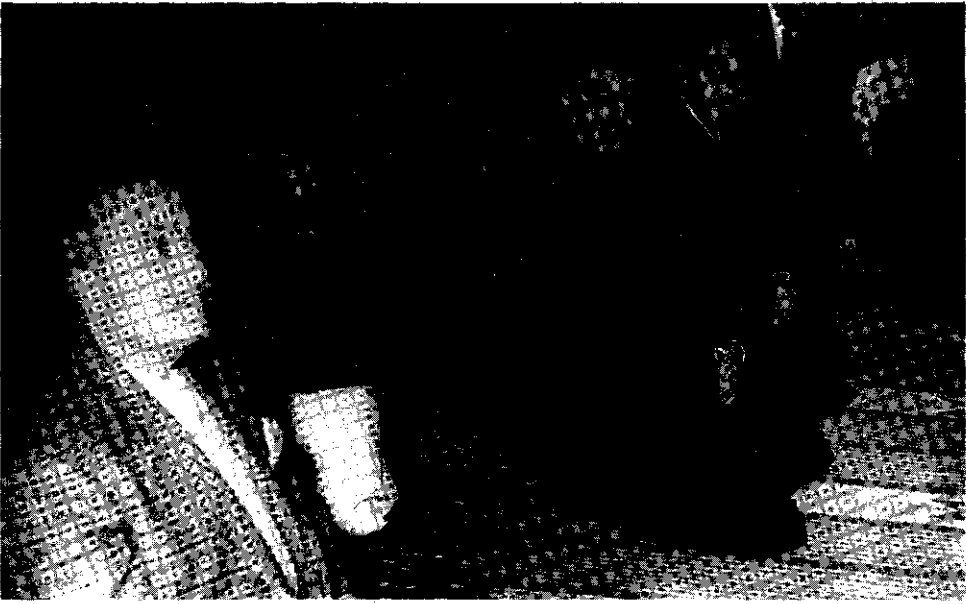
جدة ١٩٥٢ - جلالة الملك سعود وأديب الشيشكلي في جة ١٩٥٢



في غرفة التجارة بحلب



العائلة ويظهر في الوسط موسى كريم صاحب مجلة الشرق بالبرازيل
حلب - صيف ١٩٥٧



في الباكستان عام ١٩٥٧
مع الرئيس شكري القوتلي ، وصالح الدين البيطار



مع رئيس جمهورية الهند ورئيس وزرائها - نيودلهي ١٨/١/١٩٥٧



في زيارة للملك سعود ١٩٥٧/١/٥

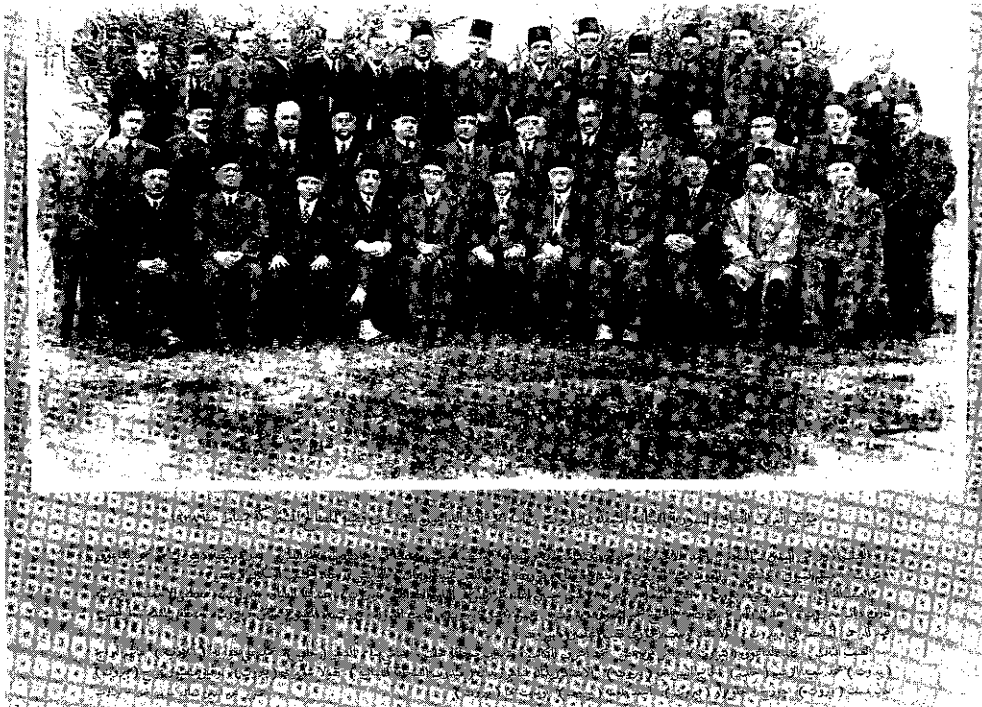
المضور الذين تبينت أسماءهم بعد جلالة الملك سعود ، وفخامة الرئيس القوتلي ،
الثالث: رئيس الأركان توفيق نظام الدين ، الخامس: فؤاد الحلبي ، الثامن: سعيد الزعيم ،
التاسع: فؤاد الشايب •



مع
الأمير طلال
بن سعود
في عمان



في غرفة تجارة حلب - ويظهر في الصورة :
 عبدالدين الجابري ، الحاج عبدالقادر شبارق ، الحاج رشيد الهنيدي ، احسان الجابري ،
 امون حمصي ، والحاج سامي صائم الدهر ، والحاج سعيد القدسي ، وسواهم .





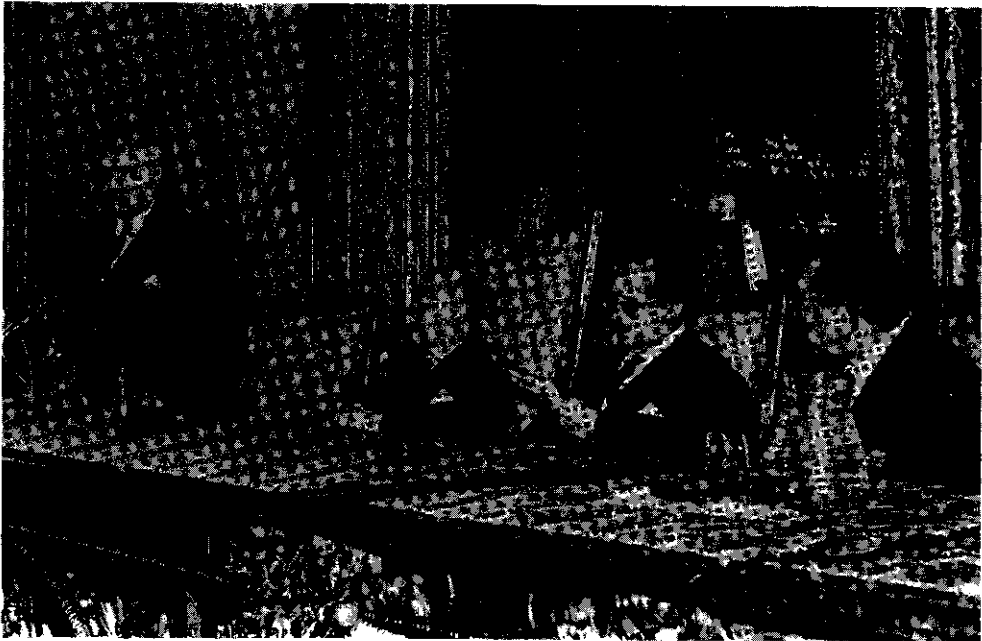
امير الكمان جالسا في منزل محمد سعيد الزعيم في الحفل الذي اقامه على شرفه ،
ومن حوله كبار الشخصيات الاقتصادية في سورية منهم : امين شحادة دمشق ،
وانمون حصي حلب ، ١٩٥٩/١٠/٢٣ .



الشاعر القروي في حفل تكريم اقامه له محمد سعيد الزعيم في بيته
ويظهر في الصورة الدكتور ناظم القدسي جالسا وخلف الشاعر يقف محمد سعيد الزعيم .



الرئيس رشيد كرامي يقف مع محمد سعيد الزعيم وسام الأرز اللبناني



في اجتماع اتحاد الصناعات في غرفة صناعة مدريد
عبد سعيد الزعيم رئيس الوفود العربية يلقي كلمته



اجتماع مجلس إدارة البنك العربي في عمان ١٩٦٠/٣/٢٣
 في الصدر مؤسس البنك المرحوم عبد الحميد شومان ، وإلى يمينه د. عبد المنعم عاشور ،
 محمد سعيد الزعيم ، س من الناس ، اميل البستاني ، وإلى اليسار عبد المجيد شومان ،
 والثالث: كمال جبر ، والخامس: خالد شومان .



حفلة عشاء في دار اميل البستاني - بيروت ١٩٥٩

عائلة سعود ١٠٢ / ١١ / ١٩٦١



الملك سعود مع الوفد السوري الاقتصادي في الرياض ١٩٦١/١١/١٠

فهرست الكتاب

الصفحة

رجع الذكريات - بقلم خالد محمد سعيد الزعيم	٥
عبد المجيد شومان يتحدث عن محمد سعيد الزعيم	١٣
بدر الدين الشلاح يتحدث عن محمد سعيد الزعيم	١٤
عصام الزعيم يحلل أعمال عمه محمد سعيد الزعيم	١٦
المقدمة - بقلم أمية الزعيم	٣١
الأخطل الصغير في حلب - النص الكامل لقصيدته	٣٦

القسم الأول

محمد سعيد الزعيم وأسرته

الفصل الأول - خالد الزعيم بقلم الأستاذ طاهر النعساني	٤٦
الفصل الثاني - الوالد كما وصفه زملاؤه بعد الوفاة	٥٥
كلمة غرفة تجارة حلب	٥٥
كلمة جريدة الحياة اللبنانية	٦٣
كلمة غرفة التجارة لمناسبة	
تنصيب محمد سعيد الزعيم وزيراً للمالية	٦٦
الفصل الثالث - صورة الرجل الغالي كما رسمتها ابنته أمية الزعيم	٧١
الفصل الرابع - الجدّان - ١ - خالد الزعيم	٧٩
٢ - محمد الزعيم	٨٤

٨٩ الفصل الخامس - دراستي في مدرسة الراهبات

٩٣ الفصل السادس - أسرتنا ودارنا

١٠٠ غرفة الاستديو

١٠٦ ثورة في السلوك

١١٥ العاقل المتسامح

١١٧ رسالة من عبد الناصر لأمية الزعيم

مواقف انسانية وعقلانية

١٢٠ تربية الشعور الوطني

١٢٣ الاستقلال في الرأي - تقوية الشخصية

١٢٦ صورة الأب الجديدة

من قصص الرحلات

١٢٩ وحدي في سان ماركو

١٣١ تجربة أخرى في فرنسا

طرائف من حياة الأسرة والأقارب

١٣٤ أم سيفو، رقوش، مسيلة

١٤١ حليب أمي والعائلة الأرمنية - الخياطة انطوانيت

١٤٦ العربية المختور

١٥٠ القبول في حلب - ضيافة الرجال

١٥٥ أبي يعود فيتعلم الفرنسية

١٥٧ رمضان والعيد

١٦٣ الوالدة والجدة

١٦٦ جدتي لأمي

١٧١ جدتي لأبي

القسم الثاني
مؤلفات محمد سعيد الزعيم
فهرست الكتاب الأول

الصفحة

١٧٧	تقرير عن الأحوال الاقتصادية العامة في سورية
١٧٩	- التجارة
١٩٢	- الصناعة
١٩٤	- الزراعة
١٩٦	- مرفأ اللاذقية
١٩٩	- أسبوع التنمية الاقتصادية - حلب ١٩٦٢
٢٠٠	مقدمة، مؤتمر صحفي، كلمة ترحيب بكبار الضيوف

فهرست الكتاب الثاني
رحلة إلى الشمال الأفريقي
ووقفه على أطلال الأندلس

الصفحة

تمهيد - بقلم أمية الزعيم	٢١٥
المقدمة - بقلم محمد سعيد الزعيم	٢١٩
١- من مصر إلى ليبيا	٢٢٧
طبيعة ليبيا واقتصادها - أرقام	٢٣٣
تاريخ ليبيا - العهد الإيطالي - الجهاد	٢٣٦
عمر المختار	٢٣٨
٢- تونس - وصفها، طبيعتها، عمارتها	٢٤١
تاريخ تونس والاحتلال الفرنسي	٢٤٥
استقلال تونس - الحزب الحر الدستوري	٢٤٨
السكان والثروة الزراعية والحيوانية والمائية	٢٥٠
الميدان التجاري والصناعي	٢٥٣
جولة في معالم تونس - زيارة رئيس الجمهورية	٢٥٤
٣- إسبانيا - الفتح العربي	٢٥٩
طليطلة (توليدو)	٢٦١
مدريد - الاسكوريال - جولة ليلية	٢٦٤ - ٢٦٦

٢٦٧	 اشبيلية
٢٧٠	 قرطبة - تاريخ جامع قرطبة
٢٧٥	 الزهراء
٢٧٦	 غرناطة والحمراء - منشأ الحمراء
٢٧٩	 الاستيلاء الاسباني - وداع غرناطة

٤- المغرب وطنجة

٢٨٥	 الأحوال الطبيعية والزراعية - الماضي
٢٨٩	 تطوان
٢٩٠	 الرباط
٢٩٤	 مع الملك ورجال الحكم والشعراء العرب
٢٩٦	 الأسرة العلوية ومحمد الخامس
٣٠١	 الاقتصاد المغربي
٣٠٢	 مكناس وفاس
٣٠٤	 الدار البيضاء
٣٠٥	 مراكش

فهرست الكتاب الثالث

خواطر عن الحياة الفكرية والقومية في مدينة أبي الفداء

في العشرينات، ومساهمتها في الثورة السورية لعام ١٩٢٥

الصفحة

توطئة - الإهداء	٣٠٨
المقدمة	٣١١
أضواء على تاريخ حماه حتى عام ١٩٢٥ - النفي إلى تركيا - طاهر الجزائري	٣١٩
بعد الحرب العالمية الأولى - النادي الأدبي ونشاطه	٣٢٤
الثورة في جبل الدروز	٣٢٩
الاستعداد للمشاركة في حماه	٣٣١
البوادر الأولى للثورة	٣٣٣
إعلان الثورة - المعارك - الفشل - أثرها على الثورة السورية	٣٣٧
القبض عليّ وسجني، ثم القبض على والدي - معاملة رهيبة	٣٤٤
المحكمة الاستثنائية - الأشغال الشاقة	٣٥١
هيئة المحكمة الثانية - إطلاق سراح بعضنا - أعمال المحكمة	٣٥٨
التحقيق في قضيتي يتمادى	٣٦٩
كلمة الختام	٣٧٣
خاتمة الكتاب برمته - أمية الزعيم	٣٧٥

محمد سعيد الزعيم : رجل الاقتصاد والأدب
بقلم : أمية الزعيم . - دمشق : (د.ن) ، ١٩٩٦
(مطابع ألف باء - الأديب) . - ٣٩٠ ص : ٢٤ سم .
١-٣-٩٢٣ : الزعيم ، محمد سعيد ز ٢ - العنوان ٣ - الزعيم

مكتبة الأسد

ع - ١٩٩٦/٨/٢٠٣٨

مطابع الفخار - الأديب
دمشق

مطالع الفبا - الأديب
دمشق